

الجغرافيا البولوتيكية

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية (2015/10/5000)

محمد، ضياء عبد المحسن

الجغرافيا البولويتيكية / ضياء عبد المحسن محمد :-

عمان:- دار غيداء للنشر والتوزيع، ٢٠١٥

() ص

ر.أ: (2015/10/5000) .

الوصفات: / الجغرافيا/السياسة /

❖ تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

Copyright (®)
All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-9957-96-197-8

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو تخزين مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي وجه أو بأي طريقة إلكترونية كانت أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل و خلاف ذلك إلا بموافقة على هذا كتابة مقدماً.



دار غيداء للنشر والتوزيع

مجمع العساف التجاري - الطابق الأول

خـلـوي : 962 7 95667143

E-mail: darghidaa@gmail.com

تلاع العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله

تلفاكس : 962 6 5353402

ص.ب : 520946 عمان 11152 الأردن

الجغرافيا البولوتيكية

الدكتور

ضياء عبد المحسن محمد

الطبعة الأولى

2016 م – 1437 هـ

الفهرس

7	 مقدمة
الفصل الأول	
11	 ماهية الجغرافيا السياسية
الفصل الثاني	
19	 نشأة الجغرافية السياسية وتعريفها ومناهجها
الفصل الثالث	
29	 مدخل إلى علم الجغرافيا السياسيّة
الفصل الرابع	
51	 الموضوعات التي تركز عليها الجغرافيا السياسية
الفصل الخامس	
63	 الجيوبوليتيكية
الفصل السادس	
75	 علم الجيوبوليتيك و الفرق بين الجغرافيا السياسية
الفصل السابع	
117	 دخل الدمج المعرفي وتغيير الجغرافية السياسية للمعرفة
الفصل الثامن	
143	 الجغرافيا السياسية الجديدة والعنف في العالم العربي
الفصل التاسع	
155	 الطائفية وانعكاسات الجغرافيا السياسية
الفصل العاشر	
163	 أسس توازن القوى

الفصل الحادي عشر

183 أثر الجغرافيا في العمل السياسي و العسكري

الفصل الثاني عشر

267 الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر

الفصل الثالث عشر

275 واقع الجغرافيا السياسية في الخليج العربي

الفصل الرابع عشر

295 ظاهرة تفتيت الدول ونهاية الجغرافية السياسية

الفصل الخامس عشر

305 إشكاليات الهوية، الجغرافيا السياسية، الديموغرافيا

الفصل السادس عشر

345 مصطلحات سياسية جغرافية

مقدمة

إن الجغرافيا لم تعد ذلك العلم الذي يهتم بوصف الظواهر وصفاً سطحياً بعيداً عن الواقع بل أصبحت ذلك التخصص الذي يتماشى والتطور العلمي الحديث المعتمد على التحليل والقياس والربط واستخدام النماذج والنظريات الحديثة وبذلك صارت في الاتجاه التطبيقي الذي يعرف اليوم بالجغرافيا الكمية والجغرافيا التطبيقية التي ترفض أن تستمر بعيداً عن الانشغالات الكبرى للإنسان وذلك لما تمتاز به الجغرافيا من قدرة على التأقلم مع مختلف العلوم فهي تمثل همزة وصل متينة بين هذه العلوم وهي تسخرها جميعاً لخدمتها وتأخذ منها ما يخدمها ويميزها عن غيرها وقد شهدت السنوات الأخيرة تحولات كبيرة في المنهج الجغرافي والمحتوى العلمي وكذلك في الأساليب التي يعتمد عليها في تحقيق الأهداف والأغراض، ولعل من أسباب هذه التحولات أيضاً ما طرأ على المحتوى البشري من تطور كبير حيث أصبح الجغرافيون يعالجون مواضيع لم تكن بالأمس معروفة حتى وكان المتتبع لأعمال الجغرافيين يلمس ذلك الاهتمام المتزايد بالتركيز على دراسة الظواهر والمواضيع الطبيعية والبشرية المختلفة بطريقة تختلف عما كانت عليه في الماضي بفضل استخدامهم للوسائل الكمية المتقدمة في أبحاثهم استعانة بالإحصاء والإعلام الآلي والرياضيات والنماذج والهندسة والطبيعة والكيمياء، وكان لذلك التطور في استخدام مثل هذه الوسائل نتائج هامة أسفرت عن دفع عجلة الجغرافيا وجعلها علماً يتماشى وعصر التكنولوجيا، حتى أطلق البعض على هذا التحول في استخدام الوسائل والمناهج مصطلح (الثورة الكمية في الجغرافيا)، وهذه الثورة لقيت ترحيباً كبيراً من الجغرافيين لأن للمنهج الكمي مزاياه كثيرة ولعل أبرزها وأهمها أن النتائج التي يمكن التوصل إليها تكون أكثر دقة بفضل التحليل العلمي لتسلسل الأحداث وهذا التحليل العلمي الجغرافي يبرز النظم التي أثرت في وجود الظواهر المختلفة التي يتعرض لها الجغرافي بالدراسة والتطرق لها عبر أبحاث ودراسات عليا، فهو لا يكتفي بالوصف بقدر ما يعتمد على الأسباب التي أنشأت هذه الظواهر الطبيعية الجغرافية.

الفصل الأول

ماهية الجغرافيا السياسية

الفصل الأول

ماهية الجغرافيا السياسية

الجغرافيا السياسية هو العلم الذي يبحث في تأثير الجغرافيا على السياسة أي الطريقة التي تؤثر بها المساحة، والتضاريس والمناخ على أحوال الدول والناس. فبسبب الجغرافيا كانت أثينا إمبراطورية بحرية، وبسببها أيضا كانت إسبرطة أقرب في طبيعتها إلى القوة البرية. وبسبب الجغرافيا أيضا، تمتعت الجزيرة البريطانية في القرن الثامن عشر بحرية الملاحة في البحار، في حين كانت بروسيا - وبسبب الجغرافيا أيضا- محاطة بالأعداء من جميع الجهات. ويعد الألمان أكثر من كتب في الجغرافيا السياسية.

الجغرافيا السياسية ليست فقط تأثير الجغرافيا على السياسة ولكن أيضا تأثير السياسة على الجغرافيا فهناك الكثير من القرارات السياسية التي غيرت الوجه الجغرافي لمناطق كثيرة بالعالم كشق القنوات الكبرى كقناة السويس مثلا. وتعرف الجغرافيا السياسية وهي دراسة الوحدات أو الأقاليم السياسية كظواهرات على سطح الأرض.

الجيوبوليتيك.. طمع السياسة يشوه علماً

في معناه البسيط يعني الجيوبوليتيك: "علم سياسة الأرض"، أي دراسة تأثير السلوك السياسي في تغيير الأبعاد الجغرافية للدولة. ويتداخل هذا المفهوم مع مضمون علم الجغرافيا السياسية الذي يعنى بدراسة تأثير الجغرافيا (الخصائص الطبيعية والبشرية) في السياسة. ولدى البعض فإن الجغرافيا السياسية تدرس الإمكانات الجغرافية المتاحة للدولة، بينما الجيوبوليتيك تعنى بالبحث عن الاحتياجات التي تتطلبها هذه الدولة لتنمو حتى ولو كان وراء الحدود. وبينما تشغل الجغرافيا السياسية نفسها بالواقع فإن الجيوبوليتيك تركز أهدافها للمستقبل.

من زحزحة الحدود إلى تزيف الخرائط

تنتسب الجذور الأولى لدراسة الجغرافيا السياسية لأرسطو (383-322 ق.م) الذي كان أول من تحدث عن قوة الدولة المستمدة من توازن ثرواتها مع عدد ساكنيها. وترك أرسطو أفكاراً بالغة الأهمية عن وظائف الدولة ومشكلات الحدود السياسية.

وظلت أفكار ربط الممارسات السياسية بالخصائص الجغرافية تتطور بإسهامات فلسفية متعاقبة. واكتسبت هذه الأفكار دفعة قوية بما كتبه عبد الرحمن بن خلدون (1342-1405م) التي ظهرت في مقدمته الشهيرة.

وفضل ابن خلدون يتمثل في تشبيهه الدولة بالإنسان الذي يمر بخمس مراحل حياتية هي الميلاد والصبا والنضج والشيخوخة والموت.

وهذه الدورة الحياتية للدول وارتباطها بمقدرات الدولة أرضاً وسكاناً وموارد.. كانت أبرز ما نقله المفكرون الغربيون فيما بعد حينما تمت بلورة الصياغة العلمية لقيام وسقوط الحضارات.

ومع العقود الأولى للقرن 18 شهدت فرنسا ظهور أفكار جغرافية سياسية رصينة صاغها مونتسكيو (1689-1755) جنباً إلى جنب مع ما قدمه من أفكار اجتماعية وفلسفية وقانونية.

بيد أن اعتقاد مونتسكيو الشديد في الحتمية البيئية نحا به لأن يربط مجمل السلوك السياسي للدولة بالعوامل الطبيعية وعلى رأسها تحكم المناخ والطبوغرافيا مع التقليل من مكانة العوامل السكانية والاقتصادية.

وظل تقييم دور العوامل المكانية (الجغرافية) في تاريخ ومستقبل الدولة السياسي بدون صياغة متكاملة حتى ظهرت في المجتمع الألماني أفكار فريدريك راتزل (1844-1904) والذي يرجع إليه الفضل في كتابة أول مؤلف يحمل عنوان "الجغرافيا السياسية" في عام 1897م.

أمن راتزل بأفكار داروين في التطور البيولوجي التي كانت سائدة في نهاية القرن التاسع عشر، وصبغ راتزل صياغته لتحليل قوة الدولة بالأفكار الداروينية التي طبقها الفيلسوف الإنجليزي سبنسر في العلوم الاجتماعية تحت اسم "الداروينية الاجتماعية".

وأكد راتزل على أن الدولة لا تثبت حدودها السياسية. وكانت الدولة لديه أشبه بإنسان ينمو فتضيق عليه ملابسه عاما بعد عام فيضطر إلى توسيعها، وكذلك ستضطر الدولة إلى زحزحة حدودها السياسية كلما زاد عدد سكانها وتعاضمت مطامحها.

وعلى الجانب الآخر من القارة الأوروبية نجد في هذه الحقبة الجغرافيين اليوغسلاف يطوعون الجغرافيا السياسية لتحقيق أهداف قومية، فلم يتورعوا معها أن يعثروا بالخرائط السياسية لتحقيق مآربهم.

وكان المثال الأبرز هو الجغرافي اليوغسلافي الشهير فيجيتيتش الذي "زيف" في خرائط الحدود الإثنية للقومية المقدونية -مستغلا شهرته الدولية والثقة الممنوحة له في مؤتمر الصلح في باريس 1919- ليخدم أغراضاً مفادها "سحب" أراض مقدونية وضمها إلى الصرب، وكانت المحصلة إذكاء الروح القومية للصرب وطموحهم للتوسع.

من الجغرافيا السياسية إلى الجيوبوليتيك في الوقت الذي كان فيه راتزل وسبنسر يتحدثان عن الجغرافيا السياسية كان بعض الجغرافيين الألمان يتحدثون عن علم السياسات الأرضية أو ما اصطلح على تسميته بالجيوبوليتيك .

وقد بدا أنه إذا كانت الجغرافيا السياسية تنتظر إلى الدولة كوحدة إستاتيكية فإن الجيوبوليتيك تعدها كائناً عضوياً في حركة متطورة .

في هذه الأثناء كانت ألمانيا تعيش بعد الهزيمة التي منيت بها في الحرب العالمية الأولى، في انتكاسة قومية بسبب ما اقتطع منها من أراض كإجراءات عقابية لها من قبل المنتصرين، وتقسيم مستعمراتها بين إنجلترا وفرنسا، كما فرض عليها حصار عسكري ومالي.

وفيما بين الحربين كرّس الجغرافيون والسياسيون الألمان جهودهم للخروج بوطنهم من محنته، وخرجت لأول مرة دورية علمية تحمل عنوان "المجلة الجيوبوليتيكية" وضمت هجيناً من الفكر الجغرافي والتاريخي والسياسي والقومي والاسـ

وقد صيغ هذا الفكر في قوالب علمية رفعت شعار: "لا بد أن يفكر رجل الشارع جغرافياً وأن يفكر الساسة جيولوجياً".

وقد جاء هذا الشعار ليبرر الكم الهائل من المعلومات الجغرافية "المغلوبة" التي قدمت للشعب الألماني عن دول شرق أوروبا والاتحاد السوفيتي .

كما تم توظيف نتائج بحث الجغرافيا التاريخية والآثار لتقديم معلومات عن أحقية ألمانيا في أراض وبلدان تبعد عنها مئات الأميال شرق أوروبا .

وبالرغم مما قد نطّنه من مهام علمية بريئة للجمعيات الجغرافية فإن دورها في خدمة التوسع الألماني كان جلياً واضحاً.

وتحت رعاية الجمعية الجغرافية الألمانية أنشئت في ميونخ عام 1924 المدرسة الجيوبوليتيكية التي رأسها الجغرافي السياسي كارل هوسهوفر .

وبجهود هذه المدرسة وبالأعداد المتواترة للدورية الجيوبوليتيكية جَهَز الجغرافيون والسياسيون الفكر الألماني بعضوية الدولة وضرورة زحزحة حدودها

لشمل أراضي تتناسب مع متطلباتها الجغرافية وتحقق ضم الأراضي التي يقطنها
الجـ _____ نس الأري .

وقد جاء ذلك في ظل تنامي أفكار القومية الشيفونية الممزوجة بأغراض التوسع العسكري للحزب النازي .

وقد تلقف هتلر أفكار هوسهوفر وزملائه، كما استعان بأفكار الجغرافي الإنجليزي الشهير ماكندر (الذي كانت مقالاته تترجم إلى الدورية الجيوبوليتيكية)، خاصة تلك الأفكار التي صاغ من خلالها نظريته عن "قلب الأرض"، والتي تقول فحواها: إن من يسيطر على شرق أوروبا يسيطر على العالم. وتنبأ فيها بانتقال

السيطرة على العالم من القوى البحرية (إنجلترا وفرنسا) إلى القوى البرية (ألمانيا والاتحاد السوفيتي)

وجاءت أفكار هتلر بدءاً من كتاب "حياتي"، ومروراً بخطبه الحماسية، لتكرس مفهوم المجال الحيوي لألمانيا Lebensraum ، أي مساحتها الجغرافية اللائقة بها وبالجنس الآري، ولتمثل أبرز مقومات القومية الاشتراكية (النازية) التي تبناها . وهكذا زاد التداخل في المفاهيم وصار الفصل صعباً بين الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيك والإمبريالية .

وصعدت الجيوبوليتيك إلى مصاف العلوم الكبرى خلال الحرب العالمية الثانية، حتى كتبت هزيمة ألمانيا نهاية لهذه المكانة .

وصار مفهوم الجيوبوليتيك بعد الحرب العالمية الثانية قرين التوظيف السيئ للجغرافيا السياسية، وهو ما أضر بتطوير الجيوبوليتيك والجغرافيا السياسية معاً . ووصل الأمر في بعض الدول إلى منع تدريس الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيك في جامعاتها؛ باعتبارهما علمين مشبوهين يسعيان إلى بذر العداة ويكرسان الأطماع القومية .

من الجيوبوليتيك إلى جغرافية الإمبريالية دون حاجة لتتنظير أكاديمي ومصطلحات ضخمة كانت إمبراطورية روسيا القيصرية ومنذ منتصف القرن السادس عشر تطبق فكرة الدولة العضوية Organic State حتى قبل أن تصاغ في قوالب نظرية .

وأرست روسيا المنهج الذي قامت عليه الأطماع الاستعمارية فيما بعد باعتمادها على الدور المحوري لجمع المعلومات الجغرافية عن الشعوب المجاورة وتدعيم رحلات علمية "بريئة" تقدم أبحاثاً في ميادين شتى لخدمة التوسع فيما بعد، وكان ذلك يجري على قدم وساق حتى أقول شمس الإمبراطورية القيصرية في 1917 .

الفصل الثاني

نشأة الجغرافية السياسية وتعريفها ومناهجها

الفصل الثاني

نشأة الجغرافية السياسية وتعريفها ومناهجها

تطوير الألمان لعلم الجغرافيا السياسية

- عمل الألمان على تطوير الجغرافيا السياسية لأن المانيا كانت تعاني من ضيق مساحتها ووجود جيران أقوى لها وكثيراً من الألمان خارج حدودها لذلك اتجهت دراسات الألمان إلى:
- كيفية توسيع دولتهم لضم العناصر الألمانية جميعها.
- تقوية الدولة لتصبح قزوة عظمى.
- دور فريدريك راتزل في نشأة الجغرافيا السياسية.
- عاش في الفترة 1844 – 1904م.
- ركز على العلاقة بين السياسة والبيئة الطبيعية (الأرض والمناخ).
- كان راتزل من رواد المدرسة الحتمية الجغرافية وتأثر بدارون.
- يرى أن الدولة كائن عضوي حي.
- نجاح الدولة في مقدرتها على اكتساب أراضي جديدة.
- الدولة مثلها مثل الكائن الحي تخضع للانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح.
- أوضح أن العوامل الجغرافية تتحكم في نمو الدولة وتكوينها.
- أن حدود الدولة قابلة للنمو والزحزحة ما لم تجد مقاومة من الجيران.
- جاء راتزل بمفهوم المجال الحيوي للدولة.
- من أعلام الجغرافيا السياسية في بداية القرن العشرين.
- إسحاق بومان: (العالم الجديد) ساهم في تسوية مشكلات ما بعد الحرب العالمية الأولى.
- ويتلسي: (الأرض والدولة) ركز على معلومات منهجية وعلى العلاقة الدولية التي تتركز على المستوى المحلي.
- رودلف كلين: أدخل بعض التعديلات على الفكرة التي تقول بأن الدولة كائن حي بل الدولة كائن ذو شعور مزدوج بقدرات فكرية وأخلاقية وبأن الأرض هي الجسد والعاصمة القلب والرتتين والطرق والأنهار (الشرابين)، ومناطق التعدين والانتاج الزراعي (الأطراف).
- رودلف كلين: أول من استخدم مصطلح الجيوبوليتيكا وعرفها بأنها البيئة الطبيعية للدولة.

دوركارل هوسهوفر في الجغرافيا السياسية

- كارل هوسهوفر: 1869 – 1946م مؤسس الجيوبوليتيكا الألمانية.
- بدأ حياته ضابطاً في الجيش الألماني وذهب إلى اليابان سنة 1908م ودرس الكثير عن الشرق الأقصى والمحيط الهادئ.
- تولى التدريس الجغرافيا السياسية والعلوم العسكرية في المانيا بعد حصوله على الدكتوراه في 1911م.
- ساهم في تأسيس معهد ميونخ للجيوبوليتيكا.
- ساهمت أفكاره في دراسة عوامل قوة الدولة وارتباط ذلك بالموقع الجغرافي.
- استخدمت الحكومة الألمانية أفكار هوسهوفر في تنفيذ مخطتها للسيطرة على العالم.
- من أعلام الجغرافيا السياسية في القرن العشرين
- الجغرافي الفرنسي “ ديمانجون “: يرى أن الجيوبوليتيكا الألمانية نبذت عمداً الروح العلمية ولم تحقق أي تقدم وتحولت إلى ساحة للجدل العقيم والأحقاد الوطنية.
- بومان: يرى أن الجيوبوليتيكا التي ظهرت في الكتابات الألمانية كانت وهماً ومهزلة ومبرراً للسرقه والاعتصاب.
- ماكندر الانجليزي: جاء بنظرية قلب العالم وفسر التاريخ في ضوء الصراع بين قوى البر والبحر.
- ماهان الأمريكي: 1840 – 1914 م من أهم اساتذة الجيوبوليتيك الأمريكيان وكتب عن القوة البحرية وعلاقتها بالسيادة العالمية.
- سبيكمان الأمريكي: درس العلاقات بين موقع الدول وسياستها الخارجية ويرى أن القوة هي الوسيلة التي تستعملها الدول لارساء السلم العالمي.

اهتمامات الجيوبوليتيكا

- أشار فيفلد وبيرسلي إلى أن الجيوبوليتيكا تهتم بما يلي:
- النظرية التي تبحث في قوة الدولة بالنسبة للأرض.
- تبحث في المنظمات السياسية للمجال الأرضي.
- فن العمل السياسية للدولة للحصول على مجالها الحيوي.

مظاهر الاختلاف بين الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا

الجيوبوليتيكا

- تدرس خطة لما يجب أن تكون عليه الدولة.

- ترسم حالة الدولة في المستقبل.
- الجيوبوليتيكا متطورة و متحركة.
- تجعل الجغرافيا في خدمة الدولة.
- تدرس العلاقة بين الأرض والدولة وتدرس السياسة العالمية من وجهة نظر قومية محلية.
- تعتنق فلسفة القوة وترسم خطط الاستراتيجية التي تحقق السيطرة.
- لا تعترف بحدود ثابتة.

الجغرافيا السياسية

- تدرس كيان الدولة كما هو في الواقع
- رسم صورة الدولة في الماضي والحاضر
- الجغرافيا أميل إلى أن تكون ثابتة
- الجغرافيا مرآة للدولة تعكس صورتها الحقيقية
- الجغرافيا السياسية علم حكيم وحذر وتقوم دراسته على أساس موضوعي
- تدرس مقومات القوة متجردة غير متأثرة بدوافع معينة
- تعترف بالحدود القائمة بين الدول

تعريف الجغرافيا السياسية

- تعريف هارتشورن: بأنها العلم الذي يهتم بدراسة التشابه و الاختلاف بين الشخصية السياسية للدولة و الاقليم السياسي وبين نظيراتها في الدول والاقليم السياسية الأخرى في العالم لكي نفسر الاختلافات الاقليمية في صورة الملامح السياسية.
- باوندز: العلم الذي يهتم بدراسة الدولة التي تؤدي وظيفة خاصة وهي حماية ورعاية كيانها وتفكيرها الإيديولوجي وتوفير الرفاهية والحرية والاستقلال للشعب.
- ألكسندر: بأنها دراسة الأقاليم السياسية كظواهر موجودة على سطح الأرض و أن طبيعة ومدى هذه الأقاليم السياسية مرهونة باختلاف الظواهر السياسية الموجودة في العالم.
- جاكسون: هي دراسة الظواهر السياسية في إطارها المكاني من خلال تحليلها للحدود ومشاكلها للتنظيمات الجغرافية الناتجة عن تطبيق السلطة الحكومية أو الوجود السياسي للدولة.
- كوهين وروزنتال: بأنها العلم الذي يركز على العلاقات المكانية و أثرها في العمليات السياسية.
- كاسيرسون وجوليان: العلم الذي يتناول دراسة رقعة الدولة والتفاعل بينها وبين النظم السياسية ويركزان على العلاقات الدولية والمشكلات السياسية والاقتصادية والسكانية داخل الدولة و أثر ذلك في توجيه العلاقات الخارجية لها
- مودي: بأنها تحليل العلاقات بين الدول وتكوينها الداخلي وفق ظروف بيئتها، كما أنها تتناول دراسة القوى والنظم السياسية.

- فالكنبرج: بأنها جغرافية الوحدات السياسية التي تشتمل على دراسة كل وحدة ذات كيان سياسي خاص يتسم بخصائص معينة في الانتاج والاستهلاك وفي القدرة على تلبية احتياجات سكانه والمساهمة في الوقت نفسه في رخاء العالم و أمنه.
- كريسبي: هي تطبيق المبادئ الجغرافية على مشكلات السياسة الداخلية الدولية، فهي تبحث في الحقائق المتعلقة بالموقع والحدود والمساحة والتماسك أو التجانس الداخلي من حيث علاقتها برخاء الأمم وتقدمها.
- متولي و أبو العلا: أنها جغرافية الدول أو الوحدات السياسية ومهمتها دراسة كل دولة من دول العالم كوحدة قائمة بذاتها، لها كيانها السياسي الخاص، و لها صفاتها المميزة.
- التعريف الشامل: تعرف بأنها فرع من فروع الجغرافيا البشرية يتناول دراسة الدولة والإقليم السياسي والحدود السياسية لهذه الدول أو الأقاليم ومايرتبط بها من ظاهرات سياسية وذلك في إطار مكاني تعريف الجغرافيا السياسية (المطلوب)

الجغرافيا السياسية:

- عبارة عن محاولة الكشف عن التشابه و الاختلاف الإقليمي في الشخصية السياسية.
- دراسة الظاهرات السياسية في ضوء إطارها المكاني سواء أكان ذلك يتضمن تحليل الحدود السياسية و الأنماط الجغرافية الناجمة عن تطبيق سلطة الحكومة.
- دراسة تباين الظاهرات السياسية من مكان لآخر في ضوء تباين ظاهرات سطح الأرض باعتبارها وطنًا للإنسان.
- دراسة التحليل المكاني للظاهرة السياسية أي (الأبعاد المكانية للسياسة).

تعريف الديق: الجغرافيا السياسية:

- تهتم بدراسة التوزيع الجغرافي للعملية (الظاهرة) السياسية
- مدى التشابه و الاختلاف فيها من مكان لآخر على الأرض
- تحليل التأثير المتبادل بينها و بين الخصائص الجغرافية المتنوعة للمكان

علاقة الجغرافيا السياسية بالعلوم الأخرى

علاقة الجغرافيا السياسية بفروع الجغرافيا

تحتاج الجغرافيا السياسية إلى معرفة بالجغرافيا الطبيعية والثروات الاقتصادية في باطن الأرض وموارد المياه و أهمية ذلك في النواحي الاستراتيجية والاقتصادية.

- علاقة الجغرافية السياسية بعلم السياسة:
- يبحث علم السياسة في النظريات التي تبني عليها السياسات الخارجية والداخلية للدولة.
- فعلم السياسة يدرس الظواهر السياسية للإنسان والمجتمعات.
- الجغرافيا السياسية تفسر هذه الظواهر في ضوء المؤثرات الجغرافية.
- تهتم الجغرافيا السياسية بدراسة التنظيمات السياسية وبناء هذه السياسات في الدولة له دور كبير في تكوين الأنماط الجغرافية للعلاقات السياسية.

علاقة الجغرافيا السياسية بعلم التاريخ

- توجد علاقة بين الجغرافيا السياسية وعلم التاريخ لأن تاريخ الدولة أو تاريخ المنطقة يلقي الضوء على الأسس التاريخية لبعض المشكلات التي تواجهها الدولة، مثل مشكلة فلسطين
- لا بد من أن تستشهد الجغرافيا السياسية بصفحات التاريخ و أحداثه في صياغة المبادئ ووضع الأسس لتفسير المشكلات الجارية وتحليلها.

علاقة الجغرافيا السياسية بعلم العلاقات الدولية

- علم العلاقات الدولية هو العلم الذي يدرس القوانين والاتفاقيات الدولية التي تنظم العلاقات بين الدول
- مثال: معاهدات القنوات الملاحية الدولية و المضائق الدولية، أسس تحديد المياه الإقليمية، القوانين الدولية المنظمة للملاحة البحرية والجوية
- فالجغرافيا السياسية تدرس هذه المعاهدات والقوانين لحل المشكلات السياسية.
- علاقة الجغرافيا السياسية بعلم الديموغرافيا
- ترتبط الجغرافيا السياسية بدراسة علم الديموغرافيا أو السكان من زاوية دراسة سكان الدولة وحركتهم على الأرض لمعرفة الكثير من الحقائق والمعلومات.
- لذلك لفهم أوضاع الدولة ومشكلاتها ينبغي معرفة كل ما يرتبط بسكان الدولة من إحصاءات حيوية (مواليد، وفيات، الزواج، الطلاق) ونمو السكان، والتركيب العمري والنوعي لهم.
- سياسة أي دولة تخضع لنوعين من العوامل:
 - عوامل ثابتة مثل مظاهر الجغرافيا الطبيعية والبشرية التي تتميز بها الدولة.
 - عوامل متغيرة: أهمها النظريات والمذاهب السياسية التي يقوم عليها نظام الحكم وكذلك القوانين والاتفاقيات والمعاهدات التي تنظم العلاقات بين الدول.

الفصل الثالث

مدخل إلى علم الجغرافيا السياسيّة

الفصل الثالث

مدخل إلى علم الجغرافيا السياسية

كان القرن العشرون قرن الجيوبوليتيكا؛ ومذ صيغ هذا المصطلح في بداية القرن العشرين وحتى اليوم يتضمّن مفهومه الصّراع والتّغيير. الإشكاليات التي تتناولها الجغرافيا السياسيّة إذا توفّر نافذه نبصر من خلالها الصّراع من أجل القوّة والمساحة الجغرافيّة ونحلّل من خلالها صعود القوى الامبرياليّة واقتتالها من أجل تنظيم المساحات الجغرافيّة طبقاً للمصالح. وإبان الحرب الباردة استُعْمِلَت الجيوبوليتيكا لوصف صراع عالميّ مستمرّ بين الرّأسماليّة والمعسكر الشرقيّ إلى أن سقط الاتّحاد السّوفييتي سنة 1991. وفي الوقت الرّاهن صارت الجغرافيا السياسيّة أكثر صلة بالواقع العالميّ لأنّ صراعات جديدة عالميّة حول القوّة والمساحة بدأت تتشكّل. وفي فترة ما بعد الحرب الباردة برزت إشكاليّات جديدة لم تكن تعنّي بها الجيوسياسة في الماضي مثل صراع الحضارات وصراع الأديان والاحترار العالميّ وصراع الحركات الاجتماعيّة والصّراع بين المؤسّسات العالميّة المالية والتّجاريّة وكذلك الصّراع بين شبكات التّواصل العالميّ. وبما أنّني أعرض هنا لمفهوم فإنّ المفاهيم كلّها لها تاريخ وجغرافيا وبالتّالي فإنّ الجغرافيا السياسيّة لا تمثّل استثناء فقد صيغت سنة 1889 على يد عالم السياسة السّويديّ، رودولف كيلّن، (Rudolf Kjellen)، وكان لهذا المصطلح تاريخ حافل إذ تطوّر لينأى عن مفهومه الأصليّ كما وضعه كيلّن أوّل مرّة. وباختصار تمثّل مفهوم الجيوسياسة عنده في ربط الجغرافيا بالسياسة لأنّهما يؤثّران في بعضهما البعض ولا يمكن فصل الواحدة منهما عن الأخرى. لهذا السّبب أقول إنّّه لمن الصّعوبة تعريف الجيوسياسة لأنّ معانيها ومفاهيمها تتغيّر عبر التّاريخ. وبالتّالي يمكن فهمها فقط في إطارها التّاريخيّ الخطابيّ. وعلى القارئ أن يولي انتباها خاصّاً للمصطلحات التي تستعملها الجيوسياسة والتي سأشرحها تدريجيّاً.

لقد فهم رودولف كيلّن الجيوسياسة كجزء من التّفكير والمعرفة الغربيّة الذين يهتمّان بالعلاقة بين الواقع الفيزيائيّ للأرض بالسياسة. وكان كيلّن من المفكرين الإمبرياليين ولذلك كان أدولف هتلر أوّل من استعمل نظريّاته وعمل على تطبيقها فقد صارت تمثّل الجيوسياسة دعامة للسياسة الخارجيّة النّازيّة يعبّر عنها بمصطلح "lebensraum" الذي يعني "المساحة الحيويّة" أو المساحة الحيويّة من أجل العيش. ولارتباط الجيوسياسة بالنّازية استعاض المفكّرون الجيوسياسيون عن معناها الأصليّ وكذلك عن معناها النّازيّ بمعاني جديدة. ثمّ صارت تعني بالصّراع

العالمي بين الإتحاد السوفييتي والعالم الغربي خلال الحرب الباردة التي كانت صراعا متواصلا من أجل بسط النفوذ والتحكم في الموارد الاستراتيجية. وقد لعب هنري كيسنجر دورا بارزا في إحياء الجيوسياسية طوال السبعينات من القرن الماضي لكنه عرّفها بأنها لعبة تحقيق التوازن في القوة والسياسات يضطلع بها اللاعبون على الخارطة السياسية العالمية.

وليس الغرض من الجيوسياسية سوى فهم ديناميكيات الصراع الذي يدور على الخارطة السياسية العالمية، وبالتالي أصبح معناها معالجة الرؤى السياسية عن العالم وكيفية تشكلها وكذلك ربط الديناميكيات المحلية بالإقليمية والعالمية وبالنظام العالمي ككل. إنها تدرس المآسي والصراعات في إطار الاستراتيجيات والآفاق السياسية مقدّمة نظرة فريدة من نوعها يجدها البعض جذابة ومحبّذة. لكن بالرغم من أنها نصية بحتة، خطابية، فإنّها توفر طريقة في التفكير متعلّقة بالمساحات تنظّم اللاعبين والعناصر والمواقع المهمة للشعوب على رقعة الشطرنج العالمية وتؤكد بأنّها متعدّدة الأبعاد، عالمية، مفهوماتية، كلية، بصرية أو واقعية وليست لفظية خطابية فحسب. وتؤكد الجيوسياسية على أنّها في مصلحة كلّ النّاس وأنّها تقدّم نظرة غير عادية عن شكل العالم المستقبلي واتجاهات الشؤون السياسية فوق الخارطة العالمية. ويقبل النّاس والدارسون على حدّ سواء على الجيوسياسية بحثا عن نظرة واقعية موضوعية واضحة تخلصهم من التعقيد الإعلامي والتفسيرات الدّعائية للأحداث والتحرّكات والصراعات. تقلّص المساحة في العالم والتسارع المكثف للتقلّص الزمكاني الذي أحدثته العولمة وثورة الإتصالات والشبكات المعولمة (اسم فاعل)، أصبحت الرّغبة في رؤية العالم من منظور واقعي أقوى من أي وقت مضى. في عالم اليوم الجديد أصبحت العلاقات بين الجغرافيا والسلطة والنظام تسلّط الضوء على المسائل الجيوإقتصادية وعلى النّشاط العولمي الذي يشكّله النّشاط التجاري

والاستثمار وكذلك على مختلف الصّور التي تتخذها الدّول لتثبيت استقلاليتها ضمن النّظم الجغرافية الموجودة في العالم.

وسأحاول أن أعرض الأبعاد المتعدّدة للجيوسياسية العامّة وعناصرها المفهوماتية والتنوّع الخطابي فيها. وإنّه لمن البديهيّ اليوم أنّ كثيرا من الرّؤى الجيوبوليتيكية تندرج ضمن التّوسّع الأمبريالي والصّراع الإيديولوجي بين القوى الإقليمية المتنافسة. ولن يكون بإمكانني التّعرّض للأصوات التي تمثّل أقلّيات في الجيوسياسية التي تعارض التّنظير والممارسات الجيوسياسية التي جعلت الجيوسياسية حكرا على السّاسة و"الحكماء" السياسيين مثل أقلّيات الحقوق المدنيّة والإنسانيّة وكذلك الاتّجاه الأنثوي. وتجدر الإشارة إلى أنّ الجيوسياسية تُعتبر إلى اليوم معرفة وقوّة تحليليّة ذات أهمّية بالغة في العلاقات الدّولية والسياسات الخارجيّة.

فإعلام القارئ عبر النظرة النقدية الجيوسياسية هي هدف الجيوسياسية النقدية كما تسمى اليوم. وأفيد القارئ بأنني أستعمل لفظ الجغرافيا السياسية وكذلك الجيوسياسية والجيوبوليتيكا كمترادفات.

عناصر الجغرافيا السياسية الأساسية:

الجغرافيا السياسية (geopolitics) تنتمي للعلوم الإنسانية، وهي علم واقعي يتخذ على عاتقه مهمة تتمثل في تحديد خصائص الأهداف الجغرافية الطبيعية والإنسانية الموجودة فيما وراء المظاهر والتي تكيف الاختيارات الاستراتيجية للأعبين الدوليين في الحياة الإيديولوجية والسياسية والاقتصادية العالمية. باقتضاب، تسعى الجيوسياسية إلى إبراز الخصائص المخفية للسياسات وتصف الخارطة السياسية العالمية بكتاب خاص ثقافي سياسي مرتبط بالجغرافيا. ولا تزعم الجيوسياسية أن خطابها يمثل "حقائق" وإنما تراه خطابا يقدم حقائقها هي. وبعبارة أخرى هي تسييس المعرفة الجيوسياسية والمؤسسات وممارسات الحكام، أي أنها تعتبر إنتاج الخطاب الجيوسياسي عمليات سياسية في حد ذاتها، أي كجزء من السياسات الموجودة. بالرغم من ارتباطها بالسياسة تسعى إلى أن تكون مستقلة عن كل المؤثرات السياسية لكنها مذكورة وجدت استعمالها رجال السياسة ولا زالت حتى اليوم خاضعة للسياسة وتطور مفاهيمها خدمة للسياسة ومنظروها وواضعو مفاهيمها الأساسية ومبادئها العامة يستعملون من طرف اللاعبين السياسيين. ويقوم هذا العلم على جملة من المفاهيم يفوق عددها العشرين لكنني سأعرض، هنا، أهم المفاهيم الرئيسية فقط:

- الصراعية: conflictualité

- المساحية أو الفضاءية: Spatialité

- الحدود والتخوم: Limites et Frontières

- التوسع الإمبراطوري أو بناء الإمبراطوريات: impérialité

- العالمية: mondialité

المبدأ الأول يقر بأن الحياة برممتها صراعية (conflictuel).

العدوانية السلبية والإيجابية للكائنات البشرية، في عمليات سعيهم الدؤوب لتحقيق استمتاعهم بالحياة وتنافسهم من أجل امتلاك القوة والسلطة والمجد، تؤدي بهم إلى الصراع المتواصل وإلى الاختلافات والأزمات التي قد تتطور فتتقلب حروبا ودمارا. وقد أثبت القرن العشرين هذا المفهوم بامتياز، ولو تأملنا التاريخ الطويل للشعوب والأمم لوقفنا على حقيقة أخرى تطبع الصراعية التي تدرسها الجيوبوليتيكا وهي أن الصراع والخلافات والحروب متكررة دوما ولا تتوقف أبدا. وبما أن الصراعية تدور في الجغرافيا فإن المهمة الرئيسية للجغرافيا السياسية أو

الجيوبوليتيكا تتمثل في تسليط الضوء على جذور ومصادر الصراعات والدوافع التي تتحكم بالأعبين العالميين وبكلّ العناصر العالمية الفاعلة والمتفاعلة. ومنذ البدء يمكن تحديد ثلاث مصادر رئيسية ذات عمق سياسي واقتصادي هي: أولاً، الصراع من أجل السيطرة على الموارد، ثانياً، الصراع والاقتتال من أجل السيطرة على المناطق الجغرافية، وثالثاً، الصراع والاقتتال من أجل الهيمنة الايديولوجية والعرقية والوطنية. هذه المصادر الثلاث مرتبطة ببعضها أشد الارتباط ومتشابكة في تفاعلها أيضاً. ثم إنني ألفت نظر القارئ إلى أنّ المصدر الثالث للصراع والخلاف ثقافي سياسي في طبيعته.

لكي أوضح العلاقة بين مصادر الصراع الثلاث أقول إنّ الاستيلاء على الموارد أو التحكم بها يستدعي الاستيلاء على المساحات الجغرافية أو التحكم بها؛ ولكي يتم الاستيلاء والتحكم بالمناطق الجغرافية التي تحتوي على الموارد لابد من الثقافة ومن الإيديولوجيا لكي تبرّرا عقلانية القتال والكفاح وتشرعنا الحرب والغزو.

الحروب التي خاضتها روسيا عبر تاريخها كان من بين أهدافها التوسّع جنوباً وغرباً باتجاه المناطق والمياه المعتدلة لأنّ ثلاثة أرباع من المساحة الروسية الجغرافية باردة جداً. وأعني بالمياه البحار والمعابر التي تجعل الروس يتحرّكون بسهولة في أيّ اتجاه شاءوا. ولعلّ القارئ قد أدرك هنا العلاقة الوطيدة بين مفاهيم الجيوسياسة التي أنا بصدد شرحها.

منذ أقدم العصور كان الصراع والاقتتال من أجل الموارد هو الشكل الرئيسي للصراعية لكنهما كانا على مرّ التاريخ مقنّعين دوماً بأقنعة إيديولوجية ثقافية الغرض منها شرعنة القتال والحرب والاختلافات. وقد أثبت القرن العشرين، كما قلت، أنّ الصراع والصراع المضادّ شيئان لا يتوقّفان أبداً. ولئن صوّرت الحرب الباردة، على سبيل المثال، بين العالم الرأسمالي وحلف وارسو الذي كان يتزعّمه الاتحاد السوفييتي، بأنّها صراع إيديولوجي فإنّ الحقيقة هي أنّ ذلك الصراع دار من أجل المساحات الجغرافية والموارد الطبيعية كالتفّط واليورانيوم والماس والمعادن الثمينة. لكنّ الحرب الباردة دارت رحاها أيضاً من أجل السيطرة على المياه وعلى الممرّات المائية والبحار والبحيرات. المياه صارت، نتيجة الانفجار السكانيّ، أهمّ مورد خلال القرن العشرين.

الصراعية: الصراع من أجل المساحات والفضاءات الجغرافية هذا الصراع ضروريّ، في رأي المنظّرين، لكي تتمكّن البلدان المتصارعة من الوصول إلى الموارد التي هي موضوع التنافس والاقتتال أحياناً. وهكذا فإنّ الصراع على المياه، على سبيل المثال، يتمثّل في السيطرة على الشواطئ والأنهار والممرّات والمعابر والجبّال والمضائق مثل مضيق جبل طارق والقنوات

مثل قناة السويس وقناة باناما وعلى الطرّق المؤدية إلى الهند وعلى المحيطات أيضا. السيطرة على المساحات والمناطق في الشرق الأوسط، مثلا، تمكّن من التحكم بموارد المياه: استيلاء اسرائيل على الجولان يمكنها من تلبية الثلثين أو أكثر من احتياجاتها المائية، وتتحكّم تركيا بمصادر دجلة والفرات وبذلك تتحكّم بكمية المياه التي يحملها النّهران لسوريا والعراق. أمّا الصّراع من أجل بسط الهيمنة الإيديولوجيّة والإثنيّة والقوميّة فإنّه متجذر في التّرويج لهويّة رمزيّة تجعل البلد منتما لمجموعة جغرافيّة من الأفكار ويجعله إيمانه بتلك الهويّة يسعى إلى بسط نفوذه لأنّ الإيديولوجيا تصوّره على أنّه الأحسن والأرقى أو بأنّ شعبه شعب مختار أو ينتمي لعرق مقدّس. إلّا أنّ الصّراع الإيديولوجي والقوميّ والإثنيّ يغطّي، في الحقيقة، المصالح الحقيقيّة التي تطمح إليها البلدان عبر الإستراتيجيا.

المساحيّة أو الفضاءيّة :

المساحيّة تشير إلى الأراضي والمساحات الأرضيّة والبحريّة حسب المفهوم الجيوسياسيّ للأرضويّة التقليديّة (Territorialité classique) وهو الفضاء الجوّي والفضاء الخارجيّ الذي لا يمتّ بصلة للأرضويّة (الفعليّة)؛ هذا النّوع من المساحويّة يسمّى، في الجيوسياسة، الأرضويّة الخاصّة (territorialité spéciale) لكنّه منطقة التّدخلّ للأعبين "المابينقوميّين" ويسمّى أيضا "الأرضويّة الافتراضيّة" أو التّخيّليّة (territorialité virtuelle). ولا زالت إلى حدّ اليوم الأرضويّة الكلاسيكيّة مفهوما أساسيا وإن كان الفضاء الأرضيّ والفضاء الخارجيّ قد اتّخذا مكانة أهمّ مع ثورة الاتّصالات والاتّصالات اللاسلكيّة. كلّ بلد له أرض فيزيقيّة أو طبيعيّة تمثّل الأرضويّة الكلاسيكيّة وفضاء يمثّل الأرضويّة الافتراضيّة يمكن أن تستعمله الطّائرات والصّواريخ والأقمار الاصطناعيّة وكلّ من يسيطر على الأرضويّة الافتراضيّة تكون له الغلبة في كلّ صراع. ويمكن فهم هذه النّقطة بسهولة: القوى العظمى اليوم لم تعد تنظر إلى الأرضويّة على أنّها مجرد المساحات الجغرافيّة الطّبيعيّة بل جعلت لها مستويات أخرى؛ الفضاء الذي تستعمله الطّائرات والصّواريخ وكذلك الفضاء الخارجيّ الذي تستعمله الأقمار الصّناعيّة والصّواريخ العابرة للقارّات أيضا.

والأرضويّة مرتبطة بالهويّة القوميّة التي هي منظومة رمزيّة تشمل الأمجاد الماضية وذاكرة يملؤها تذكّر الأراضي القديمة التي كانت تنتمي للدّولة الأمّة والتّأسّف على ضياعها وكذلك التّوق إلى استعادتها أو الحصول على أراضي جديدة أو المطالبة بأراضي كانت تابعة للدّولة الأمّة وتقع تحت سيطرة الدّول المجاورة أو غيرها. وكلّ أمّة إمّا لها مطالب أرضويّة أو تواجه مطالب أرضويّة من دول منافسة. وقد تكون الأرضويّة مقبولة من قبل القوى المجتمعيّة كلّها وقد

تكون محلّ صراع في الدّولة الأمّة الواحدة عندما يكون البلد متعدّد الأعراق، متعدّد الثقافات فبعض الداخليّة قد تطالب بالأراضي وبالإفصال بها. الهويّة القائمة بالقوّة على الأرضويّة (المساحة، الفضاء) يستعملها دعاة القوميّة في شحذ العزائم وفي استقطاب المقاتلين الذين يمثّلون الأسّ الرّئيسي لممارسة السّلطة وكذلك في استقطاب المتعاطفين والمؤيدين الدّاخلين والخارجيين. الأمّة إذا وكذلك مفهوم الدّولة - الأمّة (l'Etat-Nation) يمثّلان نوعاً من التّجريد للأرضويّة (idéalisation) من خلال بناء ملحمة قائمة على الهويّة وتقديس الأرض بهدف جمع كلّ الطّاقات الموجودة.

أمّا الأرضويّة الفضائيّة، خاصّة منها الفضاء الخارجيّ، فإنّ القوى المهيمنة اليوم هي الأقدر على استعمالها والتّحكّم بها بدرجات متفاوتة وتتوق كلّها إلى استعمالها بنجاعة لأغراض عسكريّة ومدنيّة. لهذا السّبب تعمل القوى العظمى على استكشاف الفضاء الخارجيّ وليس للبحث عن الحياة داخل أو خارج النّظام الشمسيّ كما تزعم فإمكانيّة اكتشاف حياة متطوّرة أو غير متطوّرة على كوكب ما غير الأرض إمكانيّة ضئيلة جدّاً إن لم تكن منعدمة. وفي الوقت الرّاهن ما زالت المساحة الخارجيّة إمكانيّة تكميليّة للتّحكم بالأرضويّة الكلاسيكيّة إذ أنّ التّحكّم بالفضاء الخارجيّ ليس متطوّراً إلى حدّ الآن. الاستيلاء على الأرضويّة الفضائيّة يمكن من مراقبة الآخرين ومن التّنصّت عليهم ويمكن من الهجوم عليهم وتوجيه ضربات إليهم. وهذه المقدرة المتوفّرة لدى بعض البلدان فقط تجعل الآخرين يلجؤون إلى التّموهية على الأرض والتّضليل وإخفاء الأهداف العسكريّة إلخ. التّحكّم بالفضاء قوّة وتفوّق يضعفان الأرضويّة الكلاسيكيّة خاصّة عندما تكون المساحات البحريّة والأرضيّة تسيطر عليها قوات معادية. إلّا أنّ التّحكّم بالأرضويّة الفضائيّة يستدعي التّحكم بالأرضويّة الكلاسيكيّة. إثر سقوط الاتحاد السّوفييتيّ خُرمت روسيا من قاعدة بايكنور الكازاخستانيّة وبذلك تأثّر برنامجها الفضائيّ؛ وهذا المثل يثبت أنّ السّيطرة على الفضاء تستدعي السّيطرة على الأرض. ويمكن أن نضرب مثالا آخر في هذا الصّدّد: الأمم المتّحدة لا تأثير لها إلّا بقدر ما توفّره من ولاء للأمم القويّة لأنّها لا تملك مساحة أرضويّة أو فضائيّة تجعلها قوّة تعادل قوّة الدّولة - الأمّة؛ وفي الحقيقة الأمم المتّحدة لديها مساحة افتراضيّة فقط.

نفس الشّيء ينطبق على رؤوس الأموال والسّلع؛ رأس المال والسلعة بإمكانهما أن ينتقلا في العالم بصفة قانونيّة أو غير قانونيّة لكنّهما لا تملكان، في ظلّ العولمة، سوى أرضويّة افتراضيّة. وفي حقيقة الأمر كلّ المساحات والأرضويّات تكون افتراضيّة أو تخيّلية قبل أن تصبح واقعيّة. عندما يستقرّ رأسمال أو شركة مصنّعة لسلعة معيّنة بمكان معيّن فإنّهما يحتلان المكان وهكذا تصبح الأرضويّة واقعيّة.

الحدود والتّخوم:

لا يمكن أن توجد دولة من دون حدود (des limites). اليوم يبلغ عدد الدّول المنتمية للأمم المتّحدة 192 لكنّ هذا العدد لا يشمل الفاتيكان وكوسوفو، التي استقلّت عن سربيا حديثاً، كما أنّه لا يشمل طايوان، لا اعتبارات سياسية، إذ أنّ الصّين تقول إنّها مقاطعة تابعة لها، ولا يشمل فلسطين المعترف بها كسلطة وطنيّة من دون اعتبارها دولة لأنّها غير مستقلّة تماماً. وممّا لا شكّ فيه هو أنّ الحدود لها وظيفة سياسيّة فهي تتطوّر تاريخياً وتلعب دوراً في المحافظة على الاستقلاليّة. الحدود تتطوّر تاريخياً وتتغيّر لكنّ التّخوم لا تتغيّر كما سنرى. وفي التّاريخ، عندما برزت الدّولة الاسلاميّة كقوة كبيرة لم تعتبر بقيّة الأمم أمماً متخلّفة كما فعل الرّومان من قبل. الرّومان اعتبروا ما بداخل حدودهم حضارة وتحضّراً وأسّموا كلّ الأمم الموجودة خارجها "بربريّة"؛ هذا يبيّن عمليّة إضفاء القداسة على الحدود التي تساهم في الحفاظ على الشّعور بالهويّة وتكريسه على أرض الواقع. المسلمون ربطوا الامبراطوريّة الاسلاميّة بالرسالة السّماويّة التي جاء بها محمّد ولذلك كان التّوسّع الاسلاميّ أيضاً تقديساً للهويّة لكنّه لم يكن قائماً على العنصريّة أو اعتبار بقيّة الأمم أمماً متخلّفة أو بربريّة. ومذ تكوّنت الدّول الحديثة صار تقديس الحدود والأراضي مستنداً إلى الشّعور القوميّ الذي يشمل القيم الدّينيّة أيضاً. وقد لعب التّطوّر الذي حصل في علم وضع الخرائط دوراً في إرساء الحدود.

أمّا التّخوم (frontiers) فهي حدود طبيعيّة تتمثّل في عوائق طبيعيّة تمنع توغّل الأعداء في أرض ما، وقد تكون بحارا ومحيطات وأودية وبحيرات وسبخات وصحاري وجبال و سلاسل جبليّة. وتعتبر التّخوم حدوداً طبيعيّة عندما تفصل بين شعوب تختلف من حيث الإثنيّة والثّقافة ومن حيث الأصل الإثنيّ أو في اللّغات التي تستعمل وفي الأديان التي بها تؤمن. وتسمّى تخوماً لأنّها متاخمة أو تطلّ على الجانب من الأرضيّة التابعة لطرف آخر. وتصبح التّخوم سياسيّة عندما تشكّل حدوداً فعليّة تفصل بين بلدين أو أكثر. وكثيراً ما تكون التّخوم محلّ صراع أيضاً إذ قد يُنظر إليها على أنّها حدود طبيعيّة وقد تسعى دولة ما إلى تجاوزها عندما أقلّيّة إثنيّة ما تابعة لتلك الدّولة مقيمة فيما وراء التّخوم. في هذه الحال تنظر الدّولة إلى التّخوم في إطار إثنيّ ثقافيّ وتغفل المعايير والعوامل الجغرافيّة الطّبيعيّة. ما يجب أن يتذكّره القارئ هو أنّ الحدود ليست بالضرّورة تخوماً والتّخوم ليست بالضرّورة حدوداً إلّا أنّهما يحمّلان محتويات أثنوثقافيّة وسياسيّة. على سبيل المثال كثيراً ما يستعمل الأوروبيون الحدود في تبرير رفض انتماء تركيا للاتّحاد الأوروبيّ إذ يقال إنّ جزءاً من تركيا فقط يقع ضمن حدود أوروبا وأمّا البقيّة منها فتقع

في آسيا. وفي هذا عودة إلى الاستدلال الروماني القديم: ما يوجد داخل حدودنا يمثل الحضارة وما يوجد خارجها يمثل التخلف والبربرية. أما دور الحدود في المحافظة على الاستقلالية كما قلت وعلى جدواها وفعاليتها ونجاعتها. الدولة التي لا تستطيع الدفاع عن حدودها ليست دولة مستقلة بآتم معنى الكلمة. وفي إطار أرسويتها المحدودة بالحدود تطبق الدولة قوانينها فإذا كانت تلك الحدود تُخرق باستمرار سواء من طرف دول أخرى أو من طرف عصابات تهرب السلع ورؤوس الأموال فإنه يبطل الحديث عن نجاعة وفعالية الاستقلالية. الدول المتصارعة تعمل على كسر الحدود ولا تعير الدولة الأقوى أهمية لحدود الدولة الضعيفة. إيران مثلاً تحتل الجزر العربية لأن الدولة الإماراتية دولة قزمية لا تستطيع الدفاع عن حدودها. المغرب أيضاً لم تستطع تحرير سبتة ومليلة من الاحتلال الإسباني لأنها ضعيفة وسوريا لم تستطع تحرير الجولان والأراضي التي تحتلها تركيا لأنها ضعيفة أيضاً.

التوسّع الامبراطوريّ:

توسيع القوة إلى ما رواء الشعب أو الأمة المقيمة في مساحة جغرافية أرضوية معينة يقود إلى بناء الامبراطوريات. ولعلّ التاريخ كلّ، من وجهة نظر الجغرافيا السياسية، ليس سوى بناء للإمبراطوريات. يكفي النظر إلى التاريخ لنذكر هذا: التاريخ تعاقب للإمبراطوريات، وفي الحقبة التاريخية الزاهنة يتخذ التوسّع أشكالاً تقليدية قديمة وأشكالاً حديثة أو جديدة. ويمكن تقديم أمثلة على الامبراطوريات الكلاسيكية التي وجدت عبر التاريخ:

- في مصر القديمة، ابتداء من الألفية الثالثة قبل الحقبة الحالية وحتى القرن السابع قبل ميلاد المسيح: إمبراطورية رمسيس الثالث.
- الامبراطورية الفارسية منذ القرن السابع حتى سنة 331 قبل الميلاد حيث قضى عليها الكسندر المقدوني.
- امبراطورية ماسيدونيا والإغريق التي بلغت مصر والهند والتي بناها الكسندر المقدوني (331 - 323 قبل الميلاد).
- الامبراطورية الصينية منذ 221 قبل الميلاد.
- الامبراطورية الرومانية منذ 72 قبل الميلاد حتى سنة 476 ميلادية.
- الامبراطورية الماغولية التي بناها جنغس خان الذي توفي سنة 1228 م ثم يمورلنك (1335 - 1405).
- إمبراطوريات أمريكا الوسطى للأزتك والمايا في القرن التاسع ق.م.
- إمبراطورية أمريكا الجنوبية للإنكا في القرن 14 ق.م.
- الامبراطورية الكارولنجية لشارلماني في أروبا (800 - 843).

- الامبراطورية العثمانية.
- الامبراطورية النمساوية المجرية.
- الامبراطوريات الاستعمارية للبرتغال وإسبانيا ثم الامبراطورية البريطانية بعد اكتشاف أمريكا على يد كريستوف كولمب. ثم الامبراطورية الفرنسية والبلجيكية والامبراطورية الروسية.

ومنذ سقوط الامبراطوريات القديمة الكلاسيكية المتمثلة في الامبراطورية الروسية والعثمانية والنمساوية المجرية، بدأت امبراطوريات جديدة استعمارية، وبعد الحرب العالمية الثانية ظهرت الامبراطورية الحديثة التي تسمى قوى امبريالية من أهمها الامبراطورية الأمريكية والسوفييتية وكذلك الامبراطورية الصينية التي أنشأها ماو تسي تونغ سنة 1949.

ويمكن تعريف الامبراطورية الكلاسيكية بأنها البناء السياسي لكينونة مستقلة مجالها وحدة أرضية متصلة أو غير متصلة تجمع شعوبا مختلفة، أثنيا وثقافيا، تعيش في مساحات جغرافية تم ضمها بالقوة وإخضاعها لسيطرة دولة مركزية. وقد تتبع الدولة المركزية نظام حكم ونظام إدارة لامركزيين لكنها تتحكم سياسيا بالأراضي التي تم ضمها وتستغلها اقتصاديا. الامبراطوريات الاستعمارية لم تختلف كثيرا عن الامبراطوريات القديمة الكلاسيكية إذ استولت على الأراضي والمناطق الجغرافية بالقوة وهي قوى ثالاسوقراطية أيضا (thalassocratic) لكن حكمها لم يكن أبدا لا مركزيا. أما الامبراطوريات الحديثة التي تسمى قوى امبريالية فهي ذات طبيعة أخرى وذات أشكال جديدة لا تكون وحدة سياسية بآتم معنى الكلمة أو وحدة قضائية وإتاما الهيمنة على باقي الأقطار والأقاليم هيمنة اقتصادية وسياسية وثقافية قائمة على الولاء وعلى استعمال الطبقات التي لها مصالح في خدمة الامبراطورية مثل طبقة الكمبرادور وكذلك استعمال الأنظمة المنصبة التي تمكن الامبراطورية من خيرات البلد التابع.

البلدان الإفريقية والأقطار العربية بصفة عامة ليست تابعة قضائيا لأمريكا (وبعضها لم يكن تابعا قضائيا للاتحاد السوفييتي السابق) لكن القوة الأمريكية الامبراطورية تتحكم بهذه البلدان والأقطار إيديولوجيا وسياسيا واقتصاديا. الامبراطورية الحديثة تستعمل رأس المال في الهيمنة وتلجأ إلى التسلط والتدخل العسكري من حين لآخر لفرض هيمنتها. وفي الزمن الحديث صارت الامبراطورية هيمنة على البلدان وعلى مناطق النفوذ باتباع تكتيك "فرق تسد"، أما التبريرات الثقافية أو الايديولوجية المستعملة فتتمثل أساسا في أطروحات يمكن تلخيصها فيما يلي: القوة وحق استعمال القوة من أجل الدفاع على المصالح، التوسع كحق مشروع، القوة تتطلب امتيازات بما أن الامبراطورية تخدم البلد الخاضع وتدافع عنه.

العالمية:

مفهوم العالمية يشير أولاً إلى عالمية بعض الأماكن أو إلى عالمية مكان معين. العالمية تتأتى من استراتيجيّة المكان ومن الخطاب السياسيّ ومما يحتويه المكان من موارد. ويحصل المكان على عالميته عبر الخطاب السياسيّ المستمدّ من موقعه الجيوسياسيّ الذي يمكن القوة التي تتحكّم به من ممارسة سلطة خفية أو بارزة تجاه القوى الأخرى. ليس معنى هذا أنّ المكان أو الفضاء الجيوسياسيّ للمكان لا يتمتع بالعالمية، على أرض الواقع، بل قد يكون بالفعل ذا خصائص تجعله متميّزاً لكنّ الخطاب السياسيّ والجيوسياسيّ هو الذي يضيف عليه صفة العالمية ويدخل في ذلك الخطاب تحليل قائم على تصنيف للأعداء الطامعين في ذلك المكان والأصدقاء الذين يساندون القوة المسيطرة على المكان. على سبيل المثال أذكر هضبة الجولان لارتفاعها ولما تحتويه من موارد مائيّة وبعض المضائق كمضيق هرمز وبعض القنوات مثل قناة السويس وبعض المعابر البحريّة مثل قرن الرّجاء الصّالح بجنوب إفريقيا.

إذا كان المكان يتمتع بموقع يجلب اهتمام وأطماع الكثير من القوى أو جميعها فهو يتمتع بالعالمية. وفي هذا الصّدّد أشير إلى أنّ عالمية المكان في الجيوسياسة يختلف مفهومها عن المعنى اللّغويّ المتعارف عليه. عالمية المكان صفاته التي تجعله مرغوباً فيه والتي تجعله يخدم القوة المسيطرة عليه. وتشير العالمية في الجيوسياسة إلى عالمية القوى السياسيّة أو الإمبراطوريّة فبعض القوى لها صفة العالمية لأنّها قادرة على التّحكّم بالعالم أو بمعظمه. معنى ذلك أنّها قادرة على التّحكّم بالأماكن العالمية، الاستراتيجية والغنيّة بالموارد. هذه الصّفة توفّرت تاريخياً في الامباطوريّة البريطانيّة التي كانت قوّة ثلاثوقراطيّة لا مثيل لها. وهنا أشرح هذا المصطلح: ثلاثاً في اليونانيّة هو البحر؛ قوّة ثلاثوقراطيّة أي قوّة بحريّة تتحكّم بمفردها بالبحار. وفي العصور القديمة حقّقت بعض الامبراطوريّات العالمية مثل الامبراطوريّة الفارسيّة والاسلاميّة. ومنذ سقوط الاتّحاد السّوفييتي ليس هناك من قوّة عالميّة، الآن، سوى الولايات الأمريكيّة لأنّها تتحكّم بالعالم ومهيمنة عليه. عالمية الولايات المتّحدة الأمريكيّة عالميّة أحتلال وتوسّع لدولة عملاقة تسمّى "قوّة مفرطة" (hyper power) وهي قوّة تبغي تحقيق امبراطوريّة عبر العولمة.

الخطاب الجيوسياسي:

كتب الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو في عديد المناسبات، وخاصة 1980 أن ممارسة السّلطة تصنع المعرفة باستمرار وأنّ المعرفة تحمل وتدفع باستمرار آثار السّلطة بطريقة مثيرة للجدل. في أعماله الفلسفيّة والتّاريخيّة بين كيف أنّ نظم السّياسة في المجتمع تخلق نظاما من المعرفة تبرّر قوّتها وتشرعن سلطتها على المجتمع؛ النّظام العسكريّ مثلا يشرح ويبرّر خطابا متعلّقا بأمن البلاد، وهو خطاب نجد فيه العسكر هم الأخصائيّين وأصحاب السّلطة. أمّا كيفة الدّفع للسّلطة، وأعني بها التّدعيم، فتتمّ بالطّريقة التّالية: عندما يقدّم العسكر خطابهم المتعلّق بالأمن القوميّ ويطالبون بتطوير أو اقتناء نظم جديدة من الأسلحة فإنّ ذلك قد يلقى معارضة من المطالبين بالعناية بالرّعاية الاجتماعيّة ومن مؤسسات أخرى تفضّل العناية بالضّمان الاجتماعيّ فيعمد العسكر إلى تطوير خطاب "الأمن القوميّ" بما أنّهم متخصصون في ذلك المجال ويتحكّمون بخطاب الأمن. وعندما يصبح خطابهم مهيمنا في المجتمع فإنّهم يحتكرون سلطة تجعلهم هم الأقدر على الحديث حول الأمن والمصالح الوطنيّة وهكذا فإنّ ممارسة السّلطة مرتبطة بصناعة المعرفة. وإنّني أستعرض في عجالة فلسفة فوكو عن السّلطة لأبيّن أن الجيوبوليتيكا، كخطاب، كانت متغلّغة في نظم السّلطة ونظم المعرفة حتّى من قبل أن يُصاغ المصطلح ويتطوّر فقد كتب المفكّرون عن تأثير الجغرافيا في سلوك الاستراتيجية العالميّة منذ أواخر القرن التّاسع عشر كما قلت. من بين هؤلاء مؤرّخ البحريّة الأمريكيّة ألفرد ماهان (1840 - 1914) Alfred Mahan الذي تحدّث عن أهميّة الجغرافيا السّياسيّة - الكتل الإقليميّة والسّمات الطّبيعيّة بالنّسبة إلى البحر في تقدّم القوّة البحريّة من طرف الدّول المتوسّعة في دراسة عنوانها "تأثير القوّة البحريّة على التّاريخ" (Influence of Seapower Upon History) التي نشرها سنة 1890. الطّريق نحو العظمة القوميّة في نظره يمرّ عبر التّوسّع.

وكتب الجغرافيّ الألمانيّ فريدريش راتزل (1844 - Friedrich Ratzel (1904 عن أهميّة العلاقة بين الأرض والأمة في تقدّم القوّة الإمبرياليّة والسّلطة الوطنيّة. في كتابه الذي عنوانه "الجغرافيا السّياسيّة" (Political Geography) - 1897 - اعتبر الدّولة عضوا حيّا منشغل بالصّراع من أجل البقاء ضدّ الدّول الأخرى، وكان متأثرا بالداروينيّة. في رأيّه، الدّولة عليها أن تتوسّع وإلاّ تواجه الاختناق ثمّ الموت وفي داروينيّةه الاجتماعيّة مجدّ الدّولة الألمانيّة واعتبر الأرض والأمة الألمانيّة متفوّقين على الأراضي والأمم الأخرى. لذلك يجب على الدّولة الألمانيّة أن تتوسّع على حساب الكائنات العضويّة الأخرى لكي تجد لنفسها مجالا حيويّا للعيش والتّقدّم (lebensraum). ولم تكن كتابت فريدريش راتزل وكذلك ألفرد ماهان بالشّيء الغير

مألوف في تلك الحقبة بل إنَّ كتابا آخرين منهم البريطاني هالفورد ماكسيندر و كارل هاوسهوفر تدعو لنفس الرّؤى. وبالتالي فإنَّ الجيوبوليتيكا قد ظهرت بادئ الأمر كخطاب أمبرياليّ، كمفهوم وممارسة، وظلّت على تلك الحال حتّى منتصف العشرين ثمَّ صارت خطابا قائما على ثنائيّة السّلطة - المعرفة داعيا إلى التّوسّعية وبناء الإمبراطوريّات. كلّ المنظّرين في ميدان الجغرافيا السّياسيّة كانوا رجالا بيضا فسّروا وبرّروا التّوسّع الاستعماريّ والإمبرياليّ معتبرين أنّ بلدانهم تمثّل قمّة الحضارة وأنّهم أسياد الكرة الأرضيّة ووضعوا مصطلحات مثل "قلب الأرض" (Heartland) و"حوافي الأرض" (Rimlands) {جمع حافة} في استدلالهم السّياديّة (supremacist arguments).

حوصلة لأهمّ مراحل الجغرافيا السّياسيّة وأفكارها:

أولا: الجغرافيا السّياسيّة الإمبرياليّة

منظّروها:

- ألفراد ماهان، فكرته: القوّة البحريّة.
- فريدريش راتزل، فكرته: Lebensraum
- هالفورد ماكسيندر، أفكاره ومصطلحاته: القوّة الأرضيّة - "قلب الأرض"
- كارل هاوسهوفر، أفكاره ومصطلحاته: القوّة الأرضيّة - "قلب الأرض"
- نيكولا سبيكمان Nicolas Spykman، أفكاره ومصطلحاته: "حوافي الأرض"

ثانيا: جيوبوليتيكا الحرب الباردة

منظّروها:

- جورج كينّن George Kennan، فكرته: الإحتوائيّة
- منظّرو الجغرافيا السّياسيّة الأمريكيّان والرّوس، أفكارهم ومصطلحاتهم: بلدان العالم الأوّل والثّاني والثّالث كأقمار صناعيّة وحجارة دومينو - الشّرق ضدّ الغرب والرّأسماليّة ضدّ الإشتراكيّة والحريّة ضدّ الاستبداد.

ثالثا: جيوبوليتيكا النّظام العالميّ الجديد

منظّروها:

- ميخايل غورباتشوف، فكرته: تفكير سياسيّ جديد
- فرنسيس فوكوياما، فكرته: نهاية التّاريخ
- إدوارد لوتواك Edward Luttwak، فكرته: نجوميّة الجيوإقتصاد.

- المحافظون الجدد، فكرتهم: الولايات المتحدة زعيمة النظام العالمي الجديد، الحرب الدائمة، تسخير المنظمات العالمية لخدمة أمريكا.
- قادة صندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية وزعماء مجموعة السبعة G7، أفكارهم: الليبرالية العالمية والليبرالية الجديدة المابين أممية
- مخططو الإستراتيجية في النبتاغون والنّاطو، أفكارهم: دول مارقة، دول تسعى إلى التسلّح النوويّ بطريقة غير قانونيّة - إرهاب.
- صامويل هانتنتون، فكرته: تصادم الحضارات

رابعاً: جيوبوليتيقا البيئة

منظروها:

- آل غور Al Gore، فكرته:
 - مبادرة استراتيجية لحماية البيئة
 - روبرت كابلان Robert Kaplan، فكرته:
 - الفوضوية القادمة
 - طوماس هومر ديكسن Tomas Homer-Dixon، فكرته:
- فقر المحيط أو النُدرة في المحيط وينطلق منظّرو الجغرافيا السّياسيّة الإمبرياليّة من إيمانهم بتفوّق البيض على كلّ الأعراق وبتفوّق الرّجال على النّساء وبتفوّق الحضارة الغربيّة على غيرها من الحضارات فأفكارهم بالتّالي تعبّر عن الجنسانيّة والعدوانيّة والعنصريّة والشّوفيّة، وهذه كلّها ميزات الإيديولوجيا النّازية التي تغنّت بتفوّق العرق الآري على غيره. وبهذه الطّريقة يصبح الخطاب الجيوساسيّ منظّراً للقتل والتّدمير واستعباد الشّعوب. ثمّ جاءت الحرب الباردة فوفّرت سياقاً لإنتاج الخطابات التي تندرج ضمن ثنائيّة السّلطة - المعرفة وفي ذلك السّياق ذاته بلغت الجغرافيا السّياسيّة مرحلة النّضج، وفي حين شدّدت الجيوسياسة على أهميّة التّأثير الذي تمارسه الجغرافيا الطّبيعيّة في السّياسة الخارجيّة التّوسعيّة فإنّ جيوسياسة الحرب الباردة تمحورت حول العداء الأمريكيّ السّوفييتي ودور التّوسّع الجغرافيّ وكذلك الإيديولوجيا فيه. هالفورد ماكيندر مثلاً وصف أجزاء من كتلة الأراضي السّوفيّاتيّة بأنّها "قلب الأرض" وأمّا جورج كينّن، مهندس السّياسة الإحتوائيّة الأمريكيّة، فقد رأى أنّ الأراضي السّوفيّاتيّة لم تكن أرضاً بل كائناً توسّعياً يمثّل تهديداً لا نهائياً. وترتبط المصطلحات المستعملة في ربط الصّراع بمسائل إيديولوجيّة متعلّقة بالهويّة والاختلاف. ظلّت الجغرافيا السّياسيّة تصف الغرب بأنّه ليس مجرّد منطقة جغرافيّة بل هو مجموعة متميّزة لها هويّة خاصّة يعمل على نشر الدّيمقراطيّة ويثمنّ مقاييس التّحضّر والمدنيّة، وبما أنّ بلدانا حليفة للغرب لا توجد داخل المنطقة الجغرافيّة الغربيّة مثل اليابان وكوريا الجنوبيّة فقد تمّ توسيع الهويّة الرّمزيّة لكي تشملهما.
- في خضمّ الحرب الباردة صارت الجيوبوليتيقا لعبة تمارسها القوى العظمى فوق خارطة العالميّة فاصبحت القوى الغربيّة هويّة رمزيّة تسمّى الاتّحاد السّوفييتي "الكتلة الشّرقيّة" ثمّ أسماه رونالد ريغن "إمبراطوريّة الشّر". وفي الكتابات الجيوسياسيّة سمّيت بلدان الكتلة الشّرقيّة "العالم الثّاني" للتّأكيد على مناقضته للعالم الأوّل وهو العالم الغربيّ. أمّا العالم الثّالث فهو العالم الفقير المتخلّف الذي يمثّل مناطق يدور حولها صراع العالمين الأوّل والثّاني. وقد رافق

ذلك الصِّراع من أجل مناطق العالم الثَّالث تصنيف ووصف وتحليلات ستراتيحية تقيِّم المناطق الغنيَّة بالموارد كمنطقة الشَّرق الأوسط مثلاً. الحرب الباردة انتجت نظريَّة حجارة الدَّومينو التي ذكرتها آنفا وهي شكل من التحليل الجيوسياسيِّ يعتبر دول البلدان غير الاتحاد السَّوفِييتي والولايات المتَّحدة الأمريكيَّة مجرد كائنات لا حول لها ولا قوَّة يمكن إسقاطها بسهولة والإبقاء عليها بسهولة أي التلاعب بها كما تشاء القوى العظمى.

ويمكن وصف الجغرافيا السِّياسيَّة كنماذج من ثنائيَّة القوَّة - المعرفة التي تجاهلت كلبية الخصائص الجغرافيَّة للأمكنة والشَّعوب والمناطق. وقد عدَّ البعض من علماء الجغرافيا السِّياسيَّة انتصار التحليل الخطابيِّ الأمريكيِّ انتصاراً للثقافة الأمريكيَّة تحقِّق بفضل المكارثيَّة التي أدَّت بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة إلى احتلال فيتنام وخوض المزيد من الحروب، لكنَّ تلك الجيوسياسة أثبتت فشلها لأنَّها لم تأخذ بعين الاعتبار خصائص الشعب الفيتناميِّ. وقد طردت منه أمريكا شرَّ طرد ثم ارتكب الاتحاد السَّوفِييتي نفس الأخطاء عندما أقدم على احتلال أفغانستان. ومع سقوط الاتحاد السَّوفِييتي وقعت الجغرافيا السِّياسيَّة وكذلك العلوم السِّياسية في أزمة سمَّيت "أزمة المعاني" فيما أنَّ الجيوسياسة تدرس الصِّراعات كان لا بدَّ من إيجاد صراعات جديدة؛ هذه المرَّة تمَّ التَّركيز على الصِّراعات الثقافيَّة وتمَّ تصوير العالم الاسلاميِّ على أنَّه العدوُّ الجديد للغرب وللثقافة الغربيَّة. ومنذ سقوط الاتحاد السَّوفِييتي تحوَّل التَّنظير نحو مفاهيم "النَّظام العالميِّ الجديد" وفي هذا الإطار أُعيد تعريف الجغرافيا السِّياسيَّة وتحديد مقارباتها وممارساتها. برز منظرٌون جدد يتغنَّون بتفوق العالم الغربيِّ منهم فوكوياما التي قال بنهاية التَّاريخ وإيدوارد لوتووك الذي تغنَّى بتفوق الجيواقْتصاد الغربيِّ.

رأى إيدوارد لوتووك أنَّ الدَّول ككائنات أرضيَّة أو جغرافيَّة سوف تواصل صراعها لكنَّه لن يكون صراعاً سياسياً بل جيواقْتصادياً، صراع يديره الاقْتصاد في نطاق الجغرافيا. وسيتخذ هذا الصِّراع في رأيه شكل خلاقات تجاريَّة واقتصاديَّة. كانت نظريَّة إيدوارد لوتووك مرتبطة بالدَّولة، لكن منظرين آخرين في ميدان الجغرافيا الاقْتصاديَّة شدَّدوا على التَّقهقر النَّسبيِّ للدَّول لصالح لصالح التَّدفُّق الصَّاعد للمؤسَّسات المابيين قوميَّة. هذه الرُّؤية يعبَّر عنها بمصطلح "اللِّبيراليَّة" المابيين قوميَّة أو اللِّبيراليَّة الجديدة وهي مذهب تؤكِّد أنَّ العولمة التي تقولها التَّجارة والانتاج والأسواق سوف تحدِّ من سلطة الدَّول وتسرَّع في إندماج العالم. هذه النُّظريَّة تتبنَّها مجموعة السَّبعة وصندوق النِّقد الدَّوليِّ ومنظَّمة التَّجارة العالميَّة التي ترى أنَّ العولمة تسرَّع في نماء البلدان النَّامية. إلَّا أنَّ هذه المؤسَّسات لها مختلفة تماماً عن نواياها المعلنة.

أما عالم السياسة ومنظر المحافظين الجدد سامويل هانتنتن فيشدّد على قوّة الكتل الجيوثقافيّة في النّظام العالميّ الجديد. يؤكّد هانتنتن أنّ الكتل الثّقافيّة تحدّد الشّؤون العالميّة لكنّ هذه الخاصّيّة قد حجبتها الحرب الباردة فلم يعتني بها علماء الجغرافيا السّياسيّة؛ أمّا الآن فهي موجودة إلى جانب الخطابات المختلفة وهي التي ستحدّد طبيعة النّظام العالميّ الجديد.

الفصل الرابع

الموضوعات التي تركز عليها الجغرافيا السياسية

الفصل الرابع

الموضوعات التي تركز عليها الجغرافيا السياسية

أولاً: الحد السياسي ودراسته من حيث التكوين المورفولوجي.
ثانياً: النزاعات التي تثيرها الحدود السياسية بين الدول المشتركة فيها وما يترتب على ذلك من أحداث على مستوى السياسة الدولية.

الحدود والتخوم:- دراسة الحدود والتخوم من أهم موضوعات الجغرافيا السياسية لكنها شهدت تراجعاً في الفترة الأخيرة ويرجع ذلك إلى الإحساس في المنازعات حول الحدود في أكثر مناطق العالم انشغالا في الجغرافيا السياسية وهي أوروبا وأمريكا الشمالية.

لكنها ما زالت موجودة وقائمة في دول الشرق الأوسط مثل العراق وإيران وبين لبنان و"إسرائيل" وبين تركيا واليونان.

ولضمان حسن الجوار رسمت الحدود السياسية الدولية بين الدول المتجاورة.

أولاً: تخوم أولية: primary frontiers
تمثل أقصى ما وصلت إليه سيطرة الدولة من الناحية.
أنواع التخوم:-

التعميرية وتخفي بمجرد تحديد الحدود القانونية للدولة

ثانياً: تخوم ثانوية secondary frontiers

تظهر كلما توغلت الدولة في مناطق جديدة لتوسيع النطاق الجغرافي لها فتضم مناطق جديدة لها ثم تبدأ لاحقاً في تعميرها واستيطانها.

الفرق بين التخوم والحدود :-

Poundaries الحدود

- عبارة عن خطوط فهي مفهوم مسافى.
- تتغير في مناطق النزاعات والصراعات المسلحة.
- تعمل على الترابط السكانى والإنتماء الوطنى للدولة
- التواصل والإتصال المقنن بين الشعوب وسكان الدول المختلفة.
- ذات توجيه داخلى فالحكومة هى التى خلقتها وهى التى تحافظ عليها مثل حركة الأكراد في مناطق كردستان.

التخوم porders

- عبارة عن مناطق من الارض لها بعدين طولى وعرضى فهي ذات مفهوم مساحى.
- لا يمكن تحريكها حتى لا تفقد خصائصها كتخوم.
- مناطق انتقالية فاصلة بين إقليمين مختلفين مثل الفصل بين إقليم زراعى وإقليم رعى.
- منعت التواصل بين الحضارات أو الدول بسبب طبيعتها الجغرافية الطاردة.
- ذات توجيه خارجى أى لا سلطة مباشرة للدولة عليها ولا ترتبط بها

معايير تخطيط الحدود السياسية :

- أولاً: الإعتبارات الإستراتيجية سادت في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى مثل تحديد وتعيين الحدود الفلسطينية المصرية بين بريطانيا والدولة العثمانية عام 1906.
- ثانياً: الإعتبارات الأثنوغرافية والحضارية سادت في فترة ما بين الحربين العالميتين.
- ثالثاً: الإعتبارات الإقتصادية أصبحت ذات أهمية قصوى في تخطيط الحدود السياسية بين الدول خاصة ما بعد الحرب العالمية والتي أدت إلى تقديمها على الإعتبارات الأخرى مثل قضية الحدود بين الكويت والسعودية وتدخلت بريطانيا لفض النزاع للحفاظ على مصالحها فعقدت مؤتمر العقير عام 1922 ونتج عنه اتفاقية حدود بين السعودية والكويت بمعرفة المندوب البريطانى وحصلت السعودية على ثلثى مساحة الصحراء.

- المنطقة المحايدة بين الدولتين منطقة جدباء خالية من السكان فلم تكن محل نزاع بينهما اتفقت الدولتان على اعتبارها منطقة محايدة وحسنت الخلاف ولهما حقوق متساوية عليها.
- بعد الحرب العالمية الأولى الدولتين غير قادرتين على الإتفاق في تقسيم منطقة مساحتها 2500 ميل مربع بجوار ساحل الخليج واستمر إلى أن تم إكتشاف البترول في حقل البرقان شمال المنطقة عام 1938 وتم التوصل إلى اتفاقية 7 يوليو 1965 وإقرارها في 18 ديسمبر 1969 حيث تم تقسيم المنطقة إلى قسمين متساويين بخط مستقيم طوله 34 ميل.
- الإعترافات المرتبطة بالقوة: عقد اتفاقات غير متكافئة بين الدول المتنازعة والمتصارعة على المناطق الحدودية الفاصلة بينها مثال الحدود السورية مع تركيا حيث تم اقتطاع لواء الإسكندرونة من سوريا وضمه لتركيا.

المفاوضات حول الحدود:

يحدد بدأ و تقدم المفاوضات قوة الدولة التي تجرى المفاوضات وتأخذ عدة أشكال:-

- 1- الدولة القوية هي من يحدد المفاوضات من أجل حل مشاكل إدارة الحدود وتجنب خطر اندلاع مواجهات عسكرية.
- 2- من أجل كسب السيادة على مناطق أرضية ليست تحت سيطرتها من قبل.
- 3- تقترح الدول الأضعف مفاوضات حول مناطق حدودية مع دول الجوار الأقوى من أجل حماية أراضيها التي تحت سادتها من أطماع الدول المجاورة الأقوى.

مثل الحدود بين سوريا ولبنان حيث تقترح لبنان على سوريا البدء في مفاوضات لتحديد وتعيين الحدود بينهما وتبادل السفراء واحترام استقلال وسيادة أراضي كل دولة استنادا إلى مبادئ القانون الدولي

- مراحل تخطيط الحدود:
- في عام 1928 تم تمييز ثلاثة مراحل لتطور الحدود وهي الإعداد أو التحضير والقرار والتنفيذ.

1- مرحلة التخصيص أو التقسيم: Allocation

وهي المرحلة الأولى نحو الإتفاق على الحدود بين الدول وتكون دقيقة تفصيلية لكافة أجزاء الحد السياسى وتبدأ بمفاوضات بين أطراف ليس لها خبرة في

تقسيم الأرض ويعتمدون على تقارير المختصين والخرائط ذات مقياس الرسم الصغير مثل: اتفاقية الحدود بين مصر و"إسرائيل" لعام 1949.

2- مرحلة التحديد: Demarcation

تبدأ بعد أن تتم عملية تقسيم المنطقة الحدودية وتحديدتها بشكل دقيق ووضع المعاهدة بين الدول المتجاورة يقوم المختصون بالمساحة والخرائط ونظم المعلومات الجغرافية والصور الجوية لرسم الحد السياسى على الخرائط.

3- مرحلة التعيين أو تخطيط الحد: Demarcation

وهى توقيع الحد على الطبيعة ووضع العلامات الحدودية الثابتة والدائمة ويقوم بها مندوبون رسميون من الطرفين مزودين بنص معاهدة الحدود والخرائط التفصيلية بغرض تعيين الحدود على الأرض بالطريقة المتفق عليها وهى أسلاك شائكة أو بناء جدران مثل خط الحدود الفاصل بين قطاع غزة وسيناء.

4- مرحلة إدارة الحد: Administration

وهى التى تمارس فيها الدولة سيادتها وسلطتها على الحد السياسى وتقوم بفرض أنظمتها وقوانينها وتتحكم بالحركة إلى داخل وخارج الحد السياسى.

وظائف الحدود السياسية :

أولاً: حماية الدولة والدفاع عنها من خلال توفير الأمن والحماية لحدودها ومقاومة الإعتداءات الخارجية لأراضيها وإقامة المنشآت و التحصينات العسكرية على طول حدودها مثل خط ماجينو الذى أقامته فرنسا مع حدودها الشمالية الشرقية لألمانيا ولمواجهته أقامت ألمانيا على الجانب الآخر خط سيجفريد.

التكنولوجيا الحديثة التى طرأت على وسائل الحرب أدت لتراجع وظيفة الحدود السياسية وبالتالي انهيار ما يسمى بنظرية الحدود الآمنة.

ثانياً: حماية الموارد الإقتصادية والثروات الطبيعية من الإستغلال من خلال وضع العلامات الحدودية على الطبيعة حتى تحفظ حقوقها الإقتصادية وتمنع أى منازعات أو صراعات محتملة مع دول الجوار مثل النزاع الذى نشب بين العراق وإيران على حقل الرميلة النفطى.

ثالثاً: تنظيم التبادل الإقتصادى التجارى وحماية منتجاتها الوطنية من المنافسة الخارجية وذلك بسن القوانين الخاصة بالسياسات الإقتصادية التى توفر القدرة على المنافسة فى الأسواق المحلية والدولية، ومن أجل ذلك تقام نقاط التفتيش والحواجز الجمركية لمنع تدفق السوق من السلع الأجنبية الرخيصة لأراضيها بشكل غير قانونى وفرض الرسوم الجمركية.

تساعد الحدود على مراقبة وفحص جودة البضائع والمنتجات المستوردة بإقامة نقاط التفتيش الصحي في الموانئ البحرية والبرية والجوية، وذلك منعا لانتقال الأمراض و ومطابقتها لمعايير الجودة والنوعية خوفا من انتهاء صلاحيتها أو احتوائها على مواد إشعاعية ضارة.

فقدت الحدود أهميتها بعد تأسيس منظمة التجارة العالمية عام 1995 اتجهت الدول المهيمنة بالترويج لسياسة الإقتصاد الحر لأنها تملك كفاءة انتاجية عالية ووثيقة من أن السوق العالمية سوف ترحب بسلعها الجيدة الصنع.

في حين تبنت بعض الدول سياسة الحمائية وهي مذهب اقتصادى لحماية الإنتاج الوطنى بفرض رسوم جمركية عالية على السلع المستوردة.

رابعاً: الوظيفة القانونية فلا يجوز اجتياز الحد السياسى لدولة ما إلا وفقا للقوانين والإجراءات المتعلقة بذلك، فالحد السياسى يمثل وضعاً قانونياً وسيادياً للدولة وملكية لها فتسعى الدول لتوقيع اتفاقيات حدودية ووضع الخرائط المتعلقة بها لدى منظمات دولية مثل الأمم المتحدة.

خامساً: تنظيم انتقال الأفراد من الناحية القانونية أى حركة الأفراد القادمين والمغادرين لأراضيها، فهي تختص بإصدار تأشيرات السفر عبر سفاراتها وقنصلياتها المنتشرة حول العالم، وتمنح سكانها الجنسية، وإصدار الجوازات، وتنظم علاقاتهم مع دول العالم المختلفة وتتابع مشاكلهم، تتحكم بحركة السياح والمرضى والطلبة، وتنظم الهجرة بين الدول المرسلة والمستقبلة، وتتصدى للهجرة غير الشرعية وتواجه مشكلة الاتجار بالبشر لأغراض مختلفة والتي أصبحت تؤرق المجتمع الدولى 0 والحفاظ على أمنها من شبكات التجسس والجريمة المنظمة 0

سادساً: تنظيم التبادل الدولى من خلال تبادل الثقافات والوصل بين البشر كما أنه ساعد على قيام تكتلات إقتصادية و أيدلوجية مثل الوضع القائم بين دول الإتحاد الأوروبى ودول مجلس التعاون الخليجى

تصنيف الحدود السياسية على اليابس:

1- الحدود الطبيعية: هي الحدود الطبيعية والتي لم يتدخل بوجودها الإنسان مثل البحار والمحيطات والسلاسل الجبلية والأنهار وغيرها من الظواهر ومنعاً للاحتكاكات السياسية والعسكرية بين الدول يتم توقيع اتفاقيات بين الدول كما هو بين "إسرائيل" والأردن.

2- الحدود العرقية أو الإثنو جغرافية: تفصل بين الشعوب ذات الخصائص الحضارية المميزة على أساس عوامل إثنو جغرافية مثل السلالة أو العرق أو القومية واللغة والدين وذلك لتقليص الاحتكاكات والنزاعات بين الدول ولمنع التسلسل والتهريب وطلباً للاستقرار الأمني في المناطق الحدودية بين الدول مثل منطقة جبل علبه.

3 - الحدود الفلكية: هي الحدود التي تتفق مع درجات الطول والعرض مثل حدود مصر مع السودان فهي تسير مع درجة عرض 22 شمالاً وكذلك الحد الغربي لسلطنة عمان مع كل من السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة مع درجة الطول 56 شرقاً.

4- الحدود التاريخية: وهي تسير مع التقسيمات السياسية القديمة والتي يمكن أن تتطابق مع الحدود الحضارية أو الطبيعية لذلك فهي تعتبر حدود معقدة.

5- الحدود الهندسية: هي خطوط مستقيمة أو منكسرة أو أقواس مرسومة من مراكز معينة وتحدد غالباً في المناطق الخالية من السكان مثل الصحارى (شبه الجزيرة) (الصحراء الإفريقية الكبرى) وحدود الكويت مع العراق والأردن.

6- الحدود المعقدة: هي التي تجمع بين نوعين من الحدود أو أكثر مثل حدود مصر الجنوبية مع السودان تجمع بين الحدود الفلكية والعرقية.

7- خطوط الهدنة: Armistice lines هي التي يتم تحديدها في مناطق الصراعات والحروب وهي خطوط وقف إطلاق نار، و وقف أعمال عدائية من خلالها إلى أن يتفق الطرفين المتنازعين على تسوية نهائية للحدود بينهما لتصبح حدود سياسية.

المياه الإقليمية (الحدود البحرية): Territorial waters

تعريفها:

هي المساحة المائية التي تجاور سواحل الدولة المطلّة على المسطحات المائية حسب المدى التي تعتمده الدولة وتعتبره ضمن ملكيتها وسيادتها القانونية وأمنها الإقليمي والإقتصادي ويحسب المدى من آخر نقطة تنحسر عنها المياه وقت الجزر بالنسبة للشاطئ الطبيعي أو من وراء الحواجز أو الأرض التي تحيط بالموانئ أو الأحواض البحرية.

مدى المياه الإقليمية تختلف الدول فيما بينها في مدى المياه الإقليمية التي تتبناه فبعض الدول تتبنى مدى ثلاثة أميال بحرية وبعضها ستة أميال أو سبعين ميلاً بحرياً

مثل موريتانيا أو إلى مانتى ميل بحرى مثل الصومال مما يعنى أنها تجعل مياهها الإقليمية تمتد إلى المنطقة الإقتصادية.

- يلاحظ أن القوى البحرية ذات الأساطيل البحرية مثل الولايات المتحدة تتبندى الثلاثة أميال لرغبتها في تسيد البحار واستغلال موارده على حساب الدول النامية اقتصاديا وتكنولوجيا.
- طرق تحديد المياه الإقليمية:

1- التطابق الشكلى Replica

يتم رسم خط المياه الإقليمية بشكل متطابق مع خط الساحل بكافة تعرجاته إلى مسافة داخل البحر مساوية للمدى التى تتبناه الدولة و تقره.

2- طريقة خط القاعدة أو الأساس Conventional:

عبارة عن رسم خطوط قاعدة مستقيمة بين كافة الرؤوس البارزة في خط الساحل أى تعديل شكل خط الساحل بحيث يصبح أقل تعقيدا وبعد ذلك يتم تحديد المياه الإقليمية إلى المدى الذى تتبناه الدولة.

3- طريقة الأقواس: Arc line method

يتم فيها رسم أقواس متقاطعة من كافة نقاط الساحل ومن خطوط القاعدة التى تحدد المياه الداخلية إن وجدت وترسم الأقواس بنصف قطر يساوى مسافة المياه الإقليمية التى تقره الدولة والشكل الناتج عن تقاطعه أو تلاقيها يمثل المياه الإقليمية.

4- نطاقات المياه البحرية:

يمكن تحديد خمسة نطاقات للمياه البحرية والمحيطية بعيدا عن خط الساحل كم

يلى:

1- المياه الداخلية: Inland zone

تشمل جميع الخلجان ومصبات الأنهار والبحيرات الساحلية التى تقع جميعها داخل خط القاعدة الذى يبدأ من بعدها تحديد المياه الإقليمية وتعتبر جزء من اليابس لأنها إما مغلقة مثل البحيرات الساحلية أو لأن مياهها العذبة متداخلة أكثر مع مياهها المالحة ولا تعتبر جزء من المياه البحرية.

2- المياه الإقليمية:

والتي تبدأ من خط القاعدة إلى مسافة محددة داخل حدود مياه البحر بوحدة قياس تسمى الميل البحرى، وتمارس الدولة سيادتها المطلقة عليها وتطبق أنظمتها وقوانينها، إلا فيما يختص بالمرور البرى للسفن الأجنبية، بشرط عدم إضرار بالدولة ذات المياه الإقليمية كما أن هذا لا يمتد أثره إلى السماح بالطيران فوق المياه الإقليمية للدولة إلا بإذن مسبق من الدولة.

3- المياه المتاخمة: Contiguous zone

وهى المناطق التى تمارس الدولة بها حق تفتيش السفن لمنع خرق قوانين الجمارك و التهريب و تمارس بها الدولة إجراءاتها المتعلقة بالحجر الصحى ومكافحة التلوث البيئى وملاحقة الهجرة غير الشرعية والقرصنة البحرية، وقد تستغل الدولة الموارد بالإتفاق مع الدول الأخرى.

4- الرفرف القارى: Conti nental zone

يمثل المنطقة الإنتقالية من اليابس إلى البحر أو المحيط وتغطيها المياه حتى عمق 200 متر ويختلف اتساعها حسب طبيعة الساحل وعلاقته بالبحر، و تمتاز بغناها من المكونات الحيوية نتيجة لترسيب الأنهار للمواد الغذائية وكذلك اختراق الضوء بسبب قلة العمق وارتفاع الأكسجين مما يساعد على نمو البلاكتون الذى يوفر البيئة الصالحة لنمو الأسماك.

5- أعالى البحار: High seas

وهى المنطقة التالية للرفرف القارى ولا حقوق سيادية لأى من الدول عليها بل هى ملك مشترك لدول العالم.

الأهمية الإقتصادية للمسطحات المائية :

بعد استنزاف الموارد ونتيجة للتطور العلمى والتكنولوجى والنجاح فى استغلال الموارد الطبيعية تحت مياه البحار والمحيطات مثل النفط والغاز مما أدى لتسابق الدول فى تحديد حدودها البحرية بعد الحدود الإقليمية وعقدت الإتفاقيات فيما بينها لتقسيم تلك المناطق:

1- وقعت مصر وقبرص اتفاقية لترسيم الحدود البحرية بينهما أوضع حدود لما يسمى بالمنطقة الإقتصادية.

2- تتوسط مصر بين تركيا واليونان لترسيم الحدود البحرية بينهما فى البحر المتوسط على غرار اتفاقها مع قبرص.

3- وقعت لبنان اتفاقية مع قبرص لترسيم الحدود البحرية وتحديد المنطقة الإقتصادية بينهما.

وقد نقت العديد من الشركات على حقول الغاز والبتروول مثل شركة الغاز البريطانية وشركة ccc فى الحدود المائية المجاورة لقطاع غزة وتم اكتشاف الغاز على بعد 31كم من الساحل، وشركة نوبل إنرجى الأمريكية نقت عن حقل تامار 1 على سواحل حيفا وكذلك شركة دانا للبتروول وفرنسا للغاز اكتشفتا حقل غاز غرب البرلس فى مصر.

الفصل الخامس

الجيوبوليتيكية

الفصل الخامس

الجيوپوليتيكية

الجغرافيا السياسية هو العلم الذي يبحث في تأثير الجغرافيا على السياسة أي الطريقة التي تؤثر بها المساحة، والتضاريس والمناخ على أحوال الدول والناس. فبسبب الجغرافيا كانت أثينا إمبراطورية بحرية، وبسببها أيضا كانت إسبرطة أقرب في طبيعتها إلى القوة البرية. وبسبب الجغرافيا أيضا، تمتعت الجزيرة البريطانية في القرن الثامن عشر بحرية الملاحة في البحار، في حين كانت بروسيا - وبسبب الجغرافيا أيضا- محاطة بالأعداء من جميع الجهات. ويعد الألمان أكثر من كتب في الجغرافيا السياسية

الجغرافيا السياسية ليست فقط تأثير الجغرافيا على السياسة ولكن أيضا تأثير السياسة على الجغرافيا فهناك الكثير من القرارات السياسية التي غيرت الوجه الجغرافي لمناطق كثيرة بالعالم كشق القنوات الكبرى كقناة السويس مثلا. وتعرف الجغرافيا السياسية وهي دراسة الوحدات أو الأقاليم السياسية كظواهرات

على سطح الأرض. الجيوپوليتيك.. طمع السياسة يشوه علماً في معناه البسيط يعني الجيوپوليتيك: "علم سياسة الأرض"، أي دراسة تأثير السلوك السياسي في تغيير الأبعاد الجغرافية للدولة. ويتداخل هذا المفهوم مع مضمون علم الجغرافيا السياسية الذي يعنى بدراسة تأثير الجغرافيا (الخصائص الطبيعية والبشرية) في السياسة. ولدى البعض فإن الجغرافيا السياسية تدرس الإمكانات الجغرافية المتاحة للدولة، بينما الجيوپوليتيك تعنى بالبحث عن الاحتياجات التي تتطلبها هذه الدولة لتنمو حتى ولو كان وراء الحدود. وبينما تشغل الجغرافيا السياسية نفسها بالواقع فإن الجيوپوليتيك تركز أهدافها للمستقبل.

من زحزحة الحدود إلى تزييف الخرائط

تنسب الجذور الأولى لدراسة الجغرافيا السياسية لأرسطو (383-322 ق.م) الذي كان أول من تحدث عن قوة الدولة المستمدة من توازن ثرواتها مع عدد ساكنيها. وترك أرسطو أفكاراً بالغة الأهمية عن وظائف الدولة ومشكلات الحدود السياسية.

وظلت أفكار ربط الممارسات السياسية بالخصائص الجغرافية تتطور بإسهامات فلسفية متعاقبة. واكتسبت هذه الأفكار دفعة قوية بما كتبه عبد الرحمن بن خلدون (1342-1405م) التي ظهرت في مقدمته الشهيرة.

وفضل ابن خلدون يتمثل في تشبيهه الدولة بالإنسان الذي يمر بخمس مراحل حياتية هي الميلاد والصبا والنضج والشيخوخة والموت.

وهذه الدورة الحياتية للدول وارتباطها بمقدرات الدولة أرضاً وسكاناً وموارد.. كانت أبرز ما نقله المفكرون الغربيون فيما بعد حينما تمت بلورة الصياغة العلمية لقيام وسقوط الحضارات.

ومع العقود الأولى للقرن 18 شهدت فرنسا ظهور أفكار جغرافية سياسية رصينة صاغها مونتسكيو (1689-1755) جنباً إلى جنب مع ما قدمه من أفكار اجتماعية وفلسفية وقانونية.

بيد أن اعتقاد مونتسكيو الشديد في الحتمية البيئية نحا به لأن يربط مجمل السلوك السياسي للدولة بالعوامل الطبيعية وعلى رأسها تحكم المناخ والطبوغرافيا مع التقليل من مكانة العوامل السكانية والاقتصادية.

وظل تقييم دور العوامل المكانية (الجغرافية) في تاريخ ومستقبل الدولة السياسي بدون صياغة متكاملة حتى ظهرت في المجتمع الألماني أفكار فردريك راتزل (1844-1904) والذي يرجع إليه الفضل في كتابة أول مؤلف يحمل عنوان "الجغرافيا السياسية" في عام 1897م.

أمن راتزل بأفكار داروين في التطور البيولوجي التي كانت سائدة في نهاية القرن التاسع عشر، وصبغ راتزل صياغته لتحليل قوة الدولة بالأفكار الداروينية التي طبقها الفيلسوف الإنجليزي سبنسر في العلوم الاجتماعية تحت اسم "الداروينية الاجتماعية".

وأكد راتزل على أن الدولة لا تثبت حدودها السياسية. وكانت الدولة لديه أشبه بإنسان ينمو فتضيق عليه ملابسه عاما بعد عام فيضطر إلى توسيعها، وكذلك ستضطر الدولة إلى زحزحة حدودها السياسية كلما زاد عدد سكانها وتعاضمت مطامحها.

وعلى الجانب الآخر من القارة الأوروبية نجد في هذه الحقبة الجغرافيين اليوغسلاف يطوعون الجغرافيا السياسية لتحقيق أهداف قومية، فلم يتورعوا معها أن يعبثوا بالخرائط السياسية لتحقيق مآربهم.

وكان المثال الأبرز هو الجغرافي اليوغسلافي الشهير يفيجيتش الذي "زيف" في خرائط الحدود الإثنية للقومية المقدونية -مستغلا شهرته الدولية والثقة الممنوحة له في مؤتمر الصلح في باريس 1919- ليخدم أغراضاً مفادها "سحب" أراض مقدونية وضمها إلى الصرب، وكانت المحصلة إذكاء الروح القومية للصرب

وطموحهم للتوسع. من الجغرافيا السياسية إلى الجيوبوليتيك في الوقت الذي كان فيه راتزل وسبنسر يتحدثان عن الجغرافيا السياسية كان بعض الجغرافيين الألمان يتحدثون عن علم السياسات الأرضية أو ما اصطلح على تسميته بالجيوبوليتيك. وقد بدا أنه إذا كانت الجغرافيا السياسية تنظر إلى الدولة كوحدة إستراتيجية فإن الجيوبوليتيك تعدّها كائناً عضوياً في حركة متطورة.

في هذه الأثناء كانت ألمانيا تعيش بعد الهزيمة التي منيت بها في الحرب العالمية الأولى، في انتكاسة قومية بسبب ما اقتطع منها من أراض كإجراءات عقابية لها من قبل المنتصرين، وتقسيم مستعمراتها بين إنجلترا وفرنسا، كما فرض عليها حصار عسكري ومالي.

وفيما بين الحربين كرّس الجغرافيون والسياسيون الألمان جهودهم للخروج بوطنهم من محنته، وخرجت لأول مرة دورية علمية تحمل عنوان "المجلة الجيوبوليتيكية" وضمت هجيناً من الفكر الجغرافي والتاريخي والسياسي والقومي والاسـ

وقد صيغ هذا الفكر في قوالب علمية رفعت شعار: "لا بد أن يفكر رجل الشارع جغرافياً وأن يفكر الساسة جيوبوليتيكياً".

وقد جاء هذا الشعار ليبرر الكم الهائل من المعلومات الجغرافية "المغلوبة" التي قدمت للشعب الألماني عن دول شرق أوروبا والاتحاد السوفيتي.

كما تم توظيف نتائج بحث الجغرافيا التاريخية والآثار لتقديم معلومات عن أحقية ألمانيا في أراض وبلدان تبعد عنها مئات الأميال شرق أوروبا.

وبالرغم مما قد نظنه من مهام علمية بريئة للجمعيات الجغرافية فإن دورها في خدمة التوسع الألماني كان جلياً واضحاً.

وتحت رعاية الجمعية الجغرافية الألمانية أنشئت في ميونخ عام 1924 المدرسة الجيوبوليتيكية التي رأسها الجغرافي السياسي كارل هوسهوفر.

وبجهود هذه المدرسة وبالأعداد المتواترة للدورية الجيوبوليتيكية جهّز الجغرافيون والسياسيون الفكر الألماني بعضوية الدولة وضرورة زحزحة حدودها لتشمل أراضي تتناسب مع متطلباتها الجغرافية وتحقق ضم الأراضي التي يقطنها الجـ

وقد جاء ذلك في ظل تنامي أفكار القومية الشيفونية الممزوجة بأغراض التوسع العسكري للحزب النازي.

وقد تلقف هتلر أفكار هوسهوفر وزملائه، كما استعان بأفكار الجغرافي الإنجليزي الشهير ماكندر (الذي كانت مقالاته تترجم إلى الدورية الجيوبوليتيكية)، خاصة تلك الأفكار التي صاغ من خلالها نظريته عن "قلب الأرض"، والتي تقول فحواها: إن من يسيطر على شرق أوروبا يسيطر على العالم. وتنبأ فيها بانتقال

السيطرة على العالم من القوى البحرية (إنجلترا وفرنسا) إلى القوى البرية (ألمانيا والاتحاد السوفيتي)

وجاءت أفكار هتلر بدءاً من كتاب "حياتي"، ومروراً بخطبه الحماسية، لتكرس مفهوم المجال الحيوي لألمانيا Lebensraum ، أي مساحتها الجغرافية اللانقطة بها وبالجنس الآري، ولتمثل أبرز مقومات القومية الاشتراكية (النازية) التي تبناها. وهكذا زاد التداخل في المفاهيم وصار الفصل صعباً بين الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيك والإمبريالية.

وصعدت الجيوبوليتيك إلى مصاف العلوم الكبرى خلال الحرب العالمية الثانية، حتى كتبت هزيمة ألمانيا نهاية لهذه المكانة.

وصار مفهوم الجيوبوليتيك بعد الحرب العالمية الثانية قرين التوظيف السيئ للجغرافيا السياسية، وهو ما أضر بتطوير الجيوبوليتيك والجغرافيا السياسية معاً. ووصل الأمر في بعض الدول إلى منع تدريس الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيك في جامعاتها؛ باعتبارهما علمين مشبوهين يسعيان إلى بذر العداء ويكرسان الأطماع القومية.

من الجيوبوليتيك إلى جغرافية الإمبريالية دون حاجة لتتنظير أكاديمي ومصطلحات ضخمة كانت إمبراطورية روسيا القيصرية ومنذ منتصف القرن السادس عشر تطبق فكرة الدولة العضوية Organic State حتى قبل أن تصاغ في قوال

وأرست روسيا المنهج الذي قامت عليه الأطماع الاستعمارية فيما بعد باعتمادها على الدور المحوري لجمع المعلومات الجغرافية عن الشعوب المجاورة وتدعيم رحلات علمية "بريئة" تقدم أبحاثاً في ميادين شتى لخدمة التوسع فيما بعد، وكان ذلك يجري على قدم وساق حتى أفول شمس الإمبراطورية القيصرية في 1917.

وبعد الحرب العالمية الثانية كان الاتحاد السوفيتي واحداً من تلك الدول التي منعت تدريس الجيوبوليتيك في جامعاتها؛ استناداً إلى أن الجيوبوليتيك والجغرافيا السياسية في ألمانيا جلبا الكوارث على القارة الأوروبية والعالم بأسره.

ولم تظهر كتب في هذين العلمين ذات قيمة إلا في منتصف التسعينيات، هذا بالرغم من أن الاتحاد السوفيتي نفسه كان أكثر النماذج وضوحاً في التطبيق الحرفي لمبادئ الطمع الجغرافي "السمعة السيئة للجيوبوليتيك" لدرجة أن من أكثر النكات شيوعاً في أوروبا في الستينيات كانت تلك التي يسأل فيها مدرس تلميذه سؤالاً جغرافياً مباشراً: "من هم جيران الاتحاد السوفيتي؟" وبدلاً من أن يعدد الطالب أسماء الدول المجاورة تأتي إجابته: "جيران الاتحاد السوفيتي هم من يرغب هذا الاتحاد في أن يصبحوا جيراناً له"؛ في دلالة تهكمية على أن هذه الحدود متغيرة، وتعتمد على مستوى التوسع والضم الذي تمليه الأطماع الجغرافية السوفيتية.

وبتفكك الاتحاد السوفيتي مع نهاية الثمانينيات من القرن العشرين، وبتغير القدرات العسكرية النسبية له انكمشت الحدود، وصارت تطال الحدود الأصلية لروسيا ما قبل السوفيتية.

وقد دعا هذا أحد المفكرين السياسيين صبيحة تفكك الاتحاد السوفيتي إلى أن يعبر درامياً عن هذا بقوله: "يبدو أنه لا مفر من أن نتجرع الكأس حتى الثمالة؛ بالأمس انهدم البيت السوفيتي، واليوم تتهدم روسيا. وما الشيشان إلا مشهد في فصول تهدم البيت. أما بقية المشاهد فستتوالى بخروج مناطق الحكم الذاتي، تعقبها الأقاليم، ثم تتعاقب المشاهد والفصول عبر انفصال وحدات أصغر فأصغر."

وعلى الجانب الآخر كان قد ظهر على المسرح الجغرافي -مع خروج الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية كأكثر قوة عالمية- مفهوم جديد للجيوبوليتيك وهو "الحدود الشفافة"، التي يقصد بها الهيمنة الأمريكية الاقتصادية والعسكرية دون حدود خرائطية للدولة. أو ما يسميه تاييلور -أشهر باحثي الجغرافيا السياسية في العقدين الأخيرين- بـ "جغرافية السيطرة من دون إمبراطورية".

والسيطرة من دون إمبراطورية هي أفضل تجسيد لتطوير الأفكار الجيوبوليتيكية، بعيداً عن الأطر التقليدية للنمو العضوي للدولة. وهذا التطوير يسمح بأن يصبح العالم كله "المجال الحيوي" للولايات المتحدة، بعدما عاشت الأخيرة حتى الحرب العالمية الثانية في عزلة جغرافية ممتعة اختارتها لنفسها.

وأهم سمة في هذا المجال الحيوي هو "اللامواجهة"؛ استناداً إلى مزايا الحرب الإلكترونية، وتوظيف الخصوم المتناحرين في إدارة الحرب بالإلحاح، أو التدخل في لحظة محددة باعتباره تدخلاً إنسانياً لصالح العدل والحرية.

وفي نفس الوقت تدفع الولايات المتحدة في هذا المجال الحيوي -دون حاجة لتوسيع الحدود- بمبيعات أسلحتها وتحصل شركاتها على أفضل فرص "إعادة الإعمار" وحقوق التنقيب عن الثروات، ناهيك عن الأفراد بغسل الأدمغة بأفكار جديدة أعد لها سلفاً. جيوبوليتيكية العالم العربي.. تآكل من الداخل والخارج يعتري وضع الحدود الدولية للعالم العربي ثلاثة أنماط من المشكلات على الأقل:

- مشكلات الحدود الخارجية.
- تآكل الأراضي العربية من الداخل عبر الاستيلاء الإسرائيلي التدريجي على الأراضي العربية.
- احتمالات البلقنة الداخلية، التي تستهل بالعراق والسودان، ومعروف وجود سيناريوهات مشابهة للمغرب ومصر ولبنان.

وعلى الرغم من أن غزو العراق للكويت قد فسرتة نظرية الطمع الجغرافي في الثروة النفطية الكويتية فإن كثيراً من الجغرافيين ما زالوا يؤمنون بأن ضيق النافذة

الساحلية المتاحة للعراق على الخليج العربي والتي تزامنه فيها إيران، لم تكن لتتناسب مع قدرات العراق وطموحاته، وهو ما دفعه لاستخدام فائض القوة في توسيع "ثيابه" على حساب الجيران .

وفي نحو عقد واحد من الزمان يتبدل الوضع الجيوبوليتيكي للعراق ويخضع لطموحات القوى الاستعمارية بتقسيمه إلى ثلاث دول منفصلة:

- دولة كردية في مرسى القلمرسى القلمرسى القلمرسى القلمرسى القلم.

- دولة شيعية في الجنوب.

- دولة سنية في الوسط.

- وهو إذا ما تحقق فسيضمن -لعمود متتابعة- انشغال العراق بحرب أهلية لإعادة توحيد أراضيه في أدنى حد لوضعها قبل الثاني من أغسطس 1990 حينما أغرته قوته بأن حدوده العضوية أن لها أن تنمو.

- وعلى نفس المنوال تنسج القوى الاستعمارية المتربصة بالعالم العربي خططها لتقسيم السودان.

- وإذا ما تحقق السيناريو بقيام دولة (يسمونها "مسيحية") في جنوب السودان؛ كان ذلك بمثابة دمج بظلامية مستقبل الدول العربية التي تشهد تنوعاً عرقياً أو دينياً داخل حدود الدولة الواحدة (كسوريا ولبنان ومصر والجزائر وتونس والمغرب، وبعض دول الخليج باختلافاتها المذهبية).

- ويأتي هذا التوجه بينما لا تفتأ إسرائيل تناوش مصر وسوريا ولبنان والأردن بالتهديد بتوسيع الحدود الإسرائيلية في أي لحظة وتحت أي ذريعة، وهو ما يؤكد أن الأفكار الجيوبوليتيكية ما زالت حاضرة في العالم العربي، ولكن بصورة يبدو فيها العالم العربي مفعولاً به وليس فاعلاً.

- وتجسد حدود إسرائيل نموذجاً مثالياً للحدود العضوية؛ فدولة الاحتلال بدأت بعدة مستوطنات في نهاية القرن التاسع عشر ثم مع ما اكتسبته القوات الإسرائيلية من دعم بريطاني بدا التوسع التدريجي على حساب الأراضي العربية، وظلت متجهة للكسب الجغرافي في صالح إسرائيل حتى عام 1973 حينما تغيرت هذه المعادلة رغم القدرات الإسرائيلية المتزايدة عسكرياً وبشرياً.

وكان منتظراً أن تبقى الحدود واسعة فضفاضة مؤكدةً لإستراتيجية نقل المعارك إلى أرض الأعداء، غير أن العوامل الداخلية الإسرائيلية والسعي إلى إقامة مجتمع مستقر يعيش دولة الرفاهية وليس دولة الحرب دفع إسرائيل إلى القبول - كرهاً- بتضييق حدودها، وهو ما لا يتوقع أن يستمر طويلاً.

فالأحدود الإسرائيلية الحالية لا تتفق مع الأفكار الجيوبوليتيكية التي تناسب قدراتها العسكرية، كما لا تتناسب مع أطماعها الجغرافية، في الثروة المائية بخاصة، ولا رؤاها الصهيونية.

أضف إلى ذلك أن العالم العربي يتعرض لتهديد بحبس المياه عنه؛ إذ تنبع أنهاره الكبرى (كالنيل ودجلة والفرات) من أراضٍ أجنبية، وترتبط الأوضاع الجيوبوليتيكية للحدود العربية بما يسمى "حروب المياه" المنتظرة وهو ما يحتاج إلى معالجة مستقلة. نحو جيوبوليتيكية عربية لا يمكن القول بأن هناك رؤية جيوبوليتيكية واضحة للعالم العربي المعاصر، فعلى مدى قرون عديدة انشغل العالم العربي "بإزالة عدوان" الأطماع الجيوبوليتيكية للقوى العالمية التي اجتاحت أراضيه واستغلت ثرواته.

ورغم أننا يمكن أن ننظر إلى الفتوحات الإسلامية من زاوية جيوبوليتيكية لنشر أفكار الدين الإسلامي، فإن المنصفين يقولون بأن ذلك الاتساع للدولة الإسلامية لم يقيم على أساس استعماري ينكر الآخر ويزدريه وينهب ثرواته ويحطم حضاراته. ويكفى أن نستدعي إلى الذهن الإسهامات العلمية والأدبية والروحية لمسلمي البلاد التي ضمتها دولة الخلافة العربية؛ كشاهد على التعايش والتفاعل والانتماء، بل ولغير المسلمين الذين شاركوا في النهضة الإسلامية وتم احترام حريتهم الدينية وصونها.

وبالمثل، فإنه إذا ما قدر للعالم العربي أن يُفبق من مشاكله -وهذا آت لا محالة- فإن ما قدمه المفكر الجغرافي المبدع جمال حمدان في تناوله للمصالح الجيوبوليتيكية لمصر (في مؤلفه الفريد عن شخصية مصر) يمكن أن يكون أساساً لنموذج تُحدد فيه الدوائر الجغرافية للمصالح العربية القائمة على التبادل والتكامل مع ما يجاورها من قوى سياسية.

وللعالم العربي رصيد حضاري كبير في الدوائر التي تحيط به: كدائرة البحر المتوسط والدائرة الأفريقية ووسط وشرق آسيا.

غير أن المطلوب -على بساطته- عسير؛ فلا بد مما يلي:

- (1) أن ينهي العالم العربي صراعه مع إسرائيل (بصورة أو بأخرى)
- (2) أن يفوّت الفرصة على أعدائه الساعين لحبسه في خندق الرجعية والتطرف.

(3) أن يتوحد في صورة من التجمع الإقليمي.

(4) أن يرسى أساساً أكثر فاعلية للديمقراطية.

- (5) عندها ستصبح الفرصة سانحة أمام التفاعل والتكامل الحضاري (وليس النمو العضوي) مع جيرانه، القوي منهم والضعيف، وهذا كفيل بأن يجعل العالم العربي -حتى بعد نفاد النفط- قوة لا يستهان بها.

الفصل السادس

علم الجيوبوليتيك والفرق بين الجغرافيا السياسية

الفصل السادس

علم الجيوبوليتيك والفرق بين الجغرافيا السياسية

إن علم الجيوبوليتيك له أهميه كبيرة اهتمت به الدول الأوربية في القرن التاسع عشر.. وكان ذلك سبب في الحروب التي حصلت بينهم إما على المستعمرات أو على أراضي الدول الأوربية نفسها

بحيث تذبذب علم الجيوبولوتيك بين القبول والإهمال..
و كل هذا يبين الاهمية التي حضي بها علم الجيوبوليتيك

معنى علم الجيوبولوتيك:

في معناه البسيط يعني الجيوبوليتيك: "علم سياسة الأرض"، أي دراسة تأثير السلوك السياسي في تغيير الأبعاد الجغرافية للدولة.
و يتداخل هذا المفهوم مع مضمون علم الجغرافيا السياسية الذي يعنى بدراسة تأثير الجغرافيا (الخصائص الطبيعية والبشرية) في السياسة.
ولدى البعض فإن الجغرافيا السياسية تدرس الإمكانات الجغرافية المتاحة للدولة، بينما الجيوبوليتيك تعنى بالبحث عن الاحتياجات التي تتطلبها هذه الدولة لتنمو حتى ولو كان وراء الحدود.
و بينما تشغل الجغرافيا السياسية نفسها بالواقع فإن الجيوبوليتيك تركز أهدافها للمستقبل.

من زحزحة الحدود إلى تزييف الخرائط

تنتسب الجذور الأولى لدراسة الجغرافيا السياسية لأرسطو (383-322 ق.م) الذي كان أول من تحدث عن قوة الدولة المستمدة من توازن ثرواتها مع عدد ساكنيها. وترك أرسطو أفكاراً بالغة الأهمية عن وظائف الدولة ومشكلات الحدود السياسية.
و ظلت أفكار ربط الممارسات السياسية بالخصائص الجغرافية تتطور بإسهامات فلسفية متعاقبة. واكتسبت هذه الأفكار دفعة قوية بما كتبه عبد الرحمن بن خلدون (1342-1405م) التي ظهرت في مقدمته الشهيرة.
و فضل ابن خلدون يتمثل في تشبيهه الدولة بالإنسان الذي يمر بخمس مراحل حياتية هي الميلاد والصبا والنضج والشيخوخة والموت.

و هذه الدورة الحياتية للدول وارتباطها بمقدرات الدولة أرضاً وسكاناً وموارد.. كانت أبرز ما نقله المفكرون الغربيون فيما بعد حينما تمت بلورة الصياغة العلمية لقيام وسقوط الحضارات.

و مع العقود الأولى للقرن 18 شهدت فرنسا ظهور أفكار جغرافية سياسية رصينة صاغها مونتسكيو (1755-1689) جنباً إلى جنب مع ما قدمه من أفكار اجتماعية وفلسفية وقانونية.

بيد أن اعتقاد مونتسكيو الشديد في الحتمية البيئية نحا به لأن يربط مجمل السلوك السياسي للدولة بالعوامل الطبيعية وعلى رأسها تحكم المناخ والطبوغرافيا مع التقليل من مكانة العوامل السكانية والاقتصادية.

و ظل تقييم دور العوامل المكانية (الجغرافية) في تاريخ ومستقبل الدولة السياسي بدون صياغة متكاملة حتى ظهرت في المجتمع الألماني أفكار فردريك راتزل (1844-1904) والذي يرجع إليه الفضل في كتابة أول مؤلف يحمل عنوان "الجغرافيا السياسية" في عام 1897م.

آمن راتزل بأفكار داروين في التطور البيولوجي التي كانت سائدة في نهاية القرن التاسع عشر، وصبغ راتزل صياغته لتحليل قوة الدولة بالأفكار الداروينية التي طبقها الفيلسوف الإنجليزي سبنسر في العلوم الاجتماعية تحت اسم "الداروينية الاجتماعية".

و أكد راتزل على أن الدولة لا تثبت حدودها السياسية. وكانت الدولة لديه أشبه بإنسان ينمو فتضيق عليه ملابسه عاما بعد عام فيضطر إلى توسيعها، وكذلك ستضطر الدولة إلى زحزحة حدودها السياسية كلما زاد عدد سكانها وتعاضمت مطامحها.

و على الجانب الآخر من القارة الأوروبية نجد في هذه الحقبة الجغرافيين اليوغسلاف يطوعون الجغرافيا السياسية لتحقيق أهداف قومية، فلم يتورعوا معها أن يعبثوا بالخرائط السياسية لتحقيق مآربهم.

و كان المثال الأبرز هو الجغرافي اليوغسلافي الشهير فيجيتش الذي "زيف" في خرائط الحدود الإثنية للقومية المقدونية -مستغلا شهرته الدولية والثقة الممنوحة له في مؤتمر الصلح في باريس 1919- ليخدم أغراضاً مفادها "سحب" أراض مقدونية وضمها إلى الصرب، وكانت المحصلة إنكفاء الروح القومية للصرب وطموحهم للتوسع.

من الجغرافيا السياسية إلى الجيوبوليتيك

في الوقت الذي كان فيه راتزل وسبنسر يتحدثان عن الجغرافيا السياسية كان بعض الجغرافيين الألمان يتحدثون عن علم السياسات الأرضية أو ما اصطلح على تسميته بالجيوبوليتيك.

و قد بدا أنه إذا كانت الجغرافيا السياسية تنظر إلى الدولة كوحدة إستراتيجية فإن الجيوبوليتيك تعدها كائناً عضوياً في حركة متطورة.

في هذه الأثناء كانت ألمانيا تعيش بعد الهزيمة التي منيت بها في الحرب العالمية الأولى، في انتكاسة قومية بسبب ما اقتطع منها من أراض كإجراءات عقابية لها من قبل المنتصرين، وتقسيم مستعمراتها بين إنجلترا وفرنسا، كما فرض عليها حصار عسكري ومالي.

و فيما بين الحربين كرّس الجغرافيون والسياسيون الألمان جهودهم للخروج بوطنهم من محنته، وخرجت لأول مرة دورية علمية تحمل عنوان "المجلة الجيوبوليتيكية" وضمت هجيناً من الفكر الجغرافي والتاريخي والسياسي والقومي والاستعماري.

و قد صيغ هذا الفكر في قوالب علمية رفعت شعار: "لا بد أن يفكر رجل الشارع جغرافياً وأن يفكر الساسة جيوبوليتيكياً".

و قد جاء هذا الشعار ليبرر الكم الهائل من المعلومات الجغرافية "المغلوبة" التي قدمت للشعب الألماني عن دول شرق أوروبا والاتحاد السوفيتي.

كما تم توظيف نتائج بحث الجغرافيا التاريخية والآثار لتقديم معلومات عن أحقية ألمانيا في أراض وبلدان تبعد عنها مئات الأميال شرق أوروبا.

و بالرغم مما قد نظنه من مهام علمية بريئة للجمعيات الجغرافية فإن دورها في خدمة التوسع الألماني كان جلياً واضحاً.

و تحت رعاية الجمعية الجغرافية الألمانية أنشئت في ميونخ عام 1924 المدرسة الجيوبوليتيكية التي رأسها الجغرافي السياسي كارل هوسهوفر.

و بجهود هذه المدرسة وبالأعداد المتواترة للدورية الجيوبوليتيكية جهّز الجغرافيون والسياسيون الفكر الألماني بعضوية الدولة وضرورة زحزحة حدودها لتشمل أراضي تتناسب مع متطلباتها الجغرافية وتحقق ضم الأراضي التي يقطنها الجنس الآري.

و قد جاء ذلك في ظل تنامي أفكار القومية الشيفونية الممزوجة بأغراض التوسع العسكري للحزب النازي.

و قد تلقف هتلر أفكار هوسهوفر وزملائه، كما استعان بأفكار الجغرافي الإنجليزي الشهير ماكندر (الذي كانت مقالاته تترجم إلى الدورية الجيوبوليتيكية)، خاصة تلك الأفكار التي صاغ من خلالها نظريته عن "قلب الأرض"، والتي تقول فحواها: إن من يسيطر على شرق أوروبا يسيطر على العالم. وتنبأ فيها بانتقال

السيطرة على العالم من القوى البحرية (إنجلترا وفرنسا) إلى القوى البرية (ألمانيا والاتحاد السوفيتي).

و جاءت أفكار هتلر بدءاً من كتاب "حياتي"، ومرورا بخطبه الحماسية، لتكرس مفهوم المجال الحيوي لألمانيا Lebensraum، أي مساحتها الجغرافية اللائقة بها وبالجنس الآري، ولتمثل أبرز مقومات القومية الاشتراكية (النازية) التي تبناها. و هكذا زاد التداخل في المفاهيم وصار الفصل صعباً بين الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيك والإمبريالية.

و صعدت الجيوبوليتيك إلى مصاف العلوم الكبرى خلال الحرب العالمية الثانية، حتى كتبت هزيمة ألمانيا نهاية لهذه المكانة.

و صار مفهوم الجيوبوليتيك بعد الحرب العالمية الثانية قرين التوظيف السيئ للجغرافيا السياسية، وهو ما أضر بتطوير الجيوبوليتيك والجغرافيا السياسية معاً. و وصل الأمر في بعض الدول إلى منع تدريس الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيك في جامعاتها؛ باعتبارهما علمين مشبوهين يسعيان إلى بذر العداء ويكرسان الأطماع القومية.

من الجيوبوليتيك إلى جغرافية الإمبريالية

دون حاجة لتتنظير أكاديمي ومصطلحات ضخمة كانت إمبراطورية روسيا القيصرية ومنذ منتصف القرن السادس عشر تطبق فكرة الدولة العضوية Organic State حتى قبل أن تصاغ في قوالب نظرية. و أرسى روسيا المنهج الذي قامت عليه الأطماع الاستعمارية فيما بعد باعتمادها على الدور المحوري لجمع المعلومات الجغرافية عن الشعوب المجاورة وتدعيم رحلات علمية "بريئة" تقدم أبحاثاً في ميادين شتى لخدمة التوسع فيما بعد، وكان ذلك يجري على قدم وساق حتى أقول شمس الإمبراطورية القيصرية في 1917.

و بعد الحرب العالمية الثانية كان الاتحاد السوفيتي واحداً من تلك الدول التي منعت تدريس الجيوبوليتيك في جامعاتها؛ استناداً إلى أن الجيوبوليتيك والجغرافيا السياسية في ألمانيا جلبا الكوارث على القارة الأوروبية والعالم بأسره.

و لم تظهر كتب في هذين العلمين ذات قيمة إلا في منتصف التسعينيات، هذا بالرغم من أن الاتحاد السوفيتي نفسه كان أكثر النماذج وضوحاً في التطبيق الحرفي لمبادئ الطمع الجغرافي "السمعة السيئة للجيوبوليتيك" لدرجة أن من أكثر النكات شيوعاً في أوروبا في الستينيات كانت تلك التي يسأل فيها مدرس تلميذه سؤالاً جغرافياً مباشراً: "من هم جيران الاتحاد السوفيتي؟" وبدلاً من أن يعدد الطالب أسماء الدول المجاورة تأتي إجابته: "جيران الاتحاد السوفيتي هم من يرغب هذا الاتحاد في

أن يصبحوا جيراناً له"؛ في دلالة تهكمية على أن هذه الحدود متغيرة، وتعتمد على مستوى التوسع والضم الذي تمليه الأطماع الجغرافية السوفيتية. وبتفكك الاتحاد السوفيتي مع نهاية الثمانينيات من القرن العشرين، وبتغير القدرات العسكرية النسبية له انكششت الحدود، وصارت تطال الحدود الأصلية لروسيا ما قبل السوفيتية.

و قد دعا هذا أحد المفكرين السياسيين صبيحة تفكك الاتحاد السوفيتي إلى أن يعبر درامياً عن هذا بقوله: "يبدو أنه لا مفر من أن نتجرع الكأس حتى الثمالة؛ بالأمس انهدم البيت السوفيتي، واليوم تتهدم روسيا. وما الشيشان إلا مشهد في فصول تهدم البيت. أما بقية المشاهد فستتوالى بخروج مناطق الحكم الذاتي، تعقبها الأقاليم، ثم تتعاقب المشاهد والفصول عبر انفصال وحدات أصغر فأصغر".

و على الجانب الآخر كان قد ظهر على المسرح الجغرافي -مع خروج الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية كأكثر قوة عالمية- مفهوم جديد للجيوبوليتيك وهو "الحدود الشفافة"، التي يقصد بها الهيمنة الأمريكية الاقتصادية والعسكرية دون حدود خرائطية للدولة. أو ما يسميه تايلور -أشهر باحثي الجغرافيا السياسية في العقدين الأخيرين- بـ"جغرافية السيطرة من دون إمبراطورية".

و السيطرة من دون إمبراطورية هي أفضل تجسيد لتطويع الأفكار الجيوبوليتيكية، بعيداً عن الأطر التقليدية للنمو العضوي للدولة. و هذا التطوير يسمح بأن يصبح العالم كله "المجال الحيوي" للولايات المتحدة، بعدما عاشت الأخيرة حتى الحرب العالمية الثانية في عزلة جغرافية ممتعة اختارتها لنفسها.

و أهم سمة في هذا المجال الحيوي هو "اللامواجهة"؛ استناداً إلى مزايا الحرب الإلكترونية، وتوظيف الخصوم المتناحرين في إدارة الحرب بالإنابة، أو التدخل في لحظة محددة باعتباره تدخلاً إنسانياً لصالح العدل والحرية.

و في نفس الوقت تدفع الولايات المتحدة في هذا المجال الحيوي -دون حاجة لتوسيع الحدود- بمبيعات أسلحتها وتحصل شركاتها على أفضل فرص "إعادة الإعمار" وحقوق التنقيب عن الثروات، ناهيك عن الانفراد بغسل الأدمغة بأفكار جديدة أعد لها سلفاً.

من أهم الدراسات السابقة في جغرافية الانتخابات

بالرغم من قدم الدراسات والأبحاث في موضوعات الجغرافيا السياسية إلا أن موضوع جغرافية الانتخابات قد تأخر الاهتمام به على مستوى الوطن العربي و لم يحظ بالدراسات الكافية، و يعزى ذلك إلى صعوبة توضيح البعد المكاني للانتخابات و لعدم توفر المعلومات الكافية حول النتائج، و الخوف من طرق هذا الموضوع

لأسباب سياسية ترتبط بالأنظمة السياسية نفسها، و مع ذلك سنحاول استعراض أهم الدراسات التى تناولت هذا الموضوع على النحو التالى

1- غانم النجار و جاسم محمد كرم (1987) موضوعا عن السلوك الانتخابى فى الكويت، و أكدت الدراسة أهمية البعد التاريخى فى العملية الانتخابية، فضلا عن تناولها للعوامل الجغرافية التى تؤثر فى قرار الناخب عند الادلاء بصوته، كما ركزت الدراسة على أهمية الحملات الانتخابية فى توعية الناخبين و التأثير على سلوكهم.

2- كما درس جاسم محمد كرم (1988) موضوعا بعنوان جغرافية الانتخابات تطورها و منهجيتها دراسة فى الجغرافيا السياسية، حيث أشار إلى تعريف جغرافية الانتخابات و تطورها و منهج البحث فيها و علاقتها بالجغرافيا و العلوم الأخرى، و لمح بإيجاز إلى مناهج البحث فى هذا الحقل و ركز على منهجين رئيسيين، هما منهج التحليل الكلى و التحليل المكانى و أشار إلى إمكانية تطبيقهما فى الكويت و مصر، و اختتم بحثه بخلاصة مفادها أن هذا الحقل يعد إضافة جديدة و بعدا جديدا للجغرافيا السياسية

3- تعرض محمد محمود الديب (1997) لهذا الموضوع ضمن كتابه الجغرافيا السياسية منظور معاصر، حيث أفرد فصلا خاصا به تناول فيه تعريف جغرافية الانتخابات و مناهجها، كما درس أشكال الانحراف مكانى و طرق التلاعب بحدود الدوائر الانتخابية و جغرافية الحملة الانتخابية، و تعرض لمناهج البحث فى جغرافية الانتخابات و ركز على منهجين رئيسيين هما الأول: المنهج المساحى، و الثانى: المنهج المكانى، و أشار أخيرا إلى أهمية النظام الانتخابى و أثره فى الحياة السياسية، وأوصى الباحث فى هذا الحقل بأن يتوخى الدقة و الحيادية عند دراسة موضوع من هذا النوع تجنباً لما يمكن للميول السياسية و الأحكام المسبقة أن تفعله فى مسار البحث و نتائجه

4- قامت ثناء عمر (2000 – 2001) بإجراء دراستين عن جغرافية الانتخابات الأولى بعنوان الخريطة الانتخابية لمحافظة المنيا و ناقشت فيها الدوائر الانتخابية و اللجان الفرعية و الناخبين أما الثانية بعنوان انتخابات مجلس الشعب 2000 فى الدائرة الأولى بمحافظة المنيا تناولت هذه الدراسة التوزيع الجغرافى للناخبين و الدوائر الانتخابية بمحافظة المنيا، كما أظهرت فيها الاختلاف بين ناخبى الريف و الحضر.

5- قام السيد محمد محمد الزغبى (2004) بدراسة عن خريطة الدوائر الانتخابية فى مصر – دراسة فى الجغرافيا السياسية، و تناول فيها التطور التاريخى

للدوائر الانتخابية في مصر، و التوزيع الجغرافي للناخبين و المرشحين، كما قام بدراسة السلوك التصويتي و عرض مقترحات لنظام انتخابي جديد يتناسب و الأوضاع السياسية و الاجتماعية المصرية، و أهم هذه الأنظمة نظام القائمة المشتركة و هو نظام يجمع بين النظام الفردي و الانتخاب بالقائمة و يتطلب قدرا عاليا من الثقافة و التعليم للناخبين، كما أشار إلى امكانية الإبقاء على النظام الفردي مع إعادة تقسيم الدوائر الانتخابية بشكل يتلافى العيوب التي ظهرت في ظل هذا النظام.

6- تعرض عبد الجليل عبد الفتاح (2004) لهذا الموضوع فكتابه المعنون جغرافية الانتخابات في اليمن و درس فيه الدوائر الانتخابية في اليمن و توزيع الناخبين و المرشحين على الدوائر، كما ناقش النظام الانتخابي في اليمن و أثره على التوزيع الجغرافي للدوائر، و قدم في الفصل الأول تعريفات للجغرافيا الانتخابية و مناهج البحث فيها و علاقتها بالعلوم الأخرى و في الفصل الثاني تناول العوامل الجغرافية المؤثرة في الانتخابات، أما في الفصل الثالث فتناول التنظيم المكاني للانتخابات في اليمن، و في الرابع و الأخير تناول التحليل الجغرافي لنتائج الانتخابات في اليمن، و في نهاية الكتاب أشار إلى العديد من النتائج و التوصيات الهامة و المفيدة.

7- كما تناول سامح عبد الوهاب (2005) بحثا بعنوان خريطة مصر الانتخابية مع التطبيق على محافظة الجيزة، و فيه تناول التنظيم المكاني للدوائر الانتخابية بالمحافظة، و قام بعمل نموذج اتساق للدوائر الانتخابية في المحافظة و ذلك من خلال بناء خرائط مركبة من عدد من المتغيرات التي تتفاعل معا بحيث تؤثر في النهاية في تشكيل الظاهرة محل الدراسة، و تظهر في النهاية إلى أي حد تمثل الدوائر وضعا متوسطا بالنسبة لجملة المتغيرات المؤثرة في تشكيل الدوائر الانتخابية في المحافظة.

8- قام حسن قطب حسن قطب (2007) بدراسة عن الانتخابات البرلمانية في محافظة اسيوط- دراسة في الجغرافية السياسية، ويتناول فيها التوزيع الجغرافي للدوائر الانتخابية بمحافظة اسيوط، و التوزيع الجغرافي للناخبين في محافظة اسيوط، الخصائص العامة للمرشحين، و السلوك التصويتي و قام التحليل الجغرافي لنتائج الانتخابات في المحافظة.

هناك العديد من الدراسات غير العربية التي تناولت موضوع جغرافية الانتخابات و تطبيقاتها العملية في العديد من دول العالم المختلفة، و أبرز تلك الدراسات:

1- أشار بريسكوت Prescott إلى أنه فى عام 1913 نشر سيجفريد Siegfried بحثا عن جغرافية التصويت فى فرنسا، و فسر تباين أنماط التصويت بأنه انعكاس للتنظيمات المكانية، و ربط بين التصويت و ظروف البيئة الطبيعية و أثرها فى توجيه السلوك الانتخابى للمواطن الفرنسى، و أشار أيضا إلى أن كرهيل (1916) نشر بحثا هو الآخر عن التأثيرات الجغرافية فى الانتخابات البريطانية، و أوضح فى دراسته أن هناك ارتباطا بين المناطق الصناعية و الزراعية الفقيرة و بين التصويت لصالح مرشح حزب الأحرار، بينما كان سكان المناطق الزراعية و الصناعية الغنية يصوتون لصالح حزب المحافظين.

2- تناول ساور Sauer موضوعا عن رسم الدوائر الانتخابية الأمريكية بطريقة تسمى Gerrymandering، و لاحظ انتشار هذه الظاهرة فى عدد من الولايات منها ميزورى، اركنساس، كنتاكي، و اقترح إعادة رسم تلك الدوائر على أسس جغرافية بحتة لتحقيق عدالة التصويت داخل الولايات المتحدة.

3- فسر رايت (1932) الطرق الكارتوجرافية فى عرض نتائج الانتخابات على خرائط حيث كانت وسليته فى التحليل، و أظهر عليها المؤثرات الجغرافية المختلفة فى سلوك الناخبين فى الولايات المتحدة الأمريكية.

4- أما سيجفريد (Siegfried 1947) فقد أوضحت دراسته المعنونة جغرافية الانتخابات فى إقليم أردش Ardeche عن أثر الاختلاف المكانى على نتائج التصويت فى أمريكا.

5- تناول بريسكوت (Prescott 1959) فى مثالة بعنوان وضيفة و أساليب الجغرافيا الانتخابية، و أشار إلى التطور التاريخى للجغرافيا الانتخابية و أهميتها و مناهج دراستها، و ذكر أن المهمة التى تقع على عاتق الجغرافى السياسى هتقويمه للعوامل الاقتصادية و التاريخية و السياسية و السيكولوجية و الديموغرافية و التى تشكل مجموعة الرأى العام، و ذكر بأن هذا التقويم هو الذى سيمكن الجغرافى من الفهم الواضح للانتخابات فى أى اقليم سياسى تتم دراسته.

6- أما هنت روجر ألكسندر (Hunt Roger Alexander 1994) فقد كانت رسالته للدكتوراه بعنوان الجغرافيا و المشاركة فى الانتخابات الرئاسية الأمريكية بين عامى 1940 - 1992 حيث ركز فيها على أهمية الخريطة و اعتمدها كاحدى طرق التحليل و التفسير لنتائج الانتخابات، و قام برسم 14 خريطة لكى يصف التغيرات الجغرافية لسلوك الناخبين فى الانتخابات التى جرت فى الولايات المتحدة، كما أظهرت الدراسة أن للعوامل

الاجتماعية و الاقتصادية دورافى تغيير نسب المشاركات السياسية للناخبين الأمريكان.

7- تناول زولتان و آلن (Alan 1998 & Zoltan) فى بحث بعنوان جغرافية الانتخابات البرلمانية فى المجر 1994 تحليل الانتخابات ضمن هيكل النظام السياسي فى المجر و عالجا العوامل الثقافية و الاجتماعية لذلك المجتمع فضلا عن معالجتهم لوجهات نظر الناخبين تجاه التجديد و التحديث، و خلص الباحث إلى جملة من الاستنتاجات الهامة.

عوامل قوة الدولة الطبيعية والبشرية

العوامل الطبيعية

تتضمن دراسة خصائص بيئات الدولة الطبيعية من حيث الموقع، ومظاهر السطح، والمساحة، والشكل، والمناخ من وجهة نظر الجغرافيا السياسية.

الموقع

يعتبر الموقع الجغرافي أحد العوامل المهمة التي تؤثر في الجغرافيا السياسية للدولة لتأثيره على اتجاهات سكانها والسلوك السياسي لحكومتها. وتحلل الجغرافيا السياسية الموقع وأثره في الدولة من ثلاث اتجاهات هي:

الموقع الفلكي

ويعني موقع مكانها الدولة بالنسبة لدوائر العرض وخطوط الطول. وهو يعكس مدى ملائمة الدولة للحياة البشرية والتقدم الحضاري، إذ تتركز الدول المتقدمة في العروض المعتدلة. ولا يعنى هذا أن الحضارات نشأت أول ما نشأت في تلك العروض، ولكنها نشأت في الأقاليم المدارية وشبه المدارية حيث تتوفر السهول الفيضية والمياه، وكانت الصحراء حول هذه السهول الفيضية تعتبر بمثابة الدرع الواقى للحضارة في المناطق السهلية، ثم انتقلت بعد ذلك إلى المناطق المعتدلة في الشمال عن طريق الاستعمار الوافد من الشمال وهيمنته على تلك الأقاليم الحضارية. وترتب على ذلك أن رأى هنتنجتون Huntington، أن البيئة الاستوائية محكوم عليها بالتأخر نتيجة لارتفاع درجة الحرارة والرطوبة طول العام، مما لا يشجع الإنسان على بذل مجهود للتقدم، أمّا المناطق المعتدلة فيشجع مناخها على بذل المجهود للتقدم، وبالتالي فالعناصر السوداء، التي تتفق في توزيعها مع النطاق الاستوائي تعيش في الماضي، والأجناس الصفراء تعيش الحاضر، والأجناس البيضاء صاحبة المدنية تعيش في المستقبل.

الموقع بالنسبة لليابس والماء

ويُقصد به موقع الدولة بالنسبة للقارات، والبحار، والمحيطات، وهو يحدد شخصية الدولة، ويسهم في رسم سياستها وإستراتيجيتها، وتطل معظم دول العالم على بحار أو محيطات، ومنها ما لا يطل على أي بحار أو محيطات، وتعرف بالدول الداخلية أو الحبيسة.

ويؤدي الموقع الساحلي للدولة إلى غناها الاقتصادي، واحتكاكها الحضاري، وبالتالي قوتها، وتقدمها، وينعكس هذا على سكانها، الذين يتميزون بما يعرف بالنظرة العالمية ويظهر هذا في سعة أفقهم، وتفتح أذهانهم، وانطلاقهم الحضاري. ويرجع ذلك إلى أن البيئات الساحلية ترتبط دائماً بالعالم الخارجي، وتيارات الحضارة، ومحاور التقدم، إضافة إلى أنها تتطلع دائماً إلى كل جديد ولا تعرف العزلة، في حين أن سكان الدول الداخلية كثيراً ما يعزلون عن مثل هذه المؤثرات والتيارات. وكل هذه الظروف تؤثر بدورها في الجغرافيا السياسية للدولة، فمثلاً، أدى الموقع البحري دوراً كبيراً في بناء إمبراطورية سياسية واقتصادية كبيرة في بريطانيا. حقاً، قامت الثورة الصناعية في إنجلترا على المواد الخام المحلية ورأس المال الإنجليزي، لكن لا شك أن موقعها البحري ساعدها على السيطرة على مستعمرات تستورد منها المواد الغذائية والمواد الخام، كما أصبحت هذه المستعمرات سوقاً لتصريف المنتجات البريطانية، وأنشأت بريطانيا أسطولاً تجارياً يساعد في ذلك، وأسطولاً حربياً يؤمن الطريق للأسطول التجاري.

ولتوضيح أثر الموقع البحري نُقارن بين السويد والنرويج، إذ أن كليهما متجاوران في شبه جزيرة اسكنديناوه. لكن النرويج تتسم بطبيعتها الجبلية وفقرها في الموارد الزراعية، لكنها ذات ساحل بحري طويل كثير المرافئ والموانئ الطبيعية الصالحة للملاحة، لذلك فهي دولة بحرية من الطراز الأول، ولها أسطول تجاري ضخم، وتزدهر بها حرفة صيد الأسماك. في حين أن السويد المجاورة لها تمتلك أراضي زراعية خصبة مستوية، وساحلها على بحر البلطيق متجمد فترة طويلة من السنة. لذلك فهي لم تتجه صوب البحر.

ويؤثر الموقع البحري والبري كذلك في نوع الدفاع الذي تعتمد عليه الدولة. وبغض النظر عن سلاح الطيران، الذي يوجد بكل من الدول البحرية والقارية، فيلاحظ أن الدول البحرية تركز اهتمامها بصورة أكبر على بناء الأسطول التجاري والحربي والغواصات، في حين أن الدول القارية تركز على إعداد الجيش البري، ومثال ذلك: دفاع بريطانيا والدفاع الروسي.

الموقع بالنسبة للدول المجاورة

كلما كانت حدود الدول بعيدة عن بعضها البعض وخاصة في الدول الجزرية، كلما أدى هذا إلى تقليل المنازعات والحروب بينها، حيث تعرقل البحار عمليات الغزو وتعوقها، وأفضل مثال على ذلك بريطانيا التي لم تغزها أي قوة منذ عهد وليم

الفتاح. أما طول الحدود البرية فيعتبر عامل خطر يُهدد الدولة. ونتيجة لهذا أنشئت الدول الحاجزة بين القوات المتنازعة، مثال ذلك أفغانستان، التي كانت تفصل بين المصالح الروسية في الشمال والمصالح البريطانية في المحيط الهندي. وإذا كانت الحدود البرية الطويلة تفصل بين دول صديقة، فيعتبر هذا ميزة، كما هو الحال بين كندا والولايات المتحدة الأمريكية. إذ تنساب المواد الخام الآتية من كندا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بينما تسافر السلع المصنوعة، ورأس المال، والخبرة من الثانية إلى الأولى عبر هذه الحدود، ويؤدي هذا التعاون بدوره إلى القوة والتقدم الاقتصادي، ولكن قد يحدث العكس فالدول الكبيرة التي تجاور دولاً صغيرة تحاول أن تستولي عليها، مثال ذلك: ما حدث بين روسيا (الشاسعة المساحة، والكثيرة السكان، والقوية عسكرياً) ودول شرق أوروبا، إذ استولت عليها وأدخلتها في فلكها لأنها صغيرة المساحة، ومتوسطة السكان، وضعيفة عسكرياً إذا ما قورنت باتحاد السوفيت (سابقاً).

المساحة

تتباين دول العالم من حيث المساحة، فمنها ما يشغل مساحة شاسعة مثل الولايات المتحدة، وكندا، والبرازيل، والصين، والهند. ومنها ما يشغل مساحة صغيرة مثل سويسرا، والدانمارك، لبنان. ومنها ما يمثل وحدات سياسية قزمية تشغل مساحة ضئيلة مثل دولة الفاتيكان.

وتتمثل أهمية المساحة في إعطاء الفرصة لتنوع الموارد الاقتصادية وتباينها، كما تتمثل أهميتها من الناحية الحربية في إمكان الدفاع في العمق Defense in Depth، فالدولة ذات المساحة الصغيرة لا تلبث أن تُسلم أمام جحافل الجيوش الغازية، كما حدث في بعض دول أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية، فقد سلمت كل من بلجيكا، وهولندا، والنمسا، وتشيكوسلوفاكيا خلال فترة قصيرة عندما اجتاحتها الجيوش الألمانية، بينما استطاع الاتحاد السوفيتي (سابقاً) أن يصمد أمام الغزو الألماني ومن قبله غزو نابليون بفضل اتساع مساحته إذ طبق مبدأ الدفاع في العمق، الذي يقوم على تسليم الأرض لكسب الوقت Selling Space to Gain Time، فقد اتبع الاتحاد السوفيتي هذا الموقف الاخلائي عندما غزاه نابليون حتى أطال بينه وبين خطوط تموينه، وأدخله في بيئة طبيعية قاسية يجهلها مما أضطره إلى التقهقر ثانية. وقد سار الاتحاد السوفيتي على نفس السياسة مع الألمان سنة 1941، وقد فطن الألمان لهذه السياسة، ولذلك حاولوا تدمير الجيش الأحمر برجاله ومعداته عن طريق الالتفاف حوله لكنهم لم ينجحوا في ذلك. إلا أن التقدم التقني في معدات الحرب أفقد المساحة الكبيرة أهميتها العسكرية، إذ يمكن نشر الميكروبات والغازات السامة فيها قبل انسحاب الجيوش إليها.

وتكفل المساحة الكبيرة امتيازاً عسكرياً آخر، ذلك أنه إذا هُزمت دولة كبيرة فإنه من الصعب احتلال إقليمها الواسع والسيطرة عليه لا سيما إذ كانت كثيفة

السكان. مثال ذلك، أن الولايات المتحدة الأمريكية يستحيل عليها أن تحتل الصين الشعبية لو أنها انتصرت عليها لأن ذلك سوف يتطلب إيجاد قوات أكثر مما تمتلك أمريكا. وتُحقق وسائل الإنذار المبكر الآن الغرض منها بفاعلية عالية، في حالة كبر مساحة الدولة، لأنها تُتيح الوقت الكافي لاتخاذ الإجراءات الوقائية المناسبة.

ولمساحة الدولة أيضاً تأثير كبير ومباشر على قدرتها في أن تستخدم القوة في الدفاع عن نفسها. فالمساحة الكبيرة تساعد على أن تكفل للدولة وسائل الإقناع التي تأتي من القدرة على الدفاع عن النفس. أما الدول ذات المساحة الصغيرة فهي لا تستطيع أن تدافع عن نفسها أمام الأعداء. مثال ذلك، هولندا التي استسلمت للألمان في مدة أربعة أيام، علماً بأن الجيش الهولندي لم يكن أقل بسالة من الجيش الألماني. وتعتمد الدولة الصغيرة إلى الأخذ بزمام المبادرة في الهجوم وذلك كي تبعد المعركة عن أراضيها. ومن أفضل الأمثلة على ذلك الصراع العربي الإسرائيلي الذي تبادر فيه إسرائيل باستمرار بشن الهجوم على الدول العربية المجاورة لتنتقل المعركة إلى أراضي الدول المجاورة حتى لا تتأثر طاقاتها الإنتاجية، والخدمية، وسكانها المدنيون، ولتكتسب مجالاً أرضياً أوسع يُمكنها من المناورة العسكرية. وقد حدث هذا في عدوان 1956، وعدوان 1967.

الشكل

كلما كانت الدولة مندمجة من حيث الشكل Shape، كلما كان ذلك أفضل من الناحية السياسية لها. ويعتبر الشكل الدائري أو القريب منه الشكل المثالي للدولة، فتكون كل أطراف الدولة على أبعاد متساوية تقريباً، لذا يترتب على الشكل الدائري للدولة أن يكون طول حدودها قصيراً بالنسبة لمساحتها، ومن ثم يقل عدد المواضع التي يحتمل أن تُغزى منها الدولة. كما يصبح في إمكان الدولة الدفاع عن هذه الحدود وحمايتها. ويساعد الشكل الدائري على سرعة نقل الجيوش والمعدات إلى أي مكان في الدولة يتعرض لغزو خارجي، كما أنه يوفر لجيوش الدولة المساحة الكافية، التي يمكن أن تتقهر فيها إذا استدعت الظروف ذلك، وذلك لأنه يعمل على تيسير إنشاء شبكة نقل ومواصلات جيدة في الدولة. ويساعد الشكل المثالي على انصهار سكان الدولة في بوتقة واحدة مما يؤدي إلى زيادة نمو الشعور القومي لديهم، وهو عامل حاسم في رسم سياسة الدولة، ومن أفضل الأمثلة على الشكل المثالي أو القريب منه دول أوروغواي، وبولندا، والمجر، وبلجيكا.

ويرتبط بشكل الدولة موقع العاصمة بالنسبة للدولة. ويعد الموقع المتوسط في جسم الدولة أفضل موقع للعاصمة، ويُعرف بالموقع المركزي Central، حيث تحتل العاصمة الوسط الهندسي للدولة، وذلك حتى يسهل الدفاع عنها من جهة، ويسهل اتصالها بمختلف أنحاء الدولة من ناحية أخرى. ومن أمثلة المواقع المثالية للعواصم الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، والقاهرة عاصمة جمهورية مصر

العربية، والخرطوم عاصمة السودان، وبغداد عاصمة العراق، وبرن عاصمة سويسرا، ومدريد عاصمة أسبانيا، ووارسو عاصمة بولندا. وقد نقلت بعض الدول عواصمها من مواقع ساحلية غير متوسطة داخل الدولة، وذلك لكسب مزايا تتعلق بالشكل الجغرافي الصحيح للدولة، وهذا ما حدث في البرازيل عندما نقلت عاصمتها من ريو دي جانيرو إلى برازيليا، وفي تركيا عندما نُقلت عاصمتها من استنبول إلى أنقرة.

الحدود

الحدود السياسية Political Boundaries، وهي بمثابة الهيكل الخارجي لرقعة الدولة. ولكل دولة في الوقت الحاضر حدودها السياسية، وهي عبارة عن خطوط محددة على الخرائط السياسية، وواضحة المعالم في الطبيعة. وهذه الحدود تكفلها المعاهدات والمواثيق الدولية.

وتمثل البحار والمحيطات أكثر الحدود الطبيعية، وهي حدود فاصلة يمكن أن تحمي الدولة من الغزو، خاصة إذ كانت لديها السيادة البحرية على حدودها. وتأتي الصحاري بعد البحار والمحيطات في الأهمية، ذلك لأنها تؤدي وظيفة الحماية كالبهار إلى حد ما. أما الجبال فتتمثل حدوداً طبيعية منيعة. وهي تؤدي دورها بوصفها حدوداً سياسية في بعض المناطق، فجبال اسكنديناو تشكل الحدود بين السويد والنرويج، وجبال الألب تفصل بين النمسا وإيطاليا، وجبال البرانس تمثل الحدود بين فرنسا وأسبانيا. وكذلك تقوم الأنهار في بعض الحالات بوظيفة الحدود السياسية، كما هو الحال في شط العرب الذي يفصل بين العراق وإيران، ونهر السانت لورنس الذي يمثل الحدود بين كندا والولايات المتحدة الأمريكية في بعض المواضع، ونهر الدانوب الذي يفصل بين رومانيا وبلغاريا، ونهر الراين الذي يفصل بين فرنسا وألمانيا.

أما الحدود الاصطناعية فمنها الحدود الفلكية، التي تتفق مع دوائر العرض وخطوط الطول، مثل الحدود بين مصر وكل من ليبيا والسودان. ومنها الحدود الهندسية التي تُرسم على شكل خطوط مستقيمة ولا يراعى في تخطيطها أي ظاهرة طبيعية، مثل الحدود بين المملكة العربية السعودية وجيرانها.

المناخ

يعتبر المناخ من أهم العوامل التي تؤثر في قوة الدولة وظروفها السياسية، لأنه يؤثر في مجهود الإنسان وبالتالي فيما يبلغه من رقي وتقدم.

وقد أثر المناخ على الأوضاع السياسية للكثير من الدول بدرجة كبيرة، إذ أن ملاءمة المناخ في جنوب أفريقيا، حيث يسود مناخ البحر المتوسط، شجع الاستعمار على أن يتخذ في هذه المنطقة شكل الاستعمار الاستيطاني، وأغرى الأوروبيين بالهجرة إلى هذا الإقليم. أما المناخ الاستوائي فلم يشجع الاستعمار الأوروبي على

الاستيطان في الدول الأفريقية، التي يسود فيها مثل غانا، والكنغو، ونيجيريا، وتوجو، وداهومى، لذا كان الاستعمار في هذه الجهات استعماراً استغلالياً.

ويمكن الاستدلال من التاريخ على أن المناخ كان له أثر كبير على سير العمليات الحربية. ويؤكد ذلك أن القيادة الألمانية كانت على بينة من أن غزو بولندا يجب أن يتم في الأيام الأولى من شهر سبتمبر، حتى تتجنب الأوحال، التي يمكن أن تتعرض لها الدبابات الألمانية بسبب سقوط الأمطار بعد هذا التاريخ. كذلك اختار الألمان شهر أبريل لغزو النرويج، حيث يشتد هبوب العواصف، وبالتالي يمكن اتخاذها ستاراً لتغطية الوحدات الصغيرة. وعبر الجيش المصري إلى شبه جزيرة سيناء في حرب 1973 عسراً، لتكون الشمس خلف ظهره ولا تكون في مواجهته، إضافة إلى إجراء بعض الدراسات الدقيقة لحركة الأمواج، والتيارات، والمد والجزر في قناة السويس، ودراسة حركة الرياح.

التضاريس

تؤثر التضاريس على القوة النسبية للدول المختلفة وعلى النواحي الإنتاجية والعسكرية فيها، وكلها عوامل تؤثر على النواحي السياسية للدولة. وتعمل التضاريس والمناخ على تحديد الإمكانيات الاقتصادية المتاحة، التي يتوقف عليها رقي الدولة وتقدمها. إذ أنه كلما ازدادت مساحة السهول، وتوافرت المياه، كلما عظم الإنتاج الزراعي، ويؤدي هذا بدوره إلى تركيز السكان وتكاثرهم، وقد تمتلك الدولة سهولاً واسعة مثل براري كندا، وسهول سيبيريا، لكن عدم مناسبة الظروف المناخية في هذه المناطق يعرقل التقدم الاقتصادي فيها، مما يؤدي إلى تساؤل أهمية هذه السهول.

وتعمل السهول على تيسير عملية غزو الدول التي تمتلكها، ذلك لكونها مناطق مفتوحة يسهل عبورها، في حين تمثل الجبال عامل حماية طبيعياً يقي الدولة من الاعتداءات الخارجية. وتفضل الدولة أن تولد في المناطق الجبلية، لتكون في عزلة عن غيرها، حتى تقضي فترة نموها الأولى، وعندما يشتد ساعدها وتنتقل إلى طور الشباب، ويمكنها الدفاع عن نفسها، يصبح من المناسب لها أن تنزل إلى المناطق السهلية لتتوسع فيها وتسيطر عليها. ومن أفضل الأمثلة على ذلك تركيا التي ولدت في هضبة آسيا الصغرى، وبعد أن بلغت مرحلة الشباب واشتد ساعدها، نزلت إلى السهول المجاورة وكونت الإمبراطورية العثمانية، التي امتدت من ساحل البحر الأسود إلى ساحل بحر إيجة فسواحل البحر المتوسط.

وتمثل الجبال ملجأً للدول في وقت الأزمات فتحتمي بها، ومن أمثلة ذلك ما حدث للعرب في أسبانيا، إذ تمكنوا من هزيمة الأسبان في القرن الثامن، مما أدى إلى هروب بعض المسيحيين من المناطق السهلية الجنوبية ولجأوا إلى الجزء الشمالي الجبلية. وكذلك تركت العناصر الصربية سهول نهر الدانوب في الحرب العالمية الأولى ولجأت إلى الجبال حيث ولدت دولتهم.

ويوجد في الوقت الحاضر عدد قليل من الدول الجبلية بما تحمله الكلمة من معنى، ومن أمثلتها نيبال، وسويسرا، وأندورا، التي توجد في موقع منعزل بجبال البرانس الواقعة بين أسبانيا وفرنسا، وسيكم، وبواتان، الواقعتان في أودية تنحصر بين سلاسل جبال الهيمالايا وتلال سواليك.

العوامل البشرية

1. العامل السكاني:

إن أهمية السكان في قوة الدولة تحظى بقبول عام من علماء العلاقات الدولية و نقصد بالسكان هنا العنصر البشري ووزنه كعامل من عوامل قوة الدولة و هنا يجب أن نراعي العوامل الكمية و الكيفية في العامل الديمغرافي.

أ - العوامل الكمية: تتجلى أهمية العامل السكاني في تشكيل القوة العسكرية اللازمة للحرب، كما أن بعض الدول الاستعمارية حاولت الاعتماد على مستعمراتها في توفير القدرات البشرية اللازمة لآلتها العسكرية، كذلك تؤثر الكثافة السكانية على الأهمية العسكرية من حيث أن الدول ذات الكثافة الضئيلة هي موضوع مطامع خارجية أما الدول ذات الكثافة العالية هي مؤمنة لحد ما من هذه الأطماع، تتجلى أيضا أهمية التعداد السكاني في المستوى الاقتصادي حيث أن العامل البشري عنصر أساسي في عملية الإنتاج كما أن السوق الاستهلاكية هي الضمان الأكيد لازدهار الإنتاج الوطني، و من جهة أخرى يشكل الضغط السكاني عاملا فعالا من عوامل النزاع الدولي بل كثيرا ما يحاول المحللون رد أسباب التوتر الاجتماعي بشتى صوره إلى الضغط الكمي للسكان.

ب - العوامل الكيفية: قد يؤثر في قيمة الكم السكاني كارتفاع نسبة الإناث بالنسبة للذكور وكذلك الحال بالنسبة لسلم الأعمار فقد يتوافق تباين نسبة الشباب الذكور من العدد الكلي للسكان مع درجات القوة الاقتصادية للدولة و كذا مع درجات القوة الإستراتيجية كذلك.

درجة التجانس الاجتماعي لعناصر الكم البشري: أي تحقيق الوحدة الداخلية ترتبط بدرجات التجانس الاجتماعي.

التقدم الثقافي و الاجتماعي: السكان المثقفون و المتقدمون تكنولوجيا قادرون على تحمل مسؤوليات الدولة.

2. العامل الاقتصادي:

رفض التجاريون التمييز بين التفوق التجاري و التفوق السياسي حيث يكون ميزان القوى مرهون بالميزان التجاري فلأوضاع الاقتصادية المقام الأول اتجاهات السياسة

الخارجية للدول و يؤكد الباحثون على أن هناك ارتباط بين الحرب كظاهرة بين الدول و بين الظاهرة الاقتصادية، فالحرب هي آثار حتمي للظاهرة الاقتصادية من حيث:

أ - حروب القحط: ففي الجماعات البدائية تبدو حالة القحط الناجم عن تخلف الموارد الطبيعية عن تمكين الجماعة من الاستمرار في الحياة و هكذا تبدو هذه الحالة و كأنها الوضع المحتم للحرب من أجل الاستعلاء على موارد الآخرين.

ب - حروب الوفرة: أما في الجماعات الصناعية فالدافع للصراع كان السعي في الحصول على المزيد من الموارد الأولية من أجل المزيد من الإنتاج.

ج - حروب الأسواق و التسويق: هي تلك الحروب التي تلجأ إليها الدول من أجل الحصول على الحق في أن تتاجر بحرية في منطقة معينة.

3 العوامل العسكرية، التكنولوجية و التنظيمية:

1 - العامل العسكري:

ينظر الكثيرون إلى درجة الاستعداد العسكري على أنه المظهر الرئيسي لقوة الدولة و يرتبط مستوى الاستعداد العسكري بعدة عوامل:

1- التقدم التكنولوجي في إنتاج الأسلحة و في وسائل جمع المعلومات.
2- القدرة على التخطيط الاستراتيجي و الذي يتفق و طبيعة مشكلة الأمن القومي التي تواجهها الدولة.

3- مدى كفاءة القيادات المسؤولة عن عمليات التخطيط الاستراتيجي.

4- مدى كفاءة التدريب و كذا مستوى القدرة القتالية للقوات المسلحة في الدولة.

5- مدى القدرة على حشد طاقات الدولة و إمكانياتها بالسرعة الواجبة و في الظروف التي تضطرها لإجراء تعبئة شاملة لقواتها.

2 - العامل التكنولوجي:

أدخل العامل التكنولوجي ثورة كلية على العلاقات الدولية حيث أضحي أهم ميزان في العلاقات الدولية بين عالم متقدم و آخر متخلف، كما أدخلت الثورة التكنولوجية أساليب جديدة في الإنتاج و ساهمت في زيادة القدرة الاقتصادية للدول و طورت أساليب الزراعة و ضاعفت من مردوديتها و بصفة عامة تهيا التكنولوجيا أكفا الوسائل لاستغلال الإمكانيات الطبيعية، المادية و البشرية المتاحة للدولة كما أن التقدم التكنولوجي يزيد من القوة العسكرية حيث أصبحت تقاس بمدى قدرة الدول في إنتاج الأسلحة و في جمع المعلومات. كما تنعكس على العامل السكاني من حيث ترقية كيفة و كذا من حيث أنها تضبط أكثر فأكثر القياسات الكمية للسكان و تساعد في عملية الإحصاء، و من ناحية أخرى أثر العامل التكنولوجي على الدبلوماسية و أضحت ميكانيزمات اتخاذ القرارات على مستوى الدول و المنظمات أكثر وضوحا.

3 - العامل التنظيمي:

إذا كان العامل التنظيمي يعني مباشرة المؤسسات الدستورية للدولة فإنه في الوقت نفسه يتوزع على مجموعة من المتغيرات مرتبط بالجوانب المعنوية للدولة.

أ - العامل الإيديولوجي: هي منظومة من التصورات و الأفكار و الأوهام و المفاهيم التي تميز مجتمع ما. و لا يجوز للمحلل إغفال العنصر الإيديولوجي كعنصر تفسيري للظواهر الدولية فالإيديولوجية هي المحرك الرئيسي للسياسات الخارجية للدول لأنها تمثل اختلاف البيئات و الأفكار و المعتقدات المؤثرة على صناعة و اتخاذ القرار.

ب - الروح الوطنية للدولة: الوحدة الوطنية هي تكامل الجماعة المشكلة للدولة تكاملاً يسقط عنها أسباب التصادم المؤدي إلى الضعف، و الوحدة الوطنية تتجسد أساساً في الدولة و هي الطريق المؤدي لرفع الروح المعنوية للدولة التي بدورها تشكل أحد الركائز التي تركز عليها قوة الدولة.

ج - الاعتبار المتعلقة بكفاءة الأجهزة السياسية و الدعائية و الدبلوماسية للدولة: تتوقف كفاءة الأجهزة السياسية للدولة على الاستقرار السياسي و على شكل النظام السياسي كدبلوماسية الدولة التي يقع عليها عبء تجميع هذه العوامل الطبيعية و الاجتماعية في كل واحد متكامل لكي تتحرك به في الطريق إلى تحقيق أهدافها الخارجية و ذلك بالأسلوب الدبلوماسي في زمني السلم و الحرب.

د - شخصية و سلوك رجل الدولة: هو عامل يقوم أحياناً بدور بارز في تقرير الأهداف القومية للدولة و شخصية القادة السياسيين، و المسؤولين، كما يؤثر أيضاً في قوة الدولة حيث نجد أن التغير في أنماط القيادات السياسية الحاكمة ينتج في أغلب الأحيان تغيرات هامة في الاتجاهات الخارجية للدولة و في بعض الحالات يكون نفوذ القائد السياسي و تأثيره على السياسة الخارجية مطلقاً.

جغرافية الانتخابات

تطورت الجغرافيا السياسية من دراسة الدولة كونها وحدة سياسية إلى دراسات عديدة متعمقة ترتبط بالتحويلات الاقتصادية و السياسية و العالمية التي طرأت على الساحة السياسية في الفترة الأخيرة.

و من ثم فالجزء التالي يعرض ماهية جغرافية الانتخابات و نشأتها و تطورها و أهميتها و مجالاتها و مناهج دراستها و علاقتها بالعلوم الأخرى.

1- ماهية جغرافية الانتخابات:

من أحد نتائج الاتجاهات المعاصرة في الجغرافيا السياسية هو ظهور فروع جديدة لها و كان من أهم هذه الفروع " جغرافية الانتخابات " Electoral Geography

و التى وجدت على يد أندريه سيجفريد " Endre Sigfreid " من المدرسة الفرنسية لذا يعتبر أبا لجغرافية الانتخابات.

و تدرس جغرافية الانتخابات النشاط الانتخابى داخل الدولة عن طريق تحليل الدوائر الانتخابية، التعرف على التباين المكانى فى التصويت و التأثيرات الجغرافية التى نتج عنها هذا التباين، دراسة الحملات الانتخابية للمرشحين و البعد الجغرافى لها، و دراسة السلوك التصويتى للأفراد و الجماعات و ذلك بالتعرف على العوامل الاقتصادية والاجتماعية و التاريخية و الثقافية و غيرها من الأمور التى تشكل الرأى العام للناخبين.

و قد عرف " جاسم كرم " جغرافية الانتخابات بأنه ذلك الفرع المعاصر للجغرافيا السياسية و الذى عن طريقه نستطيع تفسير التباين فى الأنماط الانتخابية السائدة فى مكان معين و دراسة و تحليل تغيرات السلوك التصويتى للناخب من مكان لآخر أو من دائرة انتخابية لأخرى و معرفة أسباب هذا التغير.

كما عرفها محمد محمود الديب بأنها العلم الذى يدرس الأبعاد المكانية فى مناورات الساسة على المستويات المحلية و القومية و الإقليمية للوصول للحكم.

و هناك من يرى أنه لا علاقة لجغرافية الانتخابات بالجغرافيا السياسية و انها أقرب إلى علمى الاجتماع و السياسة أكثر من علم الجغرافيا، فى حين يرى فريق آخر أنها تدخل فى صلب هيكل الجغرافيا السياسية الحديثة لتكون فرعاً تطبيقياً مستقلاً بذاته. هذا بالإضافة إلى الجدل عما يكون أن تضيفه جغرافية الانتخابات للجغرافيا السياسية و حول النهاية التى ترمى إليها الدراسات من غايات.

و يمكن القول أن جغرافية الانتخابات هى الفرع الجغرافى الذى يتناول العوامل الجغرافية المؤثرة على العملية الانتخابية عن طريق دراسة خصائص العملية الانتخابية و مشكلاتها من كافة جوانبها و دراسة القوى السياسية المؤثرة فى الانتخابات و مدى تأثيرها على الناخبين و البحث فى أسباب ذلك.

2- نشأة جغرافية الانتخابات و تطورها:

ظهرت جغرافية الانتخابات كموضوع فى اطار الجغرافيا السياسية فى العقد الثانى من القرن العشرين و تزامن ذلك مع ظهور الجغرافيا السياسية كونهما علما مستقلا ذا منهج محدد و منظم فى أواخر القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين حيث نشر عالم الجغرافيا البشرية الألمانى فريدريك راتزل " F. Ratzel " كتابه الشهير تحت عنوان الجغرافيا السياسية علم 1897 م.

أول دراسة فى مجال جغرافية الانتخابات كانت عام 1913 عندما أجرى سيجفريد بحث عن الانتخابات فى إقليم " أردش Ardeche " بغرب فرنسا و علاقتها بالظروف الجغرافية و الاقتصادية و الاجتماعية.

و فى عام 1916 قدم Krehbiel دراسة عن دلالة المؤثرات الجغرافية فى تحليل النتائج البرلمانية البريطانية بين 1885 – 1910 و اهتمت الدراسة بدراسة العلاقات المتبادلة بين نتائج الانتخابات و الاحصاءات المهنية

فى عام 1918 قام Carl Sauer بدراسة تقسيم الدوائر الانتخابية للكونجرس بهدف اظهار الجريماندرية Gerrymander . و حدد العوامل الطبيعية المؤثرة على التقسيم بضمه عوامل و هى: الموقع - طبوغرافية سطح الأرض - أنواع التربة - الصرف - مصادر المعادن ؛ و كلها عوامل تميز الدوائر الانتخابية.

و فى عام 1932 تم نشر سلسلة من الخرائط تبين انتخابات رئاسة الجمهورية فى الولايات المتحدة الأمريكية و الطريقة التى صوت بها أعضاء المقاطعة و أظهرت هذه الخرائط الفروق الإقليمية التى لا يستطيع المعلقون السياسيون إدراكها و ذلك من خلال أطلس الجغرافيا التاريخية للولايات المتحدة.

و فى عام 1949 درس سيجفريد التطور التاريخي للانتخابات فى الفترة 1871 – 1940 فى منطقة تقع على الضفة الغربية لنهر الرون، و رسم مجموعة من الخرائط توضح نتائج الانتخابات و قارن بينها و بين المظاهر الجغرافية و الاقتصادية و الاجتماعية فى المنطقة

و توالى الدراسات بعد الحرب العالمية الثانية و كانت أغلبها على أيدي جغرافيين فرنسيين و أمريكيين ففى عام 1959 قدم بريسكوت Prescott دراسة فى وظيفة و طريقة جغرافية الانتخابات و فيها اقترح أن تكون الدراسات الانتخابية نقطة البداية للبحث العلمى فى الجغرافيا السياسية عن طريق إيجاد معيار للتقسيم الإقليمي للدولة بالإضافة إلى ضرورة أن يكون النظام الانتخابي خاليا من الانحياز إلى طرف دون الآخر، و إن وجد هذا الانحياز فلن تكون هناك فائدة تجرى من الاحصائيات الانتخابية.

و فى السبعينات من القرن العشرين ظهرت العديد من الدراسات كما فى ألمانيا و الهند و اليابان و انجلترا و دول ما بعد الشيوعية و هولندا و فى أواخر السبعينات اهتم الجغرافيين بدراسة الحملات الانتخابية للمرشحين.

زاد الاهتمام بدراسة جغرافية الانتخابات فى دول العالم المتقدم لأنها تأخذ بنظام الديمقراطية الليبرالية.

و عقب انتهاء الحرب الباردة اكتسب موضوع الانتخابات بعدا جديدا حيث أصبحت الديمقراطية هدفا عالميا تطمح إليه كافة الشعوب ؛ خاصة البلدان التى كانت تحت وطأة أنظمة الحكم الشمولية التى كانت سائدة فى الدول التى أخذت بالنهج السوفيتي فى الحكم.

و تتميز جغرافية الانتخابات فى الوقت الحاضر بطابع العالمية تبعا لإشاعة الديمقراطية، إلا أنها تعاني من صعوبات كثيرة فى وجه محاولات وضع أسس و

قواعد هامة تنطبق على كل دول العالم نظرا لكون عملية الانتخابات عبارة عن قضية داخلية ترتبط بالظروف الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية لكل دولة، كما أن هذه الظروف عرضة للتغير المستمر ؛ و بالتالى تتعدد و تتغير أنظمة العمليات الانتخابية ؛ مما يعرقل التحليل الجغرافى للانتخابات على مستوى العالم، و لا يؤدي فى النهاية إلى خلاصة عامة يمكن الاستناد عليها كحجة علمية.

3- مجالات دراسة جغرافية الانتخابات:

- يمكن تحديد ميادين دراسة جغرافية الانتخابات فى الآتى:
- التحليلات الجغرافية للدوائر الانتخابية
 - التباين المكانى للتصويت و أسبابه و تغيره
 - النظام الانتخابى و مغزاه الجغرافى
 - البرامج الانتخابية للأحزاب و القوى السياسية المشتركة فى المنافسة ليستدل منها على الاعتبارات الاقتصادية و الاجتماعية التى أثرت على الأفراد عند اتخاذ قرارات التصويت
 - الخصائص الديموجرافية و السياسية للناخبين و المرشحين
 - طريقة توزيع المقاعد الممثلة للدوائر الانتخابية
 - الدعاية و مدى تأثيرها بالبيئة المحلية ؛ و أثرها فى خلق توجهات معينة لدى الناخبين.
 - تخطيط الحملات الانتخابية للمرشحين
 - البيئة الجغرافية و الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية للدوائر الانتخابية و تأثيرها على السلوك الانتخابى
 - السلوك التصويتى للفرد و الجماعة بهدف الوقوف على العوامل الجغرافية المكانية التى تؤثر على السلوك التصويتى
- هناك موضوعات أخرى جذبت اهتمام الجغرافيين المهتمين بالانتخابات فى السنوات الأخيرة كدراسة الأحزاب السياسية و أقاليم الدعم الجغرافى لها، و أشكال التصويت فى المجالس التشريعية، و دور الأيدلوجيات فى توجيه السلوك الانتخابى للسكان.

4- مناهج الدراسة فى جغرافية الانتخابات:

المنهج هو التنظيم الجيد أو الترتيب الصائب للعمليات العقلية التى يقوم بها الباحث عند دراسة مشكلة ما بهدف الكشف عن حقيقتها و البرهنة عليها. كما يمكن تعريفه بأنه أساليب معروفة لنا تستخدم فى عمليات تحصيل المعرفة الخاصة بظاهرة معينة

تغيرت مناهج البحث فى جغرافية الانتخابات لابرار و تأكيد علاقتها الحميمة بالجغرافيا معتمدين على التفسير و التحليل و رسم الخرائط لنتائج الانتخابات و التى

توضح التباين فى أنماط التصويت و يمكن حصر هذه الطرق فى منهجين هما المنهج المساحى و المنهج المكانى

أ- المنهج المساحى " Areal approach "

و هو المنهج الذى اعتمد عليه سيجفريد فى دراسته للانتخابات فى منطقة أردش بفرنسا علم 1913، و تتلخص طريقة هذا المنهج فى تحليل نمط السلوك البشرى و اظهار التباين المكانى للناخبين و علاقتهم بالمتغيرات الجغرافية كالعوامل الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية و البيئية، كما يركز على دراسة الاختلافات المكانية فى نتائج التصويت من خلال استخدام العلاقات المساحية مع الأخذ فى الاعتبار تحديد المتغيرات الجغرافية التى تساهم فى صياغة المواقف السياسية و السلوك الانتخابى للسكان كما يهدف هذا المنهج إلى تحليل الأنماط المكانية كنتائج الانتخابات فى ضوء علاقتها الأيكولوجية، و على الباحث فى هذا المنهج أن يكشف عن خصائص الناخبين و تحليل شخصياتهم التى أثرت فى عملية التصويت، و من ثم يتضح الصالح العام لهذا الحزب أو ذلك، و يدخل فى هذه الخصائص التباين المكانى فى الظروف البيئية و الاقتصادية و الاجتماعية.

ب- المنهج المكانى " Spatial approach "

اتجهت دراسة جغرافية الانتخابات بعد عام 1960 إلى نفس الاتجاه الحديث الذى اتجهت إليه الدراسات الجغرافية بصفة عامة فقد انتقل محور التركيز من التركيز المساحى " Areal " إلى التحليل المكانى " Spatial " و من التركيز على الخصائص الموقعية إلى الاهتمام بالموقع النسبى و التفاعل المكانى. لذا المنهج المكانى - السلوكى يهتم بقياس التغيرات المكانية و تحليلها مثل المسافة و الرابطة و الصلة و أثر الجوار فى السلوك الانتخابى للفرد. و بناء عليه فإن ذلك المنهج يرى أن السلوك الانتخابى للفرد لا يرجع إلى التغيرات المكانية فى الوحدة المساحية فقط ؛ و انما لوجوده فى وسط جغرافى متميز يؤدى إلى الاستجابة الانتخابية للفرد.

كلا من المنهجين المساحى و المكانى - السلوكى يهتمان بأثر التباين المكانى على السلوك التصويتى للناخب فى ضوء جغرافية المكان الذى يعيش فى ظله أو دراسة إجماليات نتائج التصويت فى كل منطقة فى ضوء ظروفها الجغرافية. بالإضافة للمنهجين السابقين لا يمكن الاستغناء عن المناهج الأساسية فى الجغرافيا السياسية، و التى تمكن الباحث من تفسير العديد من العناصر فى العملية الانتخابية، و منها المنهج الأصولى " Principle approach " و الذى يبحث فى مفاهيم و أسس جغرافية الانتخابات و طرق البحث فيها و أهدافها، و المنهج التاريخى " Chronological approach " و الذى يوضح التطور التاريخى لظاهرة الانتخابات، و ما يتعلق بها من تقسيم الدوائر الانتخابية و النظام الانتخابى المتبع حيث أن ظاهرة

الانتخابات ظاهرة مستمرة و تتغير من فترة لأخرى. و المنهج الوظيفي " Functional approach " و يمكن من خلاله تحليل التقسيمات الانتخابية و القوانين التي ترتبط بالعملية الانتخابية و أيضا تحديد الاتجاهات السياسية و تحليلها في الدولة و رصد مدى التباين الإقليمي فيها.

و بالرغم من تعدد المناهج فهذا لا يعنى تضارب، بل أن لكل منها ضرورته و أهميته ؛ فقد لا يصلح أحدهم دون الآخر لحاجة البحث إليه.

5- علاقة جغرافية الانتخابات بالعلوم الأخرى:

ترتبط جغرافية الانتخابات بالعديد من العلوم الأخرى شأنها في ذلك شأن علم الجغرافيا الذى يتصف بالشمولية نتيجة الارتباط بالعديد من العلوم الأخرى الناتج عن عملية الامتصاص الفكرى لتلك العلوم.

و نجد جغرافية الانتخابات ترتبط ارتباطا وثيقا بالعلوم السياسية و علم الاجتماع السياسي و علم القانون و علم النفس البيئي و الذى يهتم بدراسة العلاقة بين السلوك البشرى البيئة التى يعيش فيها و يتفاعل معها.

مصطلح أمريكي معناه التلاعب فى الانتخابات خاصة فى رسم حدود الدوائر الانتخابية لمحابة أحد المرشحين ؛ و هو نسبة لحاكم ولاية ماساشوسين Elbridge Garry الذى ابتدع نظام التقسيم التفصيلي للدوائر الذى بمقتضاه أعيد رسم دوائر مقاطعة Essex بصورة تسمح للحزب الحاكم بتحقيق ما يصبو إليه من أغلبية و تفنيت اصوات المجموعات المعارضة و ذلك فى الانتخابات التى كان مزعم اجراءها فى عام 1812.

مناهج البحث في الجغرافيا السياسية

تتعدد منهج البحث المستخدمة في الجغرافية السياسية، ويتوقف ذلك على موضوع الدراسة هل هي دراسة للدولة أم مشكلة سياسية دولية أو محلية، أم دراسة للحدود السياسية، أم دراسة أصولية للأقليات في العالم وغيرها من الموضوعات التي تعد ميادين لباحث الجغرافية السياسية.

ونذكر من مناهج الجغرافية السياسية المنهج التاريخي، والمنهج الإقليمي، ومنهج العالمية، والمنهج الوظيفي، والمنهج المورفولوجي، ومنهج جونز، ومنهج تحليل القوة.

1- المنهج التاريخي: The Historical Approach

الذي يدرس نمو الدولة وتطورها حتى بلغت مرحلة النضج السياسي الحالي لها، وتطور رسم حدودها السياسية، والجذور التاريخية لإحدى المشكلات التي تواجهها مثل مشكلة دارفور في السودان، ومشكلة كشمير، وأثر الاستعمار في كثير من دول العالم الثالث في قوة وضعف الدولة، فالتحليل التفصيلي لدولة مثل إسرائيل

لابد له من تفسير لتطور هذه الدولة، وأثر هذا النمو على شكلها ووضعها السياسي الحالي، ولكن هذا المنهج يجب أن يتناوله باحث الجغرافية السياسية بشكل يخدم موضوع دراسته، ولا ينزلق وراء حجم ضخم من الأحداث التاريخية تبعده عن موضوعه ويصبح في هذه الحالة كباحث في التاريخ السياسي -، هذا فضلا على أن الجغرافي يجب ألا يخرج بإحكام عامة أو مبادئ نتيجة دراسة حالات خاصة.

2- المنهج الإقليمي: The Regional Approach

يقوم هذا المنهج بتحليل الوحدة السياسية من حيث العناصر التي تتكون منها أو التي تكونها مثل الظواهر الطبيعية والاقتصادية والبشرية، وشكل وحجم ومناخ الدولة، والسكان وغيرها، وتحليل التاريخ السياسي للدولة، وحدودها، وعلاقاتها السياسية بالعالم الخارجي ويعيب هذا المنهج كم المعلومات الكبير الذي يخشى معه على الباحث أن ينتهي به الأمر إلى وصف مجموعة من الدول وصفا إقليميا، والجغرافيا السياسية بهذا الشكل لن تكون لها شخصيتها المميزة. فعلى الباحث الجغرافي في هذا المجال أن يستفيد من هذا المنهج في إبراز المشكلة موضوع دراسته بتحليل المعلومات والبيانات المختلفة بطريقة " الجغرافي الإقليمي" الذي يختار ما يريده من الدراسة الإقليمية التي تفيد في فهم طبيعة المشكلة وأسبابها الجغرافية.

3- منهج النظم العالمية في التحليل: The world systems Analysis

pproach

يتعلق هذا التحليل بالكيفية التي نتصور بها التحولات الاجتماعية على المستوى العالمي لقد درج الباحثون على الخلط بين مصطلح " المجتمع" ومصطلح " البلدان" وبذلك خرجوا نتائج عن بعض المجتمعات ثم طبقوها على بعض البلدان، ومن ثم تحدث عن بعض المجتمعات مثل المجتمع الفرنسي، والمجتمع الأمريكي، والمجتمع الصيني، والمجتمع المصري.. الخ ولما كان هناك أكثر من مائتي دولة في عالم اليوم، فإن هذا يعني أن يتوجب على دارسي التغير الاجتماعي أن يتعاملوا مع ما يقارب على الأقل مائتي مجتمع. وهذا أثر مقبول في العلوم الاجتماعية التقليدية، ويمكن أن نسميه فرضية " تعددية المجتمعات إلا أن "منهج النظم العالمية" والتحليلي يرفض تماما هذه النظرة بوصفها نقطة انطلاق تقودنا إلى تفهم حقيقي لعلمنا المعاصر.

ويقوم هذا المنهج بتحليل أبعاد المنظومة التاريخية، وديناميات الاقتصاد العالمي، والموجات اللوجستية، والبنية المكانية للاقتصاد العالمي، والنطاق الجغرافي للنظام، والقوة السياسية في الاقتصاد العالمي، وطبيعة القوة (الأفراد – المؤسسات – الطبقات – الشعوب).

4- المنهج الوظيفي: The Functiona Approach

يهدف إلى دراسة الدولة من حيث علاقاتها الخارجية والداخلية، وكيف يمكن للدولة أن تحافظ على كيانها الداخلي في ظل منظومة مجتمع دولي متكامل، وأثر العوامل الجغرافية كالمناخ، والتضاريس، والقوميات المتعددة، أو جماعات الشعوب على الأنشطة السياسية للدولة، وكذلك أثر المظاهر السياسية بدورها على العوامل غير السياسية كأنماط الاستقرار واستخدام الموارد وتطور شبكات النقل والاتصال،

ونمو الخدمات والمرافق وغيرها، كما يدرس قدرة الدولة على التكيف والبقاء والنمو في ظل الظروف الأوضاع الخارجية حولها، ومشكلاته الإقليمية مع الدولة المجاورة. من هنا يهدف هذا المنهج إلى التحليل السياسي للوحدة السياسية من خلال الوظائف الداخلية والخارجية التي تؤديها.

5- منهج جونز ونظرية المجال الوحيد: "The unified Theory"

تتألف من خمسة حلقات هي الفكرة السياسية (إنشاء الدولة) والقرار السياسي، والحركة السياسية والمنطقة السياسية، وهي حركات متصلة، وضرب لنا مثلاً بالصهيونية (الفكرة السياسية) وعد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين (القرار السياسي) والهجرة الشرعية وغير الشرعية لليهود من الخارج " الحركة"، وإنشاء المستعمرات العسكرية الإسرائيلية وفرنق الهاجا في الإرهابيين (المجال)، وقيام إسرائيل في 1948 (المنطقة السياسية).

6- المنهج المورفولوجي: "The Morphological Approach"

يقوم هذا المنهج على تحليل أنماط الظواهر السياسية للدولة وتراكيبها، حيث يوجد نمط التنظيم السياسي الإداري داخل الدولة أو نمط التنظيم الإقليمي (كتل إقليمية) أو تنظيمات عالمية (اتحادات دولية)، أما تركيب الظواهر السياسية فتتمثل عواصم الدول وشعوبها، ومواردها الاقتصادية، وشكل الحدود السياسية، والمشكلات التي تواجه المناطق المختلفة.

7- المنهج الوصفي: The landscape Approach

يهتم هذا المنهج بدراسة المسرح السياسي للدولة، من حيث الموقع الجغرافي، والمساحة، الشكل، ونواة الدولة وقلبها، والأقسام السياسية بها، والشكل الداخلي وصف السلالات واللغة، والدين، الأجناس، والأحزاب السياسية وميولها والتمثيل النيابي، والحقوق المدنية، كما تدريس العناصر الخارجية (وصف الحدود السياسية وتطورها وتركيبها ومشكلاتها وشكلها العام وكذلك شكل الدولة ووصف علاقاتها الدولية الأخرى وكذلك وصف للمجتمع البشري بتركيباته المتعددة، والأسلوب الاقتصادي الذي تتبعه الدولة وأثره في قوتها وضعفها.

8- منهج تحليل القوة: The analysis Approach

ينظر هذا المنهج في تحليل العوامل الجغرافية المؤثرة في قوة الدولة وضعفها وتكتلاتها مثل جوانب الطبيعية، وموارد الثروة الاقتصادية، والثروة البشرية، ووسائل النقل والمواصلات من حيث حجم الشبكة وكفاءتها وربطها جميع أجزاء الدولة" وكذلك عدد السكان وخصائصهم، والنظام السياسي، والموقع الجغرافي النسبي والفلكي وأثره على تنوع الموارد الاقتصادية، وشكل الدولة وحدودها، وأثر البيئة الجغرافية على علاقاتها السياسية الداخلية والخارجية.

نشأة الجغرافيا السياسية

ترجع نشأة الجغرافيا السياسية لبداية القرن الماضي (ق 20) إلى أن له جذور قديمة تنقسم خلال أكثر من 2000 عام لثلاث مراحل:

• مرحلة الحتم الجغرافي وأثره على العلاقات السياسية.

• مرحلة الدولة ككائن حي و الجيوبولتيكا

• مرحلة دراسة الوحدات (المناطق) السياسية

و تعبر كل مرحلة من المراحل السابقة على فترة محددة في تاريخ الجغرافيا السياسية، فنجد أرسطا طاليس، وابن خلدون عند العرب يمثلان الفترة الأولى، بينما يمثل الفترة الثانية راتزل «الحتم الجغرافي، وتأتي الفترة المعاصرة، نجد وتلس وجونز، وهارتز هورن، وهي الفترة الأخيرة.

و مما لا شك فيه أن الإنسان القديم في إدراكه للتفاعل بين الإنسان والبيئة المحيطة به لم يكن إدراكاً علمياً له إطاره ومنهجه، بل كانت إرهابات تحدث عنها العالم الإغريقي أرسطا طاليس (383 – 322 ق.م)، حيث تكلم عن الدولة المثالية، وحدد عناصرها في حجم السكان، وكم الموارد الاقتصادية، حيث ذكر أن حجم السكان يجب أن يكون متوسطاً بحيث يسهل حكمه، فلا هو بالحجم الكبير الذي يصعب حكمه، ولا هو بالحجم الصغير الضعيف، وكانت رؤيته تنصب على أن الاعتبار السياسي له الأثر القوي في تحديد الحجم المثالي لسكان هذه الدولة من أجل

تحقيق الاستقرار والطمأنينة والرفاهية لكل أفراد هذه الدولة، وفي نظرة أن الحجم الأمثل للسكان يتحقق بمعرفة كل النخبين لمنتجهم ولأنفسهم شخصياً ولكن يعيب على هذا الرأي الآن ذلك التطور في وسائل الاتصال والإعلام من أجهزة الدش والراديو، فيستطيع أي مرشح أن يظهر على شاشات الدش والتلفزيون أمام عدد كبير وضخم من النخبين، دون وجود علاقة شخصية بين النخب والنخبين له، كما أن نجاح الدولة المثالية في رأي أرسطا طاليس يتحقق باستغلال الموارد الاقتصادية المختلفة مما يحقق الاكتفاء الذاتي لشعوبها، وهي دعوة لا تتحقق في عالما المعاصر، حيث الاختلافات في الظروف الطبيعية والبشرية لكل دول العالم، والتطلعات الكبيرة لحكومات اليوم لا تقف عند حدود الدولة السياسية، مما خلق المشكلات السياسية، وبالتالي الحروب والمجاعات والأزمات التي لا تحقق الرخاء والرفاهية لشعب من الشعوب.

أما عن رأيه في العاصمة المثالية للدولة التي تجمع بين الموقع الحصين، وبين الأداء الجيد لظروفها، كما أنه عالج الصفات التي يجب أن ينصب بها الجيش البري، والأسطول الحربي الذي يضم عناصر مرتزقة من غير المواطنين، كما أنه ناقش وظائف الدولة، والحدود السياسية المحصنة، وبالتالي فقد تطرق لكثير من موضوعات الجغرافيا السياسية التي تعالج في الوقت الحاضر، أما عن العالم العربي ابن خلدون (1382 - 1405) فقد ألقى الضوء في مقدمته على فكر الجغرافيا السياسية عند العرب في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي وناقش موضوعات هامة مثل القبيلة والدولة، والصراع القائم بين البدو والزراع، وعرض رأيه في ظل الحتم البيئي.

وقد جاءت المرحلة الثانية في تطور فكر الجغرافية السياسية على يد العالم الجغرافي الألماني راتزل (1844-1904) لتشهد البزوخ الحقيقي للجغرافيا السياسية، حيث تأثر في أفكاره بمبدأ دارون «البقاء للأقوى» و الحتم الجغرافي، وظهرت آراءه في عدة نقاط منها: الدولة كائن حي، يتوقف نجاحه على إمكانية الحصول على مساحات إضافية، بالإضافة إلى التلاحم التام بين أرضها وسكانها، ونشرت هذه الأفكار في كتابه " الجغرافية السياسية " عام 1897، وقد كان ذلك بمثابة الانطلاقة الأولى لكل من الجغرافيا السياسية والجيوپولوتیکا.

وجاء تطور الجغرافيا السياسية بعد ذلك بطيئاً، وظهرت كتابات في الجغرافيا السياسية منها كتاب بومان باسم " العالم الجديد" وهو أستاذ أمريكي، ركز في كتاباته عن سياسة وجغرافية عالم ما بعد الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918) وقدم لنا دراسة موضوعية لما بقي من حطام الحرب لعالم يسوده التفاؤل، أما كتاب وتلس The Earth and state فهو كتاب منهجي ويعد من الكتب المهمة خاصته في الموضوعات الإقليمية التي درسها.

وجاء القرن العشرين ليشهد الثالث الأول منه ظهور بعد الأبحاث والكتب في مجال الجغرافيا السياسية، ولكن بشكل منقطع وغير مفهوم، حيث كانت معظم الكتابات تتميز بالوصف الإقليمي مع عجالة تاريخية سياسية وإحصائية غير دقيقة، وغياب المنهج التحليلي.

وظهرت الجيوبولوتيكاً بخطى كبيرة وثابتة في ألمانيا في الوقت الذي تتغير فيه الجغرافيا السياسية، ودارت فكرة الجيوبولوتيكاً حول كارل هوس هوفر ومدرسته، حيث عرفها بأنها علم دراسة علاقات الأرض ذات المغزى السياسي، وترسم المظاهر الطبيعية لسطح الأرض، الإطار للجيوبولوتيكاً الذي يجب أن تتحرك فيه الأحداث السياسية التي تحدث إذا أريد لها النجاح المستمر، وهي بذلك تهتم بدراسة الدولة من الناحية السياسية في إطار ديناميكي على أنها كائن حي، وليس في إطار جامد استاتيكي. وقد كانت الجيوبولوتيكاً التي نادي بها كارل هوس الألماني وكلن السويدي بمثابة نظر شؤم وكراهية للألمان، حيث ظهرت فكرة المجال الحيوي الألماني ونظرية ماكنيدر عن الجزيرة العالمية، ومحاولات تقسيم العالم إلى مناطق سياسية ونشرت هذه الأفكار عام في مجلة الجيوبولوتيكاً الألمانية كضمير جغرافي للدولة، إلا أنه كان فكراً مجرداً من القيم العلمية والإنسانية حيث ركز على خدمة النازية الألمانية لما تضمنه من مخالقات وأفكار مزيفة غير موضوعية.

وأدى تقدم الجيوبولوتيكاً على هذا النحو المزيف والمجرد من الأخلاق الإنسانية في ألمانيا إلى تأخرها وبطء تطورها، وفقدت روحها العلمية، وجاء تأخر الجغرافيا السياسية بسبب الجيوبولوتيكاً الألمانية بالإضافة إلى نظرية الحسم الجغرافي، والدراسات الوصفية، علاوة على ادعاءات هتلر بخصوص المجال الحيوي، واستغلال بعض المفاهيم الجغرافية المحرفة مثل كثافة السكان لأغراض السياسة العدوانية، حيث صور الجغرافيا السياسية في ذهن الناس بأنه فكرة للحرب والعدوان على أراضي الغير، مما جعل الجغرافيون والسياسيون ينفضون هذا المولود والكريه عن أكتافهم متكررين منه وينسبونه إلى بعضهم البعض، وبالتالي ماتت جيوبولوتيكاً هوس هوفر بعد الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945) لتفسح المجال أمام الجغرافيا السياسية لكي تنتعش وتتقدم من جديد خلال العقد الخمسين من القرن الماضي، حيث ظهر لها منها وفكر واضحاً، مثل المنهج الوظيفي لها رتز هورن، ومنهج النظرية الموحدة لجونز، ولكن كان تقدماً بطيئاً، لما لاقته من نفور كثير من الجامعات في حذف هذا العلم من مناهجها بسبب الجيوبولوتيكاً.

وجاء عام 1967 ليشهد بداية تطور هائل في علم الجغرافيا السياسية، حيث حرصت كل دول العالم في ميدان الجغرافيا السياسية منذ عام 1990، ولما تتميز به الجغرافيا السياسية في وقتنا الحاضر بطابع العالمية والشمول، وتعدد العلاقات

الخارجية واتساع مجالها لكثرة الوحدات السياسية، مع تعقد العلاقات الخارجية والداخلية لها حتى أصبح العالم يشكل وحدة جغرافية سياسية واحدة. و بناء على ما سبق فإن تطور الجغرافيا السياسية جاء كما ذكر فتحي مصلحي في ثلاث مراحل تطورية متباينة، لكل منها خصائصها المميزة على الرغم من تداخلها، وعدم وجود حدود زمنية فاصلة بينها:

المرحلة الأولى: الجغرافية السياسية في ظل الحتم الجغرافي:

ومن أعلام المرحلة أرسطو وأفلاطون وإسترابون في العصور الوسطى والحديثة، فقد تناول أرسطو في كتابه عن السياسة فكرة الدولة المثالية، حيث أوضح أن أهم عنصرين في هذه الدولة هما السكان وموارد الثروة، وأن العلاقة بين الاثنين هي التي تحدد قوة الدولة كما تحدث عن عاصمة الدولة وضرورة أن تجمع بين الحصانة والدفاع من ناحية، وخدمة إقليمها من ناحية أخرى، وعالج أرسطو قوة الدولة العسكرية، وكافة وظائف الدولة، كما اهتم بالحدود السياسية.

وقد سيطر الحتم الجغرافي على أفكار الجغرافية السياسية خلال تلك المرحلة، حيث كان يتم تفسير الظواهر الجغرافية السياسية بظواهر طبيعية، فقد كانت كتابات أرسطو حتمية، ركز فيها على حتمية تأثير الموقع الجغرافي والفلكي وما يرتبط بهما من ظروف مناخية تؤثر في السلوك السياسي للإنسان، وتشابهت أفكار أفلاطون مع أرسطو، أما إسترابون فقد حدد بقاء الدولة الإمبراطورية بوجود حكومة مركزية قوية وحاكم قوي.

أما عبد الرحمن بن خلدون الذي قال عنه الأوربيون أنه أول مكتشف بطبيعة البحث الجغرافي وميدانه فلم يتسم نهجه في الجغرافيا السياسية بالحتم الصارم، وقد أضاف الكثير إلى الفكر الجغرافي السياسي في مقدمته الشهيرة، و يعتبر هو واضع الإطار العام الذي عرف من بعده بدورة حياة الدولة، وتحدث بن خلدون عن عوامل قيام الدولة وهرمها وسقوطها وفي أعقاب عصر النهضة انتعشت الدراسات الجغرافي السياسية في أوروبا، ويمكن أن نلمح ذلك في كتابات بودين ومونتسكيه، وقد اتسمت كتاباتهما بالحتمية البيئية، حيث ذكر بودين أن الظروف المناخية والطبوغرافية للدولة هي التي تحدد ملامح شخصيتها القومية، والتي تؤثر بدورها في التركيب السياسي للدولة، أما مونتسكيه فقد اعتقد وجود علاقة سببية وثيقة بين المناخ والحرية السياسية والعبودية، واقترح نموذجاً جغرافياً سياسياً حتمياً مؤداه أن الديمقراطية و الحرية تتزايد بالبعد عن خط الاستواء كنتيجة طبيعية لانخفاض درجة الحرارة بالبعد عنه، وعليه فإن المناخات الدفيئة هي قرينة الحكم الاستبدادي والمناخات الباردة هي قرينة الحرية والعدل، ولم يختلف رايتير عن سابقه، حيث أشار إلى العلاقة بين الحضارة وظروف البيئة الطبيعية.

المرحلة الثانية: هيمنة الفكر الجيوبولوتيكي:

لا يعتبر فردريك راتزل هو رائد هذه المرحلة فحسب، بل إنه المؤسس الحقيقي للجغرافية السياسية الحديثة وهو أول من أطلق عليها هذا الاسم، وقد شبه راتزل الدولة بالكائن الحي، وأوضح أن الدولة إما أنت تنمو أو تضمحل وتموت لأنها لا تستطيع أن تبقى ساكنة، وقد تأثر راتزل في ذلك بمبدأ دارون في الانتخاب الطبيعي والبقاء للأقوى، وظهر مدرسة الداروينية الاجتماعية Social Darwinism التي أكدت على التشابه بين المجتمعات البشرية والكائنات الحيوانية، كما تأثر كذلك بالحثم الذي سيطر على المدرسة الألمانية خلال القرن 19، وتنو الدولة من وجهة نظر راتزل بالاستيلاء على مساحات جديدة من أراضي الغير، وهو ما يعرف بمبدأ التوسع الإقليمي، وعلى المستوى الدولي أن تقوم في أعقاب الاستيلاء على المساحات المضافة من أراضي الدول المجاورة، بدفع سكانها إلى هذه المناطق لإحكام سيطرتها عليها ودمجها في نسيج الدولة تمهيدا لبدء دورة توسعية جديدة.

وبناء على ما سبق فإن حدود الدولة قابلة للزحزحة والحركة من مكانها، فهي كجلد الكائن الحي، الذي يتمدد بنموه، وينكمش باضمحلاله، وتظل الدولة تتوسع حتى تصل إلى حدودها الطبيعية، وأن الدولة تظل تتمدد طالما لا تواجه مقاومة خارجية. ورأى راتزل أن توسع الدولة يأتي عن طريق التوسع الديني والنشاط التبشيري والتجاري والسياسي والعسكري، وهو يرى أن للتوسع التجاري الأثر الأعظم في توسع الدولة، وأنه يسبق التوسع السياسي، أي أن العلم يرفرف سياسيا بعد التوسع التجاري، وكل طريق تجاري يمهد لنفوذ سياسي لاحق.

ويلاحظ أن الجغرافية السياسية على يد راتزل حتمية أيضا، فقد آمن راتزل بحتمية الصراع من ناحية، كما جزم بأن موقع الدولة ومساحتها ومناخها والتضاريس والغطاء النباتي والتربة لها جميعا تأثيرا كبيرا على الحياة السياسية للدولة، هذا على الرغم من أنه عاصر الثورة الصناعية التي غيرت نظرت الإنسان إلى علاقته ببيئته الطبيعية تغييرا جوهريا.

وقد أرسى راتزل المفهوم الجيوبولوتيكي الألماني المعروف باسم المجال الحيوي، والذي عرفه بأنه المنطقة الجغرافية التي تنمو فيها بوصفها كائنا حيا.

المرحلة الثالثة: دراسة الوحدات السياسية:

ظلت الجغرافية السياسية خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن 20 تعرف على أنها علم يدرس العلاقة بين الأنشطة السياسية للإنسان وتنظيماته من ناحية والبيئة الطبيعية من ناحية أخرى، تلك العلاقة التي تتمتع فيها البيئة الطبيعية بالغلبة والسيادة في ظل الحتم الجغرافي السائد بين المفكرين آنذاك.

المرحلة الرابعة (المعاصرة):

فقد ركزت على دراسة الوحدات السياسية وفي مقدمتها الدولة، ومن أعلام هذه المرحلة وتلي وهارتشهورن وجوتمان، فقد أسهم وتلي في وضع إطار نظري للجغرافيا السياسية، حيث رأى أنها تهتم بدراسة اختلاف الظواهر السياسية من مكان إلى آخر على سطح الأرض، وتأتي الدولة في مقدمة هذه الظواهر. ورأى هارتشهورن في كتاباته الأولى أن الجغرافية السياسية هي دراسة الوحدات السياسية ويتضمن هذا المنهج وصفا تحليليا لعناصر الدولة، وبدأ بعد ذلك يركز على وظائف الدولة حيث ذكر أن كل دولة تحتوي على عوامل الوحدة وعوامل التنافر معا.

أما جوتمان فقد أضاف فكرتين هما الحركة والاكولوجرافيا، فالحركة تتضمن وسائل النقل والمواصلات وانتقال الأشخاص والسلع والأفكار، أما الاكولوجرافيا " الثبات " فهي القوة المضادة للحركة وتشمل قيم الماضي ووجهات النظر الاجتماعية. وكانت الجغرافية السياسية في بادئ الأمر تدرس أثر البيئة الطبيعية (الموقع – المساحة – الشكل – التضاريس – المناخ – الغطاء الحيوي) على السلوك السياسي (الأقوال – القرارات – الأفعال) للدول، وبذلك اتسمت هذه النظرة بالحتم الجغرافي. وكرد فعل لهذا الاتجاه ظهرت مدرسة مناوئة للحتمية، رأت أن الجغرافية السياسية هي عبارة عن دراسة تأثير السلوك السياسي على اللاندسكييب الطبيعي والبشري، ثم سرعان ما تغلب الاتجاه الاحتمالي، الذي يرى أن الجغرافيا السياسية هي دراسة التأثير المتبادل بين الظواهر الجغرافية من ناحية والظاهرة السياسية من ناحية أخرى.

و يرى فريق آخر أن الجغرافية السياسية هي التحليل المكاني للظاهرة السياسية، أو بعبارة أخرى دراسة الأبعاد المكانية للسياسة، بحيث تصبح أي ظاهرة في المكان موضوعا من موضوعات الجغرافيا السياسية طالما كان لها بعدا مكانيا.

الجغرافيا السياسية

- الجغرافيا السياسية وهي علاقة تأثير وتأثر بين الجغرافيا والسياسة بصفة عامة فقرار إنشاء قناة السويس كان سياسياً ترتب عليه تغير في المكان وهو الجغرافيا.

- الجغرافيا السياسية هي العلم الذي يبحث في تأثير الجغرافيا على السياسة أي الطريقة التي تؤثر بها المساحة، والتضاريس والمناخ على أحوال الدول والناس. فبسبب الجغرافيا كانت أثينا إمبراطورية بحرية، وبسببها أيضاً كانت إسبرطة أقرب في طبيعتها إلى القوة البرية. وبسبب الجغرافيا أيضاً، تمتعت الجزيرة البريطانية في القرن الثامن عشر بحرية الملاحة في البحار، في حين كانت بروسيا - وبسبب الجغرافيا أيضاً- محاطة بالأعداء من جميع الجهات.

تعريف مختلفة

الجغرافيا السياسية ليست فقط تأثير الجغرافيا على السياسة ولكن أيضاً تأثير السياسة على الجغرافيا فهناك الكثير من القرارات السياسية التي غيرت الوجه الجغرافي لمناطق كثيرة بالعالم كشق القنوات الكبرى كقناة السويس مثلاً. وهناك عدة تعريفات للجغرافيا السياسية منها:

- تعريف الكساندر بأنها: دراسة الأقاليم السياسية التي تنقسم إليها الأرض كظاهرة من مظاهر سطحها سواء كانت الأقاليم صغيرة أو كبيرة.
- أما بومان فعرفها: تساعد في فهم السلوك السياسي للإنسان.
- أما العالم كوهين فقال بأنها: المناهج الجغرافية لدراسة العلاقات الدولية.
- وعرفها الجغرافي الأمريكي هارتشورن بأنها: " دراسة الاختلاف والتشابه المكاني للظاهرة السياسية، ويتضمن تفسير التباين والتشابه في المظاهر السياسية ودراسة علاقاتها مع كل مظاهر البيئة المرتبطة بذلك: سواء السطح والمناخ والعالم العضوي والظروف الحضارية".

وإجمالاً يمكن فهم الجغرافيا السياسية بأنها دراسة الوحدات أو الأقاليم السياسية كظواهرات على سطح الأرض ومقومات وجودها وتطورها معتمدة على خصائص البيئة الجغرافية من حيث قوتها أو ضعفها واستقرارها أو تفككها كما تهتم الجغرافيا السياسية بدراسة النظم السياسية.

اهتمامات ومعالجة الجغرافيا السياسية

تعالج الجغرافيا السياسية النمط السياسي للعالم وهو نمط معقد إلى حد كبير بسبب التجزئة المتباينة لسطح الأرض إلى وحدات سياسية تتفاوت في الحجم المساحي والسكاني تفاوتاً كبيراً، وتغير الأنماط السياسية في حدودها ومقوماتها ومشكلاتها الناجمة عن التفاعل الإنسان ببيئته مما ينعكس على أوضاعها الداخلية وعلاقتها الخارجية.

وتهتم الجغرافيا الجغرافية السياسية في هذا المجال بمواكبة مظاهر التحول في رقعة الوحدات السياسية وسكانها ومواردها وعلاقتها بالدول الأخرى، لذا فهي تتصل بعلوم أخرى عديدة تتضافر كلها لتحليل القوة الجغرافية طبيعياً وحضارياً واقتصادياً وتحديد علاقتها المتشعبة في المكان والزمان. (التاريخ – الإنسان والزمان والمكان - / العلوم السياسية – السياسة الخارجية للدولة والنظام الدولي والقانون الدولي).

الجغرافيا السياسية عبر التاريخ

عموماً تعتبر الجغرافيا السياسية علماً أكاديمياً حديثاً بالرغم من وجود مبادئها منذ ارسطو (الحجم السكاني الأمثل للدولة، المساحة الأفضل للدولة)، واسترابو، وابن خلدون (دورة حياة الدولة) لكن يعتبر الألمان هم من بدءوا هذا العلم وذلك بعد أن نشر الجغرافي الألماني فريدريك راتزل كتابه (الجغرافيا السياسية) وذلك في سنة 1897م ويعد الألمان أكثر من كتب في الجغرافيا السياسية. وهي تضم مجموعة من المفاهيم السياسية الرئيسية منها: جغرافية المستعمرات، الدولة والإقليم، الأمة والقومية، جغرافية الانتخابات، إضافةً للخطط الإستراتيجية الجيوبولتيكية التي حكمت العلاقات السياسية الحربية القديمة بل والحديثة على أساس خصائص البيئة الجغرافية.

الفصل السابع

مدخل الدمج المعرفي وتغيير الجغرافية السياسية للمعرفة

الفصل السابع

مدخل الدمج المعرفي وتغيير الجغرافية السياسية للمعرفة

هناك جهود مستمرة وحثيثة من أجل الوصول إلى التكامل المعرفي بين الحقول والتخصصات ونتيجة لذلك انبثقت عدة مداخل تسعى لتحقيق ذلك الهدف مع وجود الفروق بينها من عدة وجوه. واحد أهم تلك المداخل هو مدخل الاندماج أو الدمج المعرفي.

وتكمن جوهر مشكلة البحث بالتداخل الشديد وصعوبة التمييز بين تلك المداخل بسبب من هدفها المشترك والتشابه الموجود في آلياتها الأمر الذي أدى إلى غموض مدخل الدمج المعرفي وصعوبة تحديد معالمه ودوره في إعادة صياغة العلاقات الحقلية. وتتلخص مشكلة البحث بالتساؤلات الآتية:

1. ماهو مدخل الدمج المعرفي وكيف يمكن تمييزه عن المداخل الأخرى وما هي أهدافه؟
 2. ماهو المسار الجيوسياسي للعلاقات الحقلية وأين هو موقع الدمج المعرفي فيه؟
 3. ماهي الصيغ المستقبلية للمعرفة وما علاقتها باليات الدمج المعرفي؟
- تحديد مفهوم واضح لمدخل الدمج المعرفي إزاء المداخل الأخرى في ضوء المقارنة والتحليل.

1. بيان علاقة آليات الدمج المعرفي بالصيغ المستقبلية لصنع المعرفة.
2. استنباط المسار الجيوسياسي للمعرفة في ضوء مفاهيم الجغرافية السياسية.

تبرز أهمية البحث في النقاط الموجزة الآتية:

1. عدم وجود دراسة في اللغة العربية لهذا الموضوع رغم أهميته وضرورته.
2. تحفيز الباحثين والطلبة لتبني الاتجاهات الحديثة في اكتساب وتعظيم وتفعيل المعرفة.
3. الدعوة إلى اعتماد آليات الدمج المعرفي بعد أن أثبتت فعاليتها ومعاليتها وبخاصة في المجال التطبيقي وقدراتها على حل المشكلات والوصول إلى قرارات وحلول.

تعرضت هذه الدراسة بل وارتكزت إلى مصطلحات تتسم بالكثير من الضبابية والغموض والتداخل، ولم يجد الباحث دراسة في اللغة العربية تتعرض لهذه المصطلحات تعريياً وترجمة، بحيث تأخذ في الاعتبار مفهوم كل منها في ضوء علاقته وموقعه بين المصطلحات الأخرى. وقد عَرَب الباحث هذه المصطلحات استناداً

إلى مفهومها وطبيعة عملها والياتها، وليس مجرد المعنى اللغوي التركيبي فحسب. وعلى النحو الآتي:

1. Multidisciplinary (MD) التعدد المعرفي (أو المدخل التعددي في المعرفة): تجميع المعرفة وجلبها من عدة حقول وتخصصات مع بعض.
2. Interdisciplinary (ID) التفاعل المعرفي (أو المدخل التفاعلي في المعرفة): ويذهب خطوة أبعد وأعمق من التعدد المعرفي من حيث إن التفاعل يؤدي إلى ظهور مركب جديد هو حقل أو علم هجين.
3. Transdisciplinary (TD) الدمج أو الاندماج المعرفي (المدخل أدمجي أو الاندماجي): صيغة متفردة من التفاعل لا تولد أو تؤدي إلى ظهور حقل أو علم هجين. بل هي تدمج نسق أو تشكيلة من المكونات التي تنتمي إلى حقول مختلفة في تركيبة معينة من أجل حل مشكلة ما. وتختلف التراكيب المدمجة على وفق الموقف أو المشكلة التي يتم التعامل معها.
4. Disciplinary المعرفة الحقلية: المعرفة ضمن نطاق العلم أو الحقل التخصصي الواحد.

مفهوم وتطور وأهمية الدمج المعرفي

تعريف وتطور مدخل الدمج المعرفي

يرجع قاموس أكسفورد وعدد من العلماء أصل مصطلح Transdisciplinarity إلى أول مؤتمر دولي عقد حول تفاعلية المعرفة Interdisciplinarity في فرنسا (1970) والذي كان برعاية منظمة التطوير والتعاون الاقتصادي OECD حيث عقدت ندوة حول دور وضرورة تفاعل وتحشيد الحقول المعرفية والتخصصات في الجامعات الحديثة وهذه هي نقطة الأصل الأبرز التي انبثقت منها هذا المدخل. كذلك يمكن تتبع أثر المدخل في مصادر أخرى فهو يرتبط أيضا بنظرية Gibbons وزملائه حول صيغ المعرفة وبالذات الصيغة 2 في إنتاج المعرفة، وكذلك نظرية Basarab Nicolescu حول الهياكل المفتوحة للوحدة في نظرية التعقيد. كذلك هناك إشارات أو علامات من الأطر الشاملة أو الكلية مثل: نظرية النظم المفتوحة، الماركسية، نظرية المساواة (Klein, / New Directions Initiative. Unity of Knowledge and Transdisciplinarity. Htm)

أما عن محاولة تعريفه فإن أبسط مستوى من تعريف أي مصطلح سوف تستند إلى التركيب والأصل اللغوي. ومصطلح Transdisciplinary يتكون من البادئة Trans التي تشير إلى "شيء يجتاز أو يعبر أو يذهب أبعد من أو خلال شيء آخر"، و disciplinary الذي يعرفه قاموس أكسفورد بأنه: "تدريب الباحثين والمساعدین على الاتصال والعمل بشكل ملائم لتطبيقات وممارسات محددة فكريا وأخلاقيا (Nordheim."، http://home.hia.no/stign/) أو هو: "فرع للتعليم أو حقل

للدراسة يتسم بجسد من المعرفة المقبولة المترابطة موضوعيا والمحددة والمشخصة بشكل واضح". وبذلك فإن المعنى اللغوي التركيبي لمصطلح Transdisciplinary سيكون "الذهاب أبعد من الحقل الواحد أو عبور وتجاوز التخصص أو الحقل الواحد". إلا إن هذا المفهوم رغم دلالاته لا يقدم الكثير في توضيح وتمييز هذا المدخل، لأن هذا المعنى يقارب أو يتطابق مع مصطلح disciplinary حين تستخدم معه البواديء الآتية: inter-, multi-, cross-...etc. وكل هذه المصطلحات تشترك معه في خاصية العبور أو التخطي للحقل الواحد.

وقد وردت في الأدبيات العديد من التعريفات التي قدمت للدمج المعرفي منها الآتي:

— احد اشهر تعريفات TD هو ذلك الذي استخدم في الندوة الدولية الأولى للتفاعل المعرفي، حيث عرف الدمج المعرفي بأنه "نظام عام أو مشترك من البديهيات لنسق من الحقول المعرفية"

— "هو صيغة أو شكل ما من التفاعل المعرفي interdisciplinarity يتم من خلالها تجاوز أو عبور الحدود للحقول المعرفية، ويتم دمج المعرفة والمنظورات لمختلف العلوم والحقول وكذلك المصادر المعرفية غير العلمية مع بعض".

— "صيغة جديدة للتعلم وحل المشكلات ويتضمن ذلك التعاون بين الأجزاء أو الأقسام المختلفة للمجتمع من اجل مواجهة تحديات المجتمع بحلول توجّه بالتعاقد بين أصحاب المصالح المختلفين عبر التعلم المتبادل وتعزيز معرفة كل المشاركين"

— "بوقة وتغيير مقصود للمعلومات والمعرفة والمهارات العابرة باستمرار للحدود العقلية من قبل أعضاء فريق متنوع التخصصات"

((Kessler, 1999: p.2)

بعبارة موجزة فإن هناك تطورا مفاهيميا للدمج المعرفي، يعبر جوهره عن سلسلة من التغيرات التي تشمل التحول: (Klein, op. cit)

من التجزئة إلى عبور وضبابية الحدود.

- من التنشيطية والانعزالية إلى العلائقية.
- من الوحدة (على مستوى الحقل) إلى العملية التكاملية.
- من التناغم والانسجام (على مستوى الحقل) إلى التنوع والاختلاف والتهجين.
- من الانعزال إلى التعاون والتكامل.
- من التبسيط إلى التعقيد.
- من العلاقة الخطية إلى اللاخطية.
- من العالمية (بالنسبة للحقل الواحد) إلى التطبيقات الموقفية.

يخلص الباحث مما تقدم إلى إن الدمج أو الاندماج المعرفي هو "عملية إذابة وصهر افتراضات وأسس ومبادئ واليات تنتمي إلى حقول وتخصصات مختلفة، في مركب واحد يصاغ لمواجهة مشكلة أو اتخاذ قرار، وتختلف التراكيب التي يتم تشكيلها كما ونوعا وكيفا في كل موقف وكل حالة"

أهمية ومبررات التوجه نحو التفاعل والدمج المعرفي

وصولا إلى عام 1987 أصبح هناك 8530 حقلا معرفيا دراسيا تخصصيا، وعند عام 1990 كان هناك ما يزيد على 8000 موضوع بحثي في علم منفرد أصبح مدعما بشبكات عمل متخصصة، إن التطوير الداخلي للعلوم قد تحول إلى قيادة الترابطات المشتركة بين العلوم الطبيعية والاجتماعية والتكنولوجية، وإذا ما أخذت العلاقات التبادلية بالاعتبار، فقد انبثقت مستويات جديدة من المنظمات وأصبحت الحزمة المتعددة التخصصات هي السائدة في البحث العلمي. (Klein, Ibid)

إن الحاجة والضرورة إلى الدمج المعرفي تقع ضمن مبررات وضرورات التوجه نحو التكامل المعرفي الذي تقع مظلته آليات متعددة منها التعدد المعرفي، والتفاعل المعرفي، بالإضافة إلى الدمج المعرفي. وتتشارك هذه المداخل ذات الفلسفة والهدف العام، إلا إنها تختلف من حيث المستوى والطبيعة. إن العديد من القضايا المعاصرة التي تواجه المجتمع الإنساني في القرن الحادي والعشرين تتطلب منهجا تكامليا معرفيا في البحث والتعليم والتفكير لكي تحقق نتائج عملية ومقبولة.

وقد أكدت العديد من الندوات الدولية حول البيئة المجتمع و المستقبل والقضايا ذات الصلة على أهمية هذا التكامل بمفهومه الواسع وبأي صيغة للتفاعل بين الحقول والعلوم

(Tolson, 2002: 2). فمثلا خلال عام واحد فقط في بريطانيا كانت هناك عشرات الأنشطة ضمن هذا الاتجاه من أجل تحقيق أهداف تتعلق بالميزة التنافسية، تعزيز نوعية الحياة، التنمية المستدامة. (WWW.rgs.org) كذلك هناك مؤسسات تسعى إلى الاستشراف المستقبلي من خلال تبني الاتجاهات التكاملية و التفاعلية والتي تتضمن: البيئة، نظم المواصلات، الطاقة، الزراعة، الصناعة، الدراسات السكانية، الوقاية من الجريمة.... الخ.

وتشير Klein إلى إن التدريسيين والباحثين والممارسين كلهم يتجهون نحو النشاط والعمل المستند إلى التفاعل والتكامل بين الحقول من أجل تحقيق الأهداف الآتية9: (Klein, 1990):

- الإجابة على الأسئلة البالغة التعقيد.
 - التعمق في مسائل وقضايا مترامية الأبعاد.
 - استكشاف العلاقات الحقلية والمهنية (التخصصية).
 - تحقيق وحدة المعرفة سواءا بدرجة محدودة أو كبيرة.
- وللتأكيد على أهمية ذلك اكد البعض إن عقد التسعينات من القرن العشرين كان عقد التكامل المعرفي، فالتعليم العالي مثلاً يتجه إلى مرحلة من التشابك بين الحقول المتعددة (Brown, 2002: 13)، وحاليا هناك تفهم واسع بان الأزمات العالمية التي

تواجه الإنسانية سوف تتطلب أساليب جديدة من المعرفة والفهم للعالم. إن الإدراك المجزأ الآلي الحقل الضيق للواقع، قد اثبت انه غير كاف للتصدي للمشكلات والقضايا المعقدة والمتراصة والمتسلسلة في المرحلة المعاصرة.

وهكذا فان القضايا والمشكلات العالمية أصبحت من السعة والتعقيد بحيث لا تسمح لحقل معرفي محدد أو تخصص واحد من تفحصها بشكل مثمر. على سبيل المثال مشكلة تلوث الهواء تتطلب ابتداء من الكيميائي تحليل الملوثات المنبعثة وتأثيرها في المجال الجوي، ومن البيولوجي تحليل تأثير ذلك على النظم الطبيعية والحياة، ومن النظرية الاقتصادية موازنة التكاليف مقابل المنافع، ومن علم الاجتماع فهم الخطر وأدراك الاستجابة الاجتماعية لهذه المشكلة. كما إن التحليل التفاعلي يمكن أن يستخدم لدمج وتوحيد المعرفة الحقلية في كل تلك التخصصات عند صياغة وتقييم خيارات السياسات العامة.

(Seipel,://www2.Truman-edu/Jins 343/interdisciplinarity.pdf)

إن البحوث التي تستند إلى التكامل المعرفي له قدرة هائلة في المواقف التي تبرز فيها أسئلة وتشكلات صعبة تتطلب حولا عملية. إن أي من حقول المعرفة منفردا لم يجهز أو يعد بشكل كاف ليخرج في حساباته كل الوجوه والجوانب لمشكلة ما، في حين إن من الممكن تحقيق نتائج فريدة من خلال أفراد جاءوا من حقول مختلفة وعملوا كفريق عمل متفاعل بشرط أن يتسم الأعضاء بالانفتاح على الأفكار الجديدة، ولهم القدرة على التواصل، ويتطلب ذلك أيضا تعلم الكيفية التي تعمل من خلالها آليات الحقول الأخرى (Brown,2002).

ويؤكد Carins على أهمية ودور الفرق التفاعلية موضحا إن الاستخدامات المستديمة للكوكب تتطلب مدخلات معرفية تعود لمدى واسع ومتنوع من الحقول والعلوم. ألا إن المؤسسات الأكاديمية والتعليمية وللأسف لم تعد لمهمة متعددة الأوجه والتنوع كهذه، كما إن المجتمع الإنساني لم يواجه بمثله من قبل، إضافة إلى الأبعاد الأخلاقية المتصلة بها، إن الفرق التفاعلية والباحثين العابرين للحدود ما بين الحقول والتخصصات هي الحل الناجع لتلك الاستخدامات ومواجهة مشاكلها. كما إن التعاضد بين التخصصات يمكن أن يساعد في مواجهة مشكلة التمويل التي تتفاقم بالنسبة للمؤسسات البحثية، إذا ما أرادت البقاء في موقع الصدارة والمنافسة (Cairns, 2001: 51).

ومن الغريب إن كثير من الباحثين والممارسين يستخدمون آليات الدمج المعرفي بدرجات مختلفة دون إدراكهم لذلك وعلى سبيل المثال في مؤتمر دولي حول الدمج المعرفي وصف اغلب المتحدثين أنفسهم بأنهم لا شعوريا (أو من غير أن يشعروا) اندماجيون، وفي مؤتمر زيورخ حول الدمج المعرفي أشار كثير من الممارسين إلى أنهم يقومون بعمل الدمج المعرفي من غير أن يستخدموا هذا المصطلح. (Klein,op. cit)

وعلى مستوى المنظمة لنفترض جدلا إن المشكلة التنظيمية قد حلت بشكل كامل من خلال حل معرفي واحد، كيف يعلم الممارس في حقل ما، إن هناك تقانة أفضل تعالج المشكلة بمهارة أعمق وهي مستخدمة ومتاحة في حقل آخر ؟ إن من النادر أن نجد ممارسين يشكون في أساليب معالجتهم للمشكلات، وكحقيقة إن قلة من المشكلات التي تظهر يمكن أن تعالج بمهارة ضمن المعرفة المتوافرة في حقل واحد، إن الفهم المتكامل لهذه المشكلة يتطلب دمج المنظورات التي تنطلق منها تلك الحقول في وضمن مركبا متكاملا وموحدا (Anthony, 1970: 2)، وذلك هو تحدي المعرفة وازمتها.

مقارنة وتحليل الدمج المعرفي وعلاقته بالمداخل الأخرى

لا يكتمل البناء المفاهيمي للمدخل من غير تمييزه عن المداخل الأخرى التي تشترك معه بخاصية أو آلية ما، مما يسبب كثير من الخلط والتشويه الموجود أساسا بين تلك المداخل التي تسعى إلى التكامل المعرفي إلا إنها تختلف فيما بينها بالمستوى المستهدف من التكامل أو بالآلية أو الغاية الأساسية منه، وستتم المقارنة على النحو الآتي:

التمييز بين بحوث الدمج المعرفي وبحوث المعرفة التخصصية:

هناك اختلاف جوهري بين الاثنين مع إن العلاقة بينهما تكاملية. يعنى البحث التخصصي بمستوى واحد من الواقع بل وقد يتركز في جز صغير من ذلك المستوى، وعلى العكس من ذلك تعنى البحوث الدمجية بالديناميات أو الآليات المتولدة عن العمل في مستويات عديدة من الواقع في ذات الوقت. إن اكتشاف تلك الآليات يتطلب اجتياز وعبور بوابة المعرفة الحقلية التخصصية الضيقة، إلا إن ذلك لا يؤدي إلى ولادة علم أو حقل جديد هجين، إن هذا المدخل يتغذى على البحوث الحقلية التخصصية، وبالمقابل فإن البحوث التخصصية تتأكد مصداقيتها من خلال المعرفة المندمجة التي يتم التوصل إليها. والتي تتسم بالثراء والجدة، وبذلك فإن البحث التخصصي والبحث الدمجي ليسا ضدّين بل متكاملين (Nicolescu, 1997).

التمييز بين مدخل الدمج المعرفي ومدخل التعدد المعرفي:

تقوم فكرة التعدد المعرفي على إن هناك مشكلة أو دراسة تتضمن شيء يستوجب التعاون بين حقلين أو أكثر لمواجهةها، إلا إن الجهود هنا لا تدمج أو تندمج مع بعض في بوتقة واحدة، فيكفي إن هناك باحث (باحثون) من حقل ما على وعي من وجود تطور في حقول أخرى يمكن الاستفادة منها وتوظيفها مثال ذلك المعرفة العلمية حول: الأرض، الصحة، الطبيعة، المجتمع. إن التحليل المستند إلى هذا مفهوم هذا المدخل هو جلب المعرفة من عدة حقول بحيث إن كل حقل أو تخصص منها يقدم منظور

مختلف للمشكلة أو القضية كدراسات المرأة مثلاً، فكل حقل يسهم بجزء من الفهم الكلي للظاهرة أو المشكلة بوتيرة جمعية أو إضافية، وتبقى هناك حاجة للربط بين الإسهامات المختلفة التي قدمت من قبل الحقول المتعددة (Seipel, op. cit.)

أما الدمج المعرفي فيعمل بشكل مغاير تماماً فهو يدمج ويصهر منظورات واليات تلك الحقول مع بعض في مركب واحد لا يعود معه حاملاً لأي من السمات الحقلية التخصصية، وهو يستخدم مكونات تنتمي إلى عدة حقول في تشكيل وقولية عدد غير محدود من التراكييب كل واحدة منها توجه لحل مشكلة أو اتخاذ قرار ما.

التمييز بين الدمج المعرفي والتفاعل المعرفي:

عند هذه النقطة تبلغ الصعوبة في التمييز ذروتها، ويعود ذلك إلى اشتراك هذين المدخلين في كثير من القواسم من حيث الهدف ومن حيث الآليات، بل إن مدخل الدمج المعرفي انبثق أساساً في مؤتمر دولي عقد حول التفاعل المعرفي كذلك يمثل مفهوم الدمج المعرفي مستوى متقدماً من التفاعل المعرفي، ومع ذلك فالتمييز بينهما ضروري والفروق موجودة.

تقوم فكرة التفاعل المعرفي على إن هناك حقل أو دراسة تستوجب انبثاق شيء جديد في المنطقة ما بين الحدود الحقلية في الغالب اثنين (أو إنها قد تتجاوز الوجود المسبق لهما)، مثال ذلك الكيمياء العضوية، الجغرافية السياسية، سيكولوجية اللغة، علم النفس الاجتماعي... فالتفاعل المعرفي إذن يولد علم أو حقل جديد هجين، وهو بهذه الطريقة يذهب أبعد من مجرد وتيرة التجميع المعرفي كما هو حال المدخل التعددي، أي إن تركيب مفاهيم وأدوات وقواعد تنتمي إلى حقليين يولد كائن جديد، وهذه ميزة هامة للتفاعل المعرفي على التعدد المعرفي. ومع إن المدخل التفاعلي يدمج المعرفة ويولد مركب جديد إلا أنه يختلف عن مدخل الدمج المعرفي في جانبين أساسيين على الأقل وهما:

- يتم الدمج بين حقليين ويتولد عن ذلك حقل جديد يتحول تدريجياً وتطورياً إلى تخصص تنطبق عليه كل سمات المعرفة الحقلية التخصصية.
- لا تسفر عملية التشكيل أو التكوين سوى عن مركب واحد، إلا أنه يتسم بالثبات النسبي والنمو، بخلاف المركب الناتج عن الدمج المعرفي.

كذلك يتميز الدمج المعرفي بالقدرة على العمل عبر بيئات ذات سياق ومجال مختلف، وتؤكد Lauria إن الدمج المعرفي يجب أن يبدأ من المبادئ الأساسية التي يمكن تطبيقها عبر فضاءات الحقول، وبذلك فهو يهدف في رأيها إلى تقطير مبادئ أساسية والتي تعاود الظهور في مستويات مختلفة من التعقيد لكن بصيغ متشابهة والغرض من عمل مدخل الدمج المعرفي ليس مجرد تحديد عناصر التشابه من أجل

استنباط وتقطير مبادئ جوهرية جديدة، بل وتصميم وتوليد منهجيات (وليس علم) يمكن إن تدعم هذا المدخل (Lauria, 2002:1).

وفي المدخل الاندماجي يتم الاستعانة بأدوات وأسس منطقية وأفكار ومبادئ ومفاهيم ودوافع تعود إلى مصادر علمية وحتى ثقافية متنوعة، تصاغ وتصهر في قالب واحد إلا انه في الغالب مؤقت وقد يظهر أي من المكونات بمركبات أخرى وبهيئات متنوعة مثال ذلك: التغذية الراجعة، تمثيل البيانات، التعقيد، النشوية، الفوضى، السلوك الجمعي، المرجعية الذاتية، التكيف... وعموما إن أكثر الاتجاهات والحركات الجديدة في النصف الثاني من القرن العشرين تصب في صميم هذا المدخل ابتداء من السببرنتكس وانتهاء بعلم التعقيد.

ويؤكد Havel إن مدخل الدمج المعرفي يتسم بخاصية الاستناد بقوة إلى التجريد الرياضي، وليس ذلك بغريب من حيث إن الرياضيات هي تجريد مثالي، وهكذا فإن الاتصال أو التشابك المثالي بين الحقول يؤدي إلى اكتمال أو إتمام الطريقة الدمجية للمعرفة في التفكير

أن المداخل أو الاتجاهات الثلاث التي تم التمييز بينها، تعكس واقع المعرفة وميلها إلى أن تتسم بالتجزئة والتقسيم تحت عنوان التخصصات. والمدخل أدمجي بشكل خاص وبسبب من اعتماده الرياضي يقود أو يؤدي إلى ميوعة وليست مجرد مرونة الحدود بين الحقول من خلال توحيد محتوياتها أو مكوناتها. من جهة أخرى المدخل التفاعلي والمدخل التعددي يؤدي إلى تركيب الحقول بوحدة أكبر أو إلى ظهور تراكيب أكبر بينها. فإذا كانت القمة بالنسبة للدمج المعرفي هي الرياضيات فإن القمة بالنسبة للتفاعل والتعدد المعرفي هي الفلسفة الطبيعية. فالدمج المعرفي يتعلم ويتغذى على عدد من المجالات المختلفة في ذات الوقت ينشط ويرتبط بالواقع بشكل كامل. وفي هذا المعنى الفلسفة هي القطب المضاد للرياضيات، إلا انه في كثير من الأحيان تكون الأشياء المتضادة متقاربة مثال ذلك إن عدد من ابرز الفلاسفة كانوا علماء رياضيات (Havel, Ibid)

الدمج المعرفي ومستقبل صناعة المعرفة

لعل السؤال الأكثر إلحاحا وحاجة إلى إجابة هو: هل يجب أن تركز المنظمة على خلق وتوليد معرفة جديدة أم تطبق ما هو متاح ومتوافر منها؟ إن التوتر و الحيرة بين الاستكشاف و الاستثمار، فيما يتعلق بالمعرفة، قد ظهر بحدة في نظرية المنظمة. إن المنظمات التي تتجه حصريا نحو المناشط الاستكشافية للمعرفة سوف تعاني من ضعف العوائد المتحققة من معرفتها، أما المنظمات التي ترتفع حصريا نحو المناشط الاستثمارية للمعرفة المتاحة، فإنها ستعاني من التقادم. المشكلة الأساسية التي ستواجه المنظمات اذن هي الارتباط بدرجة كافية باستثمار المعرفة المتوافرة، لكي تستطيع

الاستمرار بالحياة، وفي ذات الوقت عليها ان تركز طاقة كافية للاستكشاف المعرفي لتضمن الحياة لمستقبلها (Choo&Bontis, strategic management of intellectual capital&orga. Know.)

عند الحديث عن مراحل تطور المعرفة يشير Gibbons إلى انه هناك صيغتين أو شكلين من المعرفة: الصيغة 1، وهي المعرفة التي تعبر عن الحقيقة العلمية التي يسعى العلماء والمنظرون إلى الوصول إليها وهي صيغة نظرية عقلية محكومة بتقاليد جامعية مؤسسية وتتمتع بشرعية ومصادقية من حيث قبولها من الأقران في الحقل أو المجال التخصصي المعين. و الصيغة 2 والتي بدأت بالتطور في الخمسين سنة الأخيرة و على عكس الأولى، هي نتاج التطبيقات والممارسات لافراد في الغالب لهم تدريب وممارسة على الصيغة 1، ولكن عملهم يحتم عليهم ويؤكد حاجتهم إلى السمة التفاعلية أو الدمجية مع تخصصات أو ممارسات أخرى. والباحثون والممارسون في الصيغة 2 هم بشكل نظامي ينطلقون من الصيغة 1.

ان المعرفة في المستقبل ستكون بخلاف الصيغ التقليدية (الصيغة 1) التي ترتبط بالتقاليد العقلانية ويتم تعريف أو تحديد الإسهام العلمي نسبة إلى المعايير الاجتماعية والمعرفة الإدراكية التي تحكم أساس البحث والعلم الأكاديمي (Gibbons et al, 1997)، وتعود هذه المعايير والقواعد إلى هيكل صلب من المتخصصين في الحقل وهم الذين يحددون ما يمكن اعتباره جيد أم ردى من منظور ذلك العلم. في الصيغة الجديدة يراد من المعرفة أو في النية الإفادة منها بمستوى واسع سواء أكانت في الصناعة أو الحكومة أو المجتمع. وحالما تصبح المعرفة غير مقيدة بحدود صارمة. تأتي الاندماجية لتلعب دورا محوريا مصحوبة بهيكلها وأطرها النظرية المميزة وأساليبها البحثية في التطبيق، وباحثوها الذين يتسمون بالحركية والفاعلية. أما الاكتشافات التي يصلون إليها فلا يمكن تجييرها لصالح أي من الحقول أو حتى للمواقع التي أنتجت فيها. كما إن أشكالا جديدة من المنظمات أو التنظيمات تبدأ بالانبثاق لتقوم بتكييف طبيعة التغيرات في المشكلات التي تظهر آنذ، وبالنسبة لمسألة ضبط النوعية فلن تكون محصورة بإصدار أحكام من أولئك الأقران الذين لهم إسهامات سابقة في حقولهم أو في المجال المؤسسي، بل ستصبح العملية أكثر ارتباطا بالسياق والاستخدام، وتأخذ أشكالا ليست مرنة وحسب بل مائعة ومؤقتة وعابرة. وهي لا يعتمد على السلطة العلمية للممارسين من المجالات المختلفة وحسب، بل إن الطبيعة المؤقتة لحل مشكلة هي التي تعزز الاعتمادية المتبادلة، إلا إنها تستند أيضا إلى الكفاءة وإلى مدى جدوى الحلول ومعوليتها.

إن التساؤل عن الدور المستقبلي للشكل الاندماجي من المعرفة ومدى قبوله أو نجاحه أو هيمنته على الأشكال المستقبلية للمعرفة، يمكن بيانه بالقول إن العمل الاندماجي سيكون أداة بحثية فعالة في التعامل مع المشكلات المستديمة، و طبيعة

التوجه هذه نحو حل المشكلات تربط بين الدمج المعرفي وخاصة الاستدامة للبحث الفعال والبحث الفعال لا يمثل ببساطة البحث التطبيقي، رغم إن كلاهما مرن ومفتوح ومعرف بوضوح، فالمشكلات لا تصاغ هنا بمصطلحات علمية محددة كما هو الحال في العلوم التطبيقية، كما إن سؤال البحث لا يتناول كفاءة منظمة أو جودة سلعة، بل ستتجة المعرفة نحو السلع والخدمات العامة، كقضايا المناخ مثلا، لهذه الأسباب وصف الدمج المعرفي من قبل اليونسكو بأنه عابر للقطاعية.

إن المعرفة في المستقبل ستكون بخلاف الصيغ التقليدية التي ترتبط بالتقاليد العقلانية ويتم تعريف أو تحديد الإسهام العلمي نسبة إلى المعايير الاجتماعية والمعرفة الإدراكية التي تحكم أساس البحث والعلم الأكاديمي (Gibbons et al)، وتعود هذه المعايير والقواعد إلى هيكل صلب من المتخصصين في الحقل وهم الذين يحددون ما يمكن اعتباره جيد أم ردى من منظور ذلك العلم. في الصيغة الجديدة يراد من المعرفة أو في النية الإفادة منها بمستوى واسع سواء أكانت في الصناعة أو الحكومة أو المجتمع. وحالما تصبح المعرفة غير مقيدة بحدود صارمة. تأتي الاندماجية لتلعب دورا محوريا مصحوبة بهياكلها وأطرها النظرية المميزة وأساليبها البحثية في التطبيق، وباحثوها الذين يتسمون بالحركية والفاعلية. أما الاكتشافات التي يصلون إليها فلا يمكن تجبيرها لصالح أي من الحقول أو حتى للمواقع التي أنتجت فيها. كما إن أشكالا جديدة من المنظمات أو التنظيمات تبدأ بالانبثاق لتقوم بتكليف طبيعة التغيرات في المشكلات التي تظهر آنئذ، وبالنسبة لمسألة ضبط النوعية فلن تكون محصورة بإصدار أحكام من أولئك الأقران الذين لهم إسهامات سابقة في حقولهم أو في المجال المؤسسي، بل ستصبح العملية أكثر ارتباطا بالسياق والاستخدام، وتأخذ أشكالا ليست مرنة وحسب بل مائعة ومؤقتة وعابرة. وهي لا يعتمد على السلطة العلمية للممارسين من المجالات المختلفة وحسب، بل إن الطبيعة المؤقتة لحل مشكلة هي التي تعزز الاعتمادية المتبادلة، إلا إنها تستند أيضا إلى الكفاءة وإلى مدى جدوى الحلول ومعوليتها.

كذلك سيتحول التأكيد في هذا النوع من البحوث من الانتاج الأساس للبيانات والأفكار إلى البحوث المتجهة نحو حل المشكلات وإعادة تشكيل البيانات والمدخلات لتوليد نتائج جديدة. إن الصيغة الجديدة هي مناقضة لتلك القديمة وهي تتسم بالتناسق فيما يخص انسيابيتها التبادلية بين الجوانب النظرية والتطبيقية. والمعرفة هنا لا يمكن اعتبارها وحدة صلبة وثابتة، أو إن إنتاجها يعرف من خلال قواعد ثابتة واضحة ومحكومة بروتين مستقر. بل تصبح مزيج من النظرية والتطبيق، التجريد والتجميع، الأفكار والبيانات. وتصبح الحدود ضعيفة بين العالم (الباحث) الفكري وبيئته، كما هو حال العلم الهجين الذي يدمج العناصر المعرفية وغير المعرفية بطريقة مبتكرة ومبدعة. عندها لن يعود العلم أو الحقل الدراسي مجرد ضفيرة منفردة تضم مكوناته

التي تؤلف أساليب مشتركة و عامة- كما هو الحال في الحقل الواحد- ولا ملكيات مسبقة ومسلم بها -كمرجعية بعض الموضوعات إلى حقول معينة- ولا قيم خاصة لكل مجال على حدة. (Gibbons، 1997:81-83). وبعبارة موجزة إن الحقول المعرفية بدأت تصبح أفعال لا أسماء تنشط في بعضها البعض

و في " الانتاج الجديد من المعرفة" استخدم (Gibbons et al.,1994) مصطلح الدمج المعرفي للإشارة إلى التغييرات في طريقة إنتاج المعرفة العلمية والاجتماعية والثقافية،وقد تم التأكيد بشكل أساسي على بيئات التطبيق والاستخدام، كبيئة تصميم الطائرات،الالكترونيات، والتحالفات الصناعية الأخرى للعلم والتكنولوجيا،وجوهر الجدل هو إن الصيغة القديمة من المعرفة قد استبدلت بالصيغة². الصيغة الأولى كانت هرمية ومتناغمة وتؤكد على العمل ضمن حدود الحقل الواحد.إما الصيغة الثانية فتتسم بالتعقيد والتهجين واللاخطية والانعكاسية والتغايرية والاندماجية،وفيها يتم توليد هيئات وتشكيلات جديدة من العمل البحثي بشكل مستمر،وتزايد المواقع التي تنتج فيها المعرفة.والعملية هي ذات طبيعة اندماجية في حركيتها العابرة للهياكل الحقلية القديمة،بل وحتى للتطبيقات التفاعلية،فهي تصل إلى إعادة تشكيل التركيبية وإعادة توليف السياق المعرفي الموجود.ولما كانت الخبرة(الخبراء)تجلب من مدى واسع وعريض من المنظمات،فما يحدث هو توزيع اجتماعي جديد للمعرفة،بالإضافة إلى ان أصحاب المصلحة المتعددين سيتم إشراكهم في صياغة و تاطير المشكلة من البداية،جالبين معهم خبرة ومهارات متباينة لعملية حل المشكلة.ولما كانت الحدود التنظيمية آخذة بالضعف والتدهور فانه ستكون هناك حاجة إلى إعادة تعريف الأفكار المتعارف عليها حول الكفاءات والمقدرات على أسس ومعايير جديدة للتقييم.ويؤكد Gibbons&Nowotny على الطبيعة العدائية لهذه الطريقة الجديدة من التفكير حول العلم،فهي لا تحترم الحدود بين الحقول والتخصصات.

وفي حديثه عن مستقبل المعرفة يحدد Gibbons أربعة سمات متميزة لمدخل الدمج المعرفي فهو (Gibbons,1994,op. Cit.):

1. يتطور اطر عمل مستنبطة ومتميزة ترشد وتوجه الجهود لحل المشكلات وتنتولد هذه الأطر من رحم البيئة التطبيقية،فهي لا تعد مسبقا ثم تطبق لاحقا من قبل جماعات مختلفة من الممارسين.والحلول لا تظهر أساسا أو حتى بدرجة كبيرة من تطبيق معرفة موجودة، مع إن عناصر المعرفة المتاحة يجب أن تدخل ضمنها.إن الوليد هو إبداع أصيل، وحالما يتم تحقيق ذلك فان من غير الممكن حصره في حقل معين أو جزء منه.
2. ولان الحلول المتحققة تتضمن مكونات نظرية وتطبيقية فلا يمكن نفي أو إنكار إسهامها في المعرفة، مع إنها ليست معرفة حقلية.وبما إنها انبثقت من

محيط تطبيقي خاص فان المعرفة الاندماجية المتحققة تطور ما يخصها من هياكل نظرية، أساليب بحثية، صيغ في التطبيق...مع إنها لا تملك موقعا في خارطة المعرفة الحقلية السائدة.وبما إن الجهد هو تراكمي فان جهة أو اتجاه التراكم قد يتحول أو ينتقل في عدد من الاتجاهات المختلفة بعد إن تكون المشكلة الكبرى قد حلت.

3. بخلاف الصيغة¹ التي تكون فيها النتائج مترابطة ومتصلة بقنوات مؤسسية.النتائج هنا مرتبطة ومتصلة بأولئك الممارسين.وهكذا فان ثمرة النتائج في عملية إنتاجهم للمعرفة وتعميم المنفعة أو الفائدة منه، يحدث بشكل أساس من تحرك واتجاه الممارسين الذين اكتسبوا هذه المعرفة الأصلية إلى بيانات مشكلة جديدة، أكثر من تظهير المعرفة في تقارير أو نشرها في دوريات أو مؤتمرات مهنية.و تكون صلات الاتصال رسمية في جزء منها وغير رسمية في الجزء الآخر.

4. الدمج المعرفي هو آلية ديناميكية وهي قدرة على حل المشكلات البناء التحرك،إن أي حل قد يتحول إلى موقع فكري يمكن من خلاله إحراز تقدم أعمق وابعد،ولكن أين يمكن استخدام هذه المعرفة في المرة القادمة؟وكيف سيتم تطويرها؟ ذلك أمر يصعب التنبأ به كما هو الحال في التطبيقات الممكنة أو المحتملة التي قد تظهر في المعرفة الحقلية.إن الصيغة الجديدة تتسم بالخصوصية لكنها ليست مقتصرة بشكل دائم على التفاعل الأقرب إلى البيانات المتعاقبة المشكلة.وحتى إن كانت بيانات المشكلة عابرة أو سريعة التغير وفريق حل المشكلات يتحرك بسعة عالية،فان شبكات الاتصال تميل إلى الاستمرار،والمعرفة المضمنة في أولئك الممارسين تبقى متاحة لتدخل من جديد و يتم تشكيلها وصياغتها بهيئات أعمق(Gibbons,Ibid)،

وفي عرضه البليغ للتحول نحو الدمج المعرفي، يؤكد (1993) Nicolescu إن حركة النهضة أو اليقظة الجديدة سوف تتطلب تحرك دعوب ومستمر يجتاز التخوم التخصصية.وتقع المفاهيم الجوهرية في التطورات الضخمة في المعرفة والثقافة والتي تجعل آليات الدمج المعرفي ضرورية،وفي الوقت الذي ستكون فيه تلك الآليات ذات خصوصيات وتفاصيل مختلفة إلا إنها ستتقاسم السمات نفسها،و يمكن تصوير اتجاهات التحول بالاختلافات الواردة بين العمودين الآتيين:

- التبسيط التعقيد
- التفردية التغايرية
- الانعزاليةالتهجين
- الخطية اللاخطية
- الوحدة(التوحد) توحيد المداخل

- الإجماع الاتفاق
- التشظية التلاحم

الشمولية العالمية الحوار المحلي الإقليمي العالمي

إن هذه التحولات ستترك أثرها في السلوك المعرفي للمنظمات والتي تستجيب لها بطريقة تكيفية، وبأشكال وكيفيات متنوعة ومتباينة، إن اتسام المعرفة الجديدة المنتجة بالتغايرية، سيتطلب تغيير وتوليف مستمر بالنسبة للمهارات والخبرات التي يحملها أعضاء المنظمة. وفرق العمل الخاصة بحل المشكلات، وحسبما تتطور المواقف بدون تخطيط أو تنسيق مسبق من جهة أو هيئة مركزية. وكما هو الحال في المعرفة التقليدية، فإن التحديات تظهر إن لم يكن بشكل عشوائي فبطريقة يصعب بشدة توقعها أو تخمينها. وبموجب ذلك فإنها ستستمر بالآتي:

1. زيادة عدد المواقع الحيوية التي تولد فيها المعرفة. فلن ينحصر ذلك بالجامعات والكليات بل إن هناك مؤسسات غير جامعية، مراكز بحثية، وكالات حكومية، مختبرات صناعية، خزانات فكرية، هيئات استشارية.. بالإضافة إلى التفاعل فيما بينها.

2. الترابطات بين تلك المواقع بطرق وسبل متنوعة: الكترونية وتنظيمية واجتماعية ولا رسميا وعبر شبكات عمل فعالة من الاتصالات.
3. التمايز والاختلاف المتزامن في تلك المواقع. وظهور آلية إعادة التوليف وإعادة التشكيل بين مختلف الفروع لمختلف الحقول بصيغ تستند إلى أشكال جديدة من المعرفة العملية النافعة. وعبر الوقت فإن إنتاج المعرفة ستتحرك بشكل متزايد بعيدا عن النشاط الحقل التخصصي التقليدي، ليأخذ ويدخل البيئات المجتمعية الجديدة

(Gibbons, 1994op, cit.)

ويقدم أنموذج توليد المعرفة الذي طور من قبل Nonaka&Takeuchi فكرة عميقة حول مستقبل المعرفة في المنظمات، وجوهر الأنموذج هو التمييز بين المعرفة الظاهرة والمعرفة الضمنية، ويتم تحليل دينامية توليد المعرفة عبر أربعة حلقات: التكيف الاجتماعي، التطهير، الدمج، التضمين. وهذه الحلقات تربط المعرفة الظاهرة والضمنية عبر مستويات المنظمة. إن ثنائية المعرفة الظاهرة – الضمنية، ليست تكاملية وحسب بل واعتمادية. إن إحدى المصادر القيّمة للمعرفة التنظيمية، هي تلك التي تدمج بين النوعين معا وتركّب مزيج حدسي وقدرة على إصدار الأحكام، بحيث يمكن أن تكشف خبايا المشكلات وغموضها.

(Choo& Bontis, op. cit) إن المعرفة الضمنية هي مزيج كامن من الخبرات المتعددة المصادر، وهي لا تستند إلى مصدر محدد أو موثق، وهي تتفعل بشكل لا رسمي يدعمها الحدس وتنقحها وتصلقها الممارسة، وبذلك هي شكل من أشكال أو آليات الدمج المعرفي التي سيتم التشديد على دورها مستقبلا.

وضمن التيار المتجه نحو التنمية المستدامة فإن إحدى أكبر المشكلات التي يواجهها هي الفجوة بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والانسانيات. وتقليدياً فإن العلوم الطبيعية قد هيمنت على البحث البيئي، ولم يتم دمج المداخل الاجتماعية في التيار الرئيس للبحث البيئي، كذلك بقيت الاعتبارات البيئية مستبعدة عن التيارات الرئيسة في العلوم الاجتماعية. وبرنامج MOST (إدارة التحولات الاجتماعية) التابع لليونسكو يهدف إلى التجسير بين العلوم الطبيعية والاجتماعية. وعموماً تدمج برامج التنمية المستدامة بين مجموعتي العلوم وتركز على قضايا عريضة وواسعة في البحوث المستديمة كالقضايا المعيارية مثل العدالة بين الشمال والجنوب، والعدالة الاجتماعية داخل المجتمعات، والمشاركة الديمقراطية في عمليات اتخاذ القرارات، وصنع وتنفيذ السياسات العامة والحكومية، كذلك وصفت المعرفة المندمجة بأنها تحول من العلم في/حول المجتمع إلى العلم لأجل/مع المجتمع. وتشبه Somerville الدمج المعرفي بالعدسات الملونة المختلفة في متصلة الأطوال الموجية التي تندمج حافاتها أو حدودها مع بعض، بل ذهب البعض إلى إن فكرة الشجرة الواحدة ذات الفروع والأغصان المتعددة هي خطية إلى حد كبير وإن ماهو مطلوب إن يكون لتلك الأغصان والفروع نظام من الجذور لا مجرد جذر أو مركز واحد. وواحدة من الصور القوية للصيغة² من إنتاج المعرفة هي كونها اقرب إلى شبكة العنكبوت ومثال على ذلك موضوع أخلاقيات الطب.

ومن أجل صياغة المعرفة المستقبلية الاندماجية يؤكد الجميع الحاجة إلى مواقف استباقية، وبخاصة عند المفاصل الأكثر حساسية في عملية التغيير. وهناك من يدعوا إلى طريقة جديدة في التفكير وهي "الاتجاه السلوكي الاندماجي"، وإنتاج نوع جديد من المتخصصين. في حين يؤكد Becker وزملائه الضرورة الملحة إلى الأستاذية أو/و المؤسساتية في الدمج المعرفي. كذلك هناك حاجة إلى إعادة صياغة التوجهات المناهجية واطر المفاهيم النظرية، بالإضافة إلى نشر واسع لثقافة الدمج المعرفي المرتكزة على التعاون. والحاجة ماسة إلى استراتيجيات لتعزيز قدرة العناصر الاجتماعية الناشطة في التحرك نحو تطبيقات وممارسات مستديمة أكثر صلابة عبر التحولات التي تدمج المعرفة المتعلقة بسلوك النظم الايكولوجية والاجتماعية والتي تمت مزاجتها بقوة. إن الجهود العلمية تتجسد في العملية الديناميكية ذات المرجعية الذاتية الهادفة إلى حل المشكلات الايكولوجية والاجتماعية على وفق مقاييس مختلفة الفضاءات والأوقات. (Klein, op. cit.)

وكنتيجة لتحول المعرفة إلى سمات تتسم بالانتشار وعدم التلاحم والابتعاد عن المركزية. فإن التمييز بين النظرية والتطبيق، العلم و التكنولوجيا، المعرفة والثقافة، كلها تصبح ضعيفة وباهتة وهناك خاصية أخرى لهذه الحركة تتعلق بتشتت المعرفة المنتجة، وهو الداء الذي تعاني منه المعرفة التقليدية حيث إن الانتشار ألتشتت

للطاقات العلمية يمتد عبر قطاعات مختلفة من المجتمع، وكذلك هو الحال بالنسبة لتشتت منتجي المعرفة. إن أنواعا هامة ومختلفة من المعرفة ستنتج بواسطة: محلي الرموز، أخصائي الاتصالات، المدرسين وغيرهم كأولئك الذين يعملون بمعية الرموز والمفاهيم التي أنتجها آخرون في مواقع مختلفة، ثم يعيدون هم تشكيلها ضمن توليفات أو تشكيلات وهيئات جديدة. وبدلا من الصناعة المستندة إلى المعرفة يشهد العالم الآن انبثاق وظهور صناعة المعرفة، حيث إن المعرفة ذاتها أصبحت بضاعة أو سلعة يتم الاتجار بها، وفي هذه الصناعة فإن القيمة تضاف من خلال إعادة التشكيل المستمرة للسلعة أو البضاعة (المعرفة) باتجاه وضع حلول للمشكلات أو مواجهة وسد الحاجات

الدمج المعرفي والجغرافية السياسية للمعرفة

إن التحول إلى مجتمع المعرفة سيتم عبر ومن خلال عدد من التغيرات في أسلوب إنتاج وتطوير المعرفة العلمية والمهنية وتطبيقاتها وبخاصة في مجال البحث والتطوير. وهناك إدراك متزايد بأن هذه التغيرات تتطلب أدوات تنظيمية ومفاهيمية جديدة إلا إن الصعوبة تكمن في تحديد التغيرات المطلوبة في نظم المعرفة، والنتائج التي ستصل إليها ومنهج إدارتها وقيادتها. (Birer، ESA Conference ، 1999، -

اتساقا مع هذه الفكرة، سيحاول الباحث تحليل وفهم التغيرات في هيكل وبناء المعرفة، من خلال وباستخدام مفاهيم الجغرافية السياسية التي تمدنا بأدوات فعالة لفهم العلاقة بين حقول المعرفة وتخصصاتها، والاستعارة المجازية هنا هي إن الحقول والعلوم تحولت إلى دول ومقاطعات تتمتع بالسيادة والاستقلالية وتسعى إلى البقاء والنمو واكتساب القوة ويتضح ذلك بالنقاط الأربع الآتية:

1. الخرائط الحدودية للحقول المعرفية: تركز العلوم الحقول المعرفية إلى عملية محكمة من التقسيم إلى حقول فرعية تحت شعار التخصص، ولكل تخصص منها فروعه وتشعباته إلى المدى الذي أصبح فيه لكل علم أو تخصص لغة خاصة به، تنتم بالانغلاق بحيث تحجب وتطوق المعرفة التي تتضمنها في مواقع معزولة بداهة عن غيرها.
2. التنظيم المركزي: تلعب المؤسسات والمنظمات العلمية والتعليمية دورا جوهريا في المحافظة على الحدود الجغرافية بين الحقول من خلال إجراءاتها الصارمة للمحافظة على النقاء التخصصي، واستبعاد التوسع الأفقي في المعرفة. (Wear، 1999)
3. حاكمية أصحاب المصلحة ودورهم في تعزيز استقلالية الحقول: إن تقسيم المساحة الفكرية إلى أقسام ثم إلى أجزاء اصغر فاصغر وظهور جهات وأطراف تعتبر إدارة كل جزء منها (المساحة الفكرية) مقاطعة خاصة بها، أدى إلى تأسيس الإقطاع الفكري أو الرأسمالية الاستمولوجية على حد وصف Gusdorf والتي تحكم فعليا مؤسسات التعليم والبحث العلمي. وبالنسبة للمتخصص تحول تخصصه إلى قلعة حصينة أو دولة منيعه هو السيد فيها وهو يكافح ويقاوم الباحثين من خارج المجال باعتبارهم خصوم وخطر على التخصص. (Migliore The 11SGP Canon، 1998).
4. تطور الثقافة الحقلية التخصصية: إن وجود الحدود بين الحقول المعرفية سوف يؤدي بكل تأكيد إلى إن يطور كل جزء منها ثقافة خاصة به، تستند إلى افتراضات وتقاليد ومنظومة قيمية خاصة، مما يقود إلى تعزيز تلك الحدود. وتعتبر اللغة العنصر الأكثر أهمية هنا، وكما هو واضح حاليا فإن

الحوار والجدال بين العلماء يعكس تشربهم اللغة الاصطلاحية الحقلية التخصصية التي يتعذر أو يستحيل استيعابها من قبل الباحثين الخارجيين. في ضوء هذه النقاط الأربع وبلاستعانة مرة أخرى بمفاهيم الجغرافية السياسية سيتم استكشاف آليات الدمج أو الاندماج المعرفي. وعموماً يمكن اكتشاف تشابه فريد لمسارين هيكليين متوازيين يمثل الأول منهما المسار الجيوسياسي للعلاقات الدولية ويتضمن ثلاث مستويات: المستوى الوطني - المستوى الدولي - المستوى العالمي (العابر للقومية). أما الثاني فهو المسار الجيوسياسي للمعرفة وتضمن ثلاث مستويات أيضاً: المعرفة الحقلية - المعرفة التفاعلية - المعرفة الاندماجية (العابرة للحقول). وسيتم توضيح ذلك كالآتي:

جيو سياسية المعرفة في ضوء جيوسياسية العلاقات الدولية

المستويات	المستوى الأول	المستوى الثاني	المستوى الثالث
	الوطني	الدولي	العالمي
المسارات	الحقلي	التفاعلي	الاندماجي
المسار الجيو سياسي للعلاقات الدولية	وحدة الأرض الاستقلال السيادة اللغة الرسمية الانتماء والولاء	قبول ظاهر أو ضمني للتعاون مثال ذلك التجمعات الإقليمية أو الأيديولوجية	حساسية كبر لعدم احترام الحدود وخصوصية الثقافات وهيمنة الفلسفة البراغمية
المسار الجيو سياسي للعلاقات الحقلية	مساحة فكرية محددة استقلالية ثقافة وقيم مشتركة لغة اصطلاحية ولاء للحقل والمهنة	قبول ظاهر أو ضمني للتفاعل (بين حقليين) وعلى مستوى أوسع بين العوائل العلمية (العلوم الطبية، الهندسية)	حساسية وتحفظات شديدة حول القضايا والمنهجيات والتركيب التي يتم دمجها والشعور بالتهديد للنقاء التخصصي

المسار الجيوسياسي للعلاقات الدولية

يوضح هذا المسار تغير الافتراضات التي تستند لها مفاهيم الجغرافية السياسية في مجال العلاقات الدولية، ومع إن التغيرات في غالب الأحيان كانت وظيفية إلا إنها أعادت تشكيل مفاهيم هيكلية مثل الوحدة الجغرافية للأرض والحدود الوطنية وسيادة الدولة على كامل أرضها (المستوى الوطني). إن هذه المفاهيم تعرضت لإعادة تعريف مفاهيمي في المستوى الثاني فالقبول الظاهر أو الضمني للتعاون تحت المظلة الدولية وقبول وإقرار الافتراضات التي تسند هذه الظلة مثل الشفافية والإفصاح ومؤسسات المجتمع المدني والالتزام بالشرعية الدولية... من هنا لم تعد للحدود والسيادة والاستقلال تحمل نفس المعاني التقليدية ومثال ذلك التكتلات الإقليمية كالاتحاد الأوربي، مجموعة آسيان، مجلس التعاون الخليجي، إلا إن الأيديولوجية قد تكون أساسا قويا لهذه التكتلات مثال ذلك دول الكومنولث، المؤتمر الإسلامي..، أما بالنسبة للمستوى الثالث العالمي (العابر للقومية) فأول ما يلاحظ أنه يثير حساسية كبيرة ويتهم بانتهاك السيادة الوطنية وتشويه ثقافتها وإسهامها الحضاري. في حين إن ذلك يكاد يكون غير موجود في المستوى الدولي. إن العلامة الفارقة للمستوى العالمي هو نظرته إلى العالم كوحدة واحدة لا كأجزاء تفصلها عن بعضها حدود. وهي الرؤية التي تثير حفيظة ومشاعر الكثيرين باعتبارها ليس تهديد للمصلحة الوطنية فحسب بل وحتى للوجود الوطني.

المسار الجيوسياسي للمعرفة

إن الوصف المتقدم في المسار الجيوسياسي للعلاقات الدولية يتطابق بدرجة عالية مع جيوسياسية المعرفة، ففي المستوى الأول (الحقلي) كل علم أو حقل معرفي يمتلك أو يستحوذ على مساحة فكرية تتمثل بمنظومة من الظواهر أو القضايا، وله لغته الاصطلاحية الخاصة، وقيمة المتفق عليها في ضبط جودة المعرفة المنتجة. ويتم تلقين طلبته وتدريب باحثيه في ضوء ذلك: الولاء والانتماء للتخصص التي هي سمة متأصلة في المهنة. بحيث إن أقصى ما يسمح به هو التعاون والتفاعل مع التخصصات والحقول الأخرى بشرط عدم تعريض سيادة واستقلالية التخصص للتهديد والاختراق. في المستوى الثالث تواجه الاتجاهات الاندماجية أو الدمجية للمعرفة مقاومة ومعارضة شديدة بسبب من آلياتها التي تستند إلى رؤية تقوم على وحدة المعرفة الكلية بدون النظر إلى الأجزاء التي تمثلها التخصصات، فهي لا تعترف أو حتى تحترم الحدود الحقلية المتعارف عليها، وبالتالي فهي تسفر عن تهديد لخصوصية واستقلالية تلك الحقول المعرفية. وقد تنشأ على المستوى التفاعلي (الثاني) علاقات قوية بين عدة علوم أو تخصصات تنتمي إلى نفس العائلة (العلوم الطبية،

العلوم الهندسية) ويشابه ذلك التجمعات الإقليمية في المسار الجيوسياسي للعلاقات الدولية. أما التفاعل المعرفي وفق الأساس الأيديولوجي فمثاله العلوم البيئية، و علوم الفضاء والفلك.

الفصل الثامن

الجغرافيا السياسية الجديدة والعنف في العالم العربي

الفصل الثامن

الجغرافيا السياسية الجديدة والعنف في العالم العربي

تبدو الثورات العربية، في بعض جوانبها، تأسيساً لجغرافيا سياسية جديدة للعالم العربي، فهناك نظم تسقط، وأخرى تولد. وبين السقوط والميلاد، تحدث توترات عنيفة، مصحوبة بالضرورة بقدر من العنف. وبين ذلك كله، يمكن للباحث أن يخلص إلى أننا في العالم العربي نشهد تشكل جغرافيا سياسية جديدة لهذا العالم. ولهذه الجغرافيا السياسية الجديدة ملمحان بدأ بيرزان ويتصاعدان بقوة خلال الأشهر الماضية، الملمح الأول يشير إلى أن هذه الجغرافيا السياسية الجديدة تؤسس لعنف ذي أبعاد جديدة. أما الملمح الثاني، فيشير إلى تجزئة محتملة على أسس طائفية. هذان الملمحان يبدو كذلك أنهما قد يكرسان التحاق عالمنا العربي بالغرب، وتحقيق مطامعه ومخططاته من حيث لا ندري. في هذا المقال التأسيسي والاستشراقي لتلك الجغرافيا السياسية الجديدة، يمكننا الحديث عن موضوعين رئيسيين، هما أولاً: نماذج التغيير في العالم العربي والجغرافيا السياسية الجديدة للعنف، ثانياً: العلاقة مع الغرب وسياق التأسيس لتلك الجغرافيا السياسية الجديدة للعنف.

أولاً: نماذج التغيير والجغرافيا السياسية الجديدة:

يمكننا القول إن هناك نماذج ثلاثة للتغيير في العالم العربي، سترسم ملامح الجغرافيا السياسية للعنف فيه، وهذه النماذج هي:

1. الثورة والعنف في مصر وتونس:

ثورات الربيع العربي في تونس ومصر تتسيد المشهد فيهما قوي اجتماعية وسياسية تنتمي للطبقة الوسطى الباحثة عن نظام أكثر حرية وعدلاً. ورغم التحولات الكبيرة التي حدثت في المشهد السياسي العربي، فإن الجماهير لم تلجأ إلى العنف. كان لدينا ما أطلقت عليه "نموذجاً جديداً مختلفاً للتغيير"، هذا النموذج قوامه الملايين من البشر، تتدفق إلى الميادين، يقودهم شباب مستخدمين للإنترنت وللشبكات الاجتماعية الحديثة. قوة البشر في مواجهة القمع أسقطت نظاماً من أعلى نظم الاستبداد في المنطقة، بداية من نظام بن علي، وحتى نظام مبارك.

الآمال الكبيرة المعلقة على الثورات العربية تراجعت بعد تعثر مسار الثورة في مصر على مدى عام ونصف عام، وبينما كان مسار الثورة أكثر يسراً في تونس، واجهت مشكلات بين الترويكا الحاكمة حول قضايا متصلة بالدستور،

وسيطرة حركة النهضة، وظهور التيارات السلفية الجديدة كتحد. وفي كل الأحوال، فإن الدول التي لديها مؤسسات سياسية وطبقة وسطي واسعة، كان التحول السياسي فيها من الثورة إلى الدولة أكثر أمانا وبعدا عن العنف السياسي.

هنا لدينا نموذج للثورة وللتحول السياسي، يشير إلى أن العنف لم يكن حاضرا في المشهد الثوري، وإنما قوة الشعب والشباب الجماهير في مواجهة الطغيان والاستبداد طلبا للحرية والديمقراطية، والعدل الاجتماعي، والكرامة الإنسانية.

ظهر العنف لاحقا في حالة مصر وتونس، متخذا من لافتة "السلفية الجهادية" تعبيراً له. وهنا، يثور التساؤل: هل فتحت حالة التفكك والانحيار في الدولة القديمة، سواء في مصر أو تونس، الباب أمام القوي الإسلامية المتخذة من العنف سبيلا لها لتجد لنفسها موطئ قدم في المشهد الجيوستراتيجي الجديد؟

صحيح أن هذه القوي لم تشارك في الثورة مع الجماهير والناس، وإنما كانت موجودة على هامشها ترأف وترفع أعلامها، وتجمع قواها.

وبشكل عام، فإن انحيار النظم السياسية القديمة، وعدم اكتمال بناء النظم السياسية الجديدة فتحا الباب للقوي التي تتبنى الفكر السلفي الجهادي لتتخذ لنفسها موطئ قدم، وتمثل تحديا حقيقيا للوافدين الجدد للسلطة، وهنا نجد أنفسنا أمام استقطاب إسلامي - إسلامي. فالسلفية الجهادية ترفض الديمقراطية وتراها كفرا. ومن ثم، فإن الإخوان الذين يحكمون في مصر، وحركة النهضة التي تحكم في تونس يمثلان خروجاً عن المسار الإسلامي الصحيح في طريقة وصولهما إلى السلطة من منظور السلفية الجهادية.

في مصر، حيث كان الرافد الجهادي السلفي لا يزال قويا، فهناك إسلاميون جهاديون رفضوا المراجعات، ومن ثم ظلوا متمسكين بالفكر السلفي الجهادي، وقد خرجوا من السجن، كما أن صلاتهم بروافد القاعدة مفتوحة. وقد تبدي فائض القوة والعنف لديهم في عمليات عسكرية بأطراف الدولة المصرية في منطقة سيناء، حيث تغيب السلطة المركزية، ويتفشى الشعور بالتهميش والتمييز، وحيث تسود الروح القبلية ذات الطابع البدوي المتماهية مع منطق السلفية الجهادية الأقرب إلى الفكر الخوارجي في التاريخ الإسلامي والفكر الفوضوي في التاريخ الغربي، وهو فكر يرفض السلطة والدولة، ويسعى لحالة أقرب إلى العودة لحالة البداءة الأولى منها إلى دولة حديثة.

في هذا السياق، برز الحديث عن الإمارة الإسلامية في سيناء، والهجوم على مقر الشرطة في العريش، وتفجير خط الغاز لمنع من الوصول لإسرائيل. بيد أن عملية رفع، التي قُتل فيها 16 جنديا مصرية وهم يفترون في رمضان، كانت ناقوس الخطر الأكبر في بلوغ التيار السلفي الجهادي في مصر حدا لا يمكن السكوت عنه من قبل الدولة المصرية التي يحكمها تيار إسلامي أيضا، وهم الإخوان المسلمون.

وحين تفجرت مشكلة الفيلم المسئى للنبي - صلي الله عليه وسلم - فإن السلفية الجهادية اقتحمت أسوار السفارة الأمريكية في مصر، ورفعت علم السلفية الجهادية مكان العلم الأمريكي في الذكرى الحادية عشرة ليوم 11 سبتمبر. وهنا، انتقل التحدي السلفي الجهادي من الدولة المصرية إلى الولايات المتحدة، وأصبحت السفارة الأمريكية عنوانا للجهاد العولمي للتيار السلفي الجهادي في قلب القاهرة.

في تونس، ظهر عنف التيار السلفي الجهادي في البداية محتجا على عدم السماح للطالبات المنتقبات بدخول الجامعة، و على قناة "نسمة" التي شخصت الذات الإلهية، ويدعو التيار إلى إقامة إمارة إسلامية في تونس هو الآخر. كما أن تيارا لأنصار الشريعة في تونس، يترجمه سيف الله بن حسين المكني بأبي عياض، وهو قاتل في أفغانستان، سعي لتأسيس ما يطلق عليه "الجماعة الإسلامية المقاتلة في تونس"، وقد فتحت أجواء ما بعد الثورة في تونس، كما هو الحال في مصر، السبيل لقادة التيار السلفي الجهادي للخروج من السجن كما هو الحال في مصر.

بيد أن الفيلم المسئى للنبي - صلي الله عليه وسلم - فتح الباب واسعا لبروز تحدي التيار السلفي الجهادي لحكومة حركة النهضة الإسلامية، حيث حاول التيار السلفي الجهادي في تونس اقتحام السفارة الأمريكية، وهو ما أدى لقتل عدد من الأفراد. إن هذا جعل الزعيم التونسي لحركة النهضة، راشد الغنوشي، يقول إن التيار السلفي الجهادي في تونس يمثل خطرا على الدولة، ولا بد من اتخاذ الخطوات اللازمة لمنع هذا الخطر. وفي مصر، قال زعيم التيار القطبي، عبد المجيد الشاذلي، إن التيار السلفي الجهادي في مصر هو تيار خوارجي وعبثي، ولا بد من استئصاله.

انتقل فائض المقاومة في غزة إلى سيناء، حيث هناك تجاور بين التيار السلفي الجهادي في سيناء وغزة. وفي تونس، سوف نجد التجاور بين التيار السلفي الجهادي في تونس من ناحية الغرب، والفضاء الواسع الذي تتحرك فيه تنظيمات التيار السلفي الجهادي في منطقة المغرب العربي والصحراء، وهو ما قد يعني فائضا للقوة يمثل ظهيرا محتملا لدعم التيار السلفي التونسي في المستقبل في مواجهة الدولة والمصالح الأمريكية والغربية معا. كما أن التجاور الجغرافي مع ليبيا لا يمكن نكران تأثيره في التيار السلفي الجهادي في تونس أيضا.

2. العنف والحرب الأهلية والتدخل الدولي في ليبيا:

ليبيا نموذج مختلف للتغيير، فالطريقة التي سقط بها نظام القذافي كانت حربا أهلية، حمل فيها الشعب الليبي السلاح، وتدريب عليه بدعم غربي وعربي، وهو ما خلق بيئة مهيأة لانتشار العنف، خاصة مع غياب مؤسسات الدولة الليبية في عهد القذافي، وضعف الطبقة الوسطى الليبية، والمؤسسات الأهلية والمدنية المعبرة عنها. بدأت الاضطرابات في ليبيا في منتصف شهر فبراير في عام 2011 واستمرت

لثمانية أشهر كاملة، حتي انتهت في النصف الأول من شهر أكتوبر 2011 وتدخل المجتمع الدولي بصدور قرار دولي من مجلس الأمن بتدخل قوي الناتو، وفرض مناطق حظر جوي على نظام القذافي. وظهرت قوة الإخوان المسلمين، كما شاركت وبقوة الجماعة الإسلامية الليبية المقاتلة، التي كانت قد أعلنت أنها تحولت للحركة الإسلامية الليبية. وظهر المجلس الوطني الانتقالي كهيئة وحيدة معبرة عن الدولة الليبية، إبان الثورة وبعدها، والذي ضم إسلاميين من الإخوان، ومن الجماعة الليبية المقاتلة.

فتحت الحرب الأهلية في ليبيا الأبواب على مصراعيها على مخازن الأسلحة الليبية، والتي كانت فرصة ذهبية لتجار السلاح والمغامرين، وصناع الحروب، ومهندسي مناطق التوتر، وصانعي الجغرافيا السياسية للعنف. عاد المرتزقة الذين كانوا يقاتلون إلى جانب كتائب القذافي بأسلحتهم إلى مالي، وتحالف الطوارق الموالين للقذافي (حركة أزواد)، والعائدين بأسلحتهم مع تنظيم القاعدة (حركة أنصار الدين وحركة التوحيد والجهاد في غرب إفريقيا)، حتي استطاعوا أن يسيطروا على شمال مالي تقريبا، ويربكوا دولا في إقليم المغرب العربي وغرب إفريقيا وحتى نيجيريا.

لم يقتصر أمر مخازن السلاح المفتوحة في تأثيره على منطقة الغرب الإفريقي وإنما امتد ليشمل منطقة المشرق العربي حتي سيناء و غزة، وبالطبع مرورا بمصر. بيد أن منطقة سيناء كانت هي الأكثر استقبالا للسلاح القادم من ليبيا، عبر طرق ومسالك يعرفها تجار السلاح. فتشبع قطاع غزة بالسلاح جعل سيناء أحد مصادر استقباله وتخزينه.

فتح ضعف بنية الدولة الليبية، وعدم استكمال بناء مؤسساتها، خاصة الجيش والشرطة، الباب واسعا لفراغ أمني، عبرت عنه بشكل واضح حادثة مقتل السفير الأمريكي "كريستوفر ستيفنز" وأربعة من الدبلوماسيين. وهنا، فإن نموذج الحرب الأهلية في التحول نحو نظم جديدة، مع ضعف مؤسسات الدولة وقواها الاجتماعية والسياسية، خاصة طبقتها الوسطي، يفتح الباب على جغرافيا عنف سياسية في محيط تلك الدولة. وهنا، فإن ليبيا بقدر ضعف التيار السلفي الجهادي فيها فإنها ذاتها - كحالة انتقال عسرة إلى نظام سياسي جديد - تفتح الباب واسعا لاحتتمالات رسم حدود لجغرافيا سياسية للعنف. وعلينا تذكر أن مقاتلين من مصر وتونس والجزائر قاتلوا في ليبيا ضد القذافي، وانتقلوا من ليبيا إلى سوريا بعد ذلك. فحالة الحرب الأهلية الطويلة نسبيا هي عامل جاذب لبناء جغرافيا سياسية ذات طابع عنيف.

3. العنف الطائفي والحرب الأهلية في سوريا:

يمثل الاقتتال الدائر في سوريا، الذي يتخذ صورة الحرب الأهلية الطويلة التي لا أفق لها - أو ما يمكن أن نطلق عليه الصراع الاجتماعي الممتد - أحد مصادر ترسيم خرائط العنف في المنطقة العربية. فهناك استقطاب طائفي سني - سلفي - شيعي يعيد تشكيل الجغرافيا السياسية للعنف في المنطقة، وهناك جذب لمتنمين لتيار السلفية الجهادية من الجزائر وليبيا وتونس ومصر. كما أن معلومات تشير إلى انتقال نشاط تنظيم القاعدة في جزيرة العرب من اليمن إلى سوريا، برعاية مخابراتية أمريكية - سعودية. وتشير المعلومات أيضا إلى أن العرب في منطقة وزيرستان، والمناطق التي تنشط بها طالبان باكستان، يغادرون إلى سوريا، حيث تغض المخابرات الباكستانية الطرف عنهم للتخلص منهم.

وهكذا، يمثل الشحن الطائفي المذهبي أحد مصادر الجذب والحشد في المعركة الدائرة في سوريا اليوم. نحن أمام حرب أهلية لا يريد الغرب أن يتدخل فيها، كما حدث في ليبيا، ومن المتوقع استمرارها، رغم أنها بدأت من مارس 2011 ولا تزال مستمرة، فهي الحرب الأهلية الأطول في ثورات الربيع العربي. ومن المتوقع أن تتخذ وجها طائفيا أعمق، كما يتوقع أن تظهر أدوار للتيارات السلفية الجهادية فيها أكبر، كلما طال عمرها.

هنا، العنف أكثر تركيبا، فهو عنف يتأسس على منطق طائفي، بحيث يكون القتل أو الحرب أو العنف على الهوية، وهو ما يهدد التركيبة الاجتماعية - السياسية للعالم العربي في مشرقه. ولا يمكننا أن نفصل ما يجري في سوريا اليوم عما يجري من قبل في العراق. فالعنف الطائفي في العراق أدى إلى تفكيكه وضرب وحدته برعاية أمريكية. واليوم، يجري في سوريا تطييف العنف برعاية أمريكية - خليجية - تركية.

لا أحب أن يفهم أحد من ذلك أنني ضد ثورة الشعب السوري في مواجهة حاكمه المستبد، ولكن ما يجري في سوريا اليوم هو تأسيس لعنف طائفي وحرب أهلية، تختبر فيها القوي الدولية والإقليمية ما يطلق عليه "حروب ما بعد الحداثة". هناك شعور بخطر تكرار التجربة الأفغانية في قلب عاصمة الأمويين، وهو ما سيقود إلى خطوط جغرافيا سياسية جديدة، ستعدها الدماء والأفكار والعقول التي سترسم وجها عنيفا في العالم العربي لسنوات قادمة.

العلاقة مع الغرب وسياق رسم الجغرافيا السياسية الجديدة للعنف :

لا ترسم ملامح الجغرافيا السياسية الجديدة للعنف في العالم العربي في فراغ، وإنما هناك قوي ومصالح ونظم هي التي تؤسس لتلك الجغرافيا، والغرب الذي تقوده الولايات المتحدة وأوروبا هو الطرف الرئيسي في التأسيس لتلك الجغرافيا الجديدة. صحيح أن الثورات في تونس ومصر بدأت شعبية ومفاجئة لأجهزة المخابرات

الغربية، بيد أن الغرب سرعان ما حاول استيعاب تأثيرها والتكيف معها لتحقيق مصالحه. وكان أهم ما عبر عنه الغرب في هذا السبيل هو التعامل مع القوة الإسلامية الجديدة القادمة إلى السلطة، بدلا من الأنظمة الاستبدادية البائدة.

كما تحدثت العديد من الدراسات الغربية عن أن النموذج الشعبي السلمي المتوافق، واسع التأييد من الجماهير، طرح بديلا عن الأصوات الجهادية التي تقصد المصالح الغربية بالاستهداف. وأشارت إحدى تلك الدراسات - وهي دراسة ناتان شيلدرز Nathan E. Shields المنشورة في عدد ربيع 2012 في مجلة " Global Security Studies تحت عنوان "الاضطراب في الشرق الأوسط: التداعيات السياسية بالنسبة للإرهاب الدولي وسياسة مكافحة الإرهاب"- إلى أن قوة الشعب وكسر الخوف في نفسه هما الضمانة لمنع الإسلاميين من أن يبقوا في السلطة للأبد، أو أن يتحولوا إلى نظم أوتوقراطية.

وأشارت دراسات أخرى إلى ضرورة تخلي الغرب عن الحرب ضد الإرهاب، بحيث تتحول السياسة عبر العنف إلى الحرب بلا عنف للاستفادة من الربيع العربي، ويقول بات بروكتور Pat Proctor في دراسته المنشورة في مجلة Strategic Security عدد صيف 2012 تحت عنوان "حرب بلا عنف: الاستفادة من الربيع العربي للانتصار في الحرب على الإرهاب": "على الغرب أن يحرر نفسه من الحرب على الإرهاب بدعم الأصوات التي لديها القوة والقبول والجاذبية، في مواجهة السلفية الجهادية في العالم العربي". وأشارت الدراسة أيضا إلى مواجهة السلفية - الجهادية بدعم السلفية السياسية التي تتمتع بقبول واسع في الشارع العربي. وأشارت دراسات أخرى - مثل دراسة ناهد كلباسي أناركي Nahid Kalbasi "Anaraki الفساد والإرهاب: هل يقوضان الربيع العربي؟"، المنشورة في "مؤشر الحرية الاقتصادية لعام 2012 - (Index of Economic Freedom)" إلى العلاقة بين الفساد وتجذره وبين احتمالات انتشار العنف في العالم العربي، ومن ثم رأت أن القضاء على الفساد واعتماد التحول الديمقراطي ودعمه هي إحدى أدوات مقاومة العنف في العالم العربي.

هذه الدراسات تعكس الرؤى الغربية للثورات العربية وعلاقتها بالعنف أو الإرهاب، الذي يهدد الولايات المتحدة الأمريكية والغرب، وكيف يمكن حصاره، والقضاء عليه، والتخلص منه. نقطة الانطلاق في الرؤية الغربية لعالمنا العربي هي أمن الغرب، دون النظر إلى علاقات اعتماد متبادل ترعي المصالح المشتركة بين العالمين المتجاورين: الغرب والعالم العربي والإسلامي.

أحد مصادر الجغرافيا السياسية الجديدة للعالم العربي هي المقولات الغربية التي أطلقها المحافظون الجدد، ومفكرون غربيون كبار، أمثال برنارد لويس، وصمويل هنتنجتون، عن الإسلام، باعتباره عدوا بديلا عن الاتحاد السوفيتي القديم،

وعن صراع الحضارات، وعن خطوط جديدة لجغرافيا العالم السياسية، ستكون خطوطاً دموية على حدود الحضارات الكبرى، و على رأسها الحدود بين الحضارتين الغربية والإسلامية. ويرى العالم الإسلامي أن الغرب يستخدم معايير مزدوجة في علاقته مع إسرائيل في مواجهة العالم العربي.

يعزز تلك الرؤية صعود الأصوليات في العالم الغربي - ممثلة في الأصولية الإنجيلية وتحالفها مع الأصولية اليهودية - وتوظيف المقولات الدينية في السياسة الخارجية، خاصة ما يتصل بدعم نوايا الكيان الصهيوني لهدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل. ويجب ألا نتغاضي عن العدوان الغربي على مقدسات العالم الإسلامي، خاصة النبي محمدا (صلي الله عليه وسلم)، فقد اعتدت على حرمة صحف نرويجية وفرنسية، وكان الفيلم المسئى للنبي (صلي الله عليه وسلم) عنواناً للعدوان الغربي على مقدسات العالم الإسلامي، كل ذلك عزز للتيارات المتشددة، و على رأسها السلفية الجهادية، التي عجز الغرب طوال أكثر من عشر سنوات عن هزيمتها. وهنا، فإن المصادر المغذية للعنف في العلاقة مع العالم الغربي لا تزال قائمة، حيث دعا تنظيم القاعدة مثلاً إلى مهاجمة الولايات المتحدة والدول الغربية، وقتل من شارك في الفيلم المسئى للنبي صلي الله عليه وسلم.

وهنا، فإن الحديث عن حلول ذات طابع اقتصادي - اجتماعي، مثل الفقر، والتهميش، والبطالة، وغياب التنافس الاقتصادي، أو الديمقراطية السياسية، يظل غير كاف في علاقة العالم الغربي بالعالمين العربي والإسلامي، ما لم يتم الحديث عن علاقة قائمة على الاحترام المتبادل، خاصة فيما يتعلق بالجانب الديني والعقدي والثقافي. لا يكفي الحديث عن دعم الاتجاهات والأصوات النابذة للسلفية الجهادية في العالم العربي، والتي تستهدف المصالح الغربية، وإنما لابد من الحديث عن احترام العالم الغربي لثقافة العالم العربي، ولنظامه الاجتماعي والثقافي وتركه وما يختار ويدين.

لابد للغرب أن يتحرر من مركزيته وهيمنته الثقافية، وفرض نماذجه في حرية التعبير على العالم الإسلامي بالاستهتار بمقدساته، وبث الكراهية والتمييز ضد المسلمين في الغرب، فيما يعرف بظاهرة "الإسلاموفوبيا". فالعالم أصبح قرية واحدة، ولم يعد مقبولا الحديث عن الاستهتار بمقدسات أكثر من ألف مليون مسلم بحجة حرية التعبير. فأحد مصادر العنف المشكلة للجغرافيا السياسية الجديدة للعالم العربي هو العنف الرمزي في مواجهة المقدس الإسلامي، في ظل شبكات تواصل اجتماعي تجعل من المشاهد مشاركا في الحدث. فكما أن مصير العالم واحد فيما يتعلق بقضايا البيئة مثلاً، فإن العالم مصيره واحد أيضاً فيما يتعلق باحترام مقدسات كل أمة، وعدم ازدرائها، أو الاستهزاء بها.

على الغرب أن يدرك أن مصيره مرهون بمصائر الأمم الأخرى الكبرى، مثل العالم الإسلامي، وفي القلب منه العالم العربي، وكيف عن التدخل في رسم خرائط جديدة لعالمنا العربي لإضعافه، وفرض الهيمنة، ومزيد من التجزئة عليه، فإن ذلك سيفتح الأبواب مشرعة علي حروب ونزاعات طائفية وعرقية وقومية، لن يكون الغرب ولا حلفاؤه بمنأى عنها.

الفصل التاسع

الطائفية وانعكاسات الجغرافيا السياسية

الفصل التاسع

الطائفية وانعكاسات الجغرافيا السياسية

في رؤية تتجاوز المنظور الاستشراقي للجغرافيا السياسية في المنطقة يمكن رسم صورة هوليودية لما كان يتردد همسا أو تنظيرا كتابة أو شفاها، لما عرفنا بعضه ولما لم نعرف بعضه الآخر، لكن انشغالنا أحيانا بأمور كبرى وشعارات عظمى جعلنا نترفع أحيانا عن الخوض في بعض الجزئيات، وما عرفنا أن الكليات لا يمكن أن تكون كذلك دون جزئيات، أو فرعيات، أو هويات ذات خصوصية، كشكل من أشكال التنوع والتعددية.

وإذا كنّا نظرياً نقرّ بذلك وندعو إليه من باب "التجريد" في بعض الأحيان، فإن مواجهة الأمر على نحو مباشر ووجهاً لوجه يضع مسؤوليات جديدة أمام المرء، وعليه اتخاذ القرار الحاسم على صعيد كل فرد، فما بالك إذا كان في السلطة أو قريباً منها، أو حتى ناقداً لها.

"ينغمر الناس في علاقاتهم وصراعاتهم دون وعي أحيانا أو دون انتباه أو التفات، وهكذا تنثال الحياة بما تحمله من استمرارية واعتياد لتنسينا في غفلة منا الكثير من الأشياء"

لا أدري كيف استذكرتُ الروائي الروسي الكبير تولستوي صاحب الرواية الشهيرة "الحرب والسلام"، فقبل قرن ونحو عقدين من الزمان كان قد تحدث عن الغفلة، وربما النسيان، فكتب يقول: كنت أمسح الغبار عن أثاث غرفتي، وفيما أنا أكمل الدورة دنوت من الديوان، فوجدتني عاجزاً عن تذكر هل مسحت الغبار عنه أم لا؟

ربما هذا يحصل لنا، ففي غمرة الحياة المعقدة المليئة بالمتناقضات والشعارات والمثل العليا، بل والأحلام الكبيرة، كانت السياسة تتشكل على نحو آخر من الاصطفافات والاستقطابات، وعلى هذا النمط ينغمر الناس في علاقاتهم وصراعاتهم دون وعي أحيانا أو دون انتباه أو التفات، وهكذا تنثال الحياة بما تحمله من استمرارية واعتياد لتنسينا في غفلة منا الكثير من الأشياء.

لعل استحضر تولستوي يعود إلى شعور بالعقل الباطن، مفاده إذا كان النسيان قد أخذنا في السابق، فلا ينبغي أن نستمر في لجة الغفلة ونحدث عن أشياء كبرى ونهمل تفاصيل كثيرة، لولاها لما تكوّن المشهد الذي نعيشه، لكنني في الوقت نفسه أعرف أن عكوفي على هذا الموضوع إنما هو عكوف على الذات لنقدها، مثلما ننقد الآخر والوجود والحياة والكون، تأكيداً لأهمية الوعي بذاته ولذاته، وبحثاً عن المعنى

والدلالة، وصوناً لما هو استرجاعي أو استعادي ونقدي، كي لا تندفع مجاميع سياسية في أدنى السلم لتتخذ مكان الصدارة بتحريكها جموعاً غفيرة من البشر باسم الطائفة والمظلومية والإقصاء والعزل والتهميش أو ادعاء الأفضليات في محاولة للتمييز على الآخر، وذلك في لحظة من لحظات تغييب الوعي أو تزييفه أو اختطافه، ويبقى كثيرون يترفعون عن التخويض بمثل هذه الأمور، لكنهم يبقون في إطار التنظير، بينما يمضي الآخرون "بالإبل" على حد تعبير الإعرابي، الذي صادفه قاطع طريق فأخذ إبله، ولما سُئل حين عاد لديرته أين الإبل قال لهم: أوسعتهم لعنا وراحوا بالإبل! إن الدعوة لقراءة الواقع ونقده هي وليمة للفكر واستنهاض للوجدان وتحفيز للضمير، خصوصاً ونحن في زمن الاختلال، وكلّ اختلال يؤدي إلى الحيرة والقلق، وهذه ستكون المدخل، حيث سيبدأ السؤال، ثم النقد، وبالفكر النقدي الموضوعي والذاتي يُختصر طريق الحقيقة!

التفكير الإبداعي هو نقيض ما هو قائم، حيث تتطلب المواجهة الحضارية الإنسانية السلمية اللاعنافية لظاهرة تعاني منها مجتمعاتنا، وأحياناً لا تريد الاعتراف بها، في حين يلعب في ساحتها الآخرون. وللخطر لغته التي يمكن البناء عليها، وهذا البناء هو الأسلوب، وهذا الأسلوب هو الإنسان ذاته، هدف وغاية أي عمل أو جهد، فالإنسان حسب الفيلسوف الإغريقي بروتوغوراس هو "مقياس كل شيء".

وهكذا تُخلق المعرفة، وكل معرفة هي جواب عن سؤال، ولهذا لا بدّ من محاسبة أنفسنا، وتحمل المسؤولية من خلال المساءلة، الغائبة على طول الخط، ولعلّ أنماط التعبير تقوم على التفسير والبرهان والإيعاز، وهو الأمر الذي لا بدّ من التوقف عنده من خلال نمط التفكير التفسيري ونمط التفكير البرهاني والتفكير الإيعازي.

لقد حرّكت موجة التغيير موضوع الهوية، ولا سيّما الهويات الفرعية حتى بدت الدول أقرب إلى التفكير، بل إن بعضها تفكك بالفعل، وإذا ما سادت الطائفية وتكرست، فإن خطرها سيعرّض كيانية الدول إلى التفتيت والتذرر. ومن باب النقد الذاتي يمكن القول إن أربعة أو هام ساورتنا خلال العقود الماضية:

"حرّكت موجة التغيير موضوع الهوية، ولا سيّما الهويات الفرعية حتى بدت الدول أقرب إلى التفكير، بل إن بعضها تفكك بالفعل، وإذا ما سادت الطائفية وتكرست، فإن خطرها سيعرّض كيانية الدول إلى التفتيت والتذرر"

- الوهم الأول أن الدول الصناعية حلت مسألة الهوية.
- الوهم الثاني أن تحقيق المواطنة يدفع بصراع الهويات إلى الخلف.
- الوهم الثالث أن الدول الاشتراكية السابقة حلت مسألة الهوية.
- الوهم الرابع أن صراع الهويات ينحصر في العالم الثالث.

لكن هذه الأوهام لم تصمد أمام الواقع بفعل انفجار مشكلة الهويات في العالم كلّ خلال السنوات الأخيرة، وما حصل في أوروبا الشرقية خير دليل على ذلك، فقد

اتخذ النزاع في يوغسلافيا بُعداً حربياً وقتالياً انشطرت فيه إلى ستة أجزاء، وهو ما حصل في الاتحاد السوفياتي السابق الذي انقسم إلى 15 كيانا، وانفصلت جمهورية تشيكوسلوفاكيا إلى كيان تشيكي وآخر سلوفاكي، واستمر الصراع في أوروبا الغربية مثل إيرلندا (بريطانيا) والكييك (كندا) والكورسيك (فرنسا) والباسك (إسبانيا) وخصوصية لهوية فرعية في جنوب إيطاليا وهكذا.

أما بلجيكا فالصراع مستمر بين (الوالانبيين - الناطقين بالفرنسية) و(الفلامانيين- الناطقين بالهولندية) ورغم النظام الديمقراطي-الفيدرالي، قد تصل البلاد إلى حل الانفصال.

الفرق بين شكل الصراع لدى الغرب وما عندنا هو أن الحل في مجتمعاتنا يميل إلى العنف، في حين أن حل الصراع في الغرب أميل إلى السلم والسبب هو التعايش واحترام الآخر وخصوصياته وحقوق الجميع المتساوية على أساس المواطنة.

لقد انفجرت المشكلة الطائفية في البلدان العربية، واستشرت لدرجة خطيرة، رغم محاولات تبرئة كل فريق لنفسه منها. وقد أخذت هذه الظاهرة تشمل بعض العلمانيين والحدائيين الذين انساقوا وراء الاتجاه الطائفي والتبس موقفهم من "الأقليات" والتنوع الثقافي، بين التأييد الأعمى والتنديد الشامل، ولعلّي هنا أستعيد علي الوردي عالم الاجتماع العراقي الكبير، الذي أوضح الفرق بين الطائفية والطائفة حين قال عن هؤلاء "إنهم طائفيون بلا دين".

الطائفية تتعارض مع المواطنة ومن الطبيعي جداً الانتماء إلى طائفة، لاعتبارات تاريخية واجتماعية، ولكن من غير الطبيعي أن يكون الإنسان طائفيًا، أي أن يطلب التمييز على الآخر، تحت مبررات الأغلبية أو المظلومية أو امتلاك الحقيقة أو الأفضلية أو غير ذلك.

إن الارتباط بالمواطن الآخر هو الوطن والمواطنة، ولا أريد القول بالوطنية التي هي شعار سياسي، وليس الطائفة والطائفية، ولعل الطائفية والتمذهب في حالة تحوّلها إلى نهج لفرض الإرادة والتسيّد واستخدام القوة والإرهاب والعنف، ترتقي إلى مصاف الجرائم الكبرى.

وإذا كان انبعاث الهويات الفرعية مسألة ضرورية بعد كبت طويل، حيث كانت الأنظمة السابقة حائلاً أمام الاعتراف بخصوصيتها ومشاركتها على قدم المساواة مع الهوية السائدة (أقلية أو أكثرية)، لكن اللافت وربما هذه واحدة من المفارقات أن الهوية العربية أصبحت مهددة، لأن الأمر لا يتعلق بالمجموعات الثقافية والدينية، غير العربية وغير المسلمة، بل أن التفكيك يراد له استهداف العرب، كأغلبية عديدة بتجزئة الكيانات القائمة، في هذه المنطقة، واستهداف المسلمين كأغلبية عديدة أخرى، وتقسيمها بين طوائف ومذاهب متناحرة شيعية وسنة وهكذا، وكلا الأمرين يستهدفان

الهوية القائمة على اللغة والدين وكذلك استهداف المواطنة المشتركة المتنوعة المشارب والاتجاهات، الموحدة في الأصول، القائمة على الحرية والمساواة والمشاركة والعدالة، خصوصاً أن التعددية غني وليست تشظياً أو تذريراً. لقد اشغلت مراكز الأبحاث والدراسات في الغرب في العقود الثلاثة الماضية على إظهار العراق وخصوصاً أثناء الحرب العراقية-الإيرانية 1980-1988 وما بعدها على أنه مجرد كيان "مصطنع" وهو منقسم إلى شيعة وسنة وكرد، جمعتهم "وحدة قسرية" ولا توجد هوية عراقية موحدة تشكل قاسماً مشتركاً بينهم، ولعل ذلك كان الأساس الذي استند إليه بول بريمر الحاكم المدني الأميركي للعراق، عند تشكيله لمجلس الحكم الانتقالي، وهو أساس كان قد بنى عليه بريجنسكي رؤيته في كتابه "أميركا والعصر التكنوتروني" العام 1970 حين تحدث عن كيانات مصغرة، بل شظايا دول.

وكان كيسنجر الذي تناول الموضوع من زاوية جعل الجميع "أقليات"، حينئذ ستكون "إسرائيل" الأقلية المتميزة بينهم تكنولوجياً ومعرفياً وتنموياً، لا سيما وهي محطية الغرب، وعند كل بئر نفط حسب كيسنجر علينا أن نخلق إمارة، وهو ما ذهب إليه برنارد لويس عندما تحدث عن 41 كياناً عربياً وكردياً ودرزياً وعلوياً وسنياً وشيعياً ومسيحياً ويهودياً في المنطقة العربية، وهو مشروع إيجال ألون ذاته. "عند كل بئر نفط حسب كيسنجر علينا أن نخلق إمارة، وهو ما ذهب إليه برنارد لويس عندما تحدث عن 41 كياناً في المنطقة العربية، وهو مشروع إيجال ألون ذاته"

وكان فولر من مؤسسة راند المقربة من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية قد طرح سؤالاً: هل سيبقى العراق موحداً في العام 2002؟ وبعد الاحتلال العام 2003 كان جو بايدن نائب الرئيس الأميركي الحالي ينشط باتجاه إقامة ثلاث كيانات شبه منفصلة، وحاول في العام 2007 أن يحصل على تأييد الكونغرس، كما عرض الأمر على عدد من أعضاء مجلس الأمن دائمي العضوية، بهدف كسب التأييد لمشروعه الذي تباركه "إسرائيل".

وحيث إن الاحتلال بعد سنوات عشر عجاف قد جلب المحاصصة الطائفية والإثنية والفساد المالي والإداري وأعمال العنف والارهاب والتدخلات الدولية والإقليمية، فقد جرت محاولات لتدوين الهوية وتطويعها أو مذهبها في إطار الجغرافيا السياسية وتخوم الطائفية المؤدلجة، وهو ما زال المجتمع العراقي يعاني منه. ولعل مناسبة الحديث عن هذا الموضوع كانت ندوة فكرية مهمة نظمها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في الدوحة بمناسبة مرور عشر سنوات على احتلال العراق، حضرها عدد من المفكرين والباحثين والممارسين العرب والأجانب.

الفصل العاشر

أسس توازن القوى

الفصل العاشر

أسس توازن القوى

أولاً: تعريف القوة:

1. مفهوم القوة:
2. المعلومات بشأن مفهوم القوة، أنه ليس للقوة تعريف جامع شامل ومانع. ويعود السبب في ذلك إلى انعدام وجود إجماع بين المفكرين والمحليين والسياسيين أو بين علماء الاجتماع بشأن طبيعتها، لتعدد الصور التي تتخذها القوة، إذ لا يوجد تنظيم من دون أن تكون القوة هي جوهر الأسس التي يستند إليها. فكثيراً ما ارتبطت كلمة القوة بعلم السياسية، وخاصة عند علماء السياسة التجريبيين المعاصرين، فقد ارتبط عندهم علم السياسة في مركز اهتماماتهم بموضوع بحث هو القوة، وذلك على أساس ما تبين لهم من طريق الملاحظة والتجريب من أن القوة وعلاقتها هي صلب علم السياسة. والذي لا بد أن نعترف به، قبل أن نسوق التعريف السياسي لكلمة القوة، هو أن التوافق السياسي على بحث موضوع القوى هو ظاهرة قديمة قدم المعرفة السياسية نفسها، والممارسات السياسية التي ترجع إلى بداية المجتمع البشري. على أن كلمة القوة قد استخدمت بالمعنى السياسي عام 1701، وذلك عندما احتدم الصراع السياسي وظهرت الدولة القوية في أوروبا. إن نظريات القوة أو النظريات الواقعية فرضت نفسها على اتجاهات التحليل النظري لحقائق السياسة الدولية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، نتيجة تفاقم الصراعات الدولية واتجاه بعض القوى الكبرى إلى خلق مراكز قوة تستطيع بثقلها وتأثيرها أن تضع واقعاً دولياً، يلتقي مع مصالحها، ويحقق لها التفوق على خصومها. ومهما اختلف العلماء في تحديد تاريخ ظهور هذه الكلمة على المسرح السياسي، فإن ذلك لا يغير من الحقيقة شيئاً، فالقوة هي صلب علم السياسة، إذ بها يُصنع القرار السياسي ويوضع موضع التنفيذ في شتى نواحي الحياة. ويُعرف فسكاران Phaskaran القوة السياسية بأنها القدرة على عمل شيء وأن يؤثر في أي شيء. وأما لازويل وكبلان Lasswell & Kaplan فهي عندهما المشاركة في صنع القرار. ويعرفها روبرت داهل Robert Dah بأنها المقدرة على جعل شخص آخر يقوم بعمل لم يكن ليقوم به دون استخدام القوة. بينما يرى بلاو Blau أن القوة هي قدرة أشخاص أو جماعات على فرض إرادتهم على الآخرين.

وفي تصور مورجانتو Morgethau القوة السياسية هي المقدرة على السيطرة على تفكير الآخرين وسلوكهم، ويقول: إن القوة السياسية هي علاقة نفسية بين من يمارسونها وبين من تُمارس ضدهم، فهي تمنح الوليين سيطرة على بعض ما يقوم به الآخرون من أعمال من طريق النفوذ الذي يمارسونه على عقولهم، وقد يُتخذ ذلك بأسلوب الأمر، أو التهديد، أو الإقناع، أو بمزيج من بعض تلك الوسائل معاً.

القوة في الفترة المعاصرة:

يظل التسلسل التاريخي في مفهوم القوة يمضي بنا عبر العصور المختلفة، حاملاً مفاهيم تتباين أحياناً وتتألف أحياناً أخرى، لكنها في الفترة المعاصرة تتخذ شكلاً آخر يبدو جلياً من خلال آراء مفكري السياسة في القرنين التاسع عشر والعشرين. تلك الأفكار التي تتسم بالواقعية، وإن استمدت أصولها من الفترات التاريخية المتعاقبة على من سبقهم. ويمكن القول إن معظم المذاهب السياسية التي شهدتها هذه الفترة قد تمحورت حول نظرية هيجل لسياسة المعاصرة، فلن نستطيع إغفال كل من هيجل وماركس وبوزانكيت، لما يمثلهم كل منهم من مكانة سياسية تكاد عند بعضهم تشكل نظرية ظلت تفرض نفسها إلى عهد قريب.

أ. هيجل: Hegel

إن ما يميز فلسفة هيجل السياسية، هو أنه أضفى على الدولة القومية قيمة عالية، لأن الدولة عنده تشكل الوحدة المهمة والأساسية في النسق الهيجلي. فالدولة إذاً - في نظره - هي تجسيد السلطة السياسية، وسلطة الدولة - كما تصورها - تعد مطلقاً ولكنها ليست تحكمية. إذ لا بد أن تُمارس سلطاتها التنظيمية في ظل القانون، إلا أن الهيجلية كانت في جوهرها تمجيداً للقوة، لأنها وضعت الدولة فوق متناول القانون، فأخضعت الفرد للدولة خضوعاً كاملاً.

ب. كارل ماركس: Karl Marx

إذا كان محور فلسفة هيجل هو الدولة القومية، فإن ماركس على النقيض من ذلك، حيث يتمثل محور فلسفته الاشتراكية في الطبقة العمالية، وما تلاقيه من إرهاب مادي ومعنوي من أرباب العمل، الأمر الذي حمله على نداء هؤولاء إلى الثورة الاجتماعية، وفي مقابل ذلك سعى إلى إلغاء الدولة كنظام سياسي في المجتمع. ونستطيع أن نلخص الفلسفة التي دعا إليها ماركس في أنها تعبير اجتماعي، يتمثل في وصول الطبقة العمالية إلى إدراك قوتها السياسية ومدى نفوذها وتأثيرها على البناء الاجتماعي في الدولة، وذلك ما يعبر عنه ماركس بقوله: "إن التاريخ الاجتماعي يبلغ الذروة بقيام البروليتاريا وهي الطبقة العاملة التي ليس لها إلا سواعدها وسيلة للكسب في الحياة". وقد تطلع ماركس إلى زحف تلك الطبقة؛ كي تشغل مكاناً مسيطراً في المجتمع الحديث، وتمثل القوة عنده في الصراع الاجتماعي لصالح الطبقة العمالية، وعليه تكون غاية القوة لديه قد اختلفت تماماً عن غاية القوة في فكر من سبقوه إلى الحديث عنها.

برنارد بوزانكيت: Bosanquet

يُعدّ بوزانكيت من فلاسفة القرن العشرين، ولقد تأثر بمن سبقوه في فلسفتهم السياسية، خاصة هيجل وروسو. ومن ثم، يمكن القول بأن بوزانكيت سار على نفس النسق الفلسفي لهيجل.

نخلص من هذه التعريفات كلها أن القوة هي علاقة خاصة بين طرفين، علاقة يستلزم أن يكون أحد الطرفين فيها على قدر أكبر من الإمكانيات، ما يتيح له بعض التفوق في السلطة والسلطان، وإلا فلن تتوفر للقوة فعاليتها وسوف تتحول إلى عملية أخرى فيما نسميه الصراع. ثم إن هذا الذي يمارس القوة، لا بد أن يمتلك حرية العمل والتصرف، وإلا فما معنى أن تتوافر للفرد مقومات القوة، وتُغل يده بأي صورة من الصور. مثال ذلك الشخص الذي يتمتع بالقوة حين تُلقى به وحيداً في الصحراء الجرداء، ما يجعله غير قادر على ممارسة قوته على الآخرين، ولذلك فإن السياسة تسعى دائماً إلى الاحتفاظ بالقوة ومضاعفة هذه القوة.

المفاهيم النظرية لتوازنات القوى:

على الرغم من أن تعبير التوازن يُعد من التعبيرات الدولية الأكثر انتشاراً واستخداماً، إلا أن المعنى الدقيق لهذا التعبير ظل غامضاً لعصور كثيرة حتى جاء العالم نيوتن بقانون الجاذبية الكونية Universal Gravitation. وهو يؤكد أن أي جسمين يجذب كل منهما الآخر بقوة تتناسب طردياً مع ناتج كتليتهما، وتتناسب عكسياً مع مربع المسافة بينهما. ولقد برهن نيوتن أن هذا القانون ينطبق على الأجسام التي على الأرض، وأيضاً الموجودة في الفضاء الكوني، وهو مسؤول عن استقرار دوران كواكب المجموعة الشمسية حول الشمس. وسبحان الله أنها تدور كلها في اتجاه واحد ومستوى واحد عدا الكوكب "بلوتو" محدثة التوازن في الفضاء الخارجي. وبالتحليل الدقيق لقوانين النظريات العلمية الخاصة بعلم الكيمياء الطبيعية. يمكننا الوصول إلى مفهوم التوازن بأنه وصف لحالة تعادلية بين قوى عدة متضادة بينها قدر من الترابط، وقد تؤدي إلى الاستقرار.

والمفهوم الشامل لتوازنات القوى أنها "الحالة التي تتعادل وتتكافأ عندها المقدرات البنائية والسلوكية والقيمية لدولة ما منفردة أو مجموعة من الدول المتحالفة مع غيرها من الوحدات السياسية المتنافسة معها، بحيث تضمن هذه الحالة للدولة أو لمجموعة الدول المتحالفة ردع أو مجابهة التهديدات الموجهة ضدها من دولة أخرى أو أكثر، وبما يمكنها أيضاً من التحرك السريع وحرية العمل في جميع المجالات للعودة إلى هذه الحالة عند حدوث أي خلل فيها بما يحقق الاستقرار."

ويُطلق على هذا المفهوم أيضاً التوازن الإستراتيجي، وهو يتميز بثلاث خصائص محددة:

1. تكافؤ مجموعة من المتغيرات فإذا استمر هذا التكافؤ عُرف بالتوازن الإستراتيجي المستقر، وإذا تغيرت حالة هذا التكافؤ سلباً أو إيجاباً سُمي بالتوازن الإستراتيجي غير المستقر.

2. إمكانية تحقيق هذا التوازن بدولة منفردة بصورة كاملة معتمدة على إمكانياتها الذاتية وقدراتها القومية، بحيث تتكافأ مع التهديدات الموجهة ضدها أو قد يتم ذلك من خلال تحالفات وفيه تعبئ مقومات القوة القومية للدول المتحالفة ضد التهديدات الموجهة لهذا التحالف.

3. أن هذا التوازن له ثلاثة أبعاد، وهي البعد البنائي، ويتمثل في القدرات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية لدولة أو مجموعة دول. أما البعد الثاني وهو سلوكي، وينبع من مرونة وحركة القوى الفاعلة دولية أو إقليمية. والبعد الثالث هو بُعد يُقيم من خلاله حالة القبول أو الرفض للقوى الفاعلة.

مفهوم وأبعاد توازن القوى:

على الرغم من أن تعبير توازن القوى يُعد من أكثر التعبيرات انتشاراً واستخداماً في مختلف العصور، وفقاً لاختلاف وتطور الفكر والنظريات في كل عصر، إلا أن هذا التعبير قد ظل من أكثر المفاهيم غموضاً، إذ لا يكاد يوجد اتفاق على مفهومه، بل لعله لا يكون تجاوزاً لحقيقة القول بأنه لا يوجد تعريف مانع جامع لهذا التعبير، وسوف تتناول مكونات هذا التعبير بشيء من الإيضاح للوصول إلى التعريف المناسب.

1. معنى التوازن بشكل عام:

يعني التوازن في مفهومه، الحالة المستقرة، فيتحدث الناس دونما تفكير عن التوازن كرمز للحالة المعتادة المستقرة، وهذه الحالة ليست بالضرورة مثالية دائماً، ولكنها توحي بالاستقرار وعدم التوتر، ولكنهم في كثير من الأحيان وعند تدقيق معانيهم يشيرون إلى ما هو أبعد من الاستقرار المعتاد إلى الحالة المثالية. وتستخدم جميع العلوم مصطلح التوازن، رمزاً للحالة المعتادة المستقرة، فيستعمل علم النفس مصطلح التوازن النفسي للتعبير عن الحالة العادية للإنسان العادي، ويستخدم علم الاجتماع مصطلح التوازن الاجتماعي لوصف المجتمع الخالي من التوترات، ويكثر علم الاقتصاد من استخدام التوازن لوصف الأوضاع المقبولة، فيقول التوازن بين العرض والطلب، والتوازن في التنمية، والتوازن بين الصادرات والواردات، والتوازن التجاري... إلخ.

ويستخدم علم السياسة أيضاً مصطلح التوازن للإشارة إلى الحالة المستقرة على أسس عقلانية، فيقول النظام قائم على توازن السلطات، كإشارة إلى نظام لا يخضع لهيمنة سلطة واحدة، كما يستخدم مصطلح قوى سياسية متوازنة. إن التوازن في المعنى العام يشير إلى الحالة المستقرة التي لا تسيطر عليها قوى التطرف.

2. توازن القوى:

إن مفهوم توازن القوى مازال ملفوفاً بالغموض عند الكثير من علماء السياسة والعلاقات الدولية. ومبعث هذا الغموض أسباب كثيرة ومتعددة، منها فهم توازن القوى على أنه نقطة التعادل بين قوتين متعارضتين، ومنها افتراض جمود توازن القوى وانعدام حركاته، أو على الأقل تحركه ببطء شديد، ومنها افتراضه كسياسة دولية مقصود لذاتها بوصفها إدارة لحفظ الاستقرار الدولي.

ويعرف الدكتور إسماعيل مقلد توازن القوى بقوله: "ينشأ التوازن في حالة إمكان دولة واحدة أن تحصل على تفوق ضخم وساحق في قواها، ما يهدد حرية الدول الأخرى واستقلالها، وهذا التحدي هو الذي يدفع الدول المحدودة القوة إلى مواجهة القوة بالقوة عن طريق التجمع في محاور أو ائتلاف قوى مضادة. وهذه إحدى طرق تكوين التوازن الدولي وليست الطريقة الوحيدة، وهي طريقة تكوين توازنات ما بعد الحروب الدولية"، ويوصف توازن القوى بأنه سياسة ترمز إلى المدرسة الواقعية في السياسة الدولية، وهي المدرسة التي تعني بظاهرة القوة، وأن الدول حينما تسعى للحفاظ على وجودها وأمنها ومركزها الدولي من خلال عملية الصراع على اكتساب القوة، فإن رائدها في ذلك هو تحقيق توازن القوى، وهو في الوقت ذاته، سلاح في تنظيم استخدام القوة والسيطرة عليها."

غير أن توازن القوى ليس سياسة بحد ذاتها تسعى الدول إلى تحقيقها وتجاهد من أجلها، فالدولة لا تسعى إلى التوازن، بل تسعى إلى التفوق والهيمنة، ما يؤدي إلى

نشوء توازن القوة، فتوازن القوة ليس حالة مقصودة لذاتها، بل هو حالة يتوصل إليها بشكل عرضي من خلال السعي إلى التفوق. فالدولة الساعية إلى التفوق تجد نفسها في وضع الدول المتوازنة في لحظة تاريخية ما.

3. أشكال توازن القوى:

ليس لتوازن القوى صورة واحدة، فعلى الرغم من أن فكرته الجوهرية هي توزيع القوة بين الأطراف الدولية، إلا أن هذه الأطراف قد تزيد أو تنقص. ففي أثناء الصراع، قد يصل عدد قليل من الدول إلى حالة من التعادل النسبي في القوة، فيتشكل بينهما توازن للقوى، يعتمد على تعدد الأقطاب الدولية. وقد أطلق على هذا النوع من التوازن (التوازن المتعدد الأقطاب - أو التوازن المركب وأحياناً التوازن المعقد، بحكم تعدد العلاقة المعتمدة على كثرة التحالفات بين الأقطاب أنفسهم). وقد يسيطر على توازن القوى دولتان، فيصبح التوازن ثنائي الأطراف، وقد أطلق على هذا التوازن (التوازن البسيط). فهو توازن يقوم على وضوح بروز قوتين عظميين، وتأتي البساطة من طبيعة العلاقة التي يفرضها هذا النوع من التوازن بين هاتين القوتين، فخطوط العلاقات الدولية في هذا النوع تصبح أكثر وضوحاً بالنسبة للأطراف الدولية الأخرى.

تلك هي الصور الرئيسية لتوازن القوى، لكنه كما يقول أرسو "ليس هناك من الرياح سوى الشمالية والجنوبية، أما بقية الرياح فهي مشتقة منها"، فكذلك التوازن هو بسيط أو مركب، لكن هذين الشكلين الرئيسيين للتوازن ينتجان أنواعاً أخرى، مثل التوازن المرن والتوازن الجامد، أو توازن الأنظمة المتجانسة أنواعاً، وتوازن الأنظمة المتنافرة، وتوازن الأنظمة المعتدلة والأنظمة الثورية.

أ. توازن القوى المتعدد الأقطاب:

هو التوازن الذي يتكون من قوى كثيرة وتعمل هذه المجموعات على موازنة بعضها بعضاً. وليست هناك حدود قصوى على عدد تلك المحاور والتجمعات في ظل النظام المتعدد لتوازن القوى. ويعرف مورجانتو توازن القوى، ولكنه يشرح صورته، فهو في نظره توازن لا تقل أطرافه عن ثلاثة، يترتب عليه الاستقرار وحفظ استقلال هذه الأطراف مهما كان أحدهم ضعيفاً.

ويتصف التوازن المتعدد الأقطاب بالخصائص الآتية:

- (1) الكثرة النسبية لأطرافه وبما لا يقل عن ثلاثة أطراف، سواء كانت الأطراف دولاً أو كتلاً تتكون كل منها من عدد من الدول، فإذا قلت الأطراف عن ثلاثة تحول إلى التوازن البسيط.
- (2) الطبيعة التنافسية، وتلك هي الخاصية الجوهرية التي تقود إلى الاستقرار والسلام.

- (3) خضوع الأطراف وقبولهم لمبادئ تنافس تتصف بظهور قواعد شرعية مقبولة من الأطراف جميعاً.
- (4) تحقيق الاستقرار والسلام.

ب. التوازن البسيط (التوازن الثنائي)

هو الصورة الأكثر وضوحاً، ويقوم هذا التوازن عند وجود دولتين أو كتلتين متعارضتين في حالة من التعادل النسبي. والواقع أن هذا التوازن ينشأ عادة في شكل وجود كتلتين دوليتين، غير أن ذلك لا يمنع من قيامه بين دولتين أيضاً. ويغلب على توازن القوى البسيط بين دولتين أن يكون توازناً إقليمياً، أما التوازن الدولي العام فالصورة الغالبة له هي توازن الكتل. لكن وجود الكتلة الدولية يعتمد على وجود دولة قطب تكون بمثابة النواة، التي تتجمع حولها مجموعة من الدول الأضعف للاحتماء بها أو التحالف معها، ومن ثم، تكوين كتلة دولية واحدة. ولأن هذا التوازن يعتمد على دولة قطب، فإنه كثيراً ما يبدو توازناً بين دولتين.

وخصائص التوازن البسيط هي:

- (1) ينشأ غالباً كنتيجة حتمية لتوازن القوى المركب، فبما أن هذا الأخير يتصف بالحركية فإنه يشهد جملة من تحالف الدول، بقصد الحفاظ على المصالح الوطنية لهذه الأطراف. إن فترة التحالفات التي يشهدها توازن القوى المركب هي التي تتسم بالاستقرار والسلام، فالوسائل الدبلوماسية في هذه المرحلة هي الأكثر طغياناً، أما عند تشكيل توازن القوى البسيط فإن الدبلوماسية تصبح أقل فاعلية.
- (2) توازن القوى البسيط يشكل مرحلة الاقتراب من الحرب ويؤدي إليها. إن المدلولات الإستراتيجية لتوازن القوى المركب يؤدي إلى الاستقرار بسبب الطبيعة التنافسية التي تتيح العمل الدبلوماسي. أما توازن القوى البسيط فإن طبيعته هي المعارضة المباشرة والتنافس السافر.
- (3) إن هذا النوع من التوازن لا يخلق سوى فترة استقرار قصيرة الأمد، وهي الفترة الضرورية للإعداد إلى الحرب، وهذا الاستقرار يتصف بالقلق والاضطراب أياً كانت مدته. وحيث إن التحالفات تسبق التشكيل النهائي للتوازن، لذلك فإن الحرب لا تبدأ إلا بعد التأكد من متانة هذه التحالفات.
- (4) يمتلئ التاريخ بالأمثلة لهذا النوع من التوازن. فإذا كان توازن القوى المتعدد الأقطاب هو الغالب في القرون الأربعة الماضية، فإن توازن القوى الثنائي هو الأسبق في الوجود بحكم وسائل الاتصال البدائية بين الدول في العصور القديمة. ففي مثل هذه الظروف، يكون من الطبيعي أن يظهر

توازن القوى في حيز إقليمي ضيق بين دول قليلة ومتجاورة تعيش في عالمها الخاص دونما ارتباط وثيق بالمجموعات الإقليمية الأخرى.

ج. التوازن المرن والتوازن الجامد:

يقول ريمون أورن، إن ميزان القوى ليس من طبيعة واحدة، ولا يخضع دائماً لعدد الأطراف المكونة لهذا التوازن، بل يخضع أيضاً لطبيعة الدول والأهداف التي يلتزم بتحقيقها أولئك الذين يسيطرون على السلطة.

(1) التوازن المرن:

هو الذي يقوم بين دول تنتمي إلى فكر سياسي واقتصادي واجتماعي موحد أو متجانس، ولذلك يُطلق عليه أحياناً توازن الأنظمة المتجانسة أو توازن الأنظمة المعتدلة

(2) التوازن الجامد:

هو، على العكس، يقوم بين دول تنتمي إلى نماذج فكرية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو حضارية متناقضة أو متنافرة، ولذلك يُطلق عليه أحياناً توازن الأنظمة المتنافرة أو الأنظمة الثورية.

من خلال استعراض الأشكال المختلفة للتوازنات، نرى أن المرونة والجمود هي أوصاف تلحق بالأنواع الأصلي للتوازن، فتجعل له أشكالاً أخرى فرعية، فقد يكون التوازن بسيطاً ومرناً، أو بسيطاً وجامداً، كما يكون مركباً ومرناً أو مركباً وجامداً، لكن الحرب ترتبط بنوع التوازن لا وصفه، فالتوازن المركب هو توازن الاستقرار، دون النظر إلى وصفه، فتوازن ما بين الحربين في مرحلته الأولى 1918-1936 كان توازناً مركباً وجامداً.

إن أنظمة التوازن المركب في تلك الفترة السابقة، كانت متعددة ومتناقضة فكرياً وسياسياً، فقد شمل الدول الديمقراطية الغربية وروسيا الشيوعية وإيطاليا الفاشية، لكن هذه الأنظمة استطاعت التعايش بسبب طبيعة التوازن المركب. وعلى العكس، فإن توازن ما قبل الحرب العالمية الأولى كان توازناً مرناً، لأنه يضم أنظمة ليست متناقضة، لكنه توازن مضطرب بحكم تحوله إلى توازن ثنائي، ومع أن أطرافه متجانسة فكرياً وسياسياً، إلا أنها دخلت الحرب.

الحرب والسلام يرتبطان بنوع من التوازن، والمرونة والجمود يلعبان دوراً كبيراً في حركة التوازنات. فالمرونة تساعد على التهدئة وربط نسج التحالفات، أما الجمود فإنه يدفع بالتوازن نحو سرعة الحركة والتحالف والتكتل. فإذا كان التوازن مركباً ومرناً، فإن الاستقرار يدوم لفترة طويلة. أما إذا كان جامداً فإن الاستقرار يكون قصيراً، لأن المتناقضات الحادة تدفع نحو التحالف والتكتل وسرعة الميل

بالتوازن من طبيعة المركب إلى الثنائية، ما يعجل بالحرب. فالقاعدة والاستنتاج هي أن المرونة والجمود هما روح التوازن وسر حركته.

4. التوازن الإقليمي وأثره في التوازن الدولي:

ويطلق عليه أحياناً توازن القوى الرئيسي أو التوازن المسيطر، لأنه ينظم علاقات القوى الرئيسية المسيطرة على السياسة العالمية. وهو على أهميته وشموله، يعتمد على توازنات أخرى ذات طابع محلي يتأثر بها وتتأثر به، وهو ما يطلق عليه التوازن الإقليمي أو التوازن الفرعي. وهي أشكال من التوازنات تتكون داخل أطر جغرافية محدودة، تجمع عدداً من الدول في علاقات تتسم بالصراع على السلطان والنفوذ في هذا الإطار الجغرافي المحدود. ومحصلة لهذا الصراع، فإن دولاً محدودة تصل إلى مرحلة التعادل أو شبه التعادل في القوة، ما يؤدي إلى قيام توازن قوى محلي، يتحكم في سلوك الدول ويضبط علاقات بعضها بعضاً، ويكون التنافس بين أقطابه أيضاً بالأساليب السلمية وينتهي بالحروب، مثله في ذلك مثل توازن القوى العالمي.

وتوازن القوى الإقليمي، مثل توازن القوى العالمي، يخضع لنفس القواعد، ويتسم بخصائص مشابهة إلى النتائج عينها تقريباً، على المستوي المحلي أو الإقليمي. ولكنه يلعب دوراً مركباً، إذ إنه يؤثر تأثيراً مباشراً في الصراع العالمي، ويؤدي إلى حسمه أحياناً. ولا توجد مبالغة كبيرة في القول إن الصراعات العالمية الكبرى تعتمد في تطوراتها ونتائجها على ما يجري في الصراعات والتوازنات المحلية.

إن هذه القاعدة أصبحت اليوم أكثر أهمية، وخاصة في وجود أسلحة نووية، إذ تراجعت فرص الحروب المباشرة والواسعة بين القوى الكبرى، أركان التوازن العالمي. فاستعوض عن ذلك بالصراعات الإقليمية المحدودة، حيث يتدخل كل طرف دولي في هذا الصراع، بقصد تحقيق مكاسب إقليمية تزيد رصيده في ميزان القوى العالمي وتحطم معسكر خصمه. فإذا تحققت المكاسب وتعددت في مناطق الصراع، فإن توازن القوى العالمي يتحول نحو الطرف المنتصر، وهو ما حدث أثناء الحرب الباردة وبعدها، في منطقة الخليج العربي ومنطقة الشرق الأوسط. ويوجد شروط عدة لهذه العلاقة، وهي:

أ. أهمية الطرف الإقليمي:

من شروط تأثير التوازن الفرعي في التوازن الرئيسي العالمي، أن يكون للطرف الإقليمي أهميته وقدراته العسكرية والاقتصادية والجغرافية، كي يستطيع أداء دوره لحساب القوى العالمية، وليحقق لنفسه مكاسب مهمة على الصعيد الإقليمي. ففي كل توازن محلي يظهر عدد من الأطراف، لكنها ليست على المستوى نفسه من الأهمية والقدرة. فبعضها لا يستطيع تجاوز الدور المحلي والاحتفاء بالقوى المحلية، لأن قدراته العسكرية أو الاقتصادية لا تمكنه من أداء دور قيادي. ففي التوازن

الإقليمي الآسيوي مثلاً، لا تستطيع دول مثل سنغافورة، أو لاوس.. القيام بدور جوهري، لأنها ذات قدرات محدودة لا تمكنها من خوض الصراع المستمر.

ب. إدراك القطب الدولي لأهمية توازن القوى الإقليمي:

تشارك الأقطاب الدولية في الصراعات الإقليمية، من أجل زيادة مكاسبها ودعم مكانتها في توازن القوى العالمي. وهي لا تخوض هذا الصراع، إلا إذا أدركت أهمية الصراع المحلي، ووجدت الطرف الإقليمي المناسب، الذي يجب دعمه، والاستفادة من دوره. وعلى الطرف الدولي، بناء استراتيجية واضحة لضمان تفوق الطرف الإقليمي في الصراع. ويُعدّ الصراع العربي - الإسرائيلي، وحرب تحرير الكويت مثالين لإبرار مسألة إدراك الطرف الدولي لأهمية الصراع الإقليمي وقدرة أطرافه.

ج. وجود مصالح مشتركة بين الطرفين الدولي والإقليمي:

هذه المصالح ذات طابع إستراتيجي، إما عسكرية أو اقتصادية أو ثقافية أو تاريخية. فمن دون وجود المصالح، يغدو التحالف بين الطرفين هشاً ومرحلياً، وكلما ارتفع مستوى هذه المصالح، كان التحالف متماسكاً وقوياً. لذلك فإن التوازن الإقليمي يلعب دوراً أساسياً وفاعلاً في توازن القوى العالمي. فإذا كانت الحرب العالمية الواسعة أصبحت مستبعدة، فإن الحروب القادمة ستأخذ الطابع الإقليمي. حيث تستطيع القوى الكبرى مواجهة بعضها خارج أراضيها ودون خسائر مباشرة تقع على مدنها وسكانها ومواردها. وهي تستطيع عن طريق التوازن الإقليمي تعديل ميزان القوى العالمي لمصلحتها، سواء بالحفاظ عليه، أو تحطيمه. إن هذا هو الدرس المستفاد الذي أفرزته الحرب الباردة، وأحد أهم الدروس من حرب تحرير الكويت، والصراع العربي - الإسرائيلي.

المدلولات الرئيسية لميزان القوى:

1. المدلول العلمي لميزان القوى:

ويعني ذلك وصف حالة ميزان القوى، أي توزيع القوة في نسق دولي معين في وقت معين، وهو أيضاً واقع يتسم فيه توزيع القوة بين الدول بالتعادل التقريبي. وفي هذه الحالة، لا توجد دولة لديها القدرة على فرض هيمنتها على باقي الدول. ولذلك، فإن التوازن يحدث، نتيجة انتظام علاقات الدول الأعضاء في المجتمع الدولي. ويشير كل من هارتمان، سبوكمان إلى أن المدلول العلمي لميزان القوى يعني توازن يتحقق بين الدول بصورة عفوية وتلقائية. حيث إنه ليس هدفاً تسعى الدول إلى تحقيقه، وإنما تسعى في الأصل إلى تحقيق هامش من التفوق بمحاولة الإخلال بالاتزان الموجود، ومن ثم، يتحقق الاتزان، نتيجة محاولة القوى الإخلال به، كلٍ لصالحه.

2. المدلول النمطي لميزان القوى:

أ. يُعدّ أكثر المدلولات حدوثاً، ويعني به ميزان القوى السياسية، وله برنامج عمل إرادي تطبقه الدولة في المجال الخارجي، تحقيقاً لهدف معين، أي أنه يرتبط بما يجب أن يكون وليس بما هو قائم فعلاً، لذلك فهو توازن مقصود ومستهدف، وقد أظهر هذا المدلول ما يعرف بسياسات ميزان القوة كأدوات دبلوماسية.

ب. يبقى هذا المدلول على التوازن الدولي، إذ لا تستطيع أي دولة أو أكثر أن تهاجم ما عداها دون أسباب مقبولة.

ج. يُعرف كاسلري - أحد وزراء الخارجية البريطانية - ميزان القوى بأنه الإبقاء على حالة من الاتزان بين أعضاء الجماعة الدولية، حيث لا تتمكن

أي من الدول من زيادة قوتها بدرجة كافية لأن تمكنها من فرض إرادتها على باقي الدول.

د. يرى جينتز أن تحقيق توازن القوى يقتضي الحيلولة دون تمكين أي دولة من أعضاء المجموعة الدولية من زيادة قواها إلى الحد الذي تصبح معه قادرة على إجبار باقي الدول مجتمعة على الامتثال لإرادتها.

هـ. تتنوع سياسات ووسائل وتقنيات تحقيق ميزان القوى من المدلول النمطي أو السياسي كالآتي:

(1) سياسة المؤتمرات: وتعني عقد سلسلة من المؤتمرات بين زعماء أو ممثلي دول مختلفة لتسوية منازعات والاتفاق على مجموعة مبادئ وصور جديدة لتوزيع القوة، وذلك في إطار فكرة الشرعية الدولية، والتي عرفها هنري كيسنجر بأنها لا تعني العدالة أو الحق، وإنما هي اتفاق دولي بشأن طبيعة الترتيبات والقواعد التي تحكم سلوك الدول في علاقاتها المتبادلة.

(2) سياسة فرق تسد: وتعمل فيها دولة ما على إضعاف الدولة المعادية من طريق: إشاعة الفرقة بينها وبين حلفائها أو الدول الموالية لها، أو محاولة الإبقاء على مجموعة من الكيانات الضعيفة في حالة تفكك وانقسام، أو العمل على تفنيت قوة كبيرة، أو عرقلة قيامها.

(3) سياسات التحالف: وتعني تجمع دولتين أو أكثر لمواجهة قوة أخرى. بمعنى الاتفاق بين دولتين أو أكثر على تدابير معينة للحماية من قوة أخرى تهدد أمن هذه الدول. وتتسم التحالفات عند تعدد القطبية بالمرونة والتبدل، فحليف اليوم عدو الغد. لذلك نجد أن من بين أسس التحالفات أن يُبقي على الدول المهزومة في حالة من القوة، تحسباً لتبدل موازين القوى الدولية، حين البحث عن حلفاء للغد عند الاختلاف مع حلفاء اليوم.

(4) سياسة حامل الميزان: ويُقصد بها إلقاء ثقل الدولة إلى جانب دولة معرضة للتهديد، هذه الدولة تُعدّ حاملة للميزان بدلاً من أن تكون إحدى كفتيه، وذلك بسبب أنها على درجة من القوة تمكنها تقرير أو التلويح بانحيازها إلى أي من المحاور المتصارعة، وشروط أن تقوم دولة ما بهذه السياسة وممارسة هذا الدور كالآتي:

(أ) أن تكون الدولة في موقع قوة في المجتمع الدولي، حيث يمكنها التأثير في علاقات القوة.

(ب) ألا يكون لهذه الدولة مصلحة سوى الإبقاء على توازن القوى للدول المتصارعة.

(ج) أن تكون هذه الدولة لديها حرية الحركة وغير مرتبطة بأي من الأطراف المتصارعة.

(5) سياسة التعويضات الإقليمية: وتتم هذه السياسة عادة بعد انتهاء حالات الحروب، ويتم فيها ضم أو تقسيم أقاليم محددة بين الدول المتصارعة، بهدف إعطاء دولة ما اقتطع منها أو حصلت عليه دولة أخرى من قبل، كما أن اقتسام مناطق النفوذ للقوى الكبرى يُعدّ جزءاً من هذه السياسة.

(6) سياسة المناطق الفاصلة (العازلة): ويُقصد بها إيجاد كيانات ضعيفة ومحيدة بين الدول القوية، بهدف تقليل احتمالات الصدام المباشر. وتستمد الدولة الفاصلة ذات الكيان الضعيف قدرتها على حماية استقلالها، على الرغم من ضعفها، بسبب إدراك الدول القوية أن أي محاولة للسيطرة عليها سيغير ميزان القوى لصالحها. الأمر الذي لن تقبله الدول الكبرى القوية الأخرى. ولكن قد تفشل هذه السياسة، إذا ما اتفق بين الدول الكبرى على اقتسام هذه الكيانات الضعيفة.

(7) سياسة التدخل وعدم التدخل: وهو أسلوب لحماية مصالح الدول المتدخلة. وقد يكون هذا التدخل دفاعياً، من خلال الإبقاء على الأوضاع الراهنة داخل الدولة المعنية. وقد يكون التدخل هجوماً، عند تغيير الوضع القائم داخل دولة ما لعدم ملاءمته للمصالح الخاصة بالدولة أو الدول المتدخلة. وفي هذه الحالة قد يكون التدخل صريحاً بصورة عسكرية، أو مستتراً من طريق العمليات السرية كالاغتيالات أو الانقلابات. وعند تطبيق سياسة عدم التدخل، فإن الهدف يكون للحفاظ على ميزان القوة بالوقوف على الحياد من نزاع معين أو حصر الحروب في نطاق ضيق أو بحماية حقوق المحايدين في زمن الحروب.

(8) سياسات التسلح ونزع السلاح والرقابة على التسلح: بتطبيق سياسة التسلح، تدخل الدول في سباق للتسلح، في محاولة للوصول إلى إحداث تفوق على بعض الدول. وهذه الحالة تحدث عندما لا يكون هناك قياس حقيقي لقوة الدولة الذاتية أو لقوة أعدائها المحتملين. ولكن قد تلجأ بعض الدول إلى نزع السلاح كسياسة لإحداث توازن القوى، إلا أن افتقاد الثقة بين الدول قد تفشل هذا النوع من السياسات. ويوجد أسلوب آخر باتباع سياسة الرقابة على التسلح، من خلال تنظيم التسلح، ووضع قيود على بعض الأنواع من الأسلحة. ونظراً إلى صعوبة عمليات التفتيش والتحقق، فتوضع هذه السياسة في المرتبة نفسها لسياسة نزع السلاح.

(9) سياسة الإثناء: وتتبع هذه السياسة، عندما تسعى دولة ما للإخلال بميزان القوة، فتحاول بعض الدول الكبرى إثناءها عن هذا الإخلال. ويتبع في هذه

السياسة أسلوبان للتطبيق هما: دبلوماسية الإثناء أي الإثناء بالإقناع، وإستراتيجية الإثناء أي الإثناء بالإكراه.

(10) سياسة الحرب: وتُعَدّ الحرب أو استخدام القوة العسكرية هي الملاذ الأخير لتحقيق توازن القوى، إذا ما فشلت كل أو بعض السياسات السابقة في تحقيق هذا الهدف.

3. المدلول الأيديولوجي لميزان القوى:

يذهب المعنى الأيديولوجي إلى وصف السياسات التبريرية والدعائية لدولة ما. فعندما يكون الميزان في صالحها، فإنها تدعي وجود توازن للقوى لتبرير المحافظة عليه. وعندما يكون الأمر عكس ذلك، فإنها تحاول تبرير سياستها الهادفة إلى تعديل الوضع القائم بالادعاء باختلال توازن القوى ووجوب تعديله. فتتخذ الدول، في هذه الحالة، ميزان القوى كسند للدفاع عن صورة معينة، لتوزيع القوة في المجال الدولي، أو التنكر لها على مقتضى مصالحها الوطنية.

الفصل الحادي عشر

أثر الجغرافيا في العمل السياسي والعسكري

الفصل الحادي عشر

أثر الجغرافيا في العمل السياسي والعسكري

الموقع الجغرافي

يصف مصطلح المكان الصفات الطبيعية للأرض من حيث الانحدار، الارتفاع، والانخفاض، في حين يصف مصطلح الموقع توزيعها بالنسبة للدول، أو الظاهر الأخرى فيمكن تحديد موقع الدولة المطلق بالنسبة لخطوط الطول ودوائر العرض، وبالنسبة لمواقع الدول الأخرى والمظاهر الجغرافية، كالبهار، الأنهار، والجبال مثلا.

والموقع الجغرافي علاقة كبيرة بالسياسة الدفاعية أو السياسة الهجومية التي تتبعها الدول. فتسعى الدول القارية كجمهورية روسيا مثلا إلى تعزيز قوتها البرية، في حين تسعى دول بحرة كبريطانيا مثلا إلى تعزيز قوتها البحرية. والموقع الجغرافي النسبي أما أن يكون متوسطا يسهل عملية الاتصال بين الدول، وإما أن يكون هامشيا بعيدا، يعرقل عمليات الاتصال.

والموقع الجغرافي ذو أهمية كبيرة في أوقات الحرب والسلم على حج سواء، وتعتمد كثير من أنشطة، وسلوك الدول اعتمادا كبيرا على موقعها الجغرافي، ولذلك لا بد من التركيز على دراسة الموقع الجغرافي لتفسير سلوك الدول. فتزدهر الدول التي تحتل موقعا جغرافيا متوسطا، اقتصاديا في أوقات السلم، من خلال سيطرتها على طرق التجارة الدولية، في حين تستغل تلك الدول موقعها الجغرافي في أوقات الحرب لغايات السيطرة والتفوق العسكري، وتكتسب الممرات المائية، والمضائق، أشباه الجزر، مصبات الأنهار، الأودية، والجزر التي تقع على طرق المعابر المائية، أهمية استراتيجية كبيرة. ومثال ذلك مضيق دوفر الإنجليزي الذي وقف حائلا بين الجيوش الألمانية والقوات الإنجليزية في الحرب العالمية الثانية. كما لعب مضيق مسينا، الذي يفصل جزيرة صقليا عن البر الإيطالي، دورا استراتيجيا مهما في نفس الحرب، حيث عبرته جيوش دول التحالف في طريقها لألمانيا. ومن الممرات المائية التي تتمتع بأهمية استراتيجية عالمية، مضيق ملاقا الذي يفصل بين جزيرتي سومطره التابعة لإندونيسيا، ودولة ماليزيا الحديثة، وكذلك مضيق البسفور والدردينيل التركية التي تصل البحر الأسود بالبحر المتوسط.

وتتمتع بعض الجزر العالمية بمواقع جغرافية ذات أهمية عسكرية كبرى، سعت الدول المتحاربة إلى السيطرة عليها، لتحقيق تفوق استراتيجي وتكتيكي في الحرب.

فقد كان هجوم اليابان على جزيرة أوهاو في جزر هوائي أثر كبيرا في قرار الولايات المتحدة استخدام القوة النووية ضد اليابان. وقد احتل الألمان جزيرة كريست اليونانية في الحرب العالمية الثانية لأهميتها الاستراتيجية. وقد كان لاحتلال اليابانيين لمصب نهر ايرودي، الذي تقع عليه مدينة رانجون عاصمة بورما، أثر كبيرا في نجاحهم بالسيطرة على المستعمرة الإنجليزية. وقد سعى الجيش النازي للسيطرة على مدينة ستالينجراد التي تقع على نهر الفولغا، من أجل استخدام النهر للتوغل في أعماق روسيا والوصول إلى بحر قزوين.

كما أن الموقع النسبي للدول يؤثر على حجم قوتها، فالدول التي تقع جغرافيا في ظل الدول العظمى كالمكسيك مثلا، والتي تقع في ظل الولايات المتحدة، تضطر للدوران في فلك تلك القوى العظمى، التي تحدد من طموحاتها في بناء قوة عسكرية ضخمة. وينطبق ذلك بطبيعة الحال على كندا الجار الشمالي للولايات المتحدة. والموقع المطلق للدول الأوروبية كان له الأثر الأكبر في بناء قوتها الاقتصادية والعسكرية. فمعظم الدول الأوروبية مدينة في بناء قوتها العسكرية والاقتصادية إلى موقعها الجغرافي المطلق في نطاق العروض الوسطى المعتدلة.

وفي المقابل فإن وقوع أجزاء شاسعة من الاتحاد السوفيتي سابقا، وجمهورية روسيا الاتحادية حاليا، في العروض العليا الباردة حد من قدراتها الاقتصادية والعسكرية. ووقوع معظم أراضي الوطن العربي في العروض المدارية الحارة جعل معظم أراضيها صحراوية قاحلة، لا تساعد على إقامة قوة اقتصادية كبيرة.

وبالرغم من غنى بعض أجزاء الوطن العربي بالنفط، إلا إنه ولأسباب جغرافية وجيولوجية يقع خارج نطاق وجود الفحم الحجري، الذي تتواجد خاماته بين خطي عرض (40-60) درجة شمالا. ويحدد الموقع الجغرافي طبيعة الظروف المناخية السائدة في الدولة والتي تحدد بالتالي مدى توفر المياه التي تعتبر واحدة من أهم العناصر الجغرافية للقوة.

شكل الدولة

يؤثر الشكل الجغرافي على توجيه سياستها الخارجية، فأما أن يمنحها ذلك الشكل قوة تعزز مكانتها العسكرية، أو أن يضعف قوتها ويهدد صمودها، ويمكن تصنيف الأشكال الخارجية للدول إلى ما يلي:

الشكل الطولي:

وهي الدول ذات الامتداد الطولي الشمالي - الجنوبي مثل تشيلي، النرويج، السويد، توجو، جامبيا، إيطاليا، وملاوي، أو ذات الامتداد الشرقي - الغربي مثل تشيكوسلوفاكيا، روسيا، وبنما. ويبلغ طول تشيلي ستة أضعاف عرضها تقريبا (4160 إلى 160 ميل تقريبا). فبالإضافة إلى مشاكل السيطرة الداخلية التي يفرضها مثل هذا الامتداد الطولي، فإن هذا الشكل يقف عائقا كبيرا أمام عملية الدفاع عن حدود تلك الدولة في فترات الحرب، ويتوجب على القوات المسلحة لتلك الدول حماية حدود طويلة.

في ظروف جغرافية تحرمها من العمق الجغرافي الاستراتيجي. وبرغم الامتداد الطولي لجمهورية روسيا الاتحادية، غير إن العمق الاستراتيجي الذي تتمتع به الدول نظرا لزيادة النسبة بين عرض الدولة وطولها، يقل من سلبيات شكلها الطولي. غير أن للشكل الطولي لدول وخاصة تلك التي تمتد باتجاه شمالي - جنوبي على طول عدد كبير من دوائر العرض فوائد اقتصادية عظيمة تتمثل في تنوع الموارد الزراعية نظرا لتعدد المناخات والأقاليم المناخية، ونتيجة لزيادة فرص توفر الثروات المعدنية التي قد تنعكس بمرود اقتصادي جيد، ينعكس على القوة العسكرية والاقتصادية للدولة.

الشكل المتراص:

وهو الشكل المتماسك المندمج الأطراف، الدائري أو المربع، ويمتاز هذا الشكل بقصر طول الحدود قياسا بالمساحة الكلية لأرض الدولة. أو انخفاض النسبة بين أطوال الحدود ومساحات الدول. ويسهل هذا الشكل عملية السيطرة على أجزاء الدولة. ومن الأمثلة العالمية على الدول المتراصة مثلا فرنسا، ومن الدول العربية مثلا مصر وليبيا. ويسهل هذا الشكل على الجيوش السيطرة الداخلية على أنحاء الدولة كما يسهل عملية الدفاع عنها ضد أي عدوان خارجي. كما يوفر الشكل المتراص فسحة واسعة، وعمقا استراتيجيا للمناورة العسكرية في حالة الحرب.

الشكل المشتت أو المجزء أو المقطع:

وفيه تتكون الدولة من عدد من الأجزاء غير المتصلة، أو المنفصلة عن بعضها البعض بواسطة البحر، أو بواسطة دول أخرى. ومن أمثلة تلك الدول إندونيسيا، التي تتكون من جزر جاوه، سومطره، سلويسي، كالمنتان، شرق تيمور، وغرب أريان، بالإضافة لعدد آخر من الجزر الصغيرة. وماليزيا التي تتكون من شبه جزيرة الملايو، وجزء من جزيرة بورني التي تضم مقاطعتي صباح وسراوك. والباكستان قبل أن تستقل عنها بنغلادش، وإيطاليا التي تتكون من البر الإيطالي، وجزيرتي صقليا وسردينيا. ومن مساوي هذا الشكل الخارجي للدول صعوبة السيطرة والدفاع

عنه ضد أية تهديد خارجي، كما يسهل قطع أي جزء من هذه الأجزاء عن المركز الأم في حال الحرب.

الشكل غير المنتظم:

وفيه تتداخل بعض أقاليم الدولة الجغرافي داخل دول أخرى على شكل قطاعات وأصابع، أو انبعاج حدودها للداخل ليسمح لإقليم دملة مجاورة بالتغلغل داخل حدودها. ومن أمثلة هذا الشكل حدود دولة الكونغو الديمقراطية (زائير سابقا) الدنوبية الشرقية التي تمتد على شكل إصبع (إقليم شابا - أو إقليم كاتنجا ذو الأهمية الاقتصادية) داخل حدود دولة زامبيا (روديسيا الشمالية سابقا). والامتداد الغربي لدولة الكونغو الديمقراطية، الذي أتاح لها مجال الاتصال مع المحيط الأطلسي.

وبالإضافة إلى الأهمية الاستراتيجية التي يتمتع بها هذا الإقليم الطولي الذي يمتد بين جمهورية الكونغو (الكونغو برازافيل سابقا) وجمهورية أنغولا، فهو أيضا يضم العاصمة كينشاسا. ويمتد قطاع كابريفي من دولة نامبيا (جنوب غرب إفريقيا سابقا) نحو الشرق ليصل إلى نهر الزمبيزي، ويمتد بين دولتي زامبيا وبتسوانا. ومن الأمثلة العالمية الأخرى على هذا الشكل دولة بورما، التي يتوغل الشريط الجنوبي منها داخل شبه جزيرة الملايو. إن عدم الانتظام في الشكل الخارجي للدول يخلق إرباكا في عملية الدفاع عن تلك الأجزاء التي تمتد داخل الدول الأخرى في حالة الحرب، فهي بالإضافة إلى أنها تمتد داخل حدود دول قد تكون غير صديقة، فإنها تفتقر إلى العمق الاستراتيجي، ويسهل قطعها عن الدولة الأم. ويظهر ذلك الخطر حتى من خلال الثورات الداخلية، وحركات التمرد والعصيان، حيث يصعب على الحكومة المركزية إخماد الثورات وحركات العصيان داخل تلك الأقاليم. وهذا ما حدث بالفعل في الكونغو الديمقراطية، عندما حاول إقليم شابا الغني بالخدمات المعدنية والذي يعد عصب الحياة الاقتصادية فيها، الانفصال عنها بعد الاستقلال.

الشكل المحتوي:

والدول المحتواة هي التي تحتويها دول أخرى، بحيث تكون تلك الدول محاطة، ومن جميع جهاتها بدولة أخرى. ومن أمثلة تلك الدول دولة الفاتيكان، التي تقع في قلب روما، ودول الأفارقة الزوج، في قلب جمهورية جنوب أفريقيا الوسطى (ليستو، سوازي لاند، ترانسكي، جسكي، وفندا) ولا يخفى على أحد الوضع الاقتصادي والعسكري الهش، الذي تعيشه تلك الدول من خلال كونها تحت رحمة الدول التي تقع ضمن حدودها.

الدول المخلقة:

تختلف الدول المغلقة عن الدول المحتواة، والتي سبق وتحدثنا عنها، في أن الأولى محاطة بالحدود البرية لدولة أخرى من جميع الجهات، أما الدول المغلقة فهي التي تفتقر إلى منفذ بحري، ويحيط بها عدد من الدول. ويضم علام اليوم عددا كبيرا من الدول المغلقة (Land locked States) منها ما هو في قارة أفريقيا مثل: مالي، النيجر، تشاد، بركينا فاسو، جمهورية إفريقيا الوسطى، أوغندا، رواندي، بوروندي، ملاوي، زامبيا، زيمبابوي، وبتسوانا وأثيوبيا. ومنها في آسيا مثل أفغانستان، نيبال، بوتن، منغوليا، ولاغوس واوزبكستان طاجكستان وقرغيزيا بينما تتصل كازاخستان وأذربيجان وتركمانستان ببحر قزوين المغلق. ومنها في أوروبا مثل النمسا، سويسرا جمهورية التشيك، جمهورية سلوفاكيا، وهنغاريا وأخرى في أمريكا اللاتينية وهي: بوليفيا، والبراغواي.

وقد أنشئت تلك الدول وحرمت من المنافذ البحرية إما عقابا لها ورغبة في القضاء على إمكانياتها في إنشاء قوى عسكرية واقتصادية عظيمة، أو من أجل إقامة دول لمجموعات عرقية وقوميات ترغب في حكم نفسها بنفسها. وفي الوطن العربي حرم الأردن والعراق من منافذ بحرية تمنحها أهمية استراتيجية وقوة، إضافة إلى قوتها. ولذلك يمكن اعتبار كل من الأردن والعراق من الدول العربية شبه المغلقة. وتفتقر كل الدول المغلقة إلى عنصر الانفتاح على البحر الذي يمنحها قوة عسكرية واقتصادية كبيرة زمن الحرب. وعند قياس معدل الدخل القومي GNP ، وجد إن الدول المغلقة من أقل دول العالم دخلا. وغالبا ما تكون الدول المغلقة دول حماية للدول المحيطة بها، أو خاضعة لسيطرتها.

حجم الدولة (مساحتها)

حجم الدولة هو عنصر آخر من عناصر قوتها جغرافية الظاهرية. وليس هناك حجم معين يمكن اعتباره الحجم المثالي للدول، والذي يجب على الدول أن تسعى لتحقيقه. غير أنه يمكن القول إن الحجم الصغير للدول هو أحد عوامل ضعفها. غير أن المعادلة ليست عكسية دائما، بمعنى إنه ليس بالضرورة أن الحجم الأكبر للدول هو الأفضل دائما. فقد تحتل الدول مساحات جغرافية كبيرة أو صغيرة. ولمساحات الدولة أهمية استراتيجية قصوى.

ويرى أصحاب الفكر الجيوبولتيكي الألماني أن البقاء في المستقبل هو للدول ذات الرفع الجغرافي الواسعة. بل إن دول العالم ستدرك أن اتساع الرقعة الجغرافية هي إحدى دعائم قوتها العسكرية. وهذا ما دفع الجغرافي جون هيرز إلى وصف الدول الصغيرة الحجم بأنها كيانات هشة ضعيفة، تفتقر إلى مقومات الدفاع عن نفسها. وعليه فإن عناصر بقائها تكمن في طلب الحماية والعون من جيرانها، من

خلال الارتباط معهم في تكتلات وأحلاف عسكرية إقليمية ودولية. وهذا ما أطلق عليه هيرز اسم العالمية في نظريته الدولة الإقليم.

وتتباين الدول في حجمها بين الدول الكبيرة جدا التي تزيد مساحتها عن 2.5 مليون كم مربع كالاتحاد السوفيتي سابقا، الصين، كندا، والولايات المتحدة، ودول كبيرة الحجم (بين 2.5-350.000 مليون كم مربع) كفرنسا، المكسيك، ودول متوسطة الحجم (150.000-350.000 مليون كم مربع) مثل بريطانيا وبولندا، ودول صغيرة (أقل من 250.000 كم مربع) مثل لبنان وبورندي، ودول صغيرة جدا (Ministates) مثل قبرص وبروناي، ودول صغيرة جدا جدا (Microstates) مثل إمارة موناكو، التي لا تزيد مساحتها عن كيلو متر واحد (234 هكتار) والفاتيكان (44 هكتار).

ولاتساع الرقعة الجغرافية للدولة أهمية خاصة في فترات الحرب وهي ما أطلق عليها علماء الجيوبولوتيك الألمان اسم "الدفاع في العمق" (Defence in Depth). فقد انهارت الدول ذات المساحة الصغيرة أمام الدول الكبيرة في الحرب العالمية الثانية. فقد استسلم الجيش الهولندي أمام الجيش الألماني بعد أربعة أيام من بدء الهجوم عليه. في حين صمد الروس الذين استندوا إلى عمق استراتيجي كبير شهورا طويلة أمام جيش هتلر، بل إنهم اجتذبوا جحافل الجيش الألماني إلى أعماق بلادهم مثلما هزموا نابليون بونابرت عام 1812. وقد نحج الروس في استخدام مبدأ تسليم الأرض لكسب الوقت نظرا لاتساع العمق الجغرافي لبلادهم. كما فشل اليابانيون في إيقاع هزيمة نهائية بالصينيين في الحرب نفسها، لنفس السبب أيضا.

وفي ظل التطور التقني الضخم الذي شهده العالم فقد أدرك العلماء أن حجم الدول ومساحتها لم يعد يقاس فقط بالكيلومترات المربعة، أو الأميال المربعة. بل إنه أصبح بالإمكان قياس حجم الدول بالوقت المستغرق في قطع المسافة بين أطراف الدولة، والتكاليف والجهد المبذول في قطع تلك المسافات. وعليه فإنه يمكن القول إن دولة مثل السعودية مثلا، هي أصغر من جيبوتي إذا استخدمنا المقاييس الأخيرة في قياس الحجم، وليس الكيلو مترات المربعة. ولذلك نظرا لما تشهده السعودية من تطور تقني في وسائل وشبكات النقل التي تفتقر إليها جيبوتي.

وعلاوة على العمق الاستراتيجي أو (الدفاع في العمق) الذي يوفره الحجم الكبير للدول، فإنه يوفر فرص أكبر لتعدد الموارد والثروات الطبيعية والبشرية. وتكاتف الجهود والإمكانات والقدرات لصنع قوة استراتيجية وعسكرية يحسب لها الحساب. وقد تواجه الدول الكبيرة الحجم مثلا مشكلة استغلال الموارد الاقتصادية فيها نظرا لقلة رؤوس الأموال.

الحدود السياسية

الحدود والتخوم السياسية هي مرآة قوة الدولة أو ضعفها. وهي أحد مظاهر قوتها المورفولوجية أو الظاهرية. هذا ما قاله أبو الجغرافيا السياسية فردريك راتزل. وتختلف الحدود عن التخوم في إن الأخيرة هي عبارة عن مناطق جغرافية واسعة تفصل بين الوحدات السياسية. وتمتاز الحدود في أنها خطوط محددة ودقيقة، تفصل بين الدول على الخريطة. وقد كانت التخوم تفصل بين الدول الحديثة. كما كانت التخوم ولا زالت تفصل بين العشائر والقبائل البدوية.

والحدود حسب مظهرها على الخارطة، إما أن تكون حدودا هندسية أو غير هندسية. والحدود الهندسية هي تلك التي تتبع خطوطا مستقيمة، وزوايا محددة، لتصنع أشكالاً هندسية تفصل بين الدول. ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى إن معظم الحدود التي تفصل بين الدول العربية هي حدود هندسية الشكل، رسمتها الدول المستعمرة عند انتهاء الحرب العالمية الأولى. وقد تبعت بعض تلك الحدود خطو الطول ودوائر العرض، ويطلق على هذا النوع من الحدود اسم الحدود الفلكية. ويمكن تصنيف الحدود حسب طبيعتها إلى حدود طبيعية، وأخرى بشرية. والحدود الطبيعية هي تلك الحدود التي تتبع مظهرا جغرافيا طبيعيا كالأنهار، والجبال والبحيرات. في حين تمتاز الحدود البشرية في أنها تتبع مظاهر جغرافية من صنع الإنسان كالطرق، القنوات، السكك الحديدية، أو الحدود العشائرية أو الدينية التي تفصل بين الأقاليم السياسية.

ومن أمثلة الحدود الطبيعية التي تفصل بين الدول العربية نهر الأردن الذي يفصل بين الأردن وفلسطين، ونهر اليرموك الذي يفصل بين الأردن وسوريا. ومن الأمثلة العالمية، الحدود بين الأرجنتين وتشيلي، حيث تشكل جبال الأنديز الحدود بين البلدين. وتعتبر الحدود التي تفصل بين تركيا وسوريا مثالا على الحدود البشرية، والتي رسمت موازية لسكة حديد بغداد، تبعا لاتفاقية عقدت بين فرنسا وتركيا عام 1926. كم اتبعت الحدود بين الجزائر وتونس طريق تجارة الكرفان التي كانت تصل بين الساحل وداخل إفريقيا.

ولكل نوع من أنواع الحدود سلبيات وإيجابيات، نتحدث هنا عن تلك التي لها تطبيقات عسكرية واستراتيجية. فلا بد من التركيز على أهمية الحدود الطبيعية كحدود واضحة سهلة التحديد. وهي علاوة على ذلك ذات أهمية استراتيجية كموانع تساعد في الدفاع عن الدولة. فتقف الجبال كموانع طبيعية أمام أي غزو عسكرية من الدول المجاورة، وهي بذلك تسهل عملية الدفاع عنها وحمايتها. وهي أيضا مواقع استراتيجية مسيطرة.

وتقف الأنهار كموانع طبيعية صعبة الاجتياز أمام الجيوش مهما كانت صغيرة. فالوقت والجهد والإمكانات اللازم توفرها لاجتياز حدود طبيعية كالأنهار مثلا هي أكبر بكثير من تلك اللازمة لاجتياز حدود برية. ولذلك توجب على القوات المصرية بناء جسور ومعابر عائمة على قناة السويس عند اجتيازها في حرب رمضان عام 1973. ولولا وجود العائق الطبيعي الممثل بالقناة لكانت عملة الاجتياز أسهل واقل تكلفة.

وقد تكون الحدود الطبيعية مصدر قلق ومشاكل للدول المتجاورة. فقد يؤدي تغيير مجرى النهر إلى حدوث مشاكل بين الدول، تؤدي أحيانا إلى نشوب الصراعات العسكرية بينها. وتذكر في هذا المجال ما أحدثه تغيير نهر الأردن مجراه باتجاه الغرب عام 1982 ليعضف للأراضي الأردنية بعض الهكتارات من أراضي فلسطين، مما أدى إلى نشوب صراع سياسي بين الأردن و (إسرائيل) حول تلك الأراضي. وقد تختلف الدول حول تحديد أماكن تقسيم خطوط المياه على قمم الجبال. وتحدث تلك النزاعات بسبب تغيير خطوط تقسيم المياه، التي عادة ما يتفق على كونها تمثل خطوط الحدود بين الدول. وتتغير أماكن تلك الحدود نتيجة ما يعرف بالاسر النهري لبعض روافد الأنهار في قمم المرتفعات الجبلية.

أما الحدود البشرية، أو الحدود التي تتبع مظاهر من صنع الإنسان فهي إما أن تلعب دورا إيجابيا أو سلبيا في عملية الدفاع عنها أو اجتيازها. فتقف الحدود البشرية الممثلة بمجموعات من القرى كتلك التي تصل بين سوريا ولبنان مثلا، أو تلك التي فصلت بين الضفة الغربية وفلسطين المحتلة عام 1948، تقف حاجزا أمام الجيوش الغازية. في تسهل عمليات الدفاع عنها للجيش المتحصن، لما تشكله المراكز والتجمعات العمرانية من عوائق في وجه حركة الجيوش.

العمق الجغرافي الاستراتيجي

إن العمق الجغرافي هو أحد أهم عناصر قوة الدولة إضافة إلى حجمها وشكلها، وصفات مظاهرها التضاريسية والمناخية، وطبيعة حدودها السياسية. ويختلف معيار الحجم أو المساحة عن العمق الجغرافي ولو إنهما مترابطان. فهناك دول كبيرة الحجم، ولكنها تفتقر للعمق الجغرافي، بسبب الشكل الجغرافي للدولة. فيزيد طول دولة تشيلي التي تبلغ مساحتها نحو 373.000 كم² على ستة أضعاف عرضها، وبالتالي فهي تفتقر للعمق الجغرافي برغم اتساع مساحتها.

ويصف مصطلح العمق الجغرافي، أو كما يوصف عادة بالعمق الاستراتيجي، المنطقة الجغرافية، أو المسافة التي تفصل بين الجيوش المتحاربة. وتفتقر الدول التي تصل مراكزها الحيوية إلى حدودها الخارجية، إلى العمق الجغرافي. والمراكز الحيوية هي التجمعات السكانية والاقتصادية ذات الأهمية، والتي يؤدي تدميرها إلى

تعطيل اقتصادها وإضعاف قدراتها، وبالتالي هزيمتها. وقديما كانت تلك المسافة تقاس بالكيلو مترات، في حين إن التطور الذي حدث على سبل المواصلات، وعلى تكنولوجيا الأسلحة، أوجب على الجيوش قياس مدى عمقها الجغرافي بالوقت المستغرق في قطع المسافات بين الجيوش المتحاربة. وبالطبع فإن الزمن المستغرق يصف ضمنا الجهد والتكاليف المبذول لقطع تلك المسافات. والزمن المستغرق في قطع المسافات يتأثر بطبيعة الأرض أو بصفاتها الجغرافية، ويمدى سهولة الاتصال بين أجزائها، من حيث توفر شبكات النقل، سواء كانت طرق برية أو سكك حديدية. ويتيح العمق الجغرافي للدول التي تملكه، إمكانية المناورة في القتال، وإعادة تنظيم القوات، من خلال الانسحاب التكتيكي داخل أراضيها. كما يمكنها، ومن خلال جر القوات المعادية إلى السطح الجغرافي الذي يعرفه الجنود ويدركون خفاياه ومميزاته. فقد استدرج الجيش السوفيتي القوات الألمانية في الأراضي الروسية إبان الحرب العلمية الثانية، حيث المواقع الأماكن الجغرافية المألوفة لعناصر الجيش الروسي. وتساعد هذه الاستراتيجية الجيوش المدافعة على استغلال عناصر البيئة الطبيعية والبشرية في أقاليمها الجغرافية، من خلال الحصول على المعونة المادية والمعنوية والبشرية للجيش المدافع على أرضه وبين سكانه.

كما يتيح العمق الجغرافي للدول انتهاج استراتيجية الدفاع في العمق. والدفاع في العمق استراتيجية تنتهجها الدول ذات المساحات الواسعة والعمق الجغرافي الكبير، من خلال الانسحاب للداخل لامتصاص ضغط القوات المعادية بلا من مواجهتها بعنف، لمنع تقدمها. فقد أثبتت التجارب إن اتباع الاستراتيجية الأخيرة قد ليحق بالقوات الدافعة خسائر فادحة، يمكن تفاديها إذا تمكن الجيش المدافع من امتصاص قوة الهجوم من خلال الانسحاب داخل أراضيها. فقد انسحب الجيش الروسي أمام زخم الهجوم النابليوني عام 1812، للتقليل من حجم الخسائر.

ويتيح العمق الجغرافي الكبير للدول إمكانية نقل السكان وترحيلهم بعيدا عن ميادين المعارك، وتوطينهم في أماكن بعيدة أكثر أمنا واستقرارا. والدول ذات العمق الجغرافي الكبير لديها الإمكانية والقدرة على حماية تجمعاتها السكانية ومراكزها الحيوية التي تكون في الغالب بعيدة عن جبهة المعركة بسبب العمق الجغرافي الكبير. وتفتقر الدول الصغيرة الحجوم لمثل تلك الخاصية، حيث تعني هزيمة قواتها خسارة الحرب برمتها، في حين يعني ذلك بالنسبة للدول الكبيرة الحجم ذات العمق الجغرافي الكبير، خسارة المعركة.

العلاقة بين العمق الجغرافي والمساحة

تمكن باحثو الجغرافيا السياسية والعسكرة ومنم خلال إجراء دراسات تصنيفية على التعمق الجغرافي للدول، من وضع طرق واضحة وسهلة لقياس العمق الجغرافي. فقد أدرك هؤلاء طبيعة العلاقة بين حجم الدولة أو مساحتها وبين عمقها الجغرافي الاستراتيجي.

غير إن شكل الدولة له تأثير واضح على العمق الجغرافي الذي تمتلكه. وإن أفضل شكل يحقق العمق الجغرافي هو الشكل المتراص ، وإن أفضل شكل متراص، أو المظهر المثالي للشكل المتراص هو الشكل الدائري. ولذلك فإنه يجب الأخذ بعين الاعتبار شكل الدولة، إضافة لمساحتها عن حساب عمقها الجغرافي. ولذلك فإن حساب نصف قطر الدولة لو كان لها شكلا دائريا، هو العنصر الأهم في حساب عمقها الجغرافي.

وكما هو معروف فإن نصف قطر الدائرة يزداد كلما زادت مساحتها، أي إن العلاقة بينهما طردية. إلا أن نسبة الزيادة بينها ليست ثابتة، حيث أن مساحة الدولة تزداد بمعدل أكبر من تزايد نصف قطرها. فتحتاج أي زيادة في نصف القطر إلى زيادة أكبر في المساحة. ولحساب عمق الدول يجب حساب طول نصف قطرها، فيما لو كانت ذات شك دائري. فالعملية الحسابية من الناحية النظرة هي إعادة تشكيل لمظهر وشكل الدولة الخارجي بحيث نجعله دائريا دون زيادة أو نقصان في مجمل مساحتها الواقعية.

ولتحقيق ذلك يجب إخراج طول نصف قطر الدائرة عن طريق المعادلة التالية:

$$م = نق \times ٢$$

$$حيث م = المساحة (مساحة الدولة)$$

$$نق = ٢ = نصف قطر الدائرة$$

$$ط = ثابت النسبة التقريبية وهي تعادل 3.14$$

وكلما زاد طول نصف القطر، أو الرقم الناتج، دل ذلك على تمتع الدولة بعمق جغرافي دفاعي أكبر، والعكس صحيح. وعند تطبيق هذه المعادلة على الأقطار العربية تم تقسيمها إلى ثلاث مجموعات هي:

المجموعة الأولى:

دول ذات عمق جغرافي قليل هي: لبنان التي بلغ نصف قطرها لو كان لها شكلا دائريا نحو 57.69 كم، قطر 60 كم، الكويت 75.32 كم، جيبوتي 85 كم، الأردن 168 كم، والإمارات العربية المتحدة 171 كم.

المجموعة الثانية:

دول ذات عمق جغرافي متوسط كالبحرين 215.28 كم، سوريا 242.8 كم، وتونس 228 كم، عُمان 294 كم، العراق 372 كم، المغرب 382 كم، والصومال 450 كم.

المجموعة الثالثة:

دول ذات عمق جغرافي كبير مثل مصر 564.8 كم، وليبيا 748 كم، والسعودية 837 كم، والسودان 893.3 كم، والجزائر 870.9 كم، وموريتانيا 572 كم.

العلاقة بين العمق الجغرافي وطول الحدود والمساحة

يرتبط العمق الجغرافي الاستراتيجي بالعلاقة بين طول الجود، والمساحة الجغرافية التي يجب الدفاع عنها. فكلما زاد طول الحدود التي يجب الدفاع عنها، كلما كان العمق الجغرافي المطلوب أكبر. وكلما قلت النسبة بين طول الحدود والمساحة التي يدافع عنها الجيش، فإن العمق الجغرافي يقل، وتزداد أعباء الدفاع عنه. وبعبارة أخرى فإنه يمكننا القول إنه كلما زاد طول حدود الدولة فإنها تحتاج إلى عمق جغرافي أكبر للدفاع عن تلك الجود، وكلما قل المجموع الإجمالي لطول الحدود فإن الجيش يحتاج إلى عمق جغرافي أقل. وهناك ارتباط وثيق بين طول الحدود والمسافة الكلية للدولة، والعمق الجغرافي الذي يحتاجه الجيش للدفاع عن تلك الدولة. فكلما زادت النسبة بين طول الحدود والمساحة التي يدافع عنها الجيش دل ذلك على وجود عمق استراتيجي كبير، وكلما قلت النسبة، فإن ذلك يعني إن العمق الاستراتيجي للدولة هو أقل. ويتم قياس حجم العمق الجغرافي للدولة عن طريق قياس معامل انحراف شكل الدولة عن الشكل الدائري. ويمكن استخراج هذا المعامل عن طريق حساب نسبة طول الحدود الدولية إلى مساحة الدولة لو كان لها شكلا دائريا، ويتم ذلك عن طريق تطبيق المعادلة التالية:

طول حدود الدولة

$$100 \times \frac{\text{مساحة الدولة في شكلها الدائري}}{\text{طول حدود الدولة}}$$

ويكون الناتج نسبة طول الحدود إلى المساحة، وكلما زاد الرقم الناتج، دل ذلك على انحراف شكل الدولة عن الشكل الدائري، وبالتالي قلة العمق الجغرافي لها. وقد يكون الناتج نسبة مئوية كأن نقول إن نسبة طول الحدود إلى المساحة (أو معامل انحراف شكل الدولة عن الشكل الدائري) يساوي 1.8 % في الأردن، أو أن نقول إن نسبة طول الحدود إلى المساحة في الأردن هي 1: 54، أي إن كل 1 كم من الحدود يدافع عن 54 كم مربع من المساحة. ففي الحالة الأولى (النسبة المئوية، حيث يتم ضرب ناتج قسمة طول الحدود على مساحة الدولة $100 \times$) نجد إن العمق الجغرافي

يزيد مع انخفاض النسبة بينما يزيد العمق الجغرافي مع زيادة الرقم وانخفاض النسبة في الحالة الثانية.

ولمزيد من الإيضاح نقول إن دولة تبلغ النسبة بين طول حدودها ومساحتها 1: 50 تتمتع بعمق استراتيجي أكبر بأربعة أضعاف دولة تتحدر تلك النسبة فيه إلى 1: 10. وعليه فإن الدولة الأولى تحتاج إلى جيش أقل لحماية حدودها من الدولة الثانية، ذلك أن كل كيلو متر من حدود الدولة الأولى يحمي 50 كم من مجمل مساحتها، في حين يدافع الكيلو متر الواحد عن 10 كم مربع فقط في الدولة الثانية. أما في حالة النسبة المئوية أو معدل انحراف شكل الدولة عن الشكل الدائري فإن الدولة التي ينحرف شكلها عن الشكل الدائري أقل، هي التي تتمتع بعمق جغرافي أكبر.

ولتأكيد هذه الحقيقة نورد مثال العلاقة بين مساحة وطول حدود الاتحاد السوفيتي السابق. إن لجمهورية روسيا الاتحادية وللاتحاد السوفيتي السابق حدود طويلة جدا تتصل مع 12 دولة، ويزيد طولها عن 60.000 كم تمتد على طول 170 درجة طولية، مما يعني حاجة الاتحاد السوفيتي السابق إلى جيش ضخم لحماية حدوده الدولية الطويلة إلا أن المساحة الإجمالية للاتحاد السوفيتي السابق والبالغة نحو 1.0760.000 كم مربع، (أكبر من مساحة أمريكا اللاتينية وثلاثة أضعاف مساحة الولايات المتحدة) جعلت عمقه الجغرافي كبير برغم طول الحدود.

وعند تطبيق المعادلة على الدول العربية أمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات

هي:

المجموعة الأولى:

دول ذات معامل انحراف قليل عن الشكل الدائري تمتاز بعمق جغرافي كبير وإمكانيات جغرافية افضل مثل: السعودية 0.31 %، ليبيا 0.35 %، موريتانيا 0.53 %، مصر 0.49 %، والسودان 0.21 %.

المجموعة الثانية:

دول ذات معامل انحراف متوسط كالعراق 0.78 %، المغرب 0.81 %، الصومال 0.79 %، اليمن (0.95 %، 0.99 %)، والأردن 1.8 %، وتونس 1.4 %، الإمارات العربية 1.87 %، وسوريا 2.08 %.

المجموعة الثالثة:

دول ذات معامل انحراف كبير مثل لبنان 6.3 %، الكويت 5.8 %، قطر 5.4 %، وجيبوتي 5.9 %.

أما فيما يتعلق بالنسبة بين طول الحدود والمساحة، فقد تم تطبيق ذلك على الدول العربية. فكانت النسبة في الأردن 1: 54، وهي نسبة 1681.5 كم هي طول الحدود السياسية، إلى نحو 90.944 كم ٢ هي مساحة الدولة. أما في سوريا فقد بلغت النسبة 1: 28 حيث بلغ طول الحدود نحو 3860 كم، والمساحة نحو 185.180 كم ٢. وقد بلغ طول الحدود والساحة 1: 28. أم تلك النسبة فقد بلغت 1: 127 في العراق، حيث بلغ طول الحدود نحو 3427 كم ومساحته 434924 كم ٢. وأخيرا فإن النسبة بلغت 1: 282 في مصر، حيث بلغ طول حدودها نحو 3546.9 كم ومساحتها 1.002.000 كم ٢.

المياه والمناخ

المياه:

إن الأهمية الجيوستراتيجية العسكرية للبحار قديمة، برغم تباين الاستخدامات العسكرية لها.

فقد اقتصر استخدام البحار في الماضي على سواحلها حيث اعتبرت البلاد البحرية أو الجزرية في مأمن من الغزو، أو غير ذات أهمية في بعض الأحيان. وللبحار أهمية عسكرية قصوى إضافة إلى أهميتها الاقتصادية والتجارية. فتضمن البحار للدول المطلة عليها اتصال حضاري مع الشعوب والحضارات والعالمية.

كما تضيف البحار للدول الواقعة عليها قوة إضافية من خلال القدرة على الحركة و الانتقال وتوفير سبل إضافية للتزويد والإمداد.

ومن خلال البحار تستطيع الجيوش الوصول إلى مواقع بعيدة عن أراضيها، وتكتسب البحار التي لا تتجمد أهمية أكبر بكثير من البحار التي تتجمد، وكذلك تكتسب البحار الواسعة أهمية استراتيجية أكبر من البحار الضيقة، والعميقة أكثر من البحار الضحلة، وكذلك هناك أهمية بالنسبة للموقع النسبي للبحر بين الدول. وكذلك هناك أهمية لطول السواحل البحرية ولطبيعتها، تفتقر سواحل كثير من الدول إلى وجود الأماكن الطبيعية لبناء المرافئ والموانئ البحرية، برغم طول سواحلها البحرية.

فبرغم من وقوع فرنسا على بحرين هما البحر المتوسط، وبحر الشمال، إلا أن اتجاه الفرنسيين نحو البحر هو أقل من غيرهم، بسبب عدم ملائمة السواحل الفرنسية لإقامة الموانئ البحرية.

وهناك أهمية للمياه من ناحية اقتصادية من حيث توافر المياه من عدمه، ومشكلة الأمن المائي تدرس في نقطة الاقتصاد.

المناخ:

أثر ظروف الطقس والمناخ على سير العمليات العسكرية يأتي المناخ في الدرجة الثانية بعد التضاريس من حيث حجم وقوة تأثيره على العمليات العسكرية. ويؤثر كل من المناخ وأشكال السطح الجغرافي على سير العمليات العسكرية، وخاصة على الحركة والأسلحة والأجهزة والمعدات. والمناخ هو حالة الجو السائد في منطقة جغرافية محددة، في فترة زمنية طويلة قد تصل إلى سنة. ويمكن وصف مناخ منطقة اعتمادا على دراسة صفات الطقس لفترة زمنية طويلة قد تصل إلى 30 عاما. والطقس هو حالة الجو في لحظة معينة ولفترة زمنية قصيرة تتراوح بين بضع ساعات إلى عدة أيام. وتشمل عناصر المناخ الحرارة الضغط الرياح، والرطوبة. أما العوامل التي تؤثر على المناخ فهي الموقع الفلكي للمكان، أو موقعه بالنسبة لخطوط الطول ودوائر العرض، وموقعه بالنسبة ليابس والماء، والارتفاع والانخفاض عن مستوى سطح البحر (التضاريس)، والقرب أو البعد عن التيارات البحرية.

ويهتم الجغرافي بدراسة التوزيع المكاني للمناخات العالمية، والعوامل المؤثرة على انتشار تلك المناخات، في حين يهتم عالم الأرصاد بدراسة حالة الطقس والتنبؤ به لفترات زمنية قصيرة قد تصل إلى عدة أيام. وعليه فإن عالم الأرصاد يهتم أيضا بدراسة عناصر أخرى للطقس مثل الغيوم، والضباب و التساقط، و سطوع الشمس، ومدى استقرارية الهواء. ولا شك إن كل من المناخ والطقس يؤثران على سير العمليات العسكرية.

فتحسب الجيوش الحساب للظروف المناخية المتوقعة أثناء سير العمليات العسكرية، وكذلك حالة الطقس السائدة أثناء القيام بالعمليات العسكرية. ولتلك الأسباب، أخرجت الولايات المتحدة هجومها على الجيش العراقي في الكويت في حرب الخليج الثانية عام 1991، حتى منتصف شهر شباط، حيث تنخفض درجات الحرارة، ويصبح الطقس أكثر ملائمة للقيام بالعمليات العسكرية. كما أن معظم العمليات العسكرية والطلعات الجوية كانت تتم في الفترات الصباحية والمسائية تجنباً لدرجات الحرارة المرتفعة بين الساعة العاشرة والرابعة بعد الظهر. ويظهر هنا الاهتمام بالمناخ والطقس في آن واحد.

والظروف الشتوية تملئ على الجيوش إعداد الخطط المسبقة، والتي قد تتطلب أحياناً تغيير طبيعة السطح الجغرافي بشكل جذري ليتلاءم مع ظروف الطقس المتغير. ففي الشتاء تظهر أهمية بناء مواقع تحمي الجنود من المطر والبرد، وتبرز الحاجة إلى بناء تحصينات قوية مقاومة لظروف الطقس القاسية كالرياح والأمطار. ويمكن التمييز بين نوعين من الآثار الناجمة عن المناخ، أحدها يشمل التأثيرات المباشرة الأنية على العمليات العسكرية، والآخر يشمل الآثار غير المباشرة والبعيدة المدى. وفيما يلي سنتحدث عن الآثار كل على حدى.

أولاً: الآثار المباشرة للمناخ على سير العمليات العسكرية

1 - دور درجات الحرارة:

تؤثر درجات الحرارة سواء كانت مرتفعة أو منخفضة على سير العمليات العسكرية، وعلى عطاء وقدرات الجنود، الآليات، الأسلحة، المعدات، والأجهزة. وبشكل عام يمكن القول أن قدرة وفعالية الجندي تتضاءل مع انخفاض درجة الحرارة.

حيث يتوقع أن يأخذ وقت إنجاز عمل ما، أو مهمة قتالية ما، 4-5 أضعاف الوقت اللازم لإنجازها إذا كانت درجات الحرارة منخفضة. وتنخفض قدرات الجندي وعطاؤه وكذلك معداته مع انخفاض درجات الحرارة تحت الصفر، حتى -26 درجة مئوية. وتنعدم قدرة الجند على القيام بالعمليات العسكرية، إذا انخفضت درجة الحرارة تحت -42 درجة مئوية. ويزيد هبوب الرياح في الطقس الباردة من سوء الأحوال الجوية، مما يعيق الجنود عن القيام بمهامهم العسكرية.

وتعمل الرياح الباردة الشديدة على إنهاك الجند وإصابتهم بالإعياء والعطش الشديد. فقد وصلت درجة حرارة منطقة صالة Salla، في شمال فنلندا، والتي تقع على مسافة 50 كم شمال الدائرة القطبية، نحو -80 درجة فهرنهايت عند مهاجمة الألمان للجيش الروسي في شتاء عام 1941، أثناء الحرب العالمية الثانية.

وتؤثر درجات الحرارة الباردة على البطاريات والراديو والبوصلة فتتوقف بطاريات الآلات عن العمل إذا انخفضت درجات الحرارة. وتتعطل الآليات في حالة الجو القارس البارد، ويصبح الزيت المستخدم في المحركات ثقيلًا ولزجًا، يعيق دوران محركات الآليات، وفي البرد الشديد تصبح المعادن التي تتكون منها الآليات والأجهزة هشة قابلة للكسر. ويسمح الهواء الصافي المنتشر في المناطق الجبلية المرتفعة برفع درجة حرارة الهواء في النهار، وبالتبريد السريع أثناء الليل. فكميات الحرارة التي يمتصها الغلاف الغازي في المناطق المرتفعة هو أكثر من ذلك الذي يمتصه في المناطق المنخفضة. ويقود سبب ذلك إلى نقاء الغلاف الغازي في المناطق المرتفعة، وقلة سماكته.

2 - دور الرياح:

والرياح هي عبارة عن حركة الهواء الأفقية، في حين يطلق اسم التيارات على حركة الهواء العمودية. التيارات الهوائية إما صاعدة أو هابطة. والرياح إما محلية متغيرة ب، وإما دائمة شبه ثابتة. وتختلف قوة الرياح عن سرعتها، فتعادل القوة التي تولدها الرياح أربعة أضعاف سرعتها. بمعنى أنه كلما تضاعفت سرعة الرياح، فإن قوة دفعها تصبح أربعة أضعاف.

فإذا تضاعفت سرعة الرياح /، 10 إلى 20 عقدة، فإن قوة دفعها تصبح أربعة أضعاف ما كانت عليه. وتزيد قوة العواصف المصاحبة للرياح بمعدل 50 % عن سرعة الرياح. وكلما زادت سرعة الرياح كلما زاد خطرها.

فإذا وصلت سرعتها إلى 80 عقدة فإنه يتوجب التوقف عن السير، لزيادة المخاطر المترتبة على الحركة. وتحمل الرياح القوية معها الرمال، الغبار، والمواد الخفيفة، وتزداد سرعة لرياح إذا أجبرت على السير في ممرات محددة و مضائق جبلية.

ويتأثر مسار الرياح المحلية بالطبيعة الطبوغرافية للمنطقة التي تهب عليها. فغالبًا ما تكون أقوى الرياح وأسرعها على قمم الجبال. وبطبيعة الحال فإن لكل من الرياح والتيارات آثارًا هامة على العمليات العسكرية، وحركة الآليات والجند، وفيما يلي سنتحدث عن آثار الرياح.

وتعمل الرياح على إثارة العواصف الرملية، وما ينجم عنها من آثار سلبية وإعاقة للرؤيا والحركة. وفي المناطق الباردة قد تتوقف البوصلة عن العمل الإشارة إلى الشمال المغناطيسي، في حال هبوب العواصف المغناطيسية Invisible Magnetic Storms. كما إن العواصف الرعدية قد تؤثر على موجات الرادار، وتمنع عمل الرادار. وتؤثر الرياح العاتية على سير القذائف الصاروخية الموجهة وتحرفها عن خط سيرها، وبالتالي تؤثر على دقة إصابتها لأهدافها. كما أن الصواريخ الموجهة تتأثر هي الأخرى بالعواصف المغناطيسية Geomagnetic Stroms

والتي تؤدي إلى زحزحة مؤقتة في الشمال المغناطيسي. وقد وقفت ظروف الطقس السيئة في وجه الهجوم البرمائي الإنجليزي على جزر الفوكلاند. حين واجهت عمليات الإنزال البرمائي، رياح عاتية تزيد سرعتها عن 70 عقدة في الساعة، وقد وجدت القوات الإنجليزية أنه لا بد من القيام بالعمليات العسكرية برغم ظروف الطقس السيئة، وكانت المخاطرة كبيرة. ومما زاد الطين بلة هجمات سلاح الجو الأرجنتيني على السفن الحربية.

كما تؤثر الرياح على سرعة حركة وتقدم الآليات والدبابات في ميدان المعركة. كما تؤثر الرياح التي تحمل ذرات التراب والرمال على كفاءة الأسلحة والمعدات.

وخير مثال على ذلك ما واجهته الطائرات العمودية والأسلحة الأمريكية في الصحراء العربية إبان حرب الخليج الثانية عام 1991. فالرياح المحملة بالرمال دفعت الجنود الأمريكيين إلى صيانة طائراتهم، أسلحتهم، أجهزتهم، ومعداتهم بصورة متكررة، وفي فترات زمنية أقصر. وتقتلع الرياح العاتية التي تزيد سرعتها عن 80 كم / الساعة الأشجار، وتقلب الآليات وتحطمها، وتدمر الطائرات وتعيق عملها، كما أن عمليات الهبوط المظلي تتأثر هي الأخرى بسرعة الرياح. فحيث تزيد سرعة الرياح عن 52 كم / الساعة تصبح عمليات الهبوط المظلي أمرا صعبا. وتؤثر سرعة الرياح على اتساع ميدان الرمي والمسافات التي تغطيها الأسلحة الميدانية الشخصية. فحيث تزداد سرعة الرياح تقل مساحة ميدان الرمي، وتنخفض المسافات التي تصل إليها الرماية، كما أن كفاءة الرماية تتناقص مع زيادة سرعة الرياح.

وتعمل الرياح على زيادة فعالية الأسلحة النووية، واتساع قطر الدائرة التي تغطيها النيران الناجمة عن الانفجارات النووية. فكلما زادت سرعة الرياح تزداد فعالية النيران وأثارها المدمرة. وحتى تلك النيران الناجمة عن انفجارات الأسلحة التقليدية.

وللرياح أثر سلبي على فعالية وكفاءة الأسلحة الكيماوية والبيولوجية. حيث تشتت الرياح المواد الكيماوية والبيولوجية وتقلل من فعاليتها وكفاءتها. وعليه فإن الجو الساكن الخالي من الرياح هو الطقس الأمثل لاستخدام الأسلحة غير التقليدية. تظهر حالات الجو الساكن في الصباح الباكر، حيث تقل أو تنعدم حركة الهواء العمودية، أو التيارات الهوائية الصاعدة. وغالبا ما تنشأ في مثل ذلك الوقت الانقلاب الحراري، الذي يعني ارتفاع درجات الحرارة بالارتفاع إلى الأعلى، نتيجة انعدام حركة الهواء.

تختفي حالة الانقلاب الحراري تدريجيا مع بزوغ أشعة الشمس وتسخين سطح الأرض والهواء الملامس له، وبالتالي زيادة حركة الهواء العمودية. ولذلك تزداد

أخطار استخدام الأسلحة الكيماوية والبيولوجية في فترات الصباح الباكر، حيث تقل أو تنعدم التيارات الهوائية الصاعدة والمهابطة.

ومن الآثار المباشرة للرياح الدور الذي تقوم به في نقل العناصر المرضية. فتعمل الرياح على نقل العناصر الناقلة للمرض من مكان لآخر. فمن أهم نتائج الحروب الفورية، انتشار الأمراض بسبب انشغال الدول في الحرب، وإهمالها للنواحي الصحية والنظافة، أضف إلى ذلك الأمراض لناجمة عن عد دفن قتلى الحرب. وحيث تهب الرياح فإن فرص انتشار الأمراض تتزايد.

3 - دور الرطوبة والتساقط:

يشتمل التساقط على المطر والبرد والثلج والندى. ويختلف التساقط عن التكاثف في أن الأول يسقط على سطح الأرض، في حين أنه ليس بالظرورة أن يصل كل تكاثف إلى سطح الأرض. وعليه فإن هناك تكاثف سطحي يشمل الندى، الصقيع، والضباب، في حين يشمل التكاثف العلوي السحب، الأمطار، الثلج، والبرد. وتتزايد معدلات التساقط بالارتفاع حتى تصل إلى نقطة معينة تبدأ بعدها بالتناقص. ويمكن اعتبار ارتفاع 1800م هو الحد الذي بعده تبدأ كميات التساقط بالانخفاض. غير أن هذا المعدل يتناقص كلما اتجهنا شمالاً وجنوباً نحو الأقطاب. وتزداد كميات الأمطار الساقطة إذا غطت الجبال الغابات الكثيفة. وتزداد كميات الأمطار الساقطة على السفوح المواجهة للمطر، وتقل أو تنعدم في السفوح الواقعة في ظل المطر.

وفيما يلي نتحدث عن آثار حالات التساقط المختلفة على العمليات العسكرية.

أ - أثر الأمطار:

من الآثار المباشرة لسقوط الأمطار، حجب الرؤيا، والحد من سرعة الحركة بالنسبة للآليات والجنود. كما تحول الأمطار الغزيرة دون عمل أجهزة المراقبة والرصد الأرضية والجوية. وتعمل الأمطار على زيادة معدلات رطوبة التربة، وهي بذلك تعيق حركة الجنود والآليات، نتيجة لتكون المستنقعات.

ويحتاج الجند إلى معدات، أجهزة، وملابس خاصة في الظروف الجوية الماطرة. ولا شك أن للملابس الخاصة التي يتوجب على الجندي ارتداؤها في الطقس البارد، آثار سلبية على قدراته وعطائه. فالملابس الثقيلة تعيق حركته، وتحد من قدرته على العمل والمناورة. كما أن الظروف الناجمة عن تساقط المطر، الثلج، والبرد تحد من قدرات الجنود والآليات. وتزيد نسبة الرطوبة الناجمة عن تساقط الأمطار والثلوج من نسبة صدأ الآليات والأجهزة والمعدات، وبالتالي الحد من كفاءتها.

ولا شك أن لطول الليل الشتوي، أثر سلبي على عمل الطائرات، مما يحد من ساعات عملها وحركتها وفعاليتها. وحين ترتفع نسبة الرطوبة فوق 85 % في الطقس

البارد، الذي تقل فيه درجات الحرارة عن -15 درجة مئوية، فإن تفاعل الغازات الخارجة من عوادم الطائرات العمودية المروحية مع الهواء والماء، ويؤدي إلى خلق سحب من الدخان تحجب الرؤيا، وتعيق عمليات الطائرات، وتحد من فعاليتها. وإذا حاولت الطائرات العمودية الاقتراب من سطح الأرض، أو الهبوط عليه، فإنها تثير عاصفة ثلجية قوية، تعيق رؤية قائد الطائرة، وتحجب عنه سطح الأرض.

وتؤثر معدلات الرطوبة إيجابيا على كفاءة الاتصالات اللاسلكية. فارتفاع نسبة بخار الماء في الهواء يؤدي إلى زيادة كفاءة الاتصالات اللاسلكية ووضوحها، لما يتمتع به بخار الماء من قدرة على نقل الأمواج الصوتية. وتؤثر معدلات الرطوبة على الجنود أنفسهم. فارتفاع معدلات الرطوبة المصاحب لدرجات الحرارة المرتفعة، يؤثر على الراحة الجسدية والنفسية للجنود. فكلما ارتفعت معدلات الرطوبة في الهواء، زاد الضيق الجسدي والنفسي للجنود، وانخفض عطائهم التعبوي.

ب - أثر الثلوج:

وتجد الآليات صعوبة كبيرة في الحركة والتنقل في حالة تساقط الثلوج. وحتى الدبابات تنزلق في حال تساقط الثلوج الكبير. وفي حال انزلاقها يصعب إعادتها إلى الطريق، خاصة على الطرق الجبلية الوعرة. وتستطيع الدبابات التنقل فوق سطح تغطية الثلوج بارتفاع 80 سم في المناطق المستوية، في حين تجد صعوبة في اجتياز أسطح يزيد ارتفاع الثلج فيها عن 50 سم في المناطق المنحدرة الوعرة، التي يزيد انحدار سفوحها عن 52 %.

كما أن نوع الثلوج الساقطة له أثر على حركة الآليات والدبابات، فالثلج الناعم Powdery هو أسهل لحركة الآليات من الثلج المتجمد القاسي. غير إن الثلج الناعم قد يسبب مشاكل تتعلق بالرؤيا، حيث يصاب سائقو الآليات والدبابات بالعمى، وعدم القدرة على الرؤيا من شدة بياض الثلج الناعم. أما الثلج القاسي الذي تزداد فيه نسبة الماء، نتيجة ذوبانه وإعادة تجمده مرة أخرى، فإن عمليات السير عليه تكون أصعب، حيث يلصق بدواليب العربات والآليات. والصقيع الذي هو عبارة عن شكل من أشكال التكاثف السطحي، الذي يتكون عند درجة حرارة أقل من الصفر، يؤثر على سير الآليات والجند، وكفاءة وعمل الأجهزة والمعدات.

ويصعب بناء مواقع للمدافع في حالة تساقط الثلوج. حيث تفتقر المواقع التي يتساقط فيها الثلج الناعم اللين Soft، إلى الدعم الكافي للمدفع، حيث تتحطم الأرض وتتكرر بسرعة، مما يؤدي إلى انهيارها. كما أن الثلوج تعيق حفر مواقع ثابتة للمدافع، لصعوبة حفر مثل تلك الخنادق في الأرض المتجمدة. ولذلك فإن مدافع المورتر ذات فائدة عظيمة في البيئات والمناطق التي تتساقط فيها الثلوج، حيث لا يتطلب هذا النوع من المدافع مواقع ثابتة تحت الأرض، بل تبقى فوق سطح الأرض. كما أن ذوبان الثلوج يجعل عملية الانتقال فوقها، خاصة مع زيادة الانهيارات والتدمير الناجم عن الانفجارات. وقد يتعرض الجنود الذين يقومون بعمليات عسكرية

في المناطق الجبلية التي تغطيها الثلوج إلى أخطار الانهيارات الثلجية. والتي بالإضافة إلى أثارها السلبية على أرواح الجند، فإن لها أثار سلبية على حركتهم وآلياتهم، وسرعة الإمداد والتزويد.

وهناك فوائد تعبوية للثلوج في أرض المعركة تتلخص في امتصاص الثلوج لانفجار القنابل. وعليه فإن الشظايا المنتشرة من انفجار القنابل تكون أقل ضررا. وهناك أثر إيجابي للثلج على القوات المهاجمة، يتلخص في زيادة فعالية سلاح الجو، وسهولة تمييز المواقع والآليات والجنود على السطح المغطى بالثلوج. ولا شك أن هناك أثار سلبية للثلوج على عمل الطائرات الحربية وخاصة المروحية منها. ومن تلك الآثار السلبية انتشار الضباب في الطقس الماطر، وانتشار العواصف الثلجية العنيفة Blizzarks.

ويحتاج بناء خنادق وتحصينات في المناطق التي تتراكم عليها الثلوج إلى أربعة أضعاف الوقت اللازم لبنائها في المناطق العادية. وذلك أن عمليات الحفر في التربة المتجمدة بالإضافة إلى ما يترتب على عمليات الحفر من انهيارات، تجعل عمليات بناء تلك التحصينات أمرا صعبا. وقد تنعدم فعالية الألغام التي تعتمد على الضغط إذا تغطت بطبقة كثيفة من الثلوج، فيصبح أمر وصول الضغط إليها أمرا صعبا، وبالتالي انعدام تأثيرها.

وحتى أثناء ذوبان الثلوج في أواخر فصل الشتاء وبداية الربيع، فإن حركة الآليات والجنود تزداد صعوبة، حيث تختلط مياه الثلوج الذائبة مع التربة، وتكون الأوحال والطين الذي يعيق الحركة. وفي كثير من مناطق العالم تظهر مثل تلك الظروف في شهري آذار ونيسان من كل عام. فقد أضر الألمان هجومهم على اليونان في شتاء عام 1941 لأن أسطح المطارات في بلغاريا كانت ذائبة وملينة بالطين، الذي يعيق عمليات إقلاع وهبوط الطائرات.

ج - أثر الغيوم والضباب:

الغيوم هي عبارة عن بخار ماء متكاثف وعالق في الهواء. وتتألف السحب من بلايين القطرات المائية، والبلورات الجليدية العالقة في الهواء بفعل التيارات الهوائية الصاعدة والهابطة. وما يمنع تلك القطرات من السقوط على الأرض هو خفة وزنها، ودفع التيارات الهوائية الصاعدة لها. وتتكون الغيوم في الغالب بسبب ارتفاع الهواء إلى الأعلى نتيجة تسخين سطح الأرض، وتكون التيارات الصاعدة.

وأثناء ارتفاع الهواء المحمل ببخار الماء فإن درجة حرارته تنخفض، ويتكاثف ما به من بخار ماء، وتتكون نتيجة لذلك الغيوم. وقد تتكون الغيوم نتيجة التقاء الهواء الساخن مع البارد في المنخفضات الجوية، أو بسبب اصطدام الهواء المحمل ببخار الماء بالسفوح الجبلية مما يؤدي إلى ارتفاعه إلى أعلى، وانخفاض درجة حرارته، وبالتالي تكثف ما به من بخار ماء.

والضباب هو عبارة عن قطرات دقيقة من الماء، يحدث نتيجة تكاثف بخار الماء بالقرب من سطح الأرض. ويمكن اعتبار الضباب غيوم ملامسة لسطح الأرض. وبما أن حجم قطرات الماء دقيق جداً، فإنها لا تسقط على سطح الأرض. ومن العوامل التي تساعد على تكون الضباب وجود ذرات الغبار والأتربة في الهواء، والتي تعمل عمل النويات التي يتكاثف حولها الماء. وتختلف كثافة الضباب تبعاً لكمية بخار الماء المتكاثف فيه.

ويختفي الضباب الخفيف بمجرد بزوغ أشعة الشمس حيث يتحول ما به من قطيرات متكاثفة إلى بخار ماء مرة أخرى. ومن شروط حدوث الضباب ارتفاع الرطوبة النسبية للهواء لتزيد عن 90 %، وأن يبرد الهواء حتى يصل إلى درجة الإشباع.

ودرجة الإشباع هي النقطة التي لا يستطيع بعدها الهواء حمل المزيد من بخار الماء، ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع منت الضباب تبعاً لمكان تكونه:

1 - ضباب الياابس: وهو الضباب الذي يتكون فوق الأسطح الياابس، نتيجة عدد من الظروف والعوامل هي:

أ - برودة الهواء الملامس لسطح الأرض، بسبب تبريد سطح الأرض نتيجة الإشعاع الأرضي أثناء الليل.

ب - مرور هواء دافئ فوق الأسطح الياابسة التي تغطيها الثلوج، أو فوق الأسطح الباردة.

2 - ضباب الوديان: وهو الضباب الذي يتكون في قيعان الأودية في الصباح الباكر نتيجة هبوط الهواء البارد من أعلى السفوح الجبلية إلى قاع الوادي. وحيث يصطدم الهواء البارد القادم من السفوح الجبلية مع الهواء الأدفئ في قاع الوادي يتكون ضباب الأودية.

3 - ضباب البحر: يتكون ضباب البحر بسبب التقاء تيار مائي دافئ مع تيار ساخن، وقد ينتقل الضباب إلى الياابس، وهو إما يزيد كثافة، إذا كان سطح الياابس بارداً، وأما أن يتلاشى ويتصاعد إلى الأعلى، إذا كان سطح الياابس ساخناً. ويتكون الضباب البحري على سبيل المثال عند التقاء مياه تيار خليج المكسيك الدافئ المتجه شمالاً في المحيط الأطلسي، مع تيار ليرادور المتجه نحو الجنوب. وتشهد سواحل أوروبا الغربية مثل ذلك النوع من الضباب، بسبب التقاء مياه تيار الخليج الدافئ مع مياه بحر الشمال الباردة. وكذلك الحال في غرب الأمريكيتين.

وتعمل الغيوم والضباب على حجب الرؤيا وتقليل مداها، فيعمل بخار الماء المتكاثف على حجب الرؤيا عن القوات المتقاتلة في ساحة المعركة. وللضباب أثر مزدوج على القوات المتقاتلة، فهو من جانب يوفر البيئة المناسبة للحركة بعيداً عن أعين القوات المعادية، بما يوفره من ظلام يحجب الرؤيا. ومدى الرؤيا يصف شفافية

الهواء بالنسبة لرؤية الإنسان، ويعبر عنها بالمسافات بالأمتار أو الكيلو مترات. ويقل مدى الرؤيا بسبب وجود الضباب، المطر، الثلج، أو الغبار والدخان، والتي تعمل على امتصاص الإشعاع الشمسي وتشتيته قبل أن يصل إلى عين الإنسان.

والرؤيا إما إن تكون أفقية، وإما عمودية باتجاه السماء، ويعتمد مدى الرؤيا على وجود أو عدم وجود الملوثات والضباب والمطر والثلج، بالإضافة إلى طبيعة السطح الجغرافية، ولون الأجسام التي تتم مراقبتها وحجمها، وقدرة الراصد على الرؤيا.

وتستخدم المطارات أجهزة إلكترونية لقياس مدى الرؤيا، نظرا لأهميتها القصوى بالنسبة للطائرات.

و بالإضافة إلى أن الضباب يضعف الرؤيا فإنه يعيق حركة الجنود والآليات، وبالتالي فإن عمليات التقدم والحركة والتزويد تواجه مصاعب، وتتطلب فترات زمنية أطول، وقد يعمل الضباب على إرباك الجيوش وزيادة حجم الحوادث والأخطاء.

أما إذا صاحب الضباب تساقط الأمطار والثلوج، فإن ذلك يتطلب إعدادا إضافيا، يشمل الملابس الثقيلة، التي قد تعيق الحركة، والقيام بالواجبات بالسرعة المطلوبة، وتظهر أهمية البوصلة في الظروف الجوية الضبابية لعدم تمكن القوات من وضع علائم على الطرق والممرات والمعابر، التي سلكتها القوات المتقدمة.

وتقاس الرؤيا العمودية عن طريق إطلاق منطاد مملوء بغاز النيتروجين في الجو ومراقبة اختفائه، بحيث تكون له سرعة محددة يمكن من خلالها معرفة مدى الرؤيا العمودية، والرؤيا العمودية مهمة في حال التصوير الجوي وعمل الأقمار الصناعية.

فتحجب الغيوم والضباب سطح الأرض عن كاميرات التصوير وأجهزة التقاط الإشعاع الأرضي. حيث يعمل الضباب على امتصاص الإشعاع الحراري المنطلق من الآليات والذي يمكن أن تسجله أجهزة التصوير الجوي والفضائي العاملة بواسطة تسجيل الإشعاعات الحرارية للمعدات والآليات العسكرية المنتشرة على سطح الأرض.

فيقوم الضباب المشبع بقطرات الماء بامتصاص الموجات الحرارية، والموجات تحت الحمراء، والإشعاع المرئي الصادر عن سطح الأرض. وهذا هو عمل البيت الزجاجي في الغلاف الغازي. حيث يسمح بخار الماء وثنائي أكسيد الكربون للإشعاع الشمسي قصير الموجات باختراق الغلاف الغازي باتجاه الأرض، ويمنع الإشعاع الأرضي والإشعاع الصادر عن الأجسام الموجودة على سطح الأرض، طويل الموجات من الخروج إلى الفضاء الخارجي، غير أن الضباب لا يستطيع امتصاص الموجات الرادارية ولا يؤثر عليها .

ويقلل الضباب والغيوم من مدى الرؤيا بالنسبة للطائرات، ويحد من عملها وهبوطها وإقلاعها، كما أنها تعمل على تقليل أثر الضوء النووي وأثاره المدمرة. وتعمل الغيوم والضباب على زيادة فعالية الأسلحة الكيماوية، نظرا للتفاعلات الكيماوية التي تحدث بين بخار الماء الموجود فيها مع المواد الكيماوية، والتي تزيد من فترة بقائها في الجو، وتزيد من فعاليتها.

وقد تضطر بعض الجيوش إلى إزالة الضباب من مناطق العمليات، وخاصة من أجواء المطارات. ويتم تبديد الضباب الذي قد يعرقل هبوط وإقلاع الطائرات، عن طريق إلقاء الثلج الجاف، أو بلورات أيوديد الفضة في الهواء في المنطقة المراد تبديد الضباب منها.

وتعمل بلورات الجليد وأيوديد الفضة على تكاثف قطرات الماء الموجودة في الضباب ونموها، وبالتالي سقوطها على شكل مطر أو برد. مما يؤدي إلى حدوث ثغرات في الكتل الضبابية، حيث يتم إلقاء تلك المواد. وأحيانا يتم اللجوء إلى الطلاق الهواء الساخن في أجواء المطار، والذي يؤدي إلى إزالة الضباب الهواء البارد. غير أن الطريقة الأخيرة غير ذات جدوى بالنسبة لضباب الهواء الدافئ.

د - أثر سطوع الشمس:

يؤثر طول النهار على عدد الساعات التي يمكن من خلالها الرؤيا دون مساعدة الوسائل الاصطناعية في الإضاءة والتنوير. فقد تمكنت تكنولوجيا الحرب من اختراع وسائل إضاءة وتنوير ساعدت الجيوش على الحد من سلبات الليل والظلام على الرؤيا.

غير أنه يجب الاعتراف بأن الإضاءة المتوفرة من خلال الوسائل الاصطناعية، لا تصل بأي شكل من الأشكال إلى كفاءة الإضاءة الطبيعية الناجمة عن الإشعاع الشمسي. كما توصلت تكنولوجيا الحرب إلى اختراع أنظمة الأشعة فوق الحمراء النشطة (الرادارية)، (التي تطلق الأشعة وتعود لتستقبلها) والسلبية (التي تستقبل الأشعة فقط)، والتي تساعد الجيوش على تحديد أهدافها في عتمة الليل.

وتعمل تكنولوجيا الأقمار الصناعية التي تلتقط صورها اعتمادا على الأشعة الحرارية الصادرة عن الأجسام طيلة ساعات الليل والنهار. ذلك إن جميع الأجسام على سطح الأرض تطلق أشعة حرارية تتناسب ودرجة حرارتها. وهي بذلك تحد من هيمنة عتمة الليل على العمليات العسكرية. ومن الأجهزة المستخدمة في التغلب على ظلام الليل أجهزة تضخيم الصور Image Intensifiers والرادارات الحقلية Field radars.

ورغم سلبات الظلام، إلا أنه لا يمكن إنكار وجود بعض الإيجابيات التي يمنحها الليل للقوات المتقاتلة. فتساعد عتمة الليل على تسهيل حركة القوات والتراجع

والانسحاب. وغالبا ما يكون الليل إلى جانب القوات المهاجمة، حيث يمكنها من الحركة في حلقة الليل، دون أن تراقبها عيون الأعداء. والليل يولد الذعر والخوف في صفوف القوات المدافعة، نظرا لقلّة المعلومات المتوفرة لديها عن حجم وعدد القوات المهاجمة.

ولزاوية سقوط أشعة الشمس أثر كبير على قدرات الجنود ومدى الرؤيا. فتنجنب الجيوش تنفيذ عمليات التعرض الهجومي في الأوقات التي تكون فيها زاوية سقوط الشمس في عيون الجنود. ولذلك فقد اختار الجيش المصري الساعة الثانية وخمسة دقائق من بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر من عام 1973، لبدء هجومه على القوات الإسرائيلية التي تحتل سيناء. وتكون أشعة الشمس في هذا الوقت من النهار قد زالت باتجاه الغرب ٥٥. ولذلك فقد اختار الجيش المصري الساعة الثانية وخمسة دقائق من بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر من عام 1973، لبدء هجومه على القوات الإسرائيلية التي تحتل سيناء. وتكون أشعة الشمس في هذا الوقت من النهار قد زالت باتجاه الغرب، بحيث تكون مواجهة للجيش الإسرائيلي.

ويؤثر سطوع الشمس على كفاءة التصوير الجوي. فيؤدي ظهور ظلام الأجسام إلى تقليل كفاءة الصور الجوية. ويزداد ظهور ظلال الأجسام كلما تقدم الوقت بعد الزوال (عندما تكون الشمس عمودية). وبالطبع فإن افضل وقت للحصول على صور جوية واضحة هو وقت الظهيرة، حيث تزول ظلال الأجسام. وحيث ترتفع الشمس في السماء وتقترب زاوية سقوطها من القائمة، فإن درجة حرارتها تزداد، مما يؤدي إلى آثار جسدية ونفسية سلبية على الجنود. وتحد من قدرتهم على الحركة والقيام بالواجبات التعبوية. وتزداد معدلات العرق إذا صاحب ارتفاع درجات الحرارة ارتفاع في الرطوبة النسبية للهواء، (نسبة ما يحمله الهواء من بخار الماء بالفعل، إلى ما يستطيع حمله وتناسب قدرة الهواء على حمل بخار الماء طرديا مع ارتفاع درجة حرارته.

و - استقرارية الهواء:

استقرارية الهواء هو ميله إلى الارتفاع إلى الأعلى بسبب ارتفاع درجة حرارته، حيث ترتفع درجات الحرارة، فيسخن الهواء الملامس لسطح الأرض، ويتمدد، ويقل وزنه ويرتفع إلى الأعلى، وبالتالي يقل ضغطه. وارتفاع الهواء يعني عدم وجود حالة اضطراب في الجو، وهو دليل على استقرارية الهواء. ويؤثر استقرار الهواء على النواحي التعبوية من خلال توفير الظروف الأنسب لاستخدام الأسلحة الكيماوية والبيولوجية. حيث تعمل الرياح الشديدة على تشتيت المواد التي يسود فيها استقرار الهواء، جوا خاليا من العواصف والأتربة والغبار، مما يعود

بالآثار الإيجابية على حالة الجند والآليات وكفاءة الصور الجوية. ويساعد استقرار الهواء على زيادة كفاءة الاتصالات اللاسلكية. كما يجذب رجال المظلات الأجواء التي تسود فيها حالة من استقرار الهواء، ذلك أن الرياح العاتية قد تعيق عمل رجال المظلات تحد من قدراتهم ومساهماتهم في المعركة.

الآثار غير المباشرة للمناخ على سير العمليات العسكرية :

للمناخ أثر غير مباشر على طبيعة ونوع التضاريس المنتشرة في مكان ما أو بقعة جغرافية محددة. فالمناخ يحدد فيما إذا كانت المنطقة رطبة أم جافة، حارة أو باردة. وهذا بالطبع له أثر كبير على وجود وفعالية عمليات التجوية (عمليات تكسير الصخور) والتعرية (عمليات نقل وتحطيم الصخور) التي تؤدي إلى تشكيل سطح الأرض . وسواء كانت عمليات التجوية كيميائية أو فيزيائية، فإنها ترتبط بعوامل مناخية. ويؤدي ارتفاع وانخفاض درجات الحرارة إلى تحطم الصخور ميكانيكيا، مثلا يؤدي تفاعل الماء مع المواد المعدنية الموجودة في الصخور إلى تحللها وتفتتها. كما تؤدي الأنهار والديارات إلى تكوين الأودية، والجلال والبحيرات.. إلخ، وهي كلها نتيجة ظروف مناخية. ويؤثر المناخ أيضا على توزيع وحجم وكثافة السكان في الأقاليم الجغرافية. كما يؤثر على توزيع وحجم وكثافة الغطاء النباتي المنتشر في منطقة جغرافية معينة. والمناخ يحدد كميات المياه الساقطة، وبالتالي يحدد معدل رطوبة التربة. ولرطوبة التربة أثر مباشر وفعال على سير العمليات العسكرية، بسبب تأثيرها على الحركة، والعسكرة، وحفر الخنادق وإقامة التحصينات.

وللمناخ أثر غير مباشر على نجاح أو فشل العمليات العسكرية، من خلال تأثيره على الوضع والقوة الاقتصادية للدولة. فتعدد الأقاليم المناخية في الدولة، له أثر إيجابي على قوة اقتصادها. فلتعدد الظروف المناخية في تشيلي مثلا نتيجة لامتدادها الجغرافي الطولي على عدد كبير من دوائر العرض، أثر إيجابي على اقتصادها. فيسود فيها المناخ الصحراوي في الشمال، ومناخ السواحل الغربية الماطر في الوسط، ومناخ البحر المتوسط في الجنوب. وتفتقر الدول الصحراوية إلى القوة الاقتصادية لأسباب جغرافية مناخية، في حين تتمتع دول أوروبا الغربية، وأمريكا الشمالية، بثروات تفوق عدد سكانها، لظروف مناخية من بين عوامل أخرى.

أثر أشكال السطح على العمليات العسكرية

أولا: تأثير الجبال:

الجبال هي الأشكال الأرضية التي يزيد ارتفاعها عن 500 متر فوق مستوى سطح البحر، وتنحدر سفوحها بشدة، ويتراوح معدل انحدار سفوح السلاسل الجبلية

بين 5 - 40 درجة، إلا أن انحدار سفوح الجبال الوعرة يزيد عن 25 درجة. وغالبا ما تغطي المناطق الجبلية الغابات والأشجار الكثيفة، وتقل فيها الزراعات. وقد تتواصل التلال الجبلية مع بعضها البعض لتشكل سلاسل جبلية متصلة، وقد تتكون من تلال جبلية متفرقة.

وتسعى الجيوش للسيطرة على القمم الجبلية المرتفعة التي توفر قوة تكتيكية كبيرة للمدافع، كما تمنحه فرصة السيطرة الميدانية على مسرح العمليات، لما تمنحه من مواقع مراقبة جيدة. وتعتبر المواقع الحاکمة عانقا كبيرا أمام القوات المهاجمة.

الصفات الطبيعية للجبال المؤثرة على سير العمليات العسكرية

أ. التكوينات الصخرية:

تؤثر الصفات الجيولوجية للسلاسل الجبلية على مدى صلابة الصخر وتماسك جزيئاته، وكذلك على نوع وصفات الترب التي تغطي تلك الجبال. والصخور هي عبارة عن مزيج من المعادن والبقايا العضوية، وغير العضوية اتحدت مع بعضها البعض وتماسكت بفعل الحرارة، الضغط، والوقت. وتقسم الصخور إلى ثلاثة أنواع هي: الصخور الرسوبية التي ترسبت بفعل الرياح، الماء، والجليد، والصخور النارية التي خرجت من باطن الأرض بفعل البراكين. والصخور المتحولة، التي تحولت بفعل الحرارة والضغط من خصور رسوبية أو نارية، إلى صخور جديدة متحولة.

ب. شكل الجبال ودرجة وعورتها:

تمتاز الجبال التي تقع داخل القارات بأنها ثابتة، وأقل عرضة للحركات الأرضية، في حين تمتاز السلاسل الجبلية الساحلية بعدم الثبات والتعرض المستمر للحركات الأرضية النشطة كالهزات الأرضية والبراكين. والجبال إما أن تكون التوائية، أو إنكسارية، أو بركانية، أو قديمة من بقايا الكتل القارية. وتمتاز الجبال الإلتوائية بأنها تتكون من طيات صخرية ارتفعت بسبب الضغط الجانبي. وتختلف الجبال الإلتوائية عن الإنكسارية، في أن الأولى تتكون من صخور أقل قساوة، لذلك تعرضت للطبي عند تعرضها للضغط. وغالبا ما تتكون صخور الجبال الإلتوائية من صخور رسوبية سميكة تصلبت بفعل الضغط والحرارة والوقت، إلا أنها بقيت أقل قساوة من الصخور النارية التي تشكل الجبال الإنكسارية. وبالإضافة إلى قساوة الصخور التي تتكون منها الجبال الإنكسارية، فإنها تمتاز بأسطح متقطعة متكسرة ذات انحدارات شديدة و أسطح وعرة. وتكاد الجبال الإنكسارية تخلو من الهضاب، التي تفصل بين تلالها كما في الجبال الإلتوائية. وتعتبر جبال بلاد الشام وجبال البحر الأحمر من الجبال الإنكسارية. ومن الجدير بالذكر أن كثير من السلاسل الجبلية الإلتوائية تعرضت لإنكسارات عديدة نجمت عن التعرية النهرية والحركات

الأرضية. في حين تعرضت كثير من الأسطح الجبلية الإنكسارية إلى عوامل التجوية والتعرية، التي أدت إلى تآكل أسطحها وتلطيف انحداراتها.

وتتمتاز السلاسل الجبلية البركانية بقساوة سطحها، وقلة التمججات، والجروف، نظرا لعجز عوامل التعرية والتجوية عن تقطيع سطوحها، لقساوة صخورها. أما الجبال القديمة فهي من بقايا الكتل الصخرية القديمة التي كونت القارات. وتتمتاز بأنها قليلة الارتفاع وصخورها قاسية نسبيا، وهذا هو سبب بقاءها مرتفعة، في حين تعرضت أسطح الهضاب من حولها للتجوية والتعرية المستمرة عبر ملايين السنين، مما أدى إلى خفض مستوياتها.

ومن الناحية النظرية فإن الجبال الإنكسارية والبركانية تشكل عقبة كبيرة في وجه الحركة العسكرية وبناء التحصينات بسبب قساوة صخورها، وشدة انحدار سفوحها.

وتتميز الجبال الإنكسارية بانحدار سفوحها الشديد، وانعدام التدرج في ميلانها، وكثرة الخوانق والجروف، خاصة في الجبال الإنكسارية حديثة التكوين. وتشكل الجبال والهضاب البركانية البازلتية عائقا أمام الحركة لأنها تتكون في الغالب وخاصة في التكوينات الحديثة، غطاء متصلا من السطوح الصخرية المتماسكة. وتحتاج الأودية والأنهار إلى فترات زمنية طويلة لتقطيع سطوحها وتعرية صخورها بسبب قساوتها وسماكة تراكماتها في بعض المناطق. أما الجبال الإلتوائية فإنها تتصف في الغالب بالانحدارات اللطيفة، ولو أنها ليست بالضرورة أقل ارتفاعا. ولذلك فهي أسهل للحركة وإقامة التحصينات، وبناء الخنادق والاستحكامات، نظرا لليونة خصورها وتدرج انحداراتها.

ج. الارتفاع:

يتراوح ارتفاع السلاسل الجبلية بين عدة مئات إلى عدة آلاف من الأمتار. ويصل ارتفاع أعلى القمم الجبلية في العالم إلى نحو 17000 قدم في قمة أفريست في جبال الهيمالايا. وتتراوح ارتفاعات السلاسل الجبلية في البلاد العربية بين 1000 إلى 3000 متر. وللارتفاع أثر سلبي على الوحدات العسكرية المقاتلة. فبالإضافة إلى تعاضد الجهد المبذول مع زيادة الارتفاع، فإن درجة الحرارة تنخفض بالارتفاع بمعدل 1 درجة مئوية لكل 150 متر. وهذا يعني انخفاض درجات الحرارة المستمر كلما ارتفعنا إلى الأعلى. وانخفاض درجات الحرارة يؤثر على عطاء وكفاءة الجنود، حيث يتناقص عطائهم طردياً مع تناقص درجات الحرارة. ففي المناطق المرتفعة يتضاءل احتمال نجاح العمليات الجوية، وتتعطل الاتصالات اللاسلكية، وتزداد احتمالات إغلاق الطرق. وتتفاقم المشاكل التي يواجهها الجند، خاصة إذا كانوا قادمين من مناطق قليلة الارتفاع. حيث يحتاج الجنود في المناطق المرتفعة شديدة البرودة إلى تجهيزات وملابس خاصة تقيهم من البرد، إضافة إلى ما يحتاجونه من غذاء خاص يعوضهم عما يفقدونه من الطاقة، بسبب الجهد المبذول أثناء الحركة والقيام بالمهام القتالية.

د. الانحدار:

للانحدار عنصران الأول يصف شدة الانحدار أو درجة ميلان السطح الجغرافي، ويصف الثاني اتجاه الانحدار. وقد صنف الخبراء العسكريون السوفييت السطح الجغرافي حسب الوعورة ولأغراض العسكرية إلى خمسة أصناف. يشمل التصنيف الأول السهول المفتوحة، والتي لا يزيد ارتفاعها عن 300 متر فوق مستوى سطح البحر، وتتخللها تلال جبلية قليلة لا يزيد ارتفاعها عن 25 م، ومعدل انحدارها لا يزيد عن درجة واحدة.

ولذلك فإن أمر عبورها بواسطة الآليات والمدرعات العسكرية أمر سهل. أما السطوح التلية فهي تلك التي يتراوح ارتفاعها بين 300 - 500 م ويصل ارتفاع قمم التلال فيها بين 25 - 200 م، بمعدل انحدار يتراوح بين 1 - 3 درجات، وهي أراضي سهلة العبور في معظمها من قبل الآليات والدبابات.

ويتراوح ارتفاع المناطق الجبلية المنخفضة بين 500 - 1000 متر، ومعدلات ارتفاع تلالها بين 200 - 500 م، ودرجات انحدار السطح فيها بين 5 - 10 درجات. وهنا تبدأ صعوبة استخدام الآليات والدبابات بالظهور، إلا أنها تبقى أسهل وأيسر بكثير من استخدامها في المناطق الجبلية المتوسطة والعالية، والتي يتراوح معدل ارتفاعها بين 1000 - 2000 م، ومعدلات ميل السطح بين 10 - 25 درجة. ويستحيل

استخدام الآليات العسكرية في الجبال المرتفعة عتلي يزيد ارتفاعها عن 2000 متر، ويصل ارتفاع قممها إلى 1000 متر، وميل سطوحها إلى ما يزيد عن 25 درجة.

أما اتجاه الانحدار فهو إما أن يكون شمالية - جنوبي أو شرقي - غربي، أو بأي اتجاه مشترك آخر. ويؤثر ذلك بصورة غير مباشرة على كمية الأمطار الساقطة. فهناك سفوح مقابلة للمطر، وأخرى تقع في ظل المطر. وتشح كميات الأمطار الساقطة على السفوح الواقعة في ظل المطر، بسبب انخفاض كميات بخار الماء التي يحملها لهواء عند تجاوزه للسفوح المقابلة. وكنتيجة لذلك فإن السفوح الواقعة في ظل المطر هي قليلة النباتات والأشجار، إن لم تكن معدومة.

وينعكس ذلك على سير العمليات العسكرية كما سنرى من حيث الحركة والتنقل، التستر، بناء التحصينات وشق الطرق. وفي المناطق شبه الصحراوية التي تتميز بالعواصف الرعدية المفاجئة، تسقط الأمطار على السفوح المقابلة، مما يؤدي إلى انجراف التربة وظهور المكاشف الصخرية العارية من التربة والنباتات ووجود مثل تلك المكاشف له آثار عسكرية تتعلق بالحركة، بناء التحصينات، والتمويه.

وفي السفوح الموجهة للمطر ترتفع رطوبة التربة، مما يؤثر على سرعة حركة الآليات والجنود، وارتفاع معدلات رطوبة التربة يؤدي إلى زيادة فعالية عوامل التجوية الكيماوية، مما يؤدي إلى تفكك الصخر وزيادة فرص حدوث الانهيارات الأرضية والانزلاقات، مما يعرض الوحدات المقاتلة المعسكرة في تلك السفوح إلى أخطار الفيضانات.

ويؤدي تراكم الثلوج والجليد إلى آثار سلبية مماثلة، واتجاه الانحدار يحدد زاوية سقوط الشمس. فتبعاً لاتجاه سقوط أشعة الشمس تصنف السفوح الجبلية إلى سفوح مواجهة للشمس وأخرى واقعة في ظل الشمس. وتبعاً لنصائح القائد العسكري صن تزو، فإنه من الأفضل للجيش المعسكرة في السفوح المواجهة للشمس، لأسباب تتعلق بصحة الجند، خاصة إذا طالت فترة عسكرتهم. أما في حالة نشوب القتال، فإن أثر الشمس يتلخص في إعاقة الرؤيا للطرف المواجه لها أثناء النهار.

ط. الغطاء النباتي:

تكتسي التلال الجبلية بالأشجار والنباتات الطبيعية في المناطق الرطبة وشبه الرطبة، في حين تنخفض كثافة الغطاء النباتي في الجبال المنخفضة والمنتشرة في المناطق الجافة وشبه الصحراوية. وتنخفض كثافة الغطاء النباتي في السفوح الواقعة في ظل المطر، وتكون شبه عارية إذا كانت تقع على أطراف الصحاري. وعليه يمكن القول إن وجود وكثافة الغطاء النباتي الطبيعي يعتمد بالدرجة الأولى على الظروف المناخية السائدة اتجاه الانحدار، ونوع التربة.

و. تراكم الثلوج والجليد:

من العوامل التي تؤثر حتما على سير العمليات العسكرية وجود وكثافة الثلوج على التلال الجبلية. وينعكس أثر وجود الثلوج سلبيا على المدافع والمهاجم على حد سواء، وللثلوج والجليد آثار سلبية على الحركة، التنقل، التخفي، والتستر، إضافة لما تفرضه من محدودات سلبية على عطاء الجندي وكفاءته.

ز. الظروف المناخية في الجبال:

إن الإعداد المسبق للعمليات في المناطق الجبلية يؤدي إلى استثمار الصفات المناخية والاستفادة منها، بحيث تجعل الطقس حليفا للقوات المقاتلة، وليس عدوا لها. ويجب أن تسعى القيادات العسكرية إلى وضع استراتيجيات عسكرية تتلائم مع ظروف الطقس الجبلي المتغير.

بحيث تكون تلك الخطط مطاطة وغير ثابتة، يمكن تغييرها وفقا لحالات الطقس المختلفة، كما يجب أن يترك للقادة الميدانيين حرية التصرف وتعديل الخطط بما يتلائم مع ظروف الطقس المتغيرة، وتتميز الظروف المناخية للجبال عن تلك السائدة في مناطق أخرى بتغيرها المستمر وتبدلها من الحر إلى البارد، المطر، الثلج، وارتفاع الحرارة وانخفاضها... إلخ.

وتتناقص درجات حرارة الهواء بالارتفاع إلى أعلى. ففي الظروف الطبيعية فإن درجة الحرارة تتناقص بمعدل درجة مئوية واحدة لكل 150 متر ارتفاع. وتتناقص درجة الحرارة بمعدل 1 درجة فهرنهايت لكل 150 م، في حالة الهواء الرطب، وبمعدل 1 درجة فهرنهايت لكل 100 م في الهواء الجاف. وتنخفض درجة الحرارة بسوية أسرع في الهواء المخلخل في المناطق الجبلية المرتفعة.

ويمتاز الهواء الجبلي بالنقاء والتخلخل. فكلما زاد الارتفاع زادت نقاوة الهواء وخلوه من الجراثيم والميكروبات. بحيث يصبح الهواء خاليا منها على ارتفاع 4.500 م. ومن العوامل التي تساعد على تنقية الهواء في المناطق الجبلية المرتفعة، انتشار الغابات وخاصة النفضية منها التي تقلل من نسبة ثاني أكسيد الكربون الموجود في الهواء. كما إن سقوط الثلوج يعمل على تنقية الهواء عن طريق إسقاط ذرات الغبار العالقة في الهواء.

ويعود سبب خلخلة الهواء في المناطق الجبلية المرتفعة إلى الانخفاض الجزئي في ضغط الأوكسجين. ويمتاز الهواء الجبلي بالجفاف، بسبب تكاثف ما يحمله الهواء من بخار ماء. ويزداد جفاف الهواء كلما ارتفعنا إلى أعلى. حيث تتناقص كميات بخار الماء الموجودة في هواء السلاسل الجبلية بمتواليه هندسية بالارتفاع. كما أن ضغط الهواء يتناقص هو الآخر بالارتفاع. ويعود السبب في ذلك إلى تناقص طول عمود الهواء الساقط على وحدة المساحة. ويتناقص الضغط بمعدل 0.95 سم زئبق لكل 100 م ارتفاع.

الدفاع في المناطق الجبلية

يتميز وضع المدافع عن المهاجم بمعرفته الكاملة بالسطح الجغرافي لأرض المعركة. ولذلك فإن المواقع الجبلية المرتفعة تمنح المدافع شعورا بالقوة والسيطرة والتفوق، في حين ينتاب المهاجم للمناطق الجبلية شعورا بالضعف والانكشاف لوقوعه أسفل المرتفعات. وتقل الأهمية التكتيكية للجبال، بل وتنعدم أهميتها، إذا قرر المهاجم عدم مهاجمة المواقع الجبلية للمدافعين إذا توفرت لديه فرص ومحاور هجوم أخرى. وتتضاءل الأهمية التكتيكية للمرتفعات الجبلية، إذا كانت محاطة بأودية عريضة تغطي قيعانها الغابات الكثيفة التي تمنح المهاجم إمكانات التخفي والتستر، ومفاجأة المدافع في مواقعه.

وقد قسم الجنرال " كارل فون كلاوزفيتز " المناطق الجبلية إلى مناطق خط الذرى، وهي المناطق التي تتضمن خطوط تقسيم المياه، والسفح المعادي، الذي يقع ضمن سيطرة القوات المعادية، أو تحت مراقبتها، والسفح الصديق، الذي يقع تحت سيطرة القوات الصديقة، أو تحت مراقبتها. وفي معرض مناقشته عن أفضل استخدام أي منها للأغراض الدفاعية وإقامة التحصينات، فإن كلاوزفيتز يرى أن أفضل مكان لإقامة التحصينات والدفاع هو السفح الصديق، وأنه من الأفضل عدم إقامة تحصينات دفاعية في السفوح المواجهة للعدو، ذلك أن أمر إخلائها سيكون في غاية الصعوبة، وأنه من الأفضل للجيش إقامة تحصيناته في السفح الصديق، لأنه يصعب على القوات المعادية محاصرتها، نظرا لوقوعها تحت سيطرة القوات الصديقة.

فقد انتظر نابليون الجيوش الإيطالية والإسبانية حتى قطعت جبال الألب وهاجمها وتغلب عليها. ويرى كلاوزفيتز أنه من الأفضل مواجهة الخصم في السفح الصديق لضعف قدراته، بعد أن قام بقطع السلاسل الجبلية. وتضعف قدرات الجيش المهاجم بسبب طول الوقت المستغرق في قطع السلاسل الجبلية، والجهد المبذول في بناء طرق المواصلات وشبكات الاتصالات، وخطوط الإمداد.

وهل يقوم المدافع بالهجوم المعاكس، أم يبقى في حالة الدفاع الثابت، حال قطع القوات المهاجمة للسلاسل الجبلية ؟

عن هذا السؤال يجيب كلاوزفيتز بأنه من الأفضل قيام القوات المدافعة بهجوم معاكس، بدلا من التمرکز في مواقع ثابتة، لأن مثل تلك المواقع الثابتة تمكن العدو المهاجم من الاستفادة من طبيعة السطح الجغرافي، أكثر من المدافع الثابت. ولتحقيق أكبر إفادة ممكنة من الطبيعة الجغرافية للسطح فإنه يتوجب على القوات المقاتلة الحركة والمناورة. كما أن الثبات يؤدي إلى تقصير خطوط مواصلات العدو، ومنحه فرص اختيار المواقع الدفاعية الضعيفة.

وتستطيع وحدات قتالية صغيرة حماية محاور قتالية واسعة في المناطق الجبلية الوعرة، لما يمنحه السطح الجغرافي لها من تفوق ميداني. وعليه فإن الأسطح الجغرافية الوعرة تمنح الجيوش الصغيرة فرص دفاعية كبيرة لا يمكنها توفيره لصغر حجم قواتها. ولذلك فإن الجبال تتيح للمدافع فرص الصمود رغم ضعف الإمكانيات وقلة العدد.

والسيطرة على المناطق المرتفعة يؤدي إلى زيادة مدى الرؤيا ووضوحها بالنسبة للقوات المدافعة. وتوفر المناطق الجبلية المرتفعة مشهدا عاما لميدان المعركة، يتيح للمدافع فرصة مراقبة حركة القوات المعادية، والسيطرة على محاور تقدمه، ولذلك تعتمد الجيوش إلى بناء محطات المراقبة ومراكز السيطرة ومحطات الرادار على قمم الجبال، رؤوس المرتفعات الجبلية، وخطوط تقسيم المياه. والمواقع الجبلية المرتفعة توفر للمدافع فرص اختيار محاور ومسالك حركة قواه التي أنيط بها مهمة الهجوم المعاكس. أما من الناحية الاستراتيجية فإن المناطق الجبلية المرتفعة توفر للمدافع مواقع دفاعية صعبة الاجتياز إذا تم تعزيزها بتحصينات ثابتة قوية.

وتسهل المناطق الجبلية عمليات التمويه والتخفي للقوات المدافعة، وتمنع كشف مواقعها من قبل القوات المهاجمة. وتتعاظم الفرص الممنوحة للتخفي إذا اكتست الجبال بالنباتات الطبيعية والأشجار، وازداد انحدار سفوحها وتموجاتها. وينصح القادة العسكريون بعدم القيام بأي تعرض عسكري في وضح النهار في المناطق الجبلية، ذلك أن إمكانية اكتشاف الوحدات العسكرية المقاتلة أمرا سهلا، خاصة وأنها تسير في قوافل متتابعة نظرا لطبيعة السطح الجغرافي الذي لا يتيح فرص المناورة والانتشار. وعلى الرغم من صعوبة الهجوم الليلي في المناطق الجبلية، بسبب صعوبة السيطرة على القوات وتنظيمها، وصعوبة الحركة في ظلمة الليل، إلا أن الليل هو أفضل الأوقات لشن الهجوم، خاصة وأنه يحقق عنصر المفاجأة الذي توفره الطبيعة الوعرة للمناطق الجبلية.

كما أن طبيعة الطرق الجبلية الضيقة تجعل فرص إغلاقها من قبل المدافعين أمرا سهلا، إما بواسطة الألغام، أو بواسطة الحطام الصخري والأثرية، التي يمكن توفيرها بسهولة من خلال الانهيارات الجبلية التي تتراكم بفعل المتفجرات، قبل وصول القوات المهاجمة، أو بواسطة المدفعية أثناء تقدم القوات. وتسعى الجيوش إلى تجنب السير في ممرات طبيعية ضيقة لأنها تكون عرضة لنيران العدو المركزة، التي يصعب معها التشتت لنفاذي تلك النيران. كما إن مثل تلك الممرات الجبلية غالبا ما تكون مواقع مفضلة لحقول الألغام، خاصة إذا اضطر العدو ترك مواقع المحصنة في الأودية. ويمكن اعتبار الانهيارات الجبلية التي تصنعها القوات المدافعة، واحدة

من العوائق التي يمكن أن يضيفها الإنسان للعوائق الموجودة في المناطق الجبلية. ومنم هذه الإجراءات زراعة الألغام، وحفر الخنادق.

فقد شق الصينيون القنوات والخنادق كمصائد للقوات السوفيتية المتقدمة في المناطق الحدودية الجبلية بين الصين والاتحاد السوفيتي، وحتى في المناطق الداخلية في شمال الصين. وقد أعاق هذا العمل تقدم القوات السوفيتية، إلا أنه بنفس الوقت أعاق محاولات الصينيين شن هجوم معاكس ضد القوات السوفيتية المتقدمة وحتى الوقت الحاضر لا زالت الصين تركز في قواتها المسلحة على سلاح المشاة والقوى البشرية نظرا لأن طبيعة البلاد الجغرافية الوعرة لا تناسب سلاح الدروع. ذلك أن نسبة تتراوح بين 80 - 90 من مجموع السطح الجغرافي الصيني هو أراضي جبلية وعرة.

كما إن شن هجوم معاكس يكون أسرع، إذا ابتدأ من مناطق جبلية مرتفعة باتجاه الأسفل، ولذلك تعتمد الجيوش إلى تنظيم قواته وتحصين مواقعه في المناطق الجبلية. فأمر بناء تحصينات متينة وقوية في المناطق الجبلية الوعرة ذو فائدة كبيرة، وخاصة في مناطق الأودية التي تشرف على ممرات وطرق الاتصال والتزويد والحركة.

ويمنح السطح الجبلي الوعر للمدافعين عمقا جغرافيا تنفيذيا أكبر. ذلك أن الوقت الطويل الذي يستغرقه المهاجم في اجتياز المناطق الجبلية تمنح المدافع فرص أكبر لمقاومة المهاجم وإيقافه. كما توفر السلاسل الجبلية عمقا جغرافيا استراتيجيا للمدافع. فيحتاج المدافع في المناطق الجبلية إلى عمق استراتيجي اصغر بكثير مما يحتاجه في السهول والمناطق المفتوحة. ولذلك فإن الجبال تسهم بطريقة غير مباشرة في الدفاع عن الجبهة.

سلبات الدفاع في الجبال:

يتناسب حجم القوات وقوتها التكتيكية عكسيا مع قدراتها على الحركة، فقد تسعى الجيوش إلى بناء قوة تكتيكية كبيرة ولكن على حساب قدرتها على الحركة والتشتت والانتشار. فالمناطق الجبلية الوعرة توفر إمكانات غير عادية لتعزيز القدرات التكتيكية للجيش المدافع. إلا أنها وبفس الوقت لها آثار سلبية على الوحدات المدافعة.

فتضعف مثلا سيطرة القادة على وحداتهم القتالية في المناطق الجبلية الوعرة. ذلك أن الاتصال المباشر بين القائد وجنوده يقل مع زيادة وعورة السطح. وطبيعة السطح توجب على القائد الميداني البقاء على اتصال مباشر مع جنوده، وتعتمد الجيوش وكنتيجة لتلك الظروف، إلى انتهاج استراتيجية التجمع في مناطق محدودة للإبقاء على الاتصال بينها.

ويؤثر السطح الجبلي الوعر على صعوبة السيطرة على الوحدات القتالية، ويؤدي إلى تفرقها إلى وحدات منعزلة يصعب السيطرة عليها. ولذا فإن أمر توزيع الصلاحيات على القادة الميدانيين بطريقة أوضح في المناطق الجبلية الوعرة هو أكثر إلحاحا في المناطق الجبلية، لاحتمال تشتت القوات وانقطاع الاتصال معها. لذلك فإن القيادات العسكرية العليا تعتمد إلى تزويد قادة الوحدات بتعليمات تشمل مراحل الحرب المختلفة وأهدافها، وخيارات التصرف المختلفة في حال نشوء ظروف جديدة تنقطع معها سبل الاتصال مع القيادات.

وتقلل المناطق الجبلية الوعرة من قدرات الجيش على الحركة، وينطبق ذلك على كل من المدافع والمهاجم. وإمكانات الحركة تفرض على الجيش المدافع نوع السلاح المستخدم. فكما هو الحال بالنسبة للمهاجم فإن الأسطح الجبلية الوعرة تحد من استخدام الدروع، إلا أنها تحد من الاستخدام الكثيف للمدفعية من قبل المدافعين. ويعود ذلك إلى صعوبة تحريك بطاريات المدفعية من مكان لآخر، خاصة إذا كانت المرتفعات الجبلية إنكسارية، سحيقة الأودية، ومكسوة بالأشجار. وكثيرا ما يتم تجاوز مناطق المدافعين في الجبال لعدم مقدرة الوحدات المدفعية على إغلاق كافة الطرق ومراقبتها، ومنع العدو من اختراقها.

هذا التجاوز يمنح العدو فرصة تطوير الوحدات المدفعية ومهاجمتها من الخلف. وتقف المناطق الجبلية عائقا أمام توجيه نيران المدفعية المساندة. ويصعب على القوات المدفعية تنظيم انسحاب تكتيكي منظم في المناطق الجبلية تحت نيران العدو، وذلك لوعورة السطح وضيق الممرات والطرق، خاصة إذا سيطر العدو على تلك الممرات. وفي المناطق الجبلية يفترض التغيير المستمر لمواقع المدفعية حتى تتمكن من تقديم دعم مستمر وفعال للقوات المدفعية، أو المتعرضة.

ويؤثر التواجد في المناطق الجبلية على تقدير المسافات من قبل القادة، فالناظر إلى المناطق المنخفضة من المناطق الجبلية المرتفعة يقدر المسافات بأقل مما هي عليه في الواقع، ويحدث العكس بالنسبة للناظر من المناطق المنخفضة إلى القمم الجبلية المرتفعة، كما أن مدى الرؤيا بالنسبة للقوات المدفعية يكون أقل بكثير من المناطق السهلية المفتوحة، فإذا استثنينا المواقع الحاكمة، فإن مدى الرؤيا خلال المناطق الجبلية تكون أقل بكثير منها في المناطق المفتوحة، ويتناسب مدى الرؤيا عكسيا مع المسافة. فقد صنف الألمان مدى الرؤيا في المناطق الجبلية المتوجة عن طريق تحديد نسبة الوقت الذي تكون تحديد نسبة الوقت الذي تكون فيه الرؤيا واضحة، فحتى مسافة 500 م تصل نسبة الرؤيا إلى 40 % من الوقت. أما بالنسبة للمسافات التي تتراوح بين 500 إلى 1000 متر فإن تلك النسبة تتناقص إلى 20 % في حين يتحسن مدى الرؤيا في المسافات التي تتراوح بين 1000 - 2000 متر حتى تصل إلى 25 % من مجموع الوقت. وتنخفض النسبة إلى 15 % في المسافات التي

تزيد عن 2000 متر. وللمعهد الجغرافي الإيطالي رأي آخر فيما يتعلق بهذه النسب. فتصل النسبة إلى 25 % من مجموع الوقت في المسافات التي لا تزيد عن 700 متر، و16 % في المسافات بين 700 - 1000 متر، و40 % في المسافات التي تتراوح بين 1000 - 2000 متر، ثم تنخفض النسبة إلى 14 % في المسافات التي تتراوح بين 2000 - 3000 متر، و5 % في المسافات التي تزيد عن 3000 متر. وتتفاقم المشاكل المتعلقة بالاتصالات اللاسلكية في المناطق الجبلية المرتفعة، وتؤدي الأرض المتقطعة الوعرة إلى تعقيد عمليات الاتصال والسيطرة لكل من المدافع والمهاجم معا. كما أن كفاءة الاتصالات اللاسلكية تتضاءل في الأسطح المتموجة. فتؤثر الجبال على انتشار الموجات اللاسلكية، فتخفض قدرات الأجهزة الرادارية، وأجهزة قياس المسافات في المناطق الجبلية المرتفعة. وكثيرا ما يضطر القادة الميدانيون للاعتماد على العين البشرية في تقدير المسافات، وفي ملاحظة مراقبة القوات المعادية. وتقيم الجيوش نقاط مراقبة في القمم الجبلية المرتفعة والتي تشرف على المناطق المجاورة. وتمكن الجبال القوات المهاجمة من استغلال عنصر المفاجأة، خاصة في الجبال المغطاة بالنباتات الطبيعية الكثيفة التي تستر تحركات القوات المهاجمة.

ومن المشاكل التي تواجه العسكرية في الأودية تصاعد الدخان على شكل أعمدة تعتبر أدلة واضحة على مواقع القوات، كما إنه بالإمكان مشاهدة النيران من على مسافات بعيدة، لذلك تلجأ الجيوش إلى إشعال نيرانها في حفر يزيد عمقها عن نصف متر. وفي المناطق الجبلية حيث الإشعاع الشمسي الساطع، تظهر الأدوات والأجهزة والمعدات اللامعة بوضوح، مما يؤدي إلى كشف مواقع القوات. لذلك يتوجب على القوات المعسكرة في الجبال طلاء أدواتها وتمويهها بما يتناسب مع البيئة المحلية. وفي حال اختيار مواقع المعسكرات يجب إبعادها عن مواطن الانهيارات المحتملة، وأبعادها عن ضفاف الأنهار المعرضة للفيضانات.

وقد تتعرض القوات المدافعة في المناطق الجبلية إلى خطر الانهيارات الصخرية والإنزلاقات الأرضية، الناجمة عن عوامل التعرية كالمياه والرياح والجليد، أو نتيجة للانفجارات والقذائف الصاروخية والمدفعية. ففي المناطق الجبلية الوعرة، يكفي عدد قليل من القذائف المدفعية والصواريخ لإحداث انهيارات أرضية ضخمة تؤدي إلى خسائر كبيرة في صفوف المدافعين، إضافة لما ينتج عنها من إغلاق للطرق والممرات وبطون الأودية الضيقة.

الهجوم في المناطق الجبلية

تحتاج القوات التي تستعد لعبور السلاسل الجبلية أثناء تعرضها العسكري إلى معلومات وافية عن طبيعة السطح الجغرافي، الذي تزمع خوض معاركها على

أسطحه وبين بطون أوديته، وعلى منحدراته وسفوحه، وتجمع القوات المسلحة معلوماتها عن طبيعة السطح الجغرافي من خلال الخرائط الجغرافية والطبوغرافية المتوفرة لديها. إضافة إلى ما يتم استخلاصه من تحليل وترجمة الصور الجوية والفضائية. كما يستمد الجند معلوماتهم عن السطح من المجموعات الاستخباراتية، ومن السكان المحليين. ويجب أن تشتمل تلك المعلومات على الأبعاد الجغرافية والمسافات، والموقع الجغرافي النسبي والمطلق. ولذلك فإن دراسة ظروف المكان الجغرافية تتضمن دراسة لطبيعة وصفات الصخور والتربة، والتوزيع الجغرافي لنباتات، وصفاتها، وكفاتها.

سليات الهجوم عبر المناطق الجبلية:

تشكل السلاسل الجبلية عوائق طبيعية وموانع يصعب اجتيازها من قبل القوات المهاجمة. وتتطلب العمليات العسكرية في المناطق الجبلية عدداً وعدة أكبر بكثير مما تحتاجه في المناطق السهلية المفتوحة. ويحتاج المهاجم للمناطق الجبلية إلى عدد من القوات تتراوح نسبته بين 3 - 1 أو 4 - 1، حتى يتمكن من تحقيق انتصارات تكتيكية على عدوه، المتحصن في السلاسل الجبلية. ويجب عدم الإسراف في زيادة حجم القوات الموكلة إليها مهام مهاجمة الواقع الجبلية، ذلك أن إمكانيات انتشار تلك القوات محدود، وبالتالي فإن تجميع عدد كبير من القوات المهاجمة في مراكز جغرافية محددة يعرض صفوفها لخسائر فادحة، يمكن أن تتجنبها بتقليل حجم القوات المهاجمة. وعلى الرغم من محدودية الحركة والتزويد. فإن إمكانيات خداع العدو كبيرة تساعد على تحقيقها الظروف البيئية الجبلية.

وتقف وعورة السطح في المناطق الجبلية أمام حركة وتقدم القوات. ذلك أن ضيق الممرات والطرق البرية عبر المناطق الجبلية يجعل حركته أبطأ وتجعل قواته عرضة للهجوم والإبادة. ويواجه المهاجمون مخاطر لتعرض لخسائر ضخمة، إمكانات وقف تقدمهم إذا ما تم اكتشاف حركة قواتهم قبل بدء الهجوم. ذلك إن القوات المهاجمة للمناطق الجبلية تضطر للسير في أرتال وقوافل متعاقبة، خاصة بالنسبة للآليات والدبابات. ولذلك فإن إغلاق الممرات والطرق سواء بواسطة التدمير المتعمد أو تعطيل الآليات أو بواسطة الانهيارات، يؤدي إلى إيقاف حركة القوات وربما فشل الهجوم.

ومن أمثلة ذلك في التاريخ العسكري ما واجهته القوات الإنجليزية من مشاكل أثناء محاولاتها السيطرة على المرتفعات الجبلية التي تحيط بعاصمة جزر الفوكلاند ستانلي أثناء هجومها عليها، لاستعادتها من القوات الأرجنتينية. فقد عزز الجيش الأرجنتيني من تحصين تلك التلال من خلال زراعة الألغام وخنادق الحماية عميقة الجدران. وقد أثبتت الدراسات أنه لم يجرح إلا عدد قليل من الجنود الأرجنتينيين

بالنيران الإنجليزية، بسبب مناعة تلك الخنادق. وقد اختار قادة الجيش الإنجليزي المرتفعات الجبلية لتكون مناطق انطلاق لقواتهم، التي أنيطت بها مهمة استعادة جزر الفوكلاند. ولذلك فقد تقدمت معظم وحدات الجيش لإنجليزي سيرا على الأقدام ، لعدم ملائمة ظروف السطح من جهة، ولعدم توفر الآليات المدرعة من جهة أخرى. وحتى في الجيش الأمريكي بقي أمر نقل وحركة الجنود سيرا على الأقدام من الخيارات المفضلة في كثير من الظروف حتى في عصر الطائرات وناقلات الجنود المصفحة والآليات المدرعة.

وقد يكون المهاجم محظوظا إذا كانت مسارب الأودية والطرق تقع في نفس اتجاه حركته، وإلا فإن حركته ستكون صعبة. وفي الغالب فإن القوات المهاجمة تسير في بطون الأودية أو بمحاذاتها، في أعقاب مجموعات الاستطلاع التي تتخذ رؤوس التلال والممرات الصعبة الوعرة طريقا لها.

ويسهل أمر اكتشاف القوات المتحركة من خلال أعمدة الدخان المتصاعدة من مداخل الآليات والدبابات أثناء حركتها. ولذلك فإن المناطق الجبلية هي بحق ميدان المشاة الأول، حيث يصعب فيها استخدام المدرعات التي يكون استخدامها مقصورا على الطرق المحددة أصلا، وبذلك تكون عرضة لنيران مدفعية القوات المعادية ونيران طائراتها.

وتؤثر المناطق الجبلية الوعرة على إمكانيات استخدام الطائرات هبوطها. فتزداد احتمالات القراءة الخطأ لعدادات قياس الارتفاع Altimeter في المناطق المرتفعة ذات الحرارة المنخفضة والضغط المنخفض لذا فإن الطيران فوق المناطق الجبلية يحتوي على مخاطر أكبر من الطيران فوق السطوح المستوية. ويؤثر اتجاه وسرعة الرياح والتيارات الهوائية الهابطة والصاعدة، على سرعة واتجاه سير الطائرات. وتزداد سرعة الرياح في أعالي القمم الجبلية، مما له آثار سلبية على عمل الطائرات، وقيام الجنود بمهامهم القتالية. وعلى الرغم من الدور الكبير الذي تقوم فيه الطائرات العمودية في مهام التزويد والكشف والقتال في المناطق الجبلية، إلا أنها تواجه مشكلة افتقار السطح الجبلية لأماكن ملائمة لهبوطها.

كما أن انتشار الضباب على سفوح السلاسل الجبلية يؤدي إلى حجب الرؤيا واضطرار الطيارين إلى الارتفاع فوق الضباب، مما يحد من قدرة الطائرات على العمل وإنجاز مهامها. كما تؤثر الغيوم المنتشرة على ارتفاعات منخفضة فوق المناطق الجبلية على مدى الرؤيا، وكفاءة عمل الطائرات. وتحد الغيوم التراكمية التي تنتشر في الشتاء من مدى الرؤيا، أكثر من الغيوم الطباقية التي تنتشر في الغالب في فصل الصيف. هنا تظهر الأهمية البالغة لاستخدام الطائرات العمودية التي تستخدم لأغراض الكشف عن الممرات التي يمكن خلالها فتح الطرق. وضمان حركة مستمرة للآليات.

وإذا كان المدافعون يواجهون مشاكل تتعلق بالتزويد والإمداد، فإن المهاجمين هم أكثر معاناة لهذه المشكلة، فطبيعة القتال في الظروف الجبلية تفرض على القوات استخدام أكبر للذخائر والأسلحة، لتطهير المواقع الجبلية المحصنة. وقد تضطر الوحدات المهاجمة إلى إطلاق نيران كثيفة، وأحيانا عشوائية، للسيطرة على المواقع الدفاعية. وفي المناطق الجبلية الوعرة تنخفض دقة الإصابة بسبب تموج السطح الجغرافي. يفرض الاستهلاك المستمر والمتزايد للذخائر على المهاجم ضرورة التعويض عنها. كما إن الظروف القتالية الجبلية تفرض على المقاتلين استهلاك متزايد للمؤن والغذاء نتيجة للجهد غير العادي المبذول من قبل الجنود في العمليات الجبلية. مما يفرض على المهاجم الاحتفاظ بخطوط إيجابيات الهجوم عبر المناطق الجبلية.

وتوفر المناطق الجبلية فرص استغلال عنصر المفاجأة والمباغلة للقوات المدافعة، لما توفره الجبال من إمكانات الاختفاء والتستر خلف التلال، وبين الأشجار وفي بطون الأودية، كما يتمتع المهاجم بميزة اختيار محاور تعرضه القتالي. وغالبا ما تختار الجيوش المواقع التي لا يتوقع تقدمها من خلالها. كما تختار المواقع الدفاعية الأضعف والأقل تحصينا. وتتمتع القوات المهاجمة كما هو الحال بالنسبة للمدافعين بميزة التخفي والتستر التي توفرها التلال الجبلية بما تحويه من أودية وخوانق وغابات: كما يستفيد المهاجمون من حماية الأرض الميتة التي تقع عند أقدام التلال الجبلية، والتي لا يستطيع المدافعون مراقبتها أو تغطيتها بنيرانهم.

تأثير السهول

السهول هي المناطق الجغرافية المنبسطة والتي يق معدل انحدارها عن 5 درجات. والسهول والصحاري وإلى حد ما الهضاب، هي المناطق التي يمكن تصنيفها من وجهة النظر العسكرية على أنها أراضي مفتوحة. والسهول إما أن تكون منخفضة قريبة من مستوى سطح البحر كالسهول الساحلية، أو سهول مرتفعة داخلية قد يرتفع بعضها ليشكل هضابا مرتفعة ذات سطوح مستوية. ويمكن أن نورد هضبة الجولان كمثال على السهول الهضبية المستوية السطح باستثناء بعض التلال ذات الارتفاعات المنخفضة، ومثال آخر في البلاد العربية هو سهل البقاع في لبنان الذي يستوي سطحه حتى يعتبر في عداد السهول، ويرتفع سطحه حتى أمكن اعتباره هضبة.

الصفات الطبيعية للسهول المؤثرة على سير العمليات العسكرية

1. مدى تموج السطح

تمتاز بعض السهول بأن أسطحها مستوية خالية من المرتفعات، إلا أن أسطح بعض السهول تمتاز بتموج أسطحها وانتشار بعض التلال التي قد يصل ارتفاع بعضها إلى عدة مئات من الأمتار.

2. وجود المستنقعات والسبخات الملحية

تمتاز بعض السهول في أنها مناطق تجمع لمياه الأودية والأنهار والمسيلات القادمة من أعالي المرتفعات المحيطة. ويؤدي الارتفاع المستمر في رطوبة تربة القيعان المنخفضة في بعض السهول إلى تكون المستنقعات المائية التي ترتفع نسبة رطوبتها.

وفي الوطن العربي تنتشر المستنقعات في جنوب السودان حيث مستنقعات السدود، ومستنقعات الأهوار في جنوب العراق. وفي كلا المنطقتين تنتشر المستنقعات حيث يقل انحدار وسرعة نهر شط العرب ونهر النيل، ويترنح في سيرهما، مما يؤدي إلى تفرعها إلى عدة فروع تنتشر بينها المستنقعات.

وفي المناطق الحارة حيث ترتفع درجة الحرارة وتزيد معدلات التبخر، تتبخر مياه المستنقعات وتترك سبخات ملحية ترتفع نسبة ملوحة تربتها. أما في المناطق الرطبة التي تنتشر فيها الترب الطينية الغضارية، تغطي أرض المستنقعات الأوحال والطين. وتنتشر المستنقعات والسبخات في السهول المستوية سيئة التصريف. وتتفاقم المشكلة إذا اقترن وجودها بالترب الطينية والغرينية.

وتنتشر السبخات الملحية في شمال دول المغرب العربي في هضبة الشطوط، التي تقع بين جبال أطلس التل. جبال أطلس الصحراء، أو أطلس الخلفية. وهضبة الشطوط أو السبخات الملحية هي مناطق تجمع لمياه الأمطار الساقطة على المرتفعات المجاورة. وتنتشر السبخات الملحية في شمال شرق العراق وفي الأغوار الأردنية، وخاصة في المناطق المحيطة بالبحر الميت.

3. المسطحات المائية والبحيرات

تغطي بعض أسطح السهول البحيرات والخزانات المائية الطبيعية والاصطناعية، والتوزيع الجغرافي وصفات تلك التجمعات المائية له أثر مباشر على العمليات العسكرية في المناطق السهلية.

4. الأنهار والأودية الجافة

كثيراً ما تقطع الأودية والأنهار أسطح السهول وخاصة في المناطق الرطبة. وتنتشر الأودية الجافة في المناطق شبه الصحراوية، في حين تكاد تخلو الصحاري من الأودية لشدة جفافها.

طبيعة تأثير السهول على سير العمليات العسكرية

أ. على المدافعين

تشكل المناطق السهلية المفتوحة أحد المشاكل التي تواجه المدافعين، حيث تقف القوات المدافعة مكتوفة أمام قوات العدو البرية والجوية. فتحرم السهول المفتوحة الخالية من التجمعات التضاريسية والغطاء النباتي المدافعين من إمكانيات التستر والتخفي، وتفرض السهول على الجيوش المدافعة تشتيت القوات لتتمكن من حماية الجبهات الطويلة.

وحتى لا تتعرض الوحدات المقاتلة للخسائر الضخمة في الأرواح والمعدات، حيث يلجأ القادة العسكريون إلى تشتيت قواتهم وتفريقها. غير أنها في المقابل تتيح لهم إمكانية المراقبة ووضوح الرؤيا مما قد يحرم العدو من استغلال عنصر المفاجأة.

ب. على المهاجمين

وتتيح السهول للمهاجم فرصا المراقبة، اتساع مدى الرؤيا تجنب المفاجآت من قبل القوات المدافعة ووحداتها المكلفة بالهجوم المعاكس. وبنفس الوقت فإنها تحرمه من استغلال عنصر المفاجأة أيضا. وكما هو الحال بالنسبة للقوات المدافعة، فإن مدى الرماية أوسع بكثير في السهول المفتوحة، مما يؤدي إلى استغلال أمثل لكفاءة الأسلحة وفعاليتها. وتتيح المناطق السهلية المفتوحة للمهاجم فرص استخدام استراتيجية الالتفاف أو تطويق القوات المعادية.

وتتفادى الجيوش انتهاز استراتيجية القتال الجبهوي، أو الخطي للتقليل من الخسائر المحتملة. وقد انتهجت إسرائيل في حرب 1973 استراتيجية الاختراق والالتفاف حول القوات المصرية عندما عبرت القناة في ثغرة الدفرسوار. وقد تم اختيار نقطة الضعف عند التقاء مناطق سيطرة الجيشين الثاني والثالث المصريين كنقطة اختراق.

وقد تكون المكاسب التكتيكية والاستراتيجية كبيرة في حال نجاح تلك الاختراقات وتطوق قوات الخصم. فقد يؤدي ذلك إلى قطع خطوط إمداده وانهيار معنوياته مما يدفع بعض القوات إلى الاستسلام دون قتال، وقد يستخدم التطويق لأغراض سياسية ولأغراض إيقاف الحرب، كما حدث في حرب 1973.

تأثير الصحاري

الصحاري هي المناطق الجغرافية التي تزيد فيها معدلات التبخر السنوية أو الفصلية عن معدلات التساقط. وتفتقر الصحاري للرطوبة التي يمكن أن تحدد وجود الحياة. وتغطي الصحاري نحو ثلث مساحة سطح الأرض. وأهم الصحاري العالمية هي الصحراء الأفريقية العظمى، والصحراء العربية في شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب، والصحراء الإيرانية، وصحراء جوبي في وسط آسيا، وصحراء الحوض العظيم في جنوب غرب أمريكا الشمالية (نيفادا ويوتا واريزونا وكاليفورنيا)، وصحراء اتكامل في وسط غرب أمريكا الجنوبية، وصحراء كلهاري في جنوب غرب إفريقيا، وصحراء فكتوريا في جنوب استراليا.

أنواع الصحاري تبعا لأسباب تكونها

1. صحاري طبوغرافية Topographic Desert

تكونت الصحاري الطبوغرافية في ظل السلاسل الجبلية العظيمة كجبال السيرانيفادا في أمريكا الشمالية، التي تكونت خلفها صحراء كاليفورنيا في غرب الولايات المتحدة. وصحراء غرب الأرجنتين التي تقع في ظل جبال الأنديز في غرب أمريكا اللاتينية. وبعض هذه الصحاري يقع في العروض المعتدلة بي 30 - 35 درجة شمال خط الاستواء، حيث يتصف مناخ تلك الصحاري بالجفاف والحرارة العالية في الصيف، والبرد القارس في الشتاء. ومن الأمثلة على تلك الصحاري براري وسط أمريكا الشمالية والواقعة في ظل جبال الروكي.

2. الصحاري المدارية Tropical Deserts

وهي الصحاري التي تقع بين دائرتي عرض 5 - 30 شمال وجنوب خط الاستواء، ويعود سبب تكونها إلى الدورة العامة للرياح، حيث تهب على هذه الصحاري الرياح التجارية الحارة المتجهة نحو منطقة الضغط الجوي المنخفض المتمركز فوق منطقة خط الاستواء، والتي تسخن الهواء وتزيد قدرته على حمل بخار الماء، وبذلك تقل فرص التساقط فيها. وتقع كل من الصحاري العربية، الصحراء الأفريقية العظمى، صحراء فكتوريا، صحراء كلهاري، وصحراء سونارا في شمال غرب المكسيك، صحاري الحوض العظيم، صحراء أفغانستان وبلوشستان، في شمال غرب الهند ضمن هذا النطاق.

3. صحاري التيارات المائية الباردة

وهي تلك الصحاري التي تكونت بسبب هبوب الرياح الباردة القادمة من فوق التيارات المائية الباردة، على المناطق المدارية الحارة، مما يرفع درجة حرارة تلك الرياح ويزيد قدرتها على حمل بخار الماء ويقلل من احتمالات تساقط ما بها من بخار ماء، ومن الأمثلة على تلك الصحاري صحراء جنوب بيرو وشمال تشيلي، حيث يلعب تيار همبولت البحري في المحيط الهادي دورا بارزا في تصحرها.

4. الصحاري الباردة

وهي الصحاري الجافة الباردة شمال إقليم التندرا، شمال صحراء سيبيريا، وشمال كندا.

أنواع الصحاري تبعا لجيومورفولوجيتها (طبيعة السطح)

أ. الصحاري الصخرية (الحمادة):

وهي صحاري صخرية صلبة أو مكسرة قد تكون مستوية أو متموجة السطح، تغطي سطوحها الحصى الصخرية. وفي الوطن العربي تنتشر مثل تلك الصحاري في الأردن، ليبيا، والسعودية.

ب. صحاري تكوينات السرير:

وهي عبارة عن سهول تغطي سطوحها الرمال والحصى وتنتشر في ليبيا وشمال إفريقيا.

ج. صحاري التلال والأودية:

وهي عبارة عن جبال صخرية مقطعة بالأودية التي تكونت المراوح الفيضانية عند قيعانها وعند مصبات الأودية، وتنتشر فيها البحيرات والمستنقعات.

د. صحاري العرق:

وهي صحاري الكثبان الرملية التي تغطي أسطحها الكثبان الرملية الناعمة التي قد يتراوح سمكها بين عدة سنتيمترات إلى عدة أمتار. وقد تتحرك هذه الرمال نتيجة للعواصف الشديدة. وتنتشر مثل تلك الصحاري في الربع الخالي. والنباتات الصحراوية هي نباتات جافوفية خشبية Xerophytic، ذات توزيع مشتت ومتفرق. وتتكون النباتات الصحراوية من شجيرات ذات أوراق قاسية. وتنتشر في الصحاري المدارية ذات الجفاف الشديد، والحرارة العالية أعشاب قاسية متفرقة.

في حين تنتشر في صحاري العروض الوسطى (30 - 35 درجة) ذات الحرارة العالية صيفا، والبرد القارس شتاء، تنتشر فيها الشجيرات الشوكية، في بعض أنحائها، وأعشاب السافانا والسهوب في بعض مناطقها. أما صحاري السواحل الغربية المدارية ذات الحرارة المعتدلة نسبيا، والضباب الكثيف، تنمو بعض الأعشاب الملحية. أما نباتات الصحاري القطبية الباردة (إقليم التندرا) فهي عبارة عن اشنات وطحالب وبعض الشجيرات الصغيرة، وتنتشر الصحاري الباردة حتى دائرة العرض 84، حيث تغطي الثلوج سطح الأرض بعد ذلك.

الصفات الطبيعية للصحاري المؤثرة على سير العمليات العسكرية

إن أهم ما يميز الصحاري هو انخفاض معدلات التساقط وتزايد معدلات التبخر. فلا تزيد معدلات التساقط في معظم صحاري العالم عن 25 سم سنويا، رغم تمتع بعض الصحاري بمعدلات أمطار تزيد عن 30 سم، وتمتاز أمطار الصحاري بأنها مشتتة، غير متوقعة، وغزيرة، تهطل في فترات زمنية قصيرة. وهي في الغالب ناجمة عن عواصف رعدية مفاجئة تؤدي إلى حدوث الفيضانات الانجرافات. وفي الوطن العربي ثلاث مناطق صحراوية تمتاز بشدة الجفاف هي: صحراء الربع الخالي التي تزيد مساحتها عن 229.000 ميل مربع، صحراء ساحل عدن، وصحراء

جنوب سيناء، إضافة إلى صحاري شرق إيران. وفي حين تغطي الصحاري العربية في آسيا ما مساحته 224.000 ميل مربع في كل من سوريا، العراق، الأردن، والسعودية، غير إن معدلات الأمطار الساقطة فيها تتجاوز 20 سم.

وتتمتاز الصحاري بارتفاع درجات الحرارة باستثناء الصحاري الباردة. فتصل درجات الحرارة في الصيف إلى 50 درجة مئوية. وبالإضافة إلى شدة الحرارة، فإن المناخ الصحراوي يمتاز بارتفاع المدى الحراري اليومي والسنوي. حيث يتزايد الفرق بين أعلى درجة حرارة وأخفض درجة حرارة، بين الليل والنهار، والصيف والشتاء.

فعلى سبيل المثال فقد وصل المدى الحراري السنوي في طرابلس الغرب إلى 68 درجة، وهو الفرق بين أعلى درجة حرارة سجلت في فصل الصيف وهي 99 درجة، وأدنى درجة حرارة سجلت في الشتاء وهي 31 درجة. ويمتاز مناخ الصحاري بالعواصف الرملية وشدة الرياح التي قد تستمر لعدة أيام أو عدة أسابيع. وفي الصحاري الرملية تشير تلك الرياح العواصف وتحمل الرمال وتنقلها من مكان إلى آخر.

أما من الناحية الجيومورفولوجية فإن سطح الصحاري في غالب الأحيان شبه مستوي، باستثناء صحاري التلال والأودية. ويتكون سطوح الصحاري إما من الرمال المفككة، أو من التكوينات الصخرية المكشوفة. كما تحتوي الصحاري على بعض القيعان التي تشكل مناطق التقاء للأودية، فتتكون فيها السبخات الملحية. وتغطي بعض أسطح الصحاري الطفوح البركانية البازلتية القاسية التي تعتمد في سماكتها وانتشارها على عمرها، ومدى نشاط عوامل الحت والتعرية. ومن أمثلة ذلك الطفوح البركانية المنتشرة في شرق المملكة الأردنية الهاشمية. وكنتيجة مباشرة للظروف المناخية السائدة فإن الصحاري تخلو من الأنهار والأودية، إلا من بعض الأودية التي تقع على أطراف الصحاري وترتبطها مع المناطق شبه الجافة. ويستثنى من ذلك بعض الأنهار الكبيرة التي تخترق الصحاري كنهر النيل والفرات. وتغطي بطون الأودية الصحراوية ترب صحراوية بنية تحول إلى ترب طينية حال سقوط الأمطار وجريان الأودية. وتتميز الأودية الصحراوية بانتشار المراوح الفيضية عند مصابتها. والمراوح الفيضية هي عبارة عن سهول في تشبه الدلتاوات في حالة الأنهار الرطبة تتكون عند مصبات الأودية في القيعان والمناطق المنخفضة، وتنتشر مثل تلك المراوح عند أقدام التلال، وعلى مصبات الأودية الصحراوية، التي تصب في وادي عربة. وتغطي أسطح صحاري العرق أو الصحاري الرملية الكثبان الرملية الناعمة، التي تختلف أحجامها وارتفاعاتها واتجاهاتها، تبعاً لشدة الرياح واتجاهاتها،

وقد تكون الرمال الصحراوية عبارة عن كتبان متجمعة، وقد تكون عبارة عن غطاءات رملية واسعة الانتشار يطلق عليها أسم بحر الرمال. ونتيجة لقلّة الأمطار فإن كثافة الغطاء النباتي تقل، بل وتنعدم في كثير من الحالات. وقد تغطي بعض الصحاري شجيرات شوكية قصيرة ومتفرقة. والنباتات الصحراوية قصيرة لا يزيد ارتفاعها عن مترين ولها شكل تاجي حتى تتمكن من الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من الماء. وهي أيضا متباعدة، تتقارب من بعضها البعض في بطون الأودية والقيعان التي تتجمع فيها المياه. وانتشارها يعود إلى ضرورة عدم تنافسها على الرطوبة القليلة في التربة. وقصر الأشجار، وقلّة أغصانها وطبيعة أوراقها الإبرية لا تساعد على التخفي والتستر بالنسبة للقوات المنتشرة في الصحراء. ومما يزيد في عدم ملائمتها لأغراض التخفي ابتعادها عن بعضها البعض والمساحات الصغيرة التي تغطيها.

ومن الناحية البشرية فإن الصحاري قليلة السكان، قد تخلو بعض أجزائها من السكان كصحراء الربع الخالي، وقد تنتشر فيها بعض قبائل البدو، التي تعتمد في حياتها على بعض الينابيع والآبار القليلة في الواحات. وقلّة المياه هي العامل الرئيسي في تخلخل الكثافات السكانية، في الصحاري لذلك يميل معظم سكان لصحاري للعيش في أطرافها القريبة من الأراضي شبه الرطبة التي تتوفر فيها المياه. وكنتيجة مباشرة لتخلخل الكثافات السكانية فإن الصحاري تفتقر للطرق والسكك الحديدية، وترتبط الطرق الصحراوية في معظمها بين الواحات.

طبيعة تأثير الصحاري على العمليات العسكرية

تتمتع الصحاري العربية بشكل خاص، وصحاري الشرق الأوسط بشكل عام، بأهمية استراتيجية عسكرية تميزها عن غيرها من صحاري العالم. فمميزات الموقع الجغرافي الذي يجعلها في منتصف العالم بحيث تربط بين قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا، وأهميتها التاريخية المتمثلة في مجاورتها للإمبراطوريات العالمية القديمة، كلها صفات أكسبتها تلك الأهمية. وقد اكتسبت منطقة الشرق الأوسط بصحاريها وجبالها، أهمية استراتيجية متجددة في أعقاب انقسام العالم إلى كتلتين تنزعهما قوتين عظيمتين هما: الولايات المتحدة، الاتحاد السوفيتي المنهار، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، ونظرا لقرب الشرق الأوسط من منطقة نفوذ وسيطرة الاتحاد السوفيتي، زاد الاهتمام الغربي فيه في محاولة لمنع السوفييت من نشر نفوذهم في المنطقة والسيطرة عليها. وأدى اكتشاف النفط في مطلع القرن الحالي في أنحاء عديدة من صحاري الشرق الأوسط إلى زيادة تلك الأهمية، واهتمام القوى العالمية فيها. وقد جاء دعم الدول الغربية لإقامة ديمومة بقاء دولة إسرائيل في موقع جغرافي يمثل قلب

القلب في حلقة الوصل العالمي بين القارات الثلاث، كدليل قاطع على تعاضم الأهمية الإستراتيجية للمنطقة وزيادة اهتمام الدول الاستعمارية فيها.

أثر الطبيعة الجغرافية للمسرح الصحراوي على المدافع

يمتاز مسرح العمليات وميدان المعركة الصحراوي بأنه مفتوح نظرا لطبيعة السطح الجغرافي الخالي من التموجات والأودية والغطاء النباتي، وميدان المعركة المفتوح يمنح كل من المدافع والمهاجم بعض الميزات التي يمكن أن نوجزها فيما يلي:

يمنح السطح الصحراوي كل من المدافع والمهاجم ميزة الرماية البعيدة والواسعة النيران مساحات شاسعة ن أرض المعركة، كما تمنح القوات المدافعة فرصة بحيث تغطي فرصة الاعتماد على أسناد مدفعي فعال. ويوفر الميدان المفتوح للقوات المتحاربة رؤيا ومراقبة جيدة لحركة وتجمعات القوات المعادية، حيث تحرم الطبيعة الجغرافية للصحراء الأطراف المتحاربة من إمكانيات التخفي والتستر نظرا لأستواء وانكشاف السطح. ففي ميدان المعركة الصحراوي تقف القوات المتحاربة مكشوفة لا يحجبها عن عيون، كميرات، وأهزة مراقبة عدوها شيئا. لذلك فإن ميدان المعركة الصحراوي يكون باستمرار مكشوبا أما أجهزة التصوير الجوي وأجهزة الأستشعار عن بعد المتطورة، والتي أصبحت بسجل أدق تفاصيل السطح الجغرافي عن بعد.

وطبيعة السطح المكشوف تجعل المدافع لا يخشى امكانات مباغطة عدوه له، ذلك أن فرص المباغطة العسكرية والهجوم المفاجئ تكون شبه معدومة في لبيئات الصحراوية المكشوفة. وتفرض ظروف البيئة الصحراوية على المدافعين انتهاز استراتيجيات الدفاع المتحرك، ذلك أن الاعتماد على اسلوب الدفاع الثابت في البيئات الصحراوية المكشوفة سسيعرض الوحدات المدافعة لخسائر نظرا لإنكشافها أمام العدو، وخاصة أمام طائراتها المقاتلة.

ولعل اجتماع ميزتي انكشاف ميدان القتال، واتساع جبهة القتال يفرض على المدافع تركيز قواته في محاور قتالية محددة دون تغطية الجبهة بالكامل. فقد تعجز الجيوش الصغيرة عن تغطية جبهة صحراوية طويلة، فتختار محاور عسكرية ذات أهمية استراتيجية لتقوم بتغطيتها وتحصيتها، وغالبا ما تكون تلك المواقع على محاور الطرق المؤدية إلى القلب الحيوي للدولة، الذي يحتوي على تجمعاتها السكانية ومراكز انتاجها الاقتصادي. وكأجراء مكنل تقوم تلك الجيوش بالاحتفاظ بوحدات دفاعية متحركة، مهمتها القيام بواجبات دفاعية على طول قواطع قتالية محددة حسبما يطلب منها.

كما أن انفتاح ميدان المعركة في البيئت الصحراوية يؤدي إلى زيادة إمكانيات الحركة للقوات المتقاتلة. وحرية الحركة يؤدي إلى زيادة عمق الهجوم، وزيادة عرض واجهة الهجوم، والاعتماد على الحركة المستمرة يتطلب إمكانيات تنولوجية متطورة للحركة ونقل القوات مداتها وذخائرها. وقد اعتمد الجيش الإسرائيلي على القوات المحمولة ي حروبة ضد الجيوش العربية في أعوام 1967 و 1973 وإلى حد ما في اجتياحه للبنان عام 1982.

وإذا كان ميدان المعركة الجبلي الوعر ميدان سلاح المشاة الأول، فإن البيئات الصحراوية المفتوحة هي ميدان سلاح الجو، فأرضالصحراء المنبسطة وسماؤها الصافية الخالية من الغيوم، موخلوها ن النباتات وسبل التخفي والتمويه تمكن سلاح الجو من استغل قدراته وتحقيق أفضل النتائج، ففي حرب 1973، أحجمت القوات المصرية عن التوغل في أعماق صحراء سيناء بسبب انكشافها أمام سلاح الطيران الإسرائيلي المتفوق، وابتعادها عن مظلة صواريخ سام المضادة للطائرات والمتمركزة غرب القناة.

ويزداد أثر استخدام الأسلحة النووية في الصحاري بسبب انفتاح السطح وطبيعة التربة، بحيث يطيل أمدھا. ويسمح هواء الصحاري المخلخل بانتقال الموجات الناجمة عن الانفجار النووي بصورة أسرع. ولذلك فإن أثر تلك الموجات يقل على المناطق المنخفضة وفي الخنادق.

المدى الحراري وأثره على العمليات العسكرية

المدى الحراري هو الفرق بين أعلى وأدنى درجة حرارة بين الليل والنهار، والصيف والشتاء. ويطلق على الأول أم المدى الحراري اليومي، وعلى الثاني المدى الحراري السنوي، أو الفصلي. ويتعاطم المدى الحراري في الصحراء والمناطق القارية الداخلية أكثر من أي مكان آخر. ويعود السبب في ذلك جزئيا إلى ابتعادها عن تأثير البحر، لوقوعها في قلب القارة، أو لوقوعها في ظل السلاسل الجبلية الساحلية، أما السبب الرئيسي في تعاطم المدى الحراري في المناطق الصحراوية، فهو صفاء السماء الصحراوية، وخلوها من المطر، انكشاف السطح، وخلوه من الغطاء النباتي، فيعمل صفاء السماء وخلوها من الغيوم والضباب على السماح لأكبر قدر ممكن من أشعة الشمس من الوصول إلى سطح الأرض. ويزيد من قدرة سطح الأرض على امتصاص الإشعاع الشمسي خلوها، من الغطاء النباتي، وجفاف التربة. ونتيجة لذلك ترتفع درجة حرارة الأرض في النهار لتصل إلى 40 - 50 درجة مئوية.

وفي الليل فإن صفاء السماء وخلوها من الغيوم، يسمح للإشعاع الأرضي بالخروج والانطلاق إلى طبقات الجو العليا، مما يسهم في خفض درجات حرارة

سطح الأرض بشكل كبير جدا. ومما يساعد على رفع درجة حرارة اليابس بسرعة، وخفضها بسرعة مقارنة بالأسطح المائية، هو انخفاض الحرارة النوعية له. والحرارة النوعية للمادة هي كمية الحرارة اللازمة لرفع درجة حرارة غرام واحد من المادة درجة مئوية وحدة. والحرارة النوعية للماء هي أكبر أربع مرات من الحرارة النوعية لليابس، وعليه فإن رفع حرارة اليابس يحتاج إلى كمية حرارة أقل أربع مرات مما نحتاجه لرفع حرارة الماء. هذا هو سبب تفاوت درجات الحرارة في المناطق الصحراوية.

والمدى الحراري يجبر القوات التي تقاتل في الصحراء على حمل تجهيزات وملابس وأغطية تتلائم مع كل من الحرارة الشديدة والبرودة الشديدة. وهذا يعني أعباء إضافية في التزويد والنقل. كما أن التغير السريع لدرجات الحرارة بين الليل والنار، له آثار سلبية على صحة الجنود. وقد تتأثر الأجهزة والمعدات المستخدمة بالتبدل السريع لدرجات الحرارة لما تتعرض له من تمدد وتقلص مستمر.

العواصف الرملية وأثرها على العمليات العسكرية

الرياح الصحراوية متنوعة وشديدة ويصعب التنبؤ بأوقات هبوبها. وتمتاز صحاري الشرق الأوسط خاصة بهبوب رياح شديدة تستمر في كثير من الحالات لعدة أيام. ويصحب هبوب هذه الرياح انتقال الرمال والغبار والأتربة من مكان لآخر تبعا لاتجاه الرياح وسرعتها. ويطلق على هذه الرياح المحلية أسماء عديدة تبعا للمناطق الجغرافية المختلفة. فتهب من صحاري الهلال الخصيب ذات الضغط الجوي المرتفع في الشتاء رياح صحراوية جافة وباردة يطلق عليها أسم الرياح الشرقية، باتجاه المنخفضات الجوية المتمركزة فوق البحر المتوسط. وهي بالإضافة إلى أنها باردة وجافة فإنها تحمل الأتربة والغبار وتقتلع الأشجار والخيام. وفي الصيف تهب رياح مماثلة يطلق عليها اسم رياح الخماسين، ولها نفس صفات الرياح الشرقية، إلا أنها حارة وجافة، بدل أن تكون باردة ودافئة، وفي الخليج العربي يطلق على مثل هذه الرياح الصحراوية اسم الطوز، وفي السعودية اسم رياح السموم، وفي مصر رياح الخماسين، وفي ليبيا رياح القبلي، وفي المغرب والجزائر رياح السيروكو.

وللعواصف الرملية آثار سلبية على الجنود الذين يقاتلون في مسارح العمليات الصحراوية، حيث تقلل من مدى رؤيتهم، وتحد من قدراتهم على العمل والقيام بمهامهم القتالية، وقد تعمل الرمال التي تذررها الرياح على تعطيل الأجهزة والمعدات والأسلحة المستخدمة في ميدان المعركة الصحراوية. وتعمل العواصف الرملية على إعاقة عمل أجهزة الاتصال، حيث تعمل ذرات الرمل الدقيقة على تعطيل تلك الأجهزة.

أما أثرها على الجنود أنفسهم فيمكن أن تتمثل في حجب الرؤيا وتعطيل سائقي السيارات، الدبابات، والآليات، عن القيام بواجباتهم. فقد تشكل بعض العواصف الرملية غيوم من الرمال، تحجب أشعة الشمس، وتقلل مدى الرؤيا، وتعيق مدى تقدم القوات، وتشتت شملها. وفي مثل تلك الظروف فإن احتمالات ضياع الأفراد الذين ينقطع اتصالهم بوحداتهم، تتزايد. وقد يسلك البعض طرق واتجاهات خاطئة، تؤدي بهم إلى الوقوع في أسر الأعداء، وتعمل الرياح العاتية على الحد من حركة الجنود والآليات خاصة إذا كانت تهب بالاتجاه المعاكس لحركتهم: كما تعمل الرياح الجافة على تخفيف المجاري التنفسية وإغلاقها بذرات الرمال الدقيقة، وتشقق الشفاه والجلد. ولمثل تلك العواصف آثار معنوية سلبية على الأفراد، خاصة إذا طال أمدها.

ولتفادي أضرار العواصف يصطحب الجنود معهم الملابس الواقية من الرمال التي تحملها الرياح. وفي هذا المجال أثبتت الكوفية العربية نجاعتها في الالتقاء من ضرر العواصف الرملية وحماية العيون، والجهاز التنفسي. ويحتفظ الجنود بواقيات زجاجية تحمي عيونهم من الرمال التي تذروها الرياح. ومن الأخطار الأخرى التي قد يتعرض لها الجندي في ميدان القتال الصحراوي، أخطار الحشرات الضارة والزواحف السامة، التي قد تعرض حياة الجنود للخطر.

الصحاري الباردة

تشكل الأقاليم الباردة نحو 40 % من مجموع مساحة الكرة الأرضية. والصحاري الباردة هي أرض قاحلة مغطاة في معظم أنحاءها بالثلوج، والجفاف وشدة البرودة هي أهم الصفات التي تميز الصحاري الباردة.

الصفات الطبيعية للصحاري الباردة المؤثرة على العمليات العسكرية

إن انخفاض درجات الحرارة إلى مادون درجة التجمد في معظم الأحيان، وتراكم الثلوج والجليد بسماكات متفاوتة هي من أهم المميزات الطبيعية للصحاري الباردة. وتنتشر الثلوج المفككة الهشة في أنحاء عديدة من تلك الصحاري، وخاصة في المناطق التي تنخفض فيها درجات الحرارة إلى ما دون الصفر، في حين تنتشر الغطاءات الجليدية الصلبة والمتماسكة حيث ترتفع درجات الحرارة في بعض الأوقات إلى ما فوق الصفر، وتغطي بعض أطراف الصحاري الباردة نباتات التندرا، التي تتكون من نباتات فصلية تظهر في فصل الدفء، وتتغذى عليها بعض الحيوانات، وهي ذات تأثير تعبوي محدود. وتمتاز الصحاري الباردة كما هو الحال بالنسبة للصحاري الحارة باستواء السطح، حيث لا تزيد معدلات انحدار سطوحها عن 7 درجات. وتمتاز هذه الصحاري بانتشار البحيرات والمستنقعات التي تتجمد في فصل الشتاء.

تأثير الظروف الجغرافية للصحاري الباردة على العمليات العسكرية

يحتاج القتال في المناطق الباردة إلى إعداد خاص من حيث التجهيز الفردي للجنود كالملابس والأحذية، الأغطية.. إلخ، ومن حيث الأجهزة والمعدات والأسلحة. ذلك أن ظروف البيئة الباردة والتجمد، قد يؤثر على عمل الأجهزة والمعدات العسكرية غير المصممة للعمل في مثل تلك البيئات.

ويؤدي تجمد الأرض في المناطق القطبية الباردة إلى تشققها وانتفاخها أحياناً، وصعوبة السير عليها، مما يسبب الانزلاقات الأرضية. لذلك يصعب بناء الطرق والتحصينات. وفي المناطق الباردة تزول أهمية الأنهار والأسطح المائية باعتبارها عوائق طبيعية أمام الحركة العسكرية لتجمد سطوحها في فصل الشتاء واستخدامها للسير والتنقل. وظروف الطقس البارد لها آثار سلبية على صحة الإنسان والآليات العاملة هناك. فانخفاض درجات الحرارة يؤدي إلى تجمد الماء والزيت في الآليات. كما أن الهواء البارد، والليالي الباردة الطويلة تحجب الأوكسجين. كما أن وسائل الاتصال والتوجيه كالبوصلة، الراديو، والرادار، تتأثر إلى حد كبير بالقطب المغناطيسي. وفي المناطق القطبية يزداد الضغط عند مركز القنبلة النووية عند استخدام الأسلحة النووية في تلك المناطق. غير أن سرعة انتقال موجات الصدمات يقل، ولذلك يزداد أثر انفجار القنبلة النووية على المواقع المحصنة والخنادق أكثر من أثرها على الأسطح المكشوفة.

كما يحتاج القتال في المناطق الباردة إلى علم ودراية بالظروف البيئية، مثل وأوقات تساقط الثلوج، وسماكتها، وطبيعة وأوقات تجمد الأسطح المائية، وإمكانات السير على تلك الأسطح المجمدة، من قبل الأفراد، وبواسطة الدبابات والآليات. ولذلك فقد كان لمعرفة الجيش الروسي بالظروف الجغرافية لبلادهم أثر كبير في تفوقهم على وحدات الجيش الألماني الغازي لبلادهم في الحرب العالمية الثانية. فقد أدى استخدام الجيش الروسي لأسطح البحيرات والأنهار المتجمدة للتنقل، إلى تفوقهم على الجيش الألماني الذي كان يجهل تلك الأساليب. وقد كان لجهل الألمان بالظروف البيئية لروسيا أثر كبير في هزيمتهم أمام الجيش الروسي. ولذلك نجد أن الروس كانوا من أوائل من صنفوا الأسطح الجغرافية في البيئات الباردة، وأنجزوا دراسات ميدانية وأبحاث تتعلق بإمكانية استخدام الأسطح المائية المتجمدة كمعابر وممرات للجيش. وقد ولد الجهل بطبيعة العلاقة بين الجغرافيا والحرب ردة فعل قوية لدى علماء الجغرافيا الألمان. وقد سبق وتحدثنا عن مدى إيمان أتباع الفكر الجيوبولتيكي الألماني ومؤسسو مجلة الجيوبولتيكا بأن الجهل بطبيعة العلاقة بين الجغرافيا والحرب كان أحد أسباب هزيمة الألمان في الحرب العالمية الأولى. ويبدو أن القادة الألمان لم يستفيدوا من دروس الحرب العالمية الأولى ولم يستفيدوا من أبحاث مجلة

الجيوپولتيكا التي حاولت إثراء الفكر العسكري الألماني عن طبيعة العلاقة بين الجغرافيا والحرب. ولذلك تكرر الخطأ مرة أخرى وغزى " هتلر " روسيا، وجاءت هزيمته لأسباب جغرافية تتعلق بالظروف البيئية و العمق الجغرافي الروسي. ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن " هسهوفر " صاحب فكرة مجلة الجيوپولتيكا ورئيس تحريرها كان من أشد الناس معارضة لغزو روسيا، بسبب إدراكه لطبيعة المخاطر التي قد تنجم عن ذلك الخطر. ولما عجز عن إقناع القيادة الألمانية بذلك وخاصة الفهرور " أدولف هتلر "، انتهى به الأمر للانتحار في عام 1946.

تأثير المستنقعات والسبخات

المستنقعات Bogs والسبخات Marshes هي منخفضات أرضية يرتفع فيها منسوب المياه الجوفية. وتوجد المستنقعات في المنخفضات الأرضية التي حفرتها عوامل التعرية المائية والجليدية في المناطق التي تسود فيها المناخات الرطبة. أما السبخات الملحية فإنها تنتشر في المناطق المنخفضة، في الأقاليم التي تسود فيها المناخات الحارة. وفي كلتا الحالتين فإن التصريف المائي يكون قليل أو شبه معدوم، بحيث تتجمع مياه التساقط في المنخفض دون أن تجد سبيلا لها داخل الأرض، بسبب ارتفاع مستوى نطاق المياه الجوفية. وتتكون أرض المستنقعات من بقايا النباتات غير المكتملة التحلل، والتي قد يصل عمقها في بعض المستنقعات إلى المتر وفي أسفل تلك الطبقة تقع تربة المستنقعات المكونة في الغالب من ترب طينية لونها رمادي مائل إلى الزرقاء. وتمتاز تربة المستنقعات بارتفاع نسبة لزوجتها.

القتال في المستنقعات والسبخات

للقاتل في المستنقعات يحتاج الجند إلى تدريبات خاصة تتعلق بطرق وكيفية بناء التحصينات والمواقع العسكرية، والجزر الاصطناعية، في أرض وتربة مشبعة بالرطوبة؛ كما يحتاجون إلى تدريب على الأعمال الخاصة بحفر الخنادق والحفر في ترب المستنقعات التي يرتفع فيها منسوب الماء. ومن المشاكل التي تواجه القوات المتقاتلة في المستنقعات إمكانية الحركة والتنقل فوقها. ولذا تجري الجيوش المتوقعة مشاركتها في معارك فوق المستنقعات تدريبات خاصة على إنشاء الطرق وبناء الجسور واستخدام وسائل التنقل المختلفة فوق أرض المستنقعات اللزجة المشبعة بالماء. كما أن إجراء تدريبات على أعمال صيانة الآليات وتكييفها للسير فوق تلك الأسطح هو أيضا في غاية الأهمية. وفي بيئات طبيعية كذلك الموجودة في المستنقعات تنشأ ظروف صحية غير ملائمة لصحة الجنود نظرا لتوفر الرطوبة والغطاء النباتي، التي تشكل بيئة مناسبة لتكاثر الحشرات والعناصر الناقلة للمرض،

لذلك يتم توعية الجنود وتدريبهم على الوقاية من الأمراض والظروف الصحية، التي يمكن أن تظهر في مثل تلك البيئات.

وفي المستنقعات والسبخات قد يلجأ المدافع إلى الجزر المرتفعة، الكثبان العالية، وبيوت المزارعين، كمواقع بديلة للعسكرة في أرض المستنقعات الموحلة. وقد يشمل نظام الدفاع في المستنقعات بناء الجزر الاصطناعية من الرمل والحجارة والأخشاب. كما تساعد جذوع وأغصان الأشجار على التغلب على ظروف السطح الصعبة.

وقد أدى تجمد المياه في المستنقعات والمسطحات المائية إلى استخدامها من قبل الجيش الروسي كطرق وممرات لملاحقة الألمان المنسحبين في الحرب العالمية الثانية. وقد أدى انخفاض درجات الحرارة التي وصلت إلى -49 درجة فهرنهايت ووجود الجنود الألمان بدون مأوى إلى وفاة نحو 800 جندي ألماني يوميا. ولتفادي تلك الخسائر الجسيمة قام سلاح الهندسة الألماني بحفر الخنادق للجنود بواسطة المتفجرات، حيث أزيل الثلج وأشعلت النيران لحماية الجنود من الموت المحقق. وقد فشلت استراتيجية تفجير الثلج لمنع الروس من استخدامه كطرق، بسبب إعادة تجمده مرة أخرى لانخفاض درجات الحرارة. وقد انطبق ذلك على مياه الأنهار ومياه المستنقعات على السواء.

تأثير الغابات

لقد كانت الغابات منذ أقدم العصور ميدانا للمعارك العسكرية، فقديمًا كتب " صن تزو " عن القتال في الغابات فقال: " أنه إذا كان لابد من العسكرة قرب الغابات فعلى الجيش أن يقوم بتفتيشها بدقة للتأكد من خلوها من القوات المعادية ". وحذر تزو من الوقوع في المكائد والعوائق والعقبات التي يصنعها العدو في الغابات. ومن وصاياه للجيش التي تقابل في الغابات قوله " عندما ترى الأشجار تتحرك فإن العدو يتحرك ويتقدم " و " عندما ترى الطيور ترتفع إلى الأعلى فإن العدو يختبئ في الغابة " .

والأسطح الغابية هي تلك التي تغطيها أو بعض أجزائها الأشجار الطبيعية، ويمكن اعتبار السطح الجغرافي بأنه تغطية الغابات، إذا غطت الأشجار الطبيعية ما نسبته 30 % من مجموع مساحة الأرض. ولا يمكن تصنيف الأسطح الجغرافية ضمن الأقاليم الغابية إذا كانت النباتات الطبيعية تغطي أقل من 10 % من مجمل مساحتها. ويمكن تصنيف المواقع الجغرافية التي تغطي الأشجار نسبة تتراوح بين 10 - 30 % من مساحتها على أنها أسطح طبيعية، ولا بد من الإشارة إلى أن النسب السابقة قد استخدمت لتصف الأسطح الجغرافية في أوروبا.

وتغطي الغابات المناطق الجغرافية المرتفعة، وتلك التي تسقط عليها أمطار سنوية كافية لنمو الأشجار، ويصعب تحديد معدل الأمطار اللازمة لنمو الغابات، لأن نموها يعتمد على معدلات التبخر، والذي يعتمد بدوره على درجة الحرارة ورطوبة الهواء. لذلك فإن الغابات تغطي مناطق جغرافية تمتد من المناطق المدارية الرطبة إلى المناطق شبه القطبية الباردة.

وفي الوطن العربي إقليمين طبيعيين تغطي الغابات الطبيعية نسبة مرتفعة من أراضيها، هما إقليم الغابات المتوسطة في جبال أطلس في شمال إفريقيا (تونس والمغرب والجزائر)، وقمم جبال لبنان وشمال غرب سوريا، إضافة إلى جبال كردستان في شمال شرق العراق. أما الإقليم الثاني فيقع في جنوب السودان وهو إقليم الغابات الاستوائية ذو الأمطار الموسمية الغزيرة. وقد تعرضت مساحات شاسعة من الغابات التي كانت تغطي أرض الوطن العربي للقطع بواسطة السكان المحليين، وبواسطة الجيوش المتحاربة أثناء الحرب العالمية الثانية.

العوامل المؤثرة على نمو الغابات

1. الموقع الجغرافي المطلق والموقع بالنسبة للبحار والمحيطات

أما الموقع المطلق فهو موقع المكان، الإقليم، أو المنطقة، بالنسبة لخطوط الطول ودوائر العرض. فيتأثر نمو الغابات بمعدلات الحرارة والأمطار التي تتفاوت تبعا للموقع من دوائر العرض. فتنمو الغابات الاستوائية الدائمة الخضرة حول خط الاستواء، في حين تنمو الغابات الصنوبرية المعتدلة في العروض الوسطى على سبيل المثال. وقرب الموقع أو بعده عن البحار والمحيطات يحدد إمكانيات نمو الغابات وصفاتها. ذلك إن تأثير البحار في توفير الأمطار يساعد على نموها.

2. أشكال سطح الأرض

تؤثر الأشكال الأرضية على شكل ونوع النباتات التي تنمو على سطوحها. وللعوامل الجيومورفولوجية (العوامل المؤثرة على تشكيل سطح الأرض)، أثر على نمو النباتات داخل الإقليم الواحد الذي يقع تحت تأثير عوامل مناخية واحدة. فتؤثر درجة الانحدار Slope Steepness، التي تحدد الزاوية التي يصنعها سطح الأرض مع الأفق، على نوع وشكل النبات، لأن درجة الانحدار تؤثر على مدى تسرب مياه الأمطار للتربة فكلما زادت درجة الانحدار قلت كميات المياه المتوفرة للنبات، وانخفضت معدلات نموه.

وزيادة درجة الانحدار تؤدي إلى انجراف التربة من على السفوح الجبلية، وما لذلك من آثار سلبية على نمو النباتات على تلك السفوح. أما اتجاه الانحدار Slope Aspect الذي يحدد وجهة السفح لجبل قياسا باتجاه الشمال، فيؤثر على كمية الإشعاع الشمسي الساقطة على السفوح الجبلية. فالسفوح المواجهة للشمس تتمتع

بدرجات حرارة مرتفعة تزيد من معدلات نمو النباتات فيها. وترتفع درجة حرارة التربة في السفوح الجنوبية في السلاسل الجبلية الواقعة في النصف الشمالي للكرة الأرضية، بمقدار 4.5 درجة فهرنهايت على عمق 4سم عنها في السفوح الشمالية، كما تزداد كثافة الأشجار في السفوح الجنوبية عنها في السفوح الشمالية بنسبة 40 % حسب دراسة أجريت في الولايات الأمريكية. كما يؤثر اتجاه الانحدار على الرياح الهابطة على السفوح الجبلية، وبالتالي زيادة كثافة الغطاء النباتي. وأخير فإن معدلات الارتفاع تؤثر هي الأخرى على معدلات نمو وشكل النباتات. فتزداد معدلات نمو النباتات كلما زاد الارتفاع لزيادة كميات الأمطار الساقطة على قمم الجبال. غير أن معدلات نمو النباتات في مناطق تقسيم المياه على قمم التلال الجبلية تقل بسبب انحدار السطح، وعدم توفر فرص كافية للتربة لامتناس مياه الأمطار. وفي المقابل فإن أرض الأودية أكثر رطوبة لتجمع المياه فيها، وبالتالي فإن فرص نمو النباتات فيها تتضاعف.

3. المناخ

تؤثر الظروف المناخية المحلية على نمو، وشكل الغابات في الأقاليم المختلفة، فالفرقات في درجات الحرارة بين الأودية والسفوح العالية، أو بين السواحل والمناطق القارية الداخلية لها تأثير لا يمكن إهماله، ويؤدي سقوط الأمطار على المرتفعات الجبلية إلى نمو الأشجار عليها أكثر من المناطق المنخفضة قليلة الأمطار. كم أن للمساحات المائية الصغيرة آثار محدودة على نمو الغابات لما توفره من رطوبة للتربة والهواء.

4. التربة

للتربة أثر لا يمكن تجاهله في تحديد نوعية، أشكال، وصفات النباتات الطبيعية التي تنمو عليها. فتنمو الغابات في الترب الغنية بالمواد العضوية والمعدنية الضرورية لنمو الأشجار، ويقل نموها في الترب الفقيرة التي تنتشر في المناطق الجافة.

نسيج الغابات المؤثر على سير العمليات العسكرية

في عام 1957 قام الدكتور بيير دانسرو Pieere Dansereau بتقسيم النباتات الطبيعية إلى ست مجموعات اعتماداً على صفاتها الطبيعية. وقد اعتمد الدكتور دانسرو في تصنيفه الذي نشره في كتاب الجغرافيا النباتية في خمس صفات طبيعية للنباتات هي: أشكال النمو، حجم النباتات، طبقاتها، وأشكالها، وإلى أي حد تغطي النباتات سطح الأرض، وفيما يلي ملخص لأصناف وصفات تلك المجموعات النباتية.

أ. أشكال النمو والحياة Life Form

يمكن تصنيف النباتات حسب أشكال نموها إلى الأنواع التالية.

1. الأشجار (Trees)، ولها جذع وأغصان، بعضها سفلي ومعظمها في التاج
2. الشجيرات (Shrubs)، لها جذع وأغصان قريبة من سطح الأرض
3. النباتات المتسلقة (Lianas)، وترتبط بالأشجار في العروض المعتدلة
4. الأعشاب (Herbs)، وهي نباتات صغيرة لها أوراق عريضة
5. الهوائيات (Epiphytes)، وتعتمد في تسلقها على غيرها من النباتات
6. الطحالب (Bryoids)

ب. حجم النبات Size

واعتمادا على أحجام النباتات أمكن تصنيفها إلى الأنواع التالية.

1. نباتات طويلة، يزيد ارتفاعها على 25 مترا بالنسبة للأشجار، و 2 - 8 أمتار للشجيرات، ومتران للأعشاب.
2. نباتات متوسطة، يتراوح طولها بين 10 - 25 مترا بالنسبة للأشجار، و 0.5 - 2 م للشجيرات، وأطول من 10 سم للأعشاب.
3. نباتات قصيرة، يتراوح طولها بين 8 - 10 أمتار بالنسبة للأشجار، وأقل من 50 سم للشجيرات، وأقل من 10 سم للأعشاب.

ج. التغطية (درجة تغطية النباتات لسطح الأرض) Coverage

واعتمادا على درجة تغطية النبات لسطح الأرض، مدى انتشاره، أمكن تصنيف النباتات إلى الأنواع التالية:

1. الشكل المشتت (Sparse)
2. الشكل المتجمع أو التكتل (Groups)
3. الشكل غير المتصل (Discontinuous)
4. الشكل المتصل (Continuous)

و. وظيفة النبات أو دورته Function or Periodicity

ويمكن تصنيف النباتات اعتمادا على دورة نموها إلى ثلاثة أصناف هي:

1. نباتات نفضية (Deciduous) تسقط أوراقها في أحد الفصول إما الخريف أو الشتاء.
2. نباتات دائمة الخضرة (Evergreen) تبقى خضراء طوال العام.
3. نباتات شبه نفضية (Semideciduous) تسقط أوراقها على دفعات، وليس في فصل معين.

ن. شكل وحجم الأوراق Leaf Shape and Size

وفيما يلي تصنيف لأنواع النباتات اعتمادا على شكل وحجم أوراقها:

1. أوراق عريضة (Broad)
2. أوراق إبرية (Needle)
3. أوراق اسطوانية (Celenderical)
4. أوراق صغيرة (Small)

أنواع الغابات وأثرها على سير العمليات العسكرية

أ. الغابات الاستوائية Equatorial Rainforest

وهي غابات قديمة لم تصل إليها يد الإنسان في القطع والتغيير، وتسود في حوض نهري الغونغو والأمازون، في كل من وسط وغرب أفريقيا وشمال شرق أمريكا اللاتينية، وجنوب شرق آسيا وخاصة في إندونيسيا. ويمتاز المناخ الاستوائي بارتفاع درجات الحرارة ومعدلات التساقط. وأشجار الغابات الاستوائية دائمة الخضرة، طويلة، وقريبة من بعضها البعض، تاجها مترابط ومرتفع، وغالبا ما يتكون التاج من عدة طبقات قد يصل ارتفاعها إلى 40 مترا. وترتفع أغصانها عن سطح الأرض للبحث عن الضوء. ولذلك تنعدم فيها الأغصان القريبة من الأرض. ونتيجة لذلك فإن النمو السفلي للنباتات فيها قليل نظرا لحجب أشعة الشمس عنها. وللأشجار الاستوائية أوراق عريضة دائمة الخضرة وفي المناطق التي تمارس فيها الزراعة بحرق أشجار الغابة القديمة، تنمو أشجار حديثة قصيرة وكثيفة تختلف عن الغابات الأصلية، وباتجاه السواحل فإن الترب الطينية التي تتكون عند مصبات الأنهار تنمو الأشجار الكثيفة المتوسطة الطول.

وتلائم تلك الغابات قتال العصابات وحركة المشاة لما توفره من غطاء يحجب حركتهم ويخفيهم عن أعين الأعداء. إلا أنها لا تناسب حركة الآليات والدبابات، نظرا لضيق المسافة بين جذوع الأشجار. ومما يحد من حرية الحركة بالنسبة للآليات في هذه الغابات هو التساقط المستمر للأمطار الاستوائية، والتي تزيد من رطوبة التربة وتجعلها موحلة صعبة الاجتياز.

ب. الغابات المدارية Tropical Rainforest

وهي تشبه من حيث النسيج الغابات الاستوائية. وتمتد جغرافيا بين دائرتي العرض 10 - 23.5 شمالا وجنوبا. وتقع ضمن المناخ المداري الرطب ذو الفصل الجاف القصير. وتمتاز هذه الغابات بوجود النباتات المتسلقة والهوائية. وتسود في منطقة البحر الكاريبي، وفي جنوب ولاية فلوردا في الولايات المتحدة، وفي جنوب وجنوب شرق آسيا، وغرب الهند، وفي الفلبين، مدغشقر، وشمال شرق أستراليا. وهي أقل تشابكا من الغابات الاستوائية، لذلك فإن أشجارها تتباعد عن بعضها البعض، وتتيح للآليات حرية الحركة. وهي بيئات أكثر ملائمة للقتال، خاصة إذا كان السطح الجغرافي متموجا يساعد على التخفي والمناورة.

ج. الغابات الموسمية Mansoon Forest

وهي عبارة عن غابات مفتوحة، تتسع المسافات بين أشجارها، مما يقلل حجم التنافس بين النباتات على الضوء، وتمتاز عن الغابات الاستوائية في النمو السفلي للنباتات التي تنمو لتوفر الضوء. وأشجار الغابات الموسمية هي من النوع المتوسط

من حيث الطول، حيث يتراوح معدل طول الأشجار بين 12 - 35 مترا. وهي أشجار قاسية وضخمة، ذات جذوع غليظة، تتفرع غصونها قريبا من السطح، بحيث تكون تاجا دائري الشكل ليقل ارتفاعها عن مثيلاتها في الغابات الاستوائية. ويعيق النم السفلي للأغصان عمليات الحركة داخل تلك الغابات، إلا أن إمكانيات الحركة فيها لا تزال ممكنة والغابات الموسمية هي غابات نفضية، يسميها البعض الغابات المدارية النفضية تمييزا لها عن الغابات المدارية دائمة الخضرة، وتنتشر الغابات الاستوائية في جنوب وجنوب شرق آسيا في بورما، تايلند، كمبوديا، وفي إندونيسيا، وفي غرب إفريقيا ووسطها، وفي غرب مدغشقر، وشمال استراليا.

د. الغابات دائمة الخضرة الصلبة Evergreen - Hardwood Forest

تنتشر هذه الغابات في المناطق التي يسود فيها مناخ البحر المتوسط، ولذلك يطلق عليها أحيانا غابات الحر المتوسط. ولذلك فهي تنتشر في حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي جنوب كاليفورنيا في الولايات المتحدة، وسط تشيلي، إقليم الكاب في جنوب قارة إفريقيا وجنوب استراليا و غابات البحر المتوسط دائمة الخضرة، مفتوحة تغطي بين 25 - 60 % من مساحة الأرض. وتتكون من أشجار قصيرة يطلق عليها أسم أجمة (Chparral) لانخفاض طول أشجارها، واقتراب أغصانها كثيرا من سطح الأرض ونتيجة لذلك فإن عمليات الحركة في هذا النوع من الغابات تكون شبه مستحيلة وخاصة بالنسبة للآليات. ولأشجار غابات البحر المتوسط أوراق صلبة وعريضة. وتساعد هذه الخاصية في عمليات التخفية والتستر للوحدات التي تلجأ إليها. ولجذوع الأشجار لحاء غليظ وقاسي، وقد تعرضت هذه الغابات للقطع في الشرق الأوسط إبان الحرب العالمية الأولى، حيث استغل الأتراك والحلفاء هذه الغابات لتسيير القطارات عندما انقطع تزويد النفط عنها.

ر. الغابات المعتدلة الماطرة Temperate Rainforest

وهي غابات صنوبرية دائمة الخضرة، لذلك يطلق عليها أحيانا أسم الغابات المعتدلة دائمة الخضرة. وأشجارها من النوع المتوسط من حيث الطول، بعكس أشجار الغابات في العروض الدنيا القريبة من خط الاستواء. الأشجار هنا ذات أوراق صغيرة وجلدية وقاسية ذات كثافة قليلة. والأشجار الصنوبرية الحديثة هي أقل أنواع الغابات حماية من النيران، في حين تقوم الغابات النفضية القديمة بتوفير أكبر حماية ممكنة. وتتميز هذه الغابات بودود غطاء نباتي أرضي كثيف يتكون من الشجيرات القصيرة المتسلقة، وتنتشر هذه الغابات في المرتفعات الجبلية وشرق القارات في العروض الواقعة بين 25 - 40 درجة شمالا، وخاصة في جنوب اليابان، جنوب شرق الولايات المتحدة، نيوزيلندا، وجزر الكناري وأزور في المحيط الأطلسي مقابل سواحل البرتغال والمغرب.

و. الغابات النفضية المعتدلة Remperate Deciduous Forest

وهي غابات نفضية مخضرة صيفا، تنتشر في النصف الشمالي للكرة الأرضية في شرق أمريكا الشمالية وغرب أوروبا وشرق آسيا. وأشجار هذه الغابات هي أشجار طويلة ذات أوراق عريضة يزداد كثافة غطائها في فصل الصيف، في حين تسقط أوراقها في فصل الشتاء. والنمو السفلي للأعشاب في هذه الغابات قليل. والعمليات العسكرية في هذا النوع من الغابات أسهل من الغابات المعتدلة الماطرة نظرا لطول الأشجار، وقلة النمو في فصل الصيف، حيث تنمو عليها الأوراق العريضة. وقد حدث تغيير ضخم على هذه الغابات، بسبب الأنشطة البشرية الممثلة بالزراعة وال عمران، حيث تعبر هذه الغابات أحد أكثر مناطق العالم كثافة بالسكان. إلا أن زيادة الكثافة البشرية فيها يعتبر أحد العوائق التي تقف أمام حرية الحركة والمناورة العسكرية، خاصة إذا كانت التجمعات البشرية معادية.

ز. الغابات ذات الأوراق الإبرية Needle Leaf Forest

وهي غابات صنوبرية ضخمة يصل ارتفاع أشجارها في بعض الأحيان إلى أكثر من 100 متر، وقطر الساق إلى نحو 20 متر، وهذه الغابات دائمة الخضرة تنتشر في غرب وشمال غرب الولايات المتحدة (في جبال الكاسكيد، والسييرا نيفادا، والروكي)، وفي أوراسيا (أوروبا وغرب سيبيريا)، في العروض الواقعة بين 45 - 75 شمالا، وتمتاز أشجار هذه الغابات بجذوعها المستقيمة، وأغصانها القصيرة، وأوراقها الصغيرة، والإبرية، ولكونها دائمة الخضرة فهي توفر غطاء دائما للأرض، لذلك فإن الغطاء السفلي من الأعشاب والنباتات قليل في بعض الأحيان وشبه معدوم في أحيان أخرى.

تأثر الأودية والمجارية المائية

تحسب الجيوش حسابا للموانع الطبيعية والصناعية التي قد تعترض طريق تقدمها. وتقف الممرات المائية على رأس قائمة العوائق الطبيعية التي تحظى بأهمية كبيرة في الحسابات العسكرية، لذا كان من واجب الجيوش إجراء دراسات مستفيضة لأرض المعركة التي من المحتمل أن يقاتلوا عليها، ويقوموا بتصنيف الموانع الطبيعية والصناعية، وخاصة مجاري الأنهار والأودية والقنوات سواء منها الطبيعي، أو الذي صنعه الإنسان، فقد قام الجيش السوفيتي بدراسة ميدان المعركة في غرب أوروبا ووجدوا أن قواتهم ستواجه مانعا طبيعيا يتجاوز عرضه 6 أمتار كل 20 كم، وعائقا بعرض 100 - 200 متر، كل 100 - 150 كم، وآخر بعرض 300 متر كل 250 - 330 كم، لذا فقد تزود الجيش السوفيتي بمعدات تمكنه من اجتياز تلك العقبات، كالدبابات الحاملة للجسور التكتيكية، وأجهزة الجسور العائمة.

الصفات الطبيعية للأنهار المؤثرة على سير العمليات العسكرية

1. طول النهر من منابعه إلى مصبه، حيث يحدد طول النهر حجم العائق المائي، وإمكانيات تجاوزه من قبل محاور العمليات المختلفة.
 2. اتجاه جريان النهر، حيث يحدد اتجاه النهر حجم تأثيره على العمليات العسكرية، فإذا كان يشكل خط الحدود بين الدولتين المتحاربتين، أو يسير بشكل موازي للجبهة، فإن تأثيره أكبر بكثير من كونه يتعامل مع خط الجبهة. وحتى في الحالة الثانية فإنه لا يمكن تجاهل آثاره، ذلك أن النهر قد يؤثر على طرق التقرب، وتعزيز محاور العمليات المختلفة.
 3. عمق النهر والوادي، وغزارة التدفق لمائي فيه، وحجم التباين في الصبيب المائي بين الفصول المختلفة، وأثر عمق النهر، وسرعة جريانه على إمكانيات اجتياز النهر، أو الوادي، وسرعة الجريان تؤثر على عرض النهر كما سنرى، مما يؤثر على سهولة عبوره.
 4. حجم وكثافة وأنواع النباتات المحيطة بمجرى النهر. وما لذلك من أثر على فرص اجتياز النهر، والتخفي والتستر عند اجتيازه.
 5. درجة انحدار ضفاف النهر، واتساع مجراه، ونسبة ما يشغله الماء من مجمل عرض النهر. وانحدار الضفاف يؤثر بالدرجة الأولى على إمكانيات استخدام تلك الضفاف من قبل الآليات والدبابات البرمائية.
 6. المعابر والجسور والممرات الطبيعية والشلالات. فيجب تحديد المواقع الدقيقة للجسور والممرات الطبيعية، التي ينخفض فيها المنسوب المائي مما يجعلها أماكن محتملة لاجتياز النهر.
 7. أنواع التربة، وصفاتها حول المجرى المائي. فتحديد صفات تلك التربة من حيث الصلابة والقدرة على الحمل، يحدد إمكانيات بناء الجسور، ونمو النباتات.
 8. روافد النهر الرئيسية والثانوية، الرطوبة والجافة، صفاتها، امتداداتها، ومواقع التقاءها بالمجرى الرئيسي.
 9. كما إن صفات المياه في النهر وكفاءتها، وإمكانيات استخدامها من قبل القوات المسلحة، أيضا من صفات المجاري المائية التي لابد من دراستها للأغراض العسكرية.
- وحتى يمكن اعتبار النهر أو القناة أو الخندق عائقا يقف في طريق الحركة العسكرية للقوات، يجب أن يوقف حركة الدبابات والآليات العسكرية المتقدمة من حيث عرضه وعمقه. وحتى يوقف العائق المائي أو الخندق تقدم الدبابات، يجب أن

يزيد عرضه عن 270 - 280 سم. كما أن عمقه يجب أن يتراوح بين 100 سم إلى 250 سم اعتمادا على نوع الدبابة أو الآلية المدرعة.

ويتراوح عرض المجاري المائية بين متر واحد و 1.5 كم، حيث يصل عرض نهر المسيسيبي نحو 1.5 كم، وهو اعرض مجرى مائي عالمي. وعمق النهر هو عبارة عن المسافة بالأمتار بين سطح الماء وقاع النهر، له أيضا أهمية كبيرة في العمليات العسكرية. وعرض النهر الرطب هو غالبا اقل من عرض الوادي. والمنطقة الرطبة هي طول خط الاتصال بين الماء ومجرى الوادي، أو المقطع العرضي للوادي. ويمكن التمييز بين الأنهار والأودية، في إن الأولى تصف الجزء الرطب من الوادي الذي تجري فيه المياه. وغالبا ما يجري النهر في جزء من الوادي، ذلك أن المقطع العرضي للودي هو في الغالب أكبر من المقطع العرضي للنهر.

إلا أن ذلك لا يمنع من وجود أنهار تغطي الأودية التي تجري فيها، وهذا ما يحدث على الأقل في أوقات الفيضان، حيث يمتلئ الوادي ويفيض الماء على السهل الفيضي للنهر. وأثناء تطورها، تسير الأنهار في مراحل تبدأ بمرحلة الشباب، حيث تسير الأنهار بخط مستقيم وتزداد سرعتها، ويضيق حجم المقطع العرضي لها، وتنتهي بمرحلة الشيخوخة، حيث يتسع المجرى، وتزداد مساحة المقطع العرضي وتقل سرعة النهر، ويصبح يسير في خط متراجع لضعف طاقته وقدرته على الحث. وهناك علاقة وثيقة بين عرض وعمق العائق الطبيعي، فقد صنف الألمان تلك العلاقة على النحو التالي: إذا كان عرض العائق أقل من 18 مترا، فيجب أن يزيد عمقه عن 1.4 متر، حتى يشكل عائقا أمام حركة الدبابات. أما إذا كان عرضه 30 مترا، فيجب أن يكون عمقه 2.5 متر. إما إذا زاد عرضه عن 100 متر فإن عمقه يجب أن يتعدى 4 أمتار ليحول دون قطع لدبابات له. وتستطيع كل الدبابات السوفيتية الصنع قطع العوائق التي يزيد عرضها عن 1.4 متر. إضافة إلى أن حاملات الجنود السوفيتية هي آليات برمائية. وتستطيع الدبابة الأمريكية M 60 و M 1 قطع العوائق التي يصل عرضها إلى 2.4 م، أما الدبابات الألمانية ليوبارد Leopards، فإنها تقطع العوائق التي يتراوح عرضها بين 2.5 - 4 متر، والفرنسية AMX 30 2.2 م، الإنجليزية جانجر Challenger 1.06 م، وشيفتن Chieftain 1 م.

وتؤثر سرعة جريان الماء على إمكانية اجتياز النهر، وتتأثر سرعة الجريان المائي بعدة عوامل منها درجة الانحدار، حجم التدفق المائي، عمق النهر، ودرجة انحدار النهر هي الزاوية التي يصنعها خط الأفق مع سطح الماء. ويقاس انحدار المجرى المائي بالأمتار لكل كيلو متر طول، فإذا كان الانحدار 100/ 5، فإن ذلك يعني أن النهر ينحدر خمسة أمتار كل 100 كيلو متر. وقد يقاس معدل الانحدار

بالنسبة المئوية، كأن يقال إن نسبة انحدار المجرى المائي 3 %، مما يعني أن المجرى المائي ينحدر 3 أمتار لكل 100 متر.

وتتأثر سرعة الماء في المجرى المائي بالاحتكاك الجانبي والسفلي للماء بصفاف وقاع الوادي. لذا فإن المناطق التي تقع قرب صفاف النهر وقاعه، تشهد أقل سرعة لماء النهر. وفي المقابل، فإن أسرع نقطة في مجرى النهر هي تلك التي تقع في وسطه. ويؤثر عمق النهر على سرعة جريان الماء فيه. ويتأثر عمق الماء بدوره بسرعة جريان الماء، فكلما زادت سرعة جريان النهر، كلما قلت مساحة المقطع العرضي له، أي قل عرضه، مما يؤدي إلى زيادة سرعته. وبكلمات أخرى يمكن القول أن سرعة النهر تزداد مع زيادة انحداره، وكلما زادت سرعته، قلت مساحة المقطع العرضي وزاد عمقه. ويؤثر حجم تدفق النهر الذي يمكن تعريفه على أنه كمية الماء في نقطة معينة في فترة زمنية محددة. ويمكن حساب حجم التدفق في نهر من الأنهار عن طريق ضرب معدل سرعته في مساحة مقطعه العرضي.

طبيعة تأثير المجاري المائية والأودية على العمليات العسكرية

أولاً: بالنسبة للمدافع

تشكل الأنهار والأودية موانع طبيعية من الدرجة الأولى تقف في وجه الحركة العسكرية وتسهم في الدفاع عن حدود الدول السياسية وتعتبر الحدود الطبيعية كالجبال والأنهار مكاسب عسكرية للجيش المدافع، تمنحه فرص دفاعية كبيرة لإعاقة وإيقاف تقدم الجيش المهاجم. وتشكل الخوانق النهرية والأخاديد موانع يصعب اجتيازها من قبل المهاجمين، وتمنح المدافعين فرصاً أكبر لتحطيم الهجوم وإيقافه. وتعد الأنهار والمجاري المائية أهدافاً عسكرية واضحة بالنسبة للطائرات، والتصوير الجوي والفضائي. فتظهر الأسطح المائية لامعة واضحة تسهل عمليات كشفها، وتدمير المنشآت القائمة عليها، مثل الجسور والمعابر، وتلك الواقعة بالقرب منها كالمواقع العسكرية، الاقتصادية، والإنتاجية. وقد تكون السدود المقامة على الأنهار أهدافاً عسكرية محتملة الغاية من تحطيمها تدمير البنية الاقتصادية لدولة. وفي حرب الخلي الأخيرة ضد العراق، قامت القوات الأمريكية بتدمير كافة الجسور المبنية على نهري دجلة والفرات، لقطع خطوط الاتصال والإمداد بين ضفتي النهرين.

ثانياً: بالنسبة للمهاجم

يحسب المهاجم الحساب للمجاري المائية، والتي قد تعيق حركته وتمنعه من تحقيق أهدافه، وقد تفشل هجومه. وتحتاج الجبهات وخطوط القتال العسكرية الواقعة على مجاري مائية أو أودية إلى أعداد وتدريب خاص، لاجتيازها، بعكس الجبهات

البرية. فوجود مثل تلك العوائق تفرض على المهاجم بناء الجسور الثابتة أو العائمة، أو القيام بالعمليات الأرضية كالحفر والردم والتسوية. والمجاري المائية تحدد مناطق عبور القوات، وتجعلها محددة، يمكن كشفها وتعرضها لنيران المدافع. فتعتبر الجسور نقاط محددة معرضة للهجوم المدفعي والجوي، وما يترتب على عبورها من خسائر. وتشكل الأخاديد والخنادق التي تحفرها الأنهار وروافدها، عوائق إضافية أمام حركة الجيش المهاجم ومناوراته الميدانية. فتحدد الأودية الطرق والمسالك التي يجب على القوات المهاجمة سلوكها. فغالبا ما تسير القوات المتقدمة في بطون الأودية أو بالقرب منها، مما يجبرها على السير في أرتال متتابعة تجعلها عرضة للهجوم والتدمير. وتؤثر موانع واتجاه الروافد النهرية على اتجاه انتشار القوات، فقد تحد الروافد من حرية حركة القوات وتفرض عليها اجتيازها.

وتؤثر الصفات الطبيعية للمجاري المائية كالعمق، العرض، شكل الضفاف، شدة التيار، ومعدل الصبيب المائي، وأنواع التربة والغطاء النباتي على إمكانيات عبورها. فتعيق الأنهار ذات الضفاف شديدة عمليات عبور الآليات البرمائية، إلا أنها لا تساعد القوات المتقدمة على بناء الجسور الثابتة أو العائمة على مجرى النهر، لأن السفوح شديدة الانحدار، تعني ضيق مجرى النهر بسبب سرعة التيار. وسيهل المجرى المائي الواسع ذو الضفاف المعتدلة الانحدار على اجتيازه بواسطة الآليات. ويعمل الغطاء النباتي المحيط بالمجرى على تحقيق عنصر المفاجأة بالنسبة للمهاجم. كما تقف القرى والمدن والتجمعات السكانية كعائق آخر أمام تقدم القوات المهاجمة، حيث غالبا ما تنتشر التجمعات السكانية على طول الأنهار.

ويجري سلاح الهندسة عملية مسح هندسي شامل لضفاف النهر أو الوادي المراد قطعه. حيث يقوم ضباط وأفراد ذلك السلاح بعبور النهر على قوارب هجومية من أجل بناء رأس الجسر على الضفة البعيدة للنهر، فتأمين الجانب الآخر للنهر، هو أمر تتطلبه الضرورات الأمنية، وحماية الوحدات العابرة. وفي حالة الاستكشاف تقوم الوحدات المتقدمة بتقدير حجم القوات المعادية ومراكزها على الضفة الأخرى للنهر. وتؤثر الصفات الطبيعية للمجرى المائي مثل عمق لماء، وسرعة جريانه أو شدة التيار، ودرجة انحدار ضفاف النهر، ومكونات الصخر والتربة في قاع النهر، على عملية العبور. وتؤثر صفات الآلية القاطعة للعائق الطبيعي أو الصناعي سواء أكان خندقا مضادا للدبابات، أو قنوات لتصريف المياه، أو أنهار وجداول على إمكانية قطعه.

ومن الناحية العملية فإن قطع تلك العوائق الطبيعية والاصطناعية قد يتحقق بأحد الطرق التالية:

1. بناء الجسور
2. قطع النهر بواسطة الآليات البرمائية

3. بواسطة العبارات

4. ردم أماكن العبور بواسطة الأتربة، والأخشاب والمواد المتوفرة، فقد بنيت الجسور في الحرب العالمية الثانية من الأخشاب لصعوبة توفر الحديد والصلب، كما استخدم السكان المحليين في بناء الجسور مقابل الأجر.

ويعد بناء الجسور من أهم وسائل قطع العوائق التي تواجه حركة الجيوش سواء في العمليات الهجومية، أو في عمليات الانسحاب والخروج من ميدان المعركة، في تعزيز القوات المتقدمة، وتقصير المسافات، واختصار الوقت والجهد المبذول في الاتصال بالقوات المتقدمة وتزويدها ز ويقسم الخبراء العسكريون الجسور العسكرية حسب أهدافها إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الجسور الهجومية:

وهي تلك التي يتم بناؤها في ميدان المعركة المتقدم وتحت نيران العدو المباشر، ويعد أمر بنائها حيويًا وضروريًا لنجاح العمليات العسكرية وتحقيق استراتيجية الحرب.

النوع الثاني: جسور الدعم والمساندة:

وهي تلك الجسور التي يتم بناؤها بعد تقدم القوات وانتقال ميدان المعركة للأمام، يتم بناؤها بهدف تعزيز القوات وإدامة الاتصال معها ز

النوع الثالث: جسور الاتصال والتزويد:

وتبنى في مؤخرة القوات، حيث لا تكون هناك حاجة للإسراع في بنائها لأن الغاية من بنائها ليس عبور القوات، بقدر ما هو تقصير مسافات الاتصال مع القوات المتقدمة من أجل التزويد. وتمتاز تلك الجسور بقوتها وكبر حجمها وقوة تحملها. وتبنى الجسور الهجومية كما سبق و أسلفنا في ميدان المعركة المباشر وتحت نيران العدو، لذا فإن وتق بنائها يجب أن يكون قصيراً، فقد وضع الخبراء العسكريين مدة خمسة دقائق لبناء الجسور الهجومية الصغيرة التي تقطع عوائق يتراوح عرضها بين 18 إلى 30 متراً، والوقت الأمثل لبنائها هو 3 دقائق. وتستخدم هذه الجسور لعبور القوات المباشر، ومن ثم تزال ليتمكن استخدامها مرة أخرى في حالة تعرض تلك القوات لعوائق أخرى.

ونظراً لصغر تلك الجسور التي غالباً ما تكون محمولة على آليات مرافقة للقوات المتقدمة، وفي كثير من الأحيان الدبابات نفسها، فإن أعداداً كبيرة منها يجب أن ترافق القوات المتقدمة، خاصة وأن معظم الخنادق والممرات التي يتوجب على القوات المتقدمة قطعها لا توجد على الخرائط مسبقاً. وهناك بعض الجسور التي تحمل بواسطة الطائرات العمودية، وتقام بواسطة تسهيل حركة القوات.

وتحتاج الجسور الهجومية إلى استبدال بواسطة جسور الدعم والمساندة التي تمتاز بقوتها وكبر حجمها. فلا يزيد عرض الجسور الهجومية الإنجليزية عن 23 م في حين يصل عرض الجسور الدائمة إلى أكثر من 30 م، مما يمنحها قوة إضافية من خلال امتدادها لمسافات أطول على ضفاف النهر. ويمتاز الجسر الناجح الذي يمنح القوات المتحركة قدرة على تخطي العوائق الطبيعية والاصطناعية في ميدان المعركة بالمرونة وسرعة الحمل والنقل والتركيب. كما يمتاز بإمكانية بنائه بواسطة جنود غير مدربين أو خبراء في بناء الجسور، وبسهولة صيانته. وقد انخفض الوقت المستغرق في بناء جسور الدعم والمساندة من عشرة ساعات قبل عقد السبعينات إلى 3-4 ساعات في السبعينات ونحو ساعه واحدة في الثمانينات.

وتقسم الجسور تبعاً لنوعيتها إلى جسور معدنية منزلقة، وجسور عائمة مكونة من مكعبات مملوءة بالهواء. وتستخدم الأخيرة لقطع الأنهار التي يزيد عرضها عن 30 م ويرتفع فيها منسوب المياه لدرجة تكفه من حمل تلك المكعبات. غير أن ذلك النوع من الجسور يواجه مشاكل تتعلق في بنائه وديمومة بنائه. فتقف الضفاف شديدة الانحدار عائقاً أمام استخدام تلك الجسور، كما يصعب استخدامها في المياه الضحلة. وتنتفي فائدة تلك الجسور إذا تعرضت إلى هجوم القوات المعادية حيث قد تؤدي نيران العدو إلى خرقها وغرقها. كما أن تكاليف بناء الجسور العائمة أكبر من الجسور المنزلقة، وتحتاج إلى صيانة وإصلاح، ومراقبة مستمرة. فتحتاج إلى زيادة أطوالها مع ارتفاع المد، وإلى إزالة تلك الإضافات في أوقات الجزر. وتحتاج إلى

مراقبة وسيطرة مستمرة في المياه التي تمتاز بشدة التيار المائي فيها. ورغم كل تلك السلبيات فقد استخدم المصريون بعض الجسور العائمة أثناء عبورهم لقناة السويس في حرب 1973 م. كما استخدم بواسطة القوات الإنجليزية لقطع نهر رانجون في بورما، أثناء الحرب الثانية.

أما اجتياز الأنهار بواسطة الدبابات البرمائية المزودة بأنابيب تنفس يستخدمها طاقم الدبابة، فهي عملية تنطوي على الخطورة، وترغب كثير من الجيوش تجاوزها، وعدم استخدامها إلا في حالات تعذر بناء الجسور. وعبور الأنهار بواسطة الدبابات والآليات البرمائية أحد وسائل قطع الأنهار والعوائق المائية وأقلها تفضيلاً. وقد صممت معظم الآليات السوفيتية الصنع لتكون برمائية. غير أن أمر استخدام تلك الآليات للسباحة والسير على قع النهر، أمر ينطوي على الخطورة. وهذا ما دفع القيادة العامة للقوات الإنجليزية لعدم إدراج شرط البرمائية في تصميم الدبابات الحديثة. وأبقت على ذلك الشرط بالنسبة لناقلات الجنود. وتتناسب متانة الدبابة وقدرتها على تحمل نيران العدو عكسياً مع قدرتها على السباحة، واختراق العوائق المائية. فحتى تستطيع السباحة، فإن الدبابة يجب أن تكون خفيفة الوزن، وهذا ما يعرضها لخطر الدمار. فكلما كانت الدبابة أثقل، وتصفيحها أقوى، كانت قدرتها على السباحة أقل. ولذلك تنخفض قدرات الدبابة السوفيتية BMB لتفوقها في السباحة و قطع العوائق المائية.

الفصل الثاني عشر

الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر

الفصل الثاني عشر

الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر

في عالمنا المعاصر الذي يَمُور بأشكال الصراعات والتزيف والهيمنة الكبرى وتسلط الأقوياء كان لا بد من هذا الكتاب ليكشف بعض أساليب المتلاعبين بالجغرافيا.

في وقت مناسب للغاية، يأتي هذا الكتاب ليقدم لقراء العربية كثيراً من المفاهيم التي يعتورها اللبس والغموض في أحد أهم فروع علم الجغرافيا ألا وهو (الجغرافيا السياسية). أما المجال الذي يغطيه التحليل في هذا الكتاب فهو (عالمنا المعاصر)، وهو مجال يخرج بالكتاب من الدائرة الضيقة التي يتصورها البعض - خطأ - حينما يشرع في قراءة كتاب في الجغرافيا. فمشكلات العالم المعاصر على اختلاف ألوانها، من العولمة، والاقتصاد العالمي، وصراعات مناطق المركز والأطراف، إلى مشاركة المرأة في العمل السياسي والتزوير في الانتخابات على أساس جغرافي وغيرها، هي أهم موضوعات هذا الكتاب.

وضع المؤلفان الكتاب بعد مسح شامل ومركز لقضايا عديدة على أسس نظرية وتطبيقية. أما المترجمان - عبدالسلام رضوان ود. إسحق عبيد - فقد نقلوا لقراء العربية بدقة واقتدار أفكاراً ومعلومات كان يصعب على الكثيرين قراءتها في نصها الأصلي.

العولمة... اقتصادية

يُستهل هذا الكتاب بمناقشة قضية تشغل مجتمعنا المعاصر ألا وهي الصراع بين الفقر والثراء في عصر اصطلح على تسميته بعصر العولمة. ومفاهيم العولمة بأطرافها المتباينة (اقتصادية، ثقافية، سياسية، بيئية، سوسولوجية، مالية، تكنولوجية) ليست بدعة جديدة في علم الجغرافيا. ففي مطلع الخمسينيات أشار ماكيندر (عالم الجغرافيا السياسية الأشهر) إلى مدى ارتباط الأحداث العالمية بعضها ببعض الآخر لدرجة جزم معها بكوكبية تأثير النظم السياسية والقوى الاجتماعية. وبدهي أن تستأثر العولمة الاقتصادية نصيب وافر من معالجة الفصل الأول والذي يحمل عنوان (منهج النظم العالمية في تحليل الجغرافيا السياسية)

وينتقل الفصل من عرض للعناصر الثلاثية للاقتصاد العالمي - اقتصاد السوق، النظام الاقتصادي متعدد الأطراف، الاستغلال التجاري - إلى تحليل توجه الاقتصاد العالمي وصياغته في دورات متعاقبة من الركود والازدهار (وأشهرها دورة العالم

الروسي كوندراتييف) إلى تحليل الاقتصاد العالمي على أسس مكانية (جغرافية) والذي بدأ يتشكل مع التوسع الاستعماري الذي ربط مناطق شاسعة من الأرض بنظام اقتصادي واحد (النظم الاقتصادية الإمبريالية). ويعقب هذا التحليل عرض لصراع العلاقات الاقتصادية بين مناطق المركز (الدول الغنية - نموذج الولايات المتحدة) ومناطق الأطراف (دول العالم الثالث - نموذج الهند) والمناطق المتداخلة (ما بين الدول الغنية ودول العالم الثالث - نموذج روسيا). وبعد أن تكون قراءتك لهذا الفصل قد وصلت إلى درجة حماسية يأخذك المؤلفان إلى قضية أكثر تركيزاً وهي استكشاف العلاقة المتشابكة بين قوة الدولة سياسياً وموقعها في الاقتصاد العالمي (النهب الاستعماري القديم ونهب الشركات متعددة الجنسيات حالياً).

الجيوبوليتيكا وعودة الروح

الاشتباك والتداخل التاريخي (منذ منتصف القرن العشرين) بين الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا هما السمتان المميزتان لعلاقة العلمين كل منهما بالآخر. ويلفت الكتاب نظر القارئ - في الفصل الثاني منه الذي يحمل عنوان (الجيوبوليتيكا تزدهر من جديد) - إلى تشابك آخر بين الجيوبوليتيكا والإمبريالية، ويفترض لفض الاشتباك التمييز بينهما باعتبار أن الجيوبوليتيك علم يعنى بالبحث في طبيعة التنافسات بين القوى العظمى (دول المركز وأشباه الأطراف الصاعدة) بينما الإمبريالية هي ترجمة مباشرة لهيمنة دول المركز القوية على دول الأطراف الضعيفة. وإذا كانت الجيوبوليتيكا قد عنيت بعلاقات التنافس بين الشرق والغرب فإن الإمبريالية هي ترجمة مباشرة لهيمنة الشمال على الجنوب.

وفي هذا الفصل، يتناول المؤلفان تطور قضايا الجيوبوليتيكا بداية من تتبع التوظيف (السيئ) للجيوبوليتيكا فيما بين الحربين وخاصة في ألمانيا حيث تطور علم الجيوبوليتيكا مروراً بنظرية ماكندر الشهيرة حول السيطرة على مركز العالم (الاتحاد السوفييتي)، والانتقال إلى تغير مفهوم المركز على أسس جغرافية - اقتصادية (التكتلات الاقتصادية). ثم تناول الصياغة الأمريكية الجديدة لمفهوم المركز والأطراف بعد خروجها من الحرب العالمية الثانية (بموقعها البحري) كأكثر قوة عالمية، وتوجهها إلى تطوير الاتحاد السوفييتي والوقوف على أعتاب بيته، إما بإقامة تحالفات عسكرية كحلف الناتو والسينتو (وريث حلف بغداد) أو بالتدخل العسكري المباشر كحرب كوريا وحرب فيتنام، ودور الردع النووي في إعادة تقييم مناطق المركز والأطراف في الصراع العالمي. ويسلم القارئ نفسه - بعد عرض دسم للقضايا السابقة - إلى عرض سلس للتحليل الجغرافي السياسي للحرب الباردة، لينتقل بعدها إلى قراءة نماذج من السياسات الجيوبوليتيكية لبعض الدول والتي يختتم بها المؤلفان هذا الفصل الموسوعي، فمن الأبعاد الجيوبوليتيكية للهيمنة الأمريكية على

العالم إلى المبادئ التي اتكأت عليها الديجولية الفرنسية وصولاً إلى نموذج الهند - نهرو في عدم الانحياز يجد القارئ نفسه في حاجة للتأمل، لا يلبث أن يهجرها لينتقل إلى الفصل التالي (جغرافية الإمبريالية)

جغرافية السيطرة

مع بداية الفصل الثالث يصدم المؤلفان القارئ في اعتقاده بالمهمة العلمية البريئة للجمعيات الجغرافية الأوروبية بالإشارة إلى الدور المحوري الذي لعبته هذه الجمعيات في خدمة الاستعمار. ومنذ الحرب العالمية الأولى صارت الجغرافيا تعمل في خدمة الاستعمار والتوسع الإقليمي للدول الكبرى. وبعد أن يستعرضا (قصة) الإمبريالية من بدايتها إلى تصفية الاستعمار ينتقل المؤلفان إلى تحليل للسمات الاقتصادية للإمبريالية (مستعمرات إفريقيا وأمريكا الوسطى)

ومن الموضوعات الرشيقة العرض في هذا الفصل المساعدات الاقتصادية بوصفها إمبريالية مستترة. فقد واصلت دول المركز ممارسة نفوذها في بلدان الأطراف - بعد انتهاء الاستعمار الرسمي - باستخدام برامج المساعدات الاقتصادية. ولو كان هدف هذه المنح رفع المعاناة عن كاهل الفقراء في العالم لما كان هناك تمييز في تقديم الدعم، غير أن واقع الحال يشير إلى تسخير هذه المساعدات لخدمة أغراض جيوبوليتيكية بعينها. ومن ثم فإن الدول التي تحصل على المساعدات الاقتصادية هي تلك التي يمكن أن تقدم (خدمات جليلة) للدول المانحة. ولعل أفضل توضيح لذلك هو مراجعة برنامج المساعدات الأمريكية لدول العالم (وأبرزها في منطقة الشرق الأوسط) سواء إبان حقبة الحرب الباردة أو فيما بعدها. وعلى الجانب الآخر يبرز نموذج المساعدات اليابانية ذو التوجه الاقتصادي والذي ربط المنح اليابانية بضرورة استيراد المنتجات والبضائع اليابانية الصنع. ويختتم الفصل بتناول قضيتين مهمتين، الأولى هيمنة الاقتصادية للولايات المتحدة على العالم (كصورة من صور الاستعمار الاقتصادي الجديد)، والثانية هي العلاقة الوثيقة بين الإمبريالية والعولمة. ومن الصور المميزة التي يعرض لها هذا الفصل هيمنة الثقافية وتشويه صورة (الأخر) باستخدام أدوات الحرب الإعلامية والتي يغطي نفوذها مناطق جغرافية واسعة.

المتلاعبون بالقومية

يُعرف القرن العشرون بأنه قرن القومية والأيديولوجية، وبالفعل فالقومية المولودة في أواخر القرن 19 وأوائل القرن العشرين صارت قوى وحركات اجتماعية - اقتصادية متعددة استطاعت أن تحدد المحاور الأساسية لتطور الدول والشعوب. وتحت دعاوى القومية ثارت أحداث أفضت في النهاية إلى اشتعال الحرب العالمية الأولى.

وتمخضت هذه الحرب ذاتها عن تشكيل سلسلة من الدول القومية الجديدة، وهو ما أكد أهمية وتأثير أفكار ومبادئ الهوية القومية. وتباينت صور القومية ما بين قومية (برجوازية)، وقومية (ليبرالية) إلى قومية (البرجوازية الصغيرة) والقومية (الشوفينية) والقومية (الفوقية) وغيرها، وذلك لتصديق ودعم أهداف أيديولوجية سياسية والوقوف خلف برامج اجتماعية - سياسية مستهدفة.

وبقدم الفصل الخامس كرنفالا من الأفكار التقليدية والحداثية عن مفاهيم (الأمة والقومية). وينتقل المؤلفان في هذا الفصل من الخلفيات الأيديولوجية للحركات القومية إلى مكانة الرمز والتقاليد في الفكر القومي (سواء كانا موجودين بالفعل أو تم اختراعهما لتحفيز الشعوب). كما يُفصّل المؤلفان لأنواع القومية وتطورها التاريخي. ومن الموضوعات الساخنة جغرافيا في هذا الفصل الخداع بالخرائط.

ويضرب المؤلفان لذلك مثال الجغرافي اليوغسلافي الشهير يفيجيتش الذي (زيف) في الخرائط الاثنية لمقدونيا - مستغلا شهرته الدولية والثقة الممنوحة له في مؤتمر الصلح في باريس 1919 - ليقدم أغراضا مفادها (سحب) أراض مقدونية وضمتها إلى الصرب، وكانت المحصلة إذكاء الروح القومية للصرب وطموحهم للتوسع. ولعل هذه سابقة جغرافية جاءت مبكرة للتوظيف السيئ للجغرافيا السياسية لاحتلال أي أرض يقطنها ناطق بالألمانية في أوروبا إبان العهد النازي.

وفي هذا الفصل أيضاً تناول لموضوعات وثيقة الصلة بحقوق السكان الأصليين والتوجه نحو الاستقلال الذاتي، وتحليل الحركات القومية من زوايا مختلفة كالنظر إلى القومية بوصفها مقاومة وفاعلا أساسيا في كفاح الشعوب ضد الاستعمار، والكفاح القومي بوصفه صراعاً طبقياً، والنضال القومي بوصفه حركة ضد النظام.

التزوير الانتخابي على أساس جغرافي

لغير المتخصصين، قد لا تبدو ثمة علاقة قوية بين العملية الانتخابية والخصائص الجغرافية. غير أن (المكان) هو ببساطة الملعب الذي تجرى فيه تلك العمليات الديمقراطية المعروفة بالانتخابات. ويمكن أن يستغل (المكان) في الخداع والتزييف الانتخابي. فالحكومات المحكرة لعمليات رسم حدود الدوائر الانتخابية على دراية بمواطن تركيز الناخبين الذين سيدلون بأصواتهم للمعارضة، ومن ثم فهي لن تعدم الحيلة في رسم حدود مكانية واسعة تشمل أماكن هؤلاء الناخبين (المعارضين) مع إعطاء هذه الدوائر عددا من المقاعد يساوي العدد نفسه الممنوح لدوائر أصغر مساحة وأقل سكاناً ولكنها ستصوت لأنصار الحكومة. وهذا التزوير الانتخابي هو إحدى الصور العديدة للتمييز الانتخابي على أساس جغرافي. ومثل هذه التجاوزات

غير الدستورية لا تُتهم بها الدول الديكتاتورية فحسب، فتاريخ التزييف الانتخابي عبر العُث في الحدود المكانية وعلى أسس جغرافية هو صناعة أوربية - أمريكية في الأساس. ونقلتها الدول الديكتاتورية بشكل سافر فيما بعد.

والكتاب - في الفصل السادس منه - يقدم (قراءة جديدة لجغرافية الانتخابات) من خلال دراسة موضوعات شديدة الترابط كتحليل المؤثرات الجغرافية في التصويت الانتخابي، ومعالجة الأبعاد الجغرافية للتمثيل النيابي، والعوامل الجغرافية المتحركة في عملية الانتخابات. كما يتناول الكتاب في هذا الفصل خريطة تقلبات السلطة التنفيذية من خلال مقارنة دول المركز بدول الأطراف، وكذلك معالجة جديدة لخريطة الديمقراطية العالمية بتقسيم دول العالم إلى فئات حسب درجة الديمقراطية.

ويعرض الكتاب لأفكار عديدة في تبني وقبول الديمقراطية في دول العالم المختلفة مع الرجوع إلى بعض الأفكار الكلاسيكية في هذا الشأن. من ذلك المفاهيم المتناقضة في الأيديولوجيات الليبرالية والتي ترى أن جرعات الديمقراطية الزائدة في دولة ما قد تنذر بوقوع الكارثة، وذلك لأن هذه الديمقراطية ستأتي بعناصر من الطبقات الدنيا إلى سدة الحكم وسينتهي بهم الحال إلى نهب ثروات الشعب. ويختتم الفصل بتناول العلاقة بين الانتخابات والديمقراطية الليبرالية بمقارنة هذه العلاقة بين دول المركز ودول الأطراف. وقد قام المؤلفان بمراجعة ذلك في فترة الحرب الباردة بين العالم الرأسمالي ونظيره الاشتراكي.

ولا بد لك حتى تقرأ هذا الكتاب الدسم المؤلف من جزأين - في كل جزء أربعة فصول - أن تعقد العزم على أن تقتطع وقتاً كافياً تجلس فيه إلى موضوعات تجمع معالجتها بين الفكر النظري والتطبيقي، بين الأفكار التقليدية والحداثيّة، لأنك لن تتلقى جرعة فكرية جغرافية فحسب بل وتاريخية وسياسية واقتصادية وقانونية في آن واحد، ولكنها جميعاً تستحق منك القراءة والتأمل.

الفصل الثالث عشر

واقع الجغرافيا السياسية في الخليج العربي

الفصل الثالث عشر

واقع الجغرافيا السياسية في الخليج العربي

تلعب الاعتبارات الجيوسياسية والجيواستراتيجية لأي إقليم دوراً كبيراً في تحديد ماهية العلاقات البينية لدول هذا الإقليم وأشكالها، وآليات التفاعل التي تحكم هذه العلاقات وتحديد مساراتها واتجاهاتها وأهدافها، فالعلاقات الدولية عادة هي انعكاس لمتطلبات واقع جغرافي وسياسي واقتصادي معين يفرض على أطراف هذه العلاقة طبيعة السلوك السياسي المتبع في علاقاتها مع الأطراف الأخرى سواء على الصعيد الإقليمي أو الدولي.

لقد استطاعت منطقة الخليج العربي أن تقفز خلال العقود الثلاثة الأخيرة إلى قمة الاهتمامات الدولية لعوامل عديدة يمكن أن نعزوها بالأساس إلى ثقلها النفطي الجبار وإلى موقعها الاستراتيجي المتميز، فضلاً عن إيقاع الأحداث التي خطف بريقها أبصار العالم كله، فمن الثورة الإسلامية في إيران إلى التدخل العسكري السوفيتي في أفغانستان، إلى الإعلان عن مبدأ كارتر، إلى الحرب العراقية - الإيرانية إلى حرب الخليج الثانية وأخيراً الحرب الأمريكية على العراق واحتلاله.

والمقصود بالأهمية الجيوسياسية و الجيواستراتيجية هنا، تلك الأهمية الإستراتيجية للموقع الجغرافي للخليج العربي ولإقليم الخليج، وقيمة هذا الموقع كأحد العناصر الرئيسية في التوازن الاستراتيجي الدولي، وأبعاد توظيفه في نطاق الاستراتيجيات الكلية الشاملة للقوى الدولية الكبرى وصراعات القوى الإقليمية. وسيحاول الباحث التركيز على واقع الجغرافية السياسية في الخليج العربي والنظام الإقليمي للخليج العربي من خلال التعرف على المقومات والخصائص الجغرافية والسياسية والاقتصادية المميزة للمنطقة، إضافة إلى إلقاء الضوء على النظام السياسي الإقليمي لمنطقة الخليج العربي.

وتأتي إشكالية البحث في مجال الجغرافيا السياسية من دراسة وتحليل العلاقات بين الخصائص المكانية الجغرافيا والعمليات السياسية وبالتالي فهم آليات التحول السياسي على المستوى الدولي، خاصة وأن السنوات القليلة الماضية قد حملت عدداً من التغيرات السياسية السريعة في منطقة الخليج العربي وظهور تحولات جديدة بعد الانقسامات الجغرافية التي شهدتها المنطقة في التسعينيات من القرن الماضي وبداية القرن الحالي، لعل أخطرها احتلال العراق وتغيير قواعد لعبة الجغرافيا السياسية في المنطقة.

رؤية نظرية في الجغرافيا السياسية

سيتناول الباحث في هذا المبحث مفهوم الجغرافيا السياسية، وعلاقتها بالجيوبوليتيك وتطورها التاريخي وآلية تحول الجغرافيا السياسية المعاصرة الى جيوبوليتيك التوسع الاستعماري من خلال تشويه السياسة للجغرافيا، وذلك على النحو التالي:

مفهوم الجغرافيا السياسية:

تعتبر الجغرافيا السياسية فرعاً رئيسي من فروع الجغرافيا البشرية، وتهتم بدراسة الوحدات السياسية ومقومات وجودها وتطورها، وتعتمد على عناصر البيئة الجغرافية في تفسير خصائص الوحدات السياسية من حيث قوتها أو ضغطها واستقرارها أو تفككها. كما تهتم الجغرافيا السياسية بدراسة النظم السياسية Political Systems كما أنها تدرس التفاعل بين المنطقة الجغرافية والعملية السياسية وعلاقتها المكانية.

وتعالج الجغرافيا السياسية النمط السياسي للعالم وهو نمط معقد إلى حد كبير، بسبب التجزئة المتباينة لسطح الأرض إلى وحدات سياسية تتفاوت في الحجم المساحي والسكاني تفاوتاً كبيراً، وتغير الأنماط السياسية في حدودها، ومقوماتها، ومشكلاتها الناجمة عن تفاعل الإنسان ببيئته مما ينعكس على أوضاعها الداخلية وعلاقتها الخارجية، وتهتم الجغرافيا السياسية في هذا المجال بمواكبة مظاهر التحول في رقعة الوحدات السياسية، وسكانها، ومواردها، وعلاقتها بالدول الأخرى، لذا فهي تتصل بعلوم أخرى عديدة تتضافر كلها لتحليل القوة الجغرافية طبيعياً وحضارياً واقتصادياً، وتحديد علاقتها المتشعبة في المكان والزمان، ومن أهم هذه العلوم التاريخ، علم السياسة والعلاقات الدولية، عوامل الطبيعة الجغرافية (مساحة وحدود ومناخ وأقاليم مناخية... الخ)

وتستمد الجغرافيا السياسية اسمها من الجغرافيا وصفتها من السياسة، ومن ثم فهي على صلة وثيقة بالعلوم السياسية. وتهتم الجغرافيا السياسية بدراسة التفاعل بين الظاهرة السياسية وبين العوامل الجغرافية في مكان ما، أي أن الجغرافيا السياسية تمثل همزة الوصل بين الجغرافيا من ناحية والعلوم السياسية من ناحية أخرى. مما سبق يتبين صعوبة إيجاد تعريف محدد للجغرافيا السياسية، وذلك لارتباطها بعدة علوم مختلفة، فهي من وجهة نظر التاريخ "التفسير الجغرافي للتاريخ"، ومن وجهة نظر العلاقات الدولية "هي المنهاج الجغرافي لدراسة العلاقات السياسية الدولية"، ومن وجهة نظر علم السياسة "هي دراسة أثر العامل السياسي على النواحي الجغرافية والعكس صحيح"، فضلاً عن ذلك فقد اختلف أهل الاختصاص ومفكري هذه النظريات في الوصول الى تعريف محدد، فمثلاً يعرفها "بومان" بأنها الوجه

السياسي للجغرافيا الذي يحدد العوامل الجغرافية المؤثرة في السلوك السياسي للإنسان"، ويعرفها "برسي" بأنها "دراسة وصف وتحليل الوحدات السياسية"، بينما يراها "مودي" أنها "عبارة عن تحليل العلاقات المتبادلة بين البيئة والدولة من الوجهة السياسية".

ومهما يكن من أمر، ومن باب تحديد تعريف إجرائي محدد للباحث، يمكن اختيار التعريف التالي الشامل:

"الجغرافيا السياسية تهتم بدراسة التوزيع الجغرافي للعملة أو الظاهرة السياسية ومدى التشابه والاختلاف فيها من مكان لآخر على الأرض وعوامل ذلك وتحليل التأثير المتبادل بينها وبين الخصائص الجغرافية المتنوعة للمكان".

الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيك:

يتداخل مفهوم الجيوبوليتيك مع مضمون علم الجغرافيا السياسية الذي يعنى بدراسة تأثير الجغرافيا (الخصائص الطبيعية والبشرية) في السياسة. ولدى البعض فإن الجغرافيا السياسية تدرس الإمكانات الجغرافية المتاحة للدولة، بينما الجيوبوليتيك تعنى بالبحث عن الاحتياجات التي تتطلبها هذه الدولة لتنمو حتى ولو كان وراء الحدود، وبينما تشغل الجغرافيا السياسية نفسها بالواقع فإن الجيوبوليتيك تركز أهدافها للمستقبل.

ويمكن تعريف الجيوبوليتيك بأنها "دراسة علاقات الأرض ذات المغزى السياسي، وترسم المظاهر الطبيعية لسطح الأرض " أو أنها "دراسة نظرية الدولة كعضو جغرافي أو ظاهرة في المكان".

وتختلف الجغرافيا السياسية عن الجيوبوليتيك على الرغم من أن كل منها علم يدرس الوحدة السياسية في ضوء البيئة، فالأولى تأخذ بعين الاعتبار الوحدة السياسية وتعنى بتحليل بينتها الطبيعية والاقتصادية والبشرية تحليلاً موضوعياً لتستكشف أثر ذلك على الأحداث السياسية والسلوك السياسي للدولة، أما الثانية فتقوم بنفس الدراسة ولكن من وجهة النظر الخاصة للدولة ومطالبها في مجال السياسة الخارجية، أي انه نوع من الدراسة متأثرة بالنزعة الوطنية.

وتؤمن الجيوبوليتيك بالحتم الجغرافي أي أن العوامل الجغرافية تحدد السلوك السياسي للدولة، وعلى العكس من ذلك ترى الجغرافيا السياسية أن العوامل الجغرافية تؤثر فقط في السلوك السياسي للدولة ولا تحدده، ويمكن القول بأن الجيوبوليتيك في المنطقة الوسطى بين علم السياسة من ناحية والجغرافيا السياسية من جهة أخرى.

الجدور التاريخية للجغرافيا السياسية:

تنتسب الجدور الأولى لدراسة الجغرافيا السياسية لأرسطو (383-322 ق.م) الذي كان أول من تحدث عن قوة الدولة المستمدة من توازن ثرواتها مع عدد

ساكنيها. وترك أرسطو أفكاراً بالغة الأهمية عن وظائف الدولة ومشكلات الحدود السياسية.

وظلت أفكار ربط الممارسات السياسية بالخصائص الجغرافية تتطور بإسهامات فلسفية متعاقبة، واكتسبت هذه الأفكار دفعة قوية بما كتبه عبد الرحمن بن خلدون (1342-1405م) التي ظهرت في مقدمته الشهيرة.

وفضل ابن خلدون يتمثل في تشبيهه الدولة بالإنسان الذي يمر بخمس مراحل حياتية هي الميلاد والصبا والنضج والشيخوخة والموت.

وهذه الدورة الحياتية للدول وارتباطها بمقدرات الدولة أرضاً وسكاناً وموارد.. كانت أبرز ما نقله المفكرون الغربيون فيما بعد حينما تمت بلورة الصياغة العلمية لقيام وسقوط الحضارات.

ومع العقود الأولى للقرن 18 شهدت فرنسا ظهور أفكار جغرافية سياسية رصينة صاغها مونتسكيو (1689-1755) جنباً إلى جنب مع ما قدمه من أفكار اجتماعية وفلسفية وقانونية، بيد أن اعتقاد مونتسكيو الشديد في الحتمية البيئية نحا به لأن يربط مجمل السلوك السياسي للدولة بالعوامل الطبيعية وعلى رأسها تحكم المناخ والطبوغرافيا مع التقليل من مكانة العوامل السكانية والاقتصادية.

وظل تقييم دور العوامل المكانية (الجغرافية) في تاريخ ومستقبل الدولة السياسي بدون صياغة متكاملة حتى ظهرت في المجتمع الألماني أفكار فردريك راتزل (1844-1904) والذي يرجع إليه الفضل في كتابة أول مؤلف يحمل عنوان "الجغرافيا السياسية" في عام 1897م.

أمن راتزل بأفكار داروين في التطور البيولوجي التي كانت سائدة في نهاية القرن التاسع عشر، وصيغ راتزل صياغته لتحليل قوة الدولة بالأفكار الداروينية التي طبقها الفيلسوف الإنجليزي سبنسر في العلوم الاجتماعية تحت اسم "الداروينية الاجتماعية".

وأكد راتزل على أن الدولة لا تثبت حدودها السياسية. وكانت الدولة لديه أشبه بإنسان ينمو فتضيق عليه ملابسه عاما بعد عام فيضطر إلى توسيعها، وكذلك ستضطر الدولة إلى زحزحة حدودها السياسية كلما زاد عدد سكانها وتعاضمت مطامحها.

وعلى الجانب الآخر من القارة الأوروبية نجد في هذه الحقبة الجغرافيين اليوغسلاف يطوعون الجغرافيا السياسية لتحقيق أهداف قومية، فلم يتورعوا معها أن يعبثوا بالخرائط السياسية لتحقيق مآربهم.

وكان المثال الأبرز هو الجغرافي اليوغسلافي الشهير فيجيتش الذي "زيف" في خرائط الحدود الإثنية للقومية المقدونية - مستغلاً شهرته الدولية والثقة الممنوحة له في مؤتمر الصلح في باريس 1919- ليخدم أغراضاً مفادها "سحب" أراض

مقدونية وضمها إلى الصرب، وكانت المحصلة إنكاء الروح القومية للصرب وطموحهم للتوسع.

من الجغرافيا السياسية إلى الجيوبوليتيك:

في الوقت الذي كان فيه راتزل وسبنسر يتحدثان عن الجغرافيا السياسية كان بعض الجغرافيين الألمان يتحدثون عن علم السياسات الأرضية أو ما اصطلح على تسميته الجيوبوليتيك.

وقد بدا أنه إذا كانت الجغرافيا السياسية تنظر إلى الدولة كوحدة إستراتيجية فإن الجيوبوليتيك تعدها كائناً عضوياً في حركة متطورة.

في هذه الأثناء كانت ألمانيا تعيش بعد الهزيمة التي منيت بها في الحرب العالمية الأولى، في انتكاسة قومية بسبب ما اقتطع منها من أراض كإجراءات عقابية لها من قبل المنتصرين، وتقسيم مستعمراتها بين إنجلترا وفرنسا، كما فرض عليها حصار عسكري ومالي.

وفيما بين الحربين كرّس الجغرافيون والسياسيون الألمان جهودهم للخروج بوطنهم من محنته، وخرجت لأول مرة دورية علمية تحمل عنوان "المجلة الجيوبوليتيكية" وضمت هجيناً من الفكر الجغرافي والتاريخي والسياسي والقومي والاسـ

وقد صيغ هذا الفكر في قوالب علمية رفعت شعار: "لا بد أن يفكر رجل الشارع جغرافياً وأن يفكر الساسة جيوبوليتيكياً".

وقد جاء هذا الشعار ليبرر الكم الهائل من المعلومات الجغرافية "المغلوبة" التي قدمت للشعب الألماني عن دول شرق أوروبا والاتحاد السوفيتي. كما تم توظيف نتائج بحث الجغرافيا التاريخية والآثار لتقديم معلومات عن أحقية ألمانيا في أراض وبلدان تبعد عنها مئات الأميال شرق أوروبا. وبالرغم مما قد نظنه من مهام علمية بريئة للجمعيات الجغرافية فإن دورها في خدمة التوسع الألماني كان جلياً واضحاً.

وتحت رعاية الجمعية الجغرافية الألمانية أنشئت في ميونخ عام 1924 المدرسة الجيوبوليتيكية التي رأسها الجغرافي السياسي كارل هوسهوفر.

وبجهود هذه المدرسة وبالأعداد المتواترة للدورية الجيوبوليتيكية جهّز الجغرافيون والسياسيون الفكر الألماني بعضوية الدولة وضرورة زحزحة حدودها لتشمل أراضي تتناسب مع متطلباتها الجغرافية وتحقق ضم الأراضي التي يقطنها الجـ

وقد جاء ذلك في ظل تنامي أفكار القومية الشيفونية الممزوجة بأغراض التوسع العسكري للحزب النازي.

وقد تلقف هتلر أفكار هوسهوفر وزملائه، كما استعان بأفكار الجغرافي الإنجليزي الشهير ماكندر (الذي كانت مقالاته تترجم إلى الدورية الجيوبوليتيكية)، خاصة تلك الأفكار التي صاغ من خلالها نظريته عن "قلب الأرض"، والتي تقول فحواها: إن من يسيطر على شرق أوروبا يسيطر على العالم، وتنبت فيها بانتقال السيطرة على العالم من القوى البحرية (إنجلترا وفرنسا) إلى القوى البرية (ألمانيا والاتحاد السوفيتي)

وجاءت أفكار هتلر بدءاً من كتاب "حياتي"، ومروراً بخطبه الحماسية، لتكرس مفهوم المجال الحيوي لألمانيا Lebensraum ، أي مساحتها الجغرافية اللائقة بها وبالجنس الآري، ولتمثل أبرز مقومات القومية الاشتراكية (النازية) التي تبناها. وهكذا زاد التداخل في المفاهيم وصار الفصل صعباً بين الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيك والإمبريالية.

وصعدت الجيوبوليتيك إلى مصاف العلوم الكبرى خلال الحرب العالمية الثانية، حتى كتبت هزيمة ألمانيا نهاية لهذه المكانة.

وصار مفهوم الجيوبوليتيك بعد الحرب العالمية الثانية قرين التوظيف السيئ للجغرافيا السياسية، وهو ما أضر بتطوير الجيوبوليتيك والجغرافيا السياسية معاً. ووصل الأمر في بعض الدول إلى منع تدريس الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيك في جامعاتها، باعتبارهما علمين مشبوهين يسعيان إلى بذر العداء ويكرسان الأطماع القومية.

من الجيوبوليتيك إلى جغرافية التوسع الإمبريالي:

دون حاجة لتنظير أكاديمي ومصطلحات ضخمة كانت إمبراطورية روسيا القيصرية ومنذ منتصف القرن السادس عشر تطبق فكرة الدولة العضوية Organic State حتى قبل أن تصاغ في قوالب نظرية.

وأرست روسيا المنهج الذي قامت عليه الأطماع الاستعمارية فيما بعد باعتمادها على الدور المحوري لجمع المعلومات الجغرافية عن الشعوب المجاورة وتدعيم رحلات علمية "بريئة" تقدم أبحاثاً في ميادين شتى لخدمة التوسع فيما بعد، وكان ذلك يجري على قدم وساق حتى أقول شمس الإمبراطورية القيصرية في 1917.

وبعد الحرب العالمية الثانية كان الاتحاد السوفيتي واحداً من تلك الدول التي منعت تدريس الجيوبوليتيك في جامعاتها، استناداً إلى أن الجيوبوليتيك والجغرافيا السياسية في ألمانيا جلبا الكوارث على القارة الأوروبية والعالم بأسره.

ولم تظهر كتب في هذين العلمين ذات قيمة إلا في منتصف التسعينيات، هذا بالرغم من أن الاتحاد السوفيتي نفسه كان أكثر النماذج وضوحاً في التطبيق الحرفي لمبادئ الطمع الجغرافي "السمعة السيئة للجيوبوليتيك" لدرجة أن من أكثر النكات شيوعاً في أوروبا في الستينيات كانت تلك التي يسأل فيها مدرس تلميذه سؤالاً جغرافياً مباشراً: "من هم جيران الاتحاد السوفيتي؟" وبدلاً من أن يعدد الطالب أسماء الدول المجاورة تأتي إجابته: "جيران الاتحاد السوفيتي هم من يرغب هذا الاتحاد في أن يصبحوا جيراناً له"، في دلالة تهكمية على أن هذه الحدود متغيرة، وتعتمد على مستوى التوسع والضم الذي تلميه الأطماع الجغرافية السوفيتية.

وبتفكك الاتحاد السوفيتي مع نهاية الثمانينيات من القرن العشرين، وبتغير القدرات العسكرية النسبية له انكششت الحدود، وصارت تطال الحدود الأصلية لروسيا ما قبل السوفيتية وقد دعا هذا أحد المفكرين السياسيين صبيحة تفكك الاتحاد السوفيتي إلى أن يعبر درامياً عن هذا بقوله: "يبدو أنه لا مفر من أن نتجرع الكأس حتى الثمالة؛ بالأمس انهدم البيت السوفيتي، واليوم تهدم روسيا. وما الشيشان إلا مشهد في فصول تهدم البيت، أما بقية المشاهد فستتوالى بخروج مناطق الحكم الذاتي، تعقبها الأقاليم، ثم تتعاقب المشاهد والفصول عبر انفصال وحدات أصغر فأصغر." وعلى الجانب الآخر كان قد ظهر على المسرح الجغرافي -مع خروج الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية كأكبر قوة عالمية- مفهوم جديد الجيوبوليتيك وهو "الحدود الشفافة"، التي يقصد بها الهيمنة الأمريكية الاقتصادية والعسكرية دون حدود خرائطية للدولة. أو ما يسميه تاييلور -أشهر باحثي الجغرافيا السياسية في العقدين الأخيرين- بـ"جغرافية السيطرة من دون إمبراطورية."

والسيطرة من دون إمبراطورية هي أفضل تجسيد لتطوير الأفكار الجيوبوليتيكية، بعيداً عن الأطر التقليدية للنمو العضوي للدولة. وهذا التطوير يسمح بأن يصبح العالم كله "المجال الحيوي" للولايات المتحدة، بعدما عاشت الأخيرة حتى الحرب العالمية الثانية في عزلة جغرافية ممتعة اختارتها لنفسها.

وأهم سمة في هذا المجال الحيوي هو "اللامواجهة"، استناداً إلى مزايا الحرب الإلكترونية، وتوظيف الخصوم المتناحرين في إدارة الحرب بالإنابة، أو التدخل في لحظة محددة باعتباره تدخلاً إنسانياً لصالح العدل والحرية. وفي نفس الوقت تدفع الولايات المتحدة في هذا المجال الحيوي -دون حاجة لتوسيع الحدود- بمبيعات أسلحتها وتحصل شركاتها على أفضل فرص "إعادة الأعمار" وحقوق التنقيب عن الثروات، ناهيك عن الانفراد بغسل الأدمغة بأفكار جديدة أعد لها سلفاً.

الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي

يمكن للباحث التعرف على الأهمية الإستراتيجية لمنطقة الخليج العربي من وجهة نظر الجغرافيا السياسية من ثلاثة أبعاد مكملة لبعض، وهي البعد الجغرافي، والبعد الاقتصادي وأخيراً البعد النفطي، لذا سيقصر على تناول أهمية الخليج جيوسياسياً من خلال تلك الأبعاد، وذلك بالشكل التالي:

الأهمية الجغرافية لمنطقة الخليج العربي :

ليس في العالم مثال أفضل من ذلك الذي يقدمه الخليج العربي من حيث تأثير العامل الجغرافي على المجتمع والاقتصاد والسياسة، حيث يتمتع النظام الإقليمي الخليجي بأهمية دولية متزايدة سواء من الناحية السياسية أو الجغرافية أو التاريخية أو الاقتصادية أو العسكرية، وهو ما يؤثر في طبيعة العلاقات بين دول هذه المنطقة من جهة، وفي ميزان السياسة الدولية من جهة أخرى.

و إذا ما بدأنا بعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا) فإن الخليج العربي يقع في حوض ضحل يمسك بزمام ثلثي الاحتياطي النفطي المؤكد للعالم. ودون هذه الحقيقة فإن الخليج لا يقدم مصالح محددة لأي شعب آخر عدا شعبه الذي يستقر على شواطئه. فبسبب ثروته النفطية في عالم يعاني من نقص حاد في الطاقة، أصبح منطقة ذات أهمية دولية متعاظمة. ولهذا أصبح فهم شعب الخليج بصورة واقعية يقتضي البدء بتصور الواقع الجغرافي لوطنهم أولاً.

وترى معظم الدراسات الجيولوجية، بأن الخليج قد تشكّل نتيجة للهزات الأرضية العنيفة التي حدثت في العصر الميوسيني، وقد أدت هذه الهزات إلى تقعر منطقة الخليج التي تفصل بين هضبتين كبيرتين، هما: الهضبة الإيرانية وهضبة شبه الجزيرة العربية. وتجدر الإشارة إلى أن مضيق هرمز قد تشكّل بفعل عوامل النحت والتعرية التي أدت إلى صنع هذه الفتحة الأرضية، وبالتالي تدفق مياه المحيط الهندي إلى هذه الثنية المقعرة، وتكوين ما يعرف حالياً بمياه الخليج العربي.

وهكذا أصبح الخليج بحراً شبه مغلق، ويبلغ طول الساحل الغربي منه حوالي (1357) كيلو متر ابتداءً من جزيرة رأس مسندم العُمانية وحتى شط العرب في العراق، كما يتراوح عرضه ما بين (180-280) كيلومتر، وتقدر مساحة سطحه بنحو (250) كيلومتر مربع، وتبلغ أعماق نقطة فيه (100) متر بالقرب من جزيرة هرمز، ولذلك تتميز مياه الخليج بالضحالة ولا سيما عند السواحل الشمالية والشرقية منه، والتي ينحسر عنها المياه سنوياً بفعل ترسبات الطمي التي ينقلها إليه نهري شط العرب ونهر قارون(). وهو ما أدى إلى بروز العديد من الجزر التي تكونت بفعل هذا الطمي، مثل: جزيرة بوبيان وجزيرة البحرين وجزيرة فيلكه وغيرها.

وإلى جانب هذه الجزر ذات الأهمية الاقتصادية والعسكرية، والتي يكون بمقدور من يسيطر عليها أن يتحكم في جميع الممرات البحرية المتجهة من المحيط الهندي إلى داخل الخليج، يوجد مضيق هرمز الذي يعتبر بوابة الخليج الوحيدة نحو العالم، ولذلك يعتبر من أهم الممرات المائية الدولية بسبب مرور أكثر من مائة سفينة محملة بالنفط تمر من خلاله يومياً. وتكفي الإشارة إلى أنه في عام 1973 كان ينقل

عبر مضيق هرمز ما يعادل (18.5) مليون برميل يومياً من النفط، تتجه منها حوالي (9) مليون إلى اليابان وأوروبا.

وقد ساعدت الطبيعة على جعل الخليج بحيرة صالحة لإيواء الأساطيل المحاربة، فأعمق أجزاء الخليج لا تتجاوز مائة متر، بل لأنه فيه مناطق واسعة لا يتجاوز عمقها أربعين متراً، وتمتد هذه المناطق المحدودة العمق في كثير من أجزائه إلى ما يتجاوز المائة كيلو متر من الساحل العربي، في حين أن الأعماق الكبيرة في الخليج، بصفة عامة تحيط بساحل هضبة إيران من جانب، ومضيق هرمز من جانب آخر، هذه الخصائص تمثل سلاحاً ذا حدين: فهي من جانب تجعل من المستحيل على السفن ذات الحمولة الضخمة الاقتراب من الساحل العربي، ولكنها من جانب آخر تجعل من الخليج في مجموعه بحيرة يستطيع من يتحكم في مداخلها أن يخلق منها منطقة صالحة لإيواء وحماية الأساطيل من منأى هجوم أو صدام بحري.

ونظراً لامتداد الخليج على شكل خنجر إلى أقصى عمق متصور في منطقة جنوب غرب آسيا حتى نقطة يتقابل معها خط عرض 30 بخط الطول 50، فإن هذه المنطقة أصبحت أقرب بقعة من المحيط الهندي وتوابعه إلى سويط روسيا الأوروبية، وإلى أهم مواقع التجميع السكاني والصناعات الثقيلة في روسيا الآسيوية، فالمسافة التي تفصل شط العرب عن جنوب بحر قزوين حيث آبار النفط المهمة في جنوب الاتحاد السوفيتي (السابق) لا تتجاوز خمسمائة ميل.

علاوة على ذلك، فإن خصوصية هذا الموقع جعلت الخليج بمثابة قلب الشرق جغرافياً، فعن طريقه وعبر نهر الفرات، يمكن الوصول إلى سوريا والبحر المتوسط، أو إلى تركيا فبالبحر الأسود عن طريق نهر دجلة، أو إلى إيران وبحر الخزر، ومنه إلى روسيا عن طريق المعابر الطبيعية بين الجبال والهضاب الجنوبية والوسطى، أو إلى أفغانستان.

وفي نهاية التسعينات وبعد افتتاح " طريق الحرير " بالربط التاريخي بين شبكة خطوط السكك الحديدية الإيرانية - التركمنستانية، أصبح الخليج منفذاً بحرياً استراتيجياً لجمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية، فعن طريق هذا الخط بات بمقدور هذه الجمهوريات الوصول بسهولة إلى إيران ومنها إلى الخليج مباشرة ومن الخليج إلى العالم.

لأن الخليج العربي يعتبر بَحراً شبه مغلق، فإن من يتحكم في مداخله يستطيع التأثير على الاقتصاد الدولي، ومن يسيطر على مياهه يستطيع أن يتحكم في خطوط الملاحة الدولية، باعتبار أن هذا الإقليم يتوسط القارات الثلاث في آسيا وأوروبا وإفريقيا، وهو ما أدى إلى تنافس القوى الكبرى في السيطرة على مياهه واستعمار صفتيه منذ بداية القرن الخامس عشر، ومع وجود أكبر نسبة من احتياطي النفط

العالمي في أراضيه ازدادت أهميته الإستراتيجية، فأصبح محط أطماع هذه القوى التي تسعى لفرض سيطرتها على إقليم الخليج العربي.

الأهمية الاقتصادية لمنطقة الخليج العربي:

ليس هناك ثمة شك في أن الأهمية الاقتصادية للخليج العربي، وخاصة اكتشاف النفط، هي من أعطت كل هذه الأهمية الدولية والعالمية لمنطقة الخليج، فهي إلى جانب كونها تتمتع بموقع استراتيجي وجيوسياسي حيوي وحساس بالنسبة للمنافذ المائية، كما ذكر آنفاً، تتمتع كذلك بمقدرات اقتصادية ونפטية ومالية هائلة، حيث تعتبر المنطقة الأولى في العالم التي تشكل محور الاقتصاد العالمي باعتبارها نواة الإنتاج النفطي العالمي ومصدر قوة الحياة الصناعية طيلة عقود القرن المنصرم وحتى اليوم.

والحياة الاقتصادية هي أساس الحياة الاجتماعية والسياسية إذ لا يمكن أن يقوم تقدم اجتماعي دون ازدهار اقتصادي.

ولا شك أن موارد الخليج العربي الاقتصادية قبل اكتشاف النفط فيها كانت محدودة وقد تحددت بطبيعة المناخ شبه الاستوائي الجاف و بمساحة الأراضي الزراعية أو تلك التي يمكن استصلاحها.

والواقع أنه حتى وقت ليس بالبعيد كانت النشاطات الاقتصادية في منطقة الخليج العربي جد متشابهة فهي إما تعتمد على الزراعة البسيطة الأولية (في الواحات و حول منابع المياه المحدودة) أو على الرعي الذي ينتشر في الأراضي الداخلية من الإمارات كما يمكن الإشارة أيضاً إلى أهمية الغوص للحصول على اللؤلؤ و إلى التجارة بحرا وبراً.

فعملية صيد اللؤلؤ و استخراجها من أقدم النشاطات الاقتصادية التي اشتهر بها الخليج العربي، و كما يثير نفط الخليج العربي الآن أطماع بعض الدول، أثار اللؤلؤ قديماً أطماع أكثر من دولة استعمارية فالاحتلال البرتغالي للبحرين مثلاً كان نتيجة طبيعية لهذه الثروة الضخمة من اللؤلؤ، و كذلك بسبب اللؤلؤ وقفت بريطانيا ضد تدخلات بعض الحكام المحليين في المنطقة وأمام اندفاع بعض الدول كالدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر و ألمانيا القيصرية في مطلع القرن العشرين.

ولكن بعد اكتشاف النفط العربي في الخليج ازدهرت المنطقة بشكل تدريجي وتحولت من الاعتماد على الصناعات والحرف اليدوية ومردود مياه الخليج والزراعة إلى الاعتماد على الوقود النفطي كمصدر رئيس في الحياة الاقتصادية الخليجية، بيد ان ذلك لم يحقّز دول المنطقة إلى الاهتمام المباشر بالحياة الصناعية المتقدمة أو في الاستفادة من فائض النفط النقدي لتطوير مناحي الحياة الاقتصادية في دولها إلا في فترات متأخرة، فضلاً عن اختلاف نسبة ما تقدمه نواحي الصناعة

والتجارة والزراعة من دخول جيدة لميزانية الدولة من بلدٍ لآخر تبعاً لإمكاناتها ومقدراتها في تلك النواحي.

وتحتوي هذه المنطقة على أهمية اقتصادية شديدة التأثير والفعالية في السياسة الدولية الراهنة، فالقوة الاقتصادية لا تكتسب أهميتها ووزنها الدولي من حجمها أو نوعها فحسب، بل بزمانها أيضاً، أي مدى أهميتها في اللحظة التاريخية المحددة. فالاعتماد المتزايد على النفط يكشف قيمته الاستراتيجية في الصراع الدولي على الموارد، فمنذ اتخذ قائد البحرية البريطانية ونستون تشرشل قراره عام 1910 باعتماد النفط بديلاً عن الفحم كوقود للأسطول البريطاني، ومنذ أن ظهرت حركات الديزل والطائرات عام 1930، وابتكرت أساليب جديدة للتشحيم والتزيين، باتت السمة الطاغية لمرحلة ما بين الحربين هي الصراع على النفط، وكانت الحرب العالمية الثانية بحق هي "حرب زيت" فالجانب الذي يستطيع وقف تدفقات المنتجات البترولية عن العدو، ويتمكن في الوقت ذاته من إمداد قواته وسفنه وطائراته به في الوقت المناسب والمكان المناسب هو الجانب الذي سيحرز في النهاية النصر في هذا الصراع العالمي.

وليس هناك شك في أن عصرنا الراهن هو عصر النفط، لقد كان النفط على مدى قرن كامل، بالنسبة لأكبر قوة عالمية وهي الولايات المتحدة الأمريكية صانع الرخاء وقت السلم وضامن النصر وقت الحرب، فالولايات المتحدة كما يقول كارل سولبرغ: "قوة نفطية أساساً النفط هو الذي يغذي هذه القوة، كما يغذي الدم جسم الإنسان".

ولا أحد يجادل في أن النفط قد مكن الولايات المتحدة من أن تصل إلى ذروة القوة في العالم، وهو الذي جعل من القرن الماضي بأكمله قرناً أمريكياً، كما أن لا أحد يجادل في أن الولايات المتحدة تسعى لجعل القرن الحالي قرناً أمريكياً، ولكي يتم لها ذلك، فإنه لا بد من السيطرة على النفط، وبخاصة نفط دول النظام الإقليمي الخليجي، وهو النفط الذي تزداد حاجة العالم والولايات المتحدة إليه.

ولا يمكن فهم أهمية النفط دون النظر إليه باعتباره قوة مركبة، فهو أولاً المصدر الأساسي والهم للطاقة في العالم، لكنه علاوة على ذلك هو مصدر لعائدات نقدية ضخمة وصناعات واسعة، ومجال نشاط شركات عالمية عملاقة. فالعائدات النفطية هي أضخم العائدات الاقتصادية، وتشكل القسط الأكبر من العملات والأوراق المالية والسيولة النقدية اليومية، وتؤثر في ميزان المدفوعات لكل دول العالم. والصناعات النفطية أيضاً هي أضخم الصناعات حيث تنتج أكثر من 12 ألف سلعة، وتوظف ما لا يقل عن 12 مليون فرد في قطاعاتها الاستكشافية والإنتاجية والتكريرية والتسويقية والتوزيعية الواسعة، بل أن الصناعات النفطية هي من الضخامة الاتساع بحيث أنها الصناعة الوحيدة التي تعمل بحرية تحت كل الظروف

السياسية والأنظمة الاجتماعية كافة. أما الشركات النفطية فهي شركات عملاقة وما زالت محافظة على نفوذها وقوتها، بل أن هذه الشركات تزداد ضخامة يوماً بعد يوم، وتأتي على قائمة الشركات الدولية التي تحولت الى قوة رئيسية وفاعلة على لساحة الدولية.

الأهمية النفطية بالنسبة لدول الخليج:

يعتبر النفط أكبر مكون لناتج الدخل المحلي وأضخم مصدر لعائدات كل الدول الخليجية، فلا عجب أن يكون له دور مهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لكل المنطقة منذ سنوات عديدة، سواء من جانب صنع الاستقرار السياسي في هذه الدول وترسيخه أو من خلال صنع الخلافات البينية مع دول الجوار والصراع على النفوذ والهيمنة السياسية والاقتصادية.

فمن الناحية الداخلية لكل دولة نجد أن حقول النفط تمتلكها هذه الدول، وعائدات النفط تذهب بصورة مباشرة من شركات النفط العالمية إلى خزائن هذه الدول، وبالنتيجة فإن الصناعة النفطية قد ركزت مبالغ هائلة من الثروة الاقتصادية والقوة السياسية في أيدي الحكومات. وقد لعب تركيز مصادر الدخل المالي الفائض في أيدي الأسر الحاكمة دوراً مهماً في فرض شروط العقد الاجتماعي بينها وبين رعاياها من مواطني هذه الدول منذ أوائل السبعينات، حيث يحصل المواطنون على منافع مادية جيدة مقابل ولائهم السياسي لهذه الأسر، أو على الأقل قبلوهم "المهادنة السياسية" معها، فخلال عقدي السبعينات والثمانينات امتلكت دول الخليج المقدرة والإرادة معاً على منح مواطنيها التعليم المجاني أو شبه المجاني والرعايا الصحية، والخدمات الإسكانية، ودعم البضائع الاستهلاكية، إضافة إلى الكثير من الخدمات الاجتماعية الأخرى.

أما من ناحية العلاقات البينية بين دول الخليج، فلا يمكن إنكار أن الأزمة التي قادت إلى احتلال العراق للكويت هي أزمة نفطية بالدرجة الأساسية، وهي تفتح ملف النفط الخليجي في علاقات دوله مع بعضها البعض، وأن الصراع على النفط هو صراع على النفوذ في الخليج، وبدون التصرف الواعي في هذه الأمور الشائكة، فإن القوى الأجنبية تستغل الأخطار لتتدفق جيوشها بسرعة إلى المنطقة تحت شعار "الحفاظ على المصالح الحيوية" للغرب.

ومنذ أن بدأت الشركات النفطية التنقيب على النفط في اليابسة والبحر، نشب الصراع بين الدول الخليجية على الحدود البرية والبحرية وتمكنت بعض الدول من الوصول إلى ترسيم الحدود فيما بينها أو تحويل بعض المناطق إلى مناطق محايدة يتم استثمارها من قبل البلدين المتجاورين، أو يتم التنازل من طرف لآخر كما حصل بين أبو ظبي والسعودية عام 1974، وكان من المفروض أن تحل مشاكل الصراع

على النفط بين الدول الخليجية بروح التعاون والأخوة القومية بين البلدان العربية، وبروح حسن الجوار بين العرب والإيرانيين، ومن هنا فإن الصراع على النفط لم يكن غائباً عن أي من حروب الخليج ابتداءً بالحرب العراقية - الإيرانية عام 1980 وانتهاءً بالحرب الأمريكية على العراق عام 2003.

ففي الحرب الأولى كانت آبار النفط في عربستان (الأحواز) مغرية بالنسبة للعراق وبهدف إجبار إيران على التسليم بشروط العراق، واستمرت الحرب ثمان سنوات تم خلالها تدمير الكثير من الإمكانات النفطية في البر والبحر لدى الطرفين. وفي حرب الخليج الثانية، كان الإعلان عن لأزمة من قبل العراق يتركز على زيادة الإنتاج من قبل الإمارات والكويت لإغراق السوق النفطية وبالتالي تخفيض الإنتاج، وكون الكويت كانت تقوم "بشفط" النفط العراقي من حقل الرميلة المشترك، فقد لجأ العراق إلى القوة العسكرية لحسم الصراع، وضم الكويت، مما وضع المنطقة في اخطر موقف تاريخي تمثل في طلب الدول الخليجية الحماية من الولايات المتحدة وحلفائها.

وفي الحرب الأمريكية الأخيرة على العراق، ظهر جلياً أن النفط كان المحرك الرئيسي والأبرز لهذه الحرب التي انتهت بتحقيق أهداف الولايات المتحدة في احتلال العراق الذي "يرقد" على احتياطي فلكي من هذا المورد الثمين وقوامه 112 مليار برميل من النفط الخام، وهو ما يوازي 12 في المائة من إجمالي الاحتياطي العالمي ويأتي في المرتبة الثانية مباشرة (إن لم يكن المرتبة الأولى في تقديرات محدثة) من الاحتياطيات العالمية المؤكدة فوق ظهر الأرض.. حيث لا يسبقه سوى السعودية التي تقدر احتياطياتها بنحو 262 مليار برميل أو ما يوازي 25 في المائة من الاحتياطي العالمي، ومن مفارقات الأحداث ان العراق تحت طائلة الجزاءات - العقوبات التي كانت قد فرضتها قرارات مجلس الأمن على مدار عقد التسعينات، كان بمنأى عن أيادي الشركات الأجنبية - الاحتكارات الأميركية المتطلعة في شراة الى استغلال مقدراته.

وفي جميع هذه الحروب كانت السعودية تواقه لتلبية احتياجات الغرب من النفط وزيادة الإنتاج للتعويض عن كميات النفط العراقي وتمكنت السعودية من التعويض عن "75%" من النقص في الإمدادات النفطية في حرب الخليج الثانية عام 1991 وخفضت من الضغوط الرامية إلى رفع الأسعار وبرهنت أنها مركز الثقل في المنطقة وتعززت مكانتها تلك في أعقاب الأزمة.

وخلال هذه الأزمة كان المسؤولون الأمريكيون يرددون بأنهم لن يسمحوا "لصدام حسين" أن يستولي على 10 % أخرى من احتياطي النفط العالمي، وأن سيطرته على 20 % ستجعله في موضع تساومي كبير مع الدول العربية، وكان

التخوف في بداية الأمر أن يعتمد العراق إلى الاستيلاء على المنطقة الشرقية من السعودية مما سيضع 45% من احتياطي النفط العالمي تحت تصرفه.

الفصل الرابع عشر

ظاهرة تفتيت الدول ونهاية الجغرافية السياسية

الفصل الرابع عشر

ظاهرة تفتيت الدول ونهاية الجغرافية السياسية

بالرغم من أن المجتمع الدولي لا يزال يصر على أن الدولة هي النواة الأساسية المكونة للنظام العالمي، وأن المحافظة عليها وعلى سيادتها ووحدتها هو من أهم شروط الاستقرار في العلاقات الدولية، إلا أن ذلك الأمر وكما يبدو لم يعد قابلاً للاستمرار خلال العقود القادمة، بحيث يمكن القول إن السنوات القليلة المقبلة سوف تشهد صراعاً قاسياً ومريراً بين المبادئ المتعلقة بسيادة الدول وسلامتها الإقليمية واحترام شؤونها الداخلية، وهي مبادئ ميثاق الأمم المتحدة، وبين تلك التيارات الداخلية المنادية بالانفصال والتفكك بهدف الحصول على الحكم الذاتي عن الدولة المركزية.

وكما يبدو أن التحولات الجديدة في بنية النظام الجيوسياسي العالمي القادم قد بدأت بالتشكل والبروز بشكل مبكر، وخصوصاً ظاهرة تقسيم الدول القائمة وتفتيتها إلى كيانات جديدة، والتي ستشكل لاحقاً مع تلك الكيانات الدولية التي تطالب بالانفصال والاستقلال عن المركز السياسي الذي تتبعه بحسب الجغرافيا السياسية الراهنة، والتي سيتم الاعتراف بها لاحقاً بشكل أو بآخر، قائمة الدول التي سترسم معالم الخارطة الجديدة للجغرافيا السياسية في القرن الحادي والعشرين.

وقد بات من المحتمل وبحسب العديد من الدراسات السياسية والجغرافية وبعض النظريات والتحليلات والتوقعات الصادرة عن العديد من مراكز الأبحاث المرموقة والشخصيات العلمية ذات الاختصاص، أن في العالم اليوم ما يقارب من الـ 50 دولة على الأقل مهددة بالتقسيم والتفتيت إلى دويلات وكيانات أصغر، على رأسها الولايات المتحدة الأميركية وأستراليا وعدد من الدول الأوروبية والعربية، هذا بخلاف العديد من الدول في مختلف قارات العالم، ومن ضمنها القارة الآسيوية المهددة أكثر من غيرها بهذا الأمر، كون النظام الدولي القادم سترسم معالمه من هذه القارة المحورية تحديداً.

وكما أن تلك التحولات المحتملة في النظام الجغرافي الدولي الراهن، تسير في طريق تفتيت الجغرافيا القائمة ونهاية التاريخ السياسي القديم، فإنها ومن جهة أخرى تؤكد وبما لا يدع مجالاً للشك بأن هناك دول وكيانات صغيرة قائمة، ستتوحد وتندمج مع كيانات دولية أخرى، مكونة بذلك دول جديدة وأنظمة سيادية وسياسية مستحدثة، سترسم لاحقاً مع تلك الدول المستقلة أو المنفصلة، خارطة العالم الجديد، والنظام الجيوسياسي القادم خلال العقود الـ 9 المتبقية من القرن الحادي والعشرين.

- وبمعنى آخر - أن نظرية " إزاحة الدول " وتفتتها وتقسيمها جغرافيا وسياسيا من جهة، وانزواء دول أخرى واندماجها جغرافيا وسياسيا مع كيانات أخرى اكبر منها، أو مثلها من جهة أخرى، أو من خلال ظهور أقليات وجيوب وتقسيمات جغرافية داخلية ستعطى بعض الاستقلال الذاتي مع بقاء ارتباطها بالمركز، قد بات من الناحية " النظرية " على اقل تقدير أمرا شبه مؤكد خلال المرحلة الزمنية القادمة، وخصوصا أن الدفع نحو تأكيد هذه التحولات الجغرافية والسياسية قد بدأت ترسم معالمها الأولية فعليا وعمليا حتى قبل ان نلج العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين.

- وإذا كانت الحقائق التاريخية تؤكد وبما لا يدع مجالا للشك بان هذه الظاهرة لا ترتبط حصريا كما يعتقد البعض بالدول العربية، أو أنها تتركز حول الدول الفقيرة أو المتخلفة أو المستعمرة، أو تلك التي تدور حولها الصراعات الجيوسياسية الدولية، بل هي ظاهرة تاريخية قديمة عابرة للقطارات، تتحكم في ظروفها عوامل خاصة، وتختلف تأثيراتها من حالة الى أخرى، فانه ومن ناحية أخرى، يجب التأكيد على ان هذه الظاهرة قد استشرت وبشكل خطير خلال العقود القليلة الماضية في عالمنا العربي، وذلك نتيجة العديد من العوامل السياسية والتاريخية والإنسانية المرتبطة بالحالة العربية تحديدا، وعلى رأسها إضعاف تلك الدول المرتبطة ارتباطا مباشرا بالصراع العربي مع المستعمرة الإسرائيلية الكبرى.

- هذا بالإضافة الى التجاوزات في حقوق الإنسان وحقوق الأقليات، والخلل في تقسيم الموارد الطبيعية والثروات بين أصحاب رؤوس الأموال ومن هم في مراكز السلطة وبقية أبناء الشعب، واستفحال الظلم والفساد وخلافه، مما مهد لتلك الدول المتربصة بعالمنا العربي الطريق لاستغلال تلك التجاوزات السافرة، وذلك بتأليب الشعوب وتأجيج مشاعر الحقد والحق بين الأغنياء والفقراء والأقلية والأكثرية، وزرع الفتن الطائفية والقومية والمذهبية بين أبناء الدين الواحد.

المهم في الأمر، ان ما نشاهده اليوم من استشراف لهذه الظاهرة في عالمنا العربي لا يختلف كثيرا عما يحدث في الكثير من دول العالم، فحالة النفقات والانقسام وارتفاع أصوات الاستقلال قد بدأت بالارتفاع في الولايات المتحدة الاميركية ودول القارة الأوروبية والآسيوية، إنما يبدو ان الدور الذي يلعبه الإعلام والتدخلات الخارجية هما المحركين الرئيسيين لإشعال فتيل تلك الصراعات و تأجيجها وتوسيع رقعتها الجغرافية، أو العكس.

وقبل التطرق الى هذه الظاهرة في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وجدنا من المهم استرجاع بعض تلك الحالات القديمة والتي لازالت آثارها وامتداداتها

التاريخية والسياسية مستمرة حتى يومنا هذا، وعلى رأسها تفتيت الإمبراطورية العثمانية واستقلال دول الاتحاد السوفيتي السابق والاتحاد اليوغسلافي، و(الأصل أيضاً أن الولايات المتحدة هي التي خططت لتفكيك الاتحاد السوفيتي، فتفكك على الأثر الاتحاد اليوغسلافي، ولكن تفكيك الاتحاد السوفيتي اعتمد على إثارة النزعات القومية والدينية مما أدى إلى تفجير الإمبراطورية السوفيتية من الداخل، ولكن يبدو أن واشنطن لم تقتنع بذلك خوفاً من إعادة التئام الجمهوريات السوفيتية السابقة، إما في إطار تجدد القومية الروسية، أو في إطار مظاهر الاتحاد السوفيتي السابق، فاستمرت واشنطن في مطاردة الوجود الروسي في الجمهوريات السابقة، بعد أن حاربت النفوذ الروسي فيها، بل إنها تتجه بوضوح إلى تفكيك الاتحاد الروسي نفسه ولهذا السبب اعترضت موسكو على الاتجاه إلى منح الاستقلال لإقليم كوسوفو)

وحدثنا تعاني القارة الأوروبية بواذر هذا الأمر الحتمي، وإن كان ذلك لا يبدو عملياً أمراً متوقعاً للبعض في المدى القريب على أقل تقدير، فإننا لا يمكن أن نستبعد ذلك على المدى المتوسط، وتحديدًا على دول لها مكانتها الدولية، فانه ومن الناحية الجغرافية والسياسية قد بدأ هذا التيار بالتشكل والانبعاث والتكون الفعلي، إذ سيبدأ ذلك مع الكيانات الجغرافية الصغيرة التي تطالب بالاستقلال من جهة، والانفصال عن مركزها الجغرافي الراهن من جهة أخرى، أو حتى من خلال المطالبة بالانزواء وراء دول كبرى قد تؤيد استقلالها، ككوسوفو وألبانيا الكبرى، والشيشان وأنغوشيا ومولدوفا، وليس استقلال تيمور الشرقية في العام 2002 م، وجمهورية الجبل الأسود في العام 2006 م عنا ببعيد 0 هذا بخلاف ما يمكن أن يحدث لبعض الدول الأوروبية الرئيسية كبلجيكا على سبيل المثال لا الحصر والتي ظهرت فيها مؤخرا بعض الأحزاب والقوى السياسية الكبرى التي تنادي بإعطاء بعض المناطق الداخلية البلجيكية استقلال ذاتي كمنطقتي فلاندرز وفالونيا، كما أنه لا يجب أن نتجاهل مطالبة سكان جزر الكناري وإقليم الباسك الإسباني الانفصال عن إسبانيا، وكذلك الأقليات المجرية في كل من رومانيا وسلوفاكيا، وكذلك في هولندا وسويسرا، وشمالى أيرلندا، وهي على سبيل المثال لا الحصر.

أما الولايات المتحدة الاميركية فهي الأخرى كذلك ليست بمعزل عن الإصابة بظاهرة التقسيم والتجزئة الجغرافية في المستقبل، فهناك العديد من المنظرين الذين وضعوا عدة سيناريوهات لانهايار الولايات المتحدة الاميركية وتفتيتها وتقسيمها، وخصوصا نتيجة ظروف وعوامل كالاقتصاد والتجاوزات في حقوق الإنسان، أو حتى من خلال التعددية العرقية والأثنية، كإيمانويل تود في كتابه " ما بعد الإمبراطورية " و الخبير الاقتصاد الروسي البروفيسور "إيجور بانارين" 0 وقد وضع هذا الأخير منذ عشر سنوات وتحديدًا في العام 1998م سيناريو توقع من خلاله انهيار الولايات المتحدة الاميركية وتقسيمها الى دويلات حيث وقف بنارين في

مؤتمر دولي تحت عنوان " الحرب المعلوماتية "، بالعاصمة النمساوية ليلقي كلمته الطويلة التي جذبت الحضور بشدة وأثارت دهشتهم وصيحاتهم، خصوصاً عندما قال إن "الولايات المتحدة ستلقى مصير الاتحاد السوفيتي وستفكك إلى أجزاء"، والأكثر غرابة أن بنارين في كلمته في المؤتمر تنبأ بأن الولايات المتحدة ستواجه أزمة مالية حادة في غضون العشرة أعوام المقبلة ستكون بداية انهيار الهرم الكبير، وهو ما حدث في العام 2008م.

كما لا يجب أن ننسى المستعمرة الإسرائيلية الكبرى، فهي الأخرى مهددة بالتفتت والانقسام والتجزئة، والحالة الإسرائيلية لها ظروفها التاريخية والسياسية الخاصة، وإن التقت في بعض المظاهر والظروف العامة لهذه الظاهرة، فهناك استثناء يجب الالتفات إليه، وهو أن إسرائيل " الصهيونية " هي مستعمرة في قلب أمة، زرعت بفعل عوامل الاستبداد الدولي والظروف التاريخية والاستعمارية، مما نتج عن ذلك ظاهرة أخرى لا تقل خطورة على إسرائيل، وهي تحويل الأكثرية إلى أقلية، وسلبها كل الحقوق السيادية والسياسية وخلافه.

وبمعنى آخر – تحويل أبناء الوطن والأرض بفعل القوة إلى غرباء ونازحين وتهجيرهم وسلبهم جميع حقوقهم التاريخية والوطنية، وهو ما أنتج لاحقاً ما أطلق عليه بالصراع التاريخي بين الفلسطينيين والصهاينة من جهة، والصراع العربي – الإسرائيلي من جهة أخرى، كما ترتب على ذلك الاستعمار العديد من النتائج السياسية والاقتصادية والديموغرافية على الداخل الإسرائيلي، وهو ما رفع سقف مخاوف الحكومات الصهيونية المتوالية في الآونة الأخيرة.

وبالفعل فإن الحكومات الصهيونية السابقة واللاحقة كانت صريحة بهذا الخصوص تحديداً، وخصوصاً الجانب الديموغرافي منه، ولأن العقبة الديموغرافية كانت تمثل دائماً هاجساً مقلقاً، منذ عهد تأسيس المستعمرة الإسرائيلية، فإنها غير مرشحة للحل نظراً للزيادة الديموغرافية المتفوقة لدى السكان الفلسطينيين، والتي ستكون على حساب المستعمرة الصهيونية، إلا إذا تكفلت أطراف أخرى بالقبول بالشراكة لوضع حلول مستقبلية يتفق بشأنها من خلال عملية التسوية السياسية لاستيعاب هذه الزيادة.

الأمر الآخر الذي يجب التطرق إليه هنا (فيتمثل بكون أن الغلبة الديموغرافية الفلسطينية مُحاطة بحاضنة ديموغرافية قومية عربية تمثل الهوية الفلسطينية امتداداً طبيعياً لها، وهو ما لا يتوفر بالنسبة لإسرائيل إلا عبر الهجرة اليهودية الجماعية التي لم تعد متوفرة، بسبب المكتسبات التي يحصل عليها اليهود في الغرب، مما لا يشجعهم على المغامرة في الدخول في مواطنة جديدة لدولة لم تشهد منذ لحظة قيامها مرحلة استقرار وأمن) ومن هذه الناحية تحديداً نستطيع أن نفهم الإصرار المتزايد لجل الحكومات الصهيونية الحديثة، وآخرها حكومة رئيس الوزراء الإسرائيلي

بنيامين نتنياهو على ضرورة اعتراف الجانب الفلسطيني شعباً وحكومة يهودية الدولة قبل الإعلان عن أي مفاوضات، بالرغم من ان (التطرق إلى يهودية دولة إسرائيل في بداية تكوينها قد يُهدد كيانها، كونه سيُحدث انقساماً خطيراً في نسيج المجتمع الإسرائيلي في ظل التنوع القائم بين يهود الاشكناز - أصول غربية - الذين يشكلون 40%، ويهود السفارديم - أصول شرقية - الذين يشكلون 36%، ويهود الصابرا - من آباء ولدوا في فلسطين- الذين يشكلون 24%، وارتباط ذلك بامتيازات كل فئة ومكانتها ونفوذها في قطاعات الدولة)

أما عربياً: - وللأسف الشديد - فلا زالت هذه الظاهرة تسير في طريق الاستفحال والانتشار بشكل لا يبشر بخير، وقد بينا سلفاً الأسباب وراء استفحال هذه الظاهرة في وطننا العربي على وجه الخصوص في الآونة الأخيرة، وبالفعل فقد برزت خلال العقود القليلة الماضية العديد من الأفكار والتوجهات التي تسير في هذا الاتجاه، تدفعها عوامل خارجية وداخلية، وهو ما افرز لنا تلك المسميات الاستعمارية كمشروع الشرق الأوسط الكبير على سبيل المثال 0 وفي هذا السياق يقول الدكتور عبد الله الأشعل (أما في العالم العربي، فإن تفتيت الدول في آسيا الوسطى وروسيا ومن قبله تيمور الشرقية سوف يرفع وتيرة التفتيت في العالم العربي، ومعلوم أن تفتيت العراق لأسباب تتعلق بإسرائيل سوف يؤدي إلى تعقيدات إقليمية خطيرة أبرزها قضية الأكراد والصراع بين حق تقرير مصير بعض الأقليات، وحق الدول التي تعيش فيها الأقليات في المحافظة على سلامتها الإقليمية، ولعل احتلال العراق قد ارتبط بأعلى درجة من تحقير العروبة ورموزها، في الوقت الذي تدافع فيه واشنطن عن الهوية الصهيونية وتصويرها على أنها قومية تاريخية، وبذلك توظف واشنطن الفكرة القومية توظيفاً سياسياً متناقضاً، فتشجع قوميات انفصالية وقوميات استعمارية توسعية عندما يكون ذلك خدمة لمصالحها، بينما تحطم الروابط القومية العربية والإسلامية لإضعاف المنطقة العربية والإسلامية لمصلحة إسرائيل)

وبالفعل فإننا ومن خلال السنوات العشر الأولى من القرن الحادي والعشرين، نشاهد سقف تزايد الدول العربية المهددة بالانقسام والتفكك قد ارتفع كثيراً، وقد اظهر استطلاع للرأي أجراه مركز الدراسات العربي الأوروبي في باريس ان المطالبة بانفصال الجنوب السوداني يأتي ضمن سياق مخطط أميركي - صهيوني مدروس ومخطط له مسبقاً.

وذكر المركز في بيان أنّ 76.4 % من الذين شملهم الاستطلاع قالوا انه مع احتمال انفصال جنوب السودان ستنقل العدوى الى دول عربية أخرى، وأن المطالبة بانفصال الجنوب تأتي ضمن سياق مخطط أميركي - صهيوني، وهو التكتيك الجديد في الحرب على المنطقة العربية إي تقسيم الدول العربية وليس خوض الحروب التقليدية، وبرأيهم ان القائمة المطروحة حالياً تشمل العراق - اليمن - السودان -

المغرب - الجزائر، ولم يستبعدوا في المدى المنظور دولا خليجية قد يشملها التقسيم، وتوقعوا ان يتم تقسيم هذه الدول خلال السنوات العشر المقبلة، وبالطبع فان كل ذلك يخدم أولا وأخيرا المستعمرة الإسرائيلية الكبرى ومصالحها ومخططاتها الإستراتيجية في الشرق الأوسط، وتحديدا في العالم العربي. هذا بالإضافة الى العديد من الدول الأفريقية والآسيوية الأخرى المهتدة بالتنازل عن أجزاء من أقاليمها، وذلك بالانفصال أو التفتيت أو تسليم تلك الأقليات حكما ذاتيا منفصلا، ومن أمثلة ذلك مملكة التورو في أوغندا، وأوغادين وأورومو في إثيوبيا، والهوسا والايبو في نيجيريا، والسكان الأصليون في إقليم كاتنغا بالكونغو، واللوزي في زامبيا.

ختاما فان هذه الدراسة - الموجزة - لنهاية الخارطة الجيوسياسية للقرن العشرين، لتأكد من ناحية على بروز خارطة جديدة ستحمل معها معالم جغرافية وسياسية ودولية جديدة في العقود القادمة من القرن الحادي والعشرين، كما أنها ومن ناحية أخرى لتؤكد على حتمية استمرار هذه الظاهرة - ونقصد - ظاهرة إزاحة الدول وتفتيتها وتقسيمها وتجزئتها خلال السنوات القليلة القادمة، وبالتالي بداية انهيار وحدة الدول القائمة والمكونة للنواة الأساسية المكونة للنظام العالمي الراهن، وهو ما سيؤدي لاحقا وبشكل أوتوماتيكي الى انهيار النظام العالمي القائم اليوم، والذي تسببت أحداث الحادي عشر من ديسمبر من العام 2001م وما تبعها من أحداث وتغيرات وتحولات في بنية النظام الجيوسياسي العالمي الى تفتته وانهياره بشكل كامل، وهو ما سيؤدي بدوره في العقود المقبلة الى العديد من الحروب والصراعات العابرة للقارات، والتي سترسم بدورها النظام العالمي الجديد، والجغرافية السياسية التي ستحل مكان الخارطة الجيوسياسية الراهنة، وفي مدة أقصاها العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين.

الفصل الخامس عشر

إشكاليات الهوية، الجغرافيا السياسية، الديموغرافيا

الفصل الخامس عشر

إشكاليات الهوية، الجغرافيا السياسية، الديموغرافيا

يعني علم الجغرافيا السياسية في الأساس بمدى التأثير الذي تلعبه الجغرافيا وعلم المكان على سياسات الدول ومن ضمنها السياسة الخارجية ومنها على سبيل المثال إسرائيل، التي شهدت ثلاث مراحل تاريخية منذ تأسيسها اثنتان منها في العصور القديمة والثالثة في العصر الحديث، وفيما يلي عرض لمحاول ومبادئ السياسة الخارجية لإسرائيل على مدار ثلاثة آلاف عام في إطار السياسة الجغرافية. ضمناً سوف نستخدم مصطلح "إسرائيل" للتعبير عن ثلاث كيانات لدولة إسرائيل، بدأت الأولى منها مع غزو يشوع خلال القرن السادس قبل الميلاد والثانية مع مطلع عام 540 قبل الميلاد على يد الفرس، وقد شهدت تلك الحقبة تضاول الدور الإسرائيلي في السياسة الدولية، أما المرحلة الثالثة فجاءت مع مطلع عام 1948م في ذات الوقت الذي شهد سقوط الإمبراطورية البريطانية.

ولدراسة الجغرافيا السياسية لإسرائيل، يتوجب علينا الأخذ في الاعتبار ثلاث معايير أساسية يتمثل المعيار الأول في الجغرافيا السياسية الداخلية لإسرائيل، ويختص كل من المعيار الثاني والثالث بعلاقة إسرائيل بكل من دول الجوار وما سوف نطلق عليه مصطلح "القوى العظمى".

جغرافيا إسرائيل وحدودها

بداية تجدر الإشارة إلى أن جغرافيا إسرائيل التي امتدت في عهد الملك داوود من سيناء وحتى نهر الفرات قد شهدت تغييرًا عبر العصور المختلفة هذا في الوقت الذي لم تشمل فيه حدود إسرائيل يومًا ما شبه جزيرة سيناء أو شبه الجزيرة العربية. وتتكون الجغرافيا الإسرائيلية من ثلاثة أجزاء تشمل الأولى منها إقليم الهضبة الشمالية، والثانية تتمثل في المنطقة الساحلية التي تمتد من تل أبيب شمالاً وحتى حيفا، والثالثة تمتد من القدس وحتى نهر الأردن، ويمكن القول بأن إسرائيل تتمتع بحماية طبيعية من هذه الجهات الثلاث سواء من جهة شبه جزيرة سيناء التي تكفل الحماية لإسرائيل من ناحية الدولة المصرية وهو ما يتشابه في الجنوب ناحية جبال العقبة وإيلات، وفي الشرق تمتد الصحراء بطول ثلاثين ميلاً وحتى شرق نهر الأردن.

وبالرغم من أن إسرائيل تواجه عقبة فيما يتعلق بعمقها الإستراتيجي، تظل احتمالات التهديد حيال أية هجمات من دول الجوار محدودة شيئاً ما، وحتى حال تعرض إسرائيل لهجمات من اتجاهات مختلفة في نفس الوقت فإنها تمتلك ميزة القدرات القتالية على صعيد الخطوط الداخلية مع الأخذ في الاعتبار أيضاً حجم القوات المنتشرة لدول الجوار ومدى نجاح التنسيق بينها مما يحدض احتمالية حدوث هجوم شمالي جنوبي مشترك ضد إسرائيل.

الجغرافيا الإسرائيلية كنقطة التقاء في نصف الكرة الشرقية

وبناء عليه لم يكن مستهجنًا أن يمتد أول ظهور لإسرائيل لأمد من الزمن تجاوز خمسة قرون، إلا أن هزيمة إسرائيل على يد الآشوريين والبابليين تظل مثالاً للتساؤل يلزمنا للإجابة عليه أن ننظر بنظرة أوسع للجغرافيا الخاصة بإسرائيل. بداية يمكننا القول بأنه بالرغم من أن إسرائيل تمتلك موانئ عدة ما يمكنها من الحصول على الأخشاب لصناعة السفن باعتبارها تقع على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، إلا أنها لم تكن يوماً أحد القوى البحرية في بلاد الشام الذي لطالما مثل مع إسرائيل حجر الزاوية للقوى العظمى إذ لا يمكن لأي إمبراطورية على ساحل البحر المتوسط سواء كانت الروم أو قرطاج أن تحكم سيطرتها على الضفتين الشرقية والغربية دون أن تثبت جناحها الشرقي على الشام، ما يمكننا من التأكيد على مدى ما مثله الحدود الشرقية والشمالية والجنوبية لإسرائيل بالنسبة للإمبراطوريات الناشئة في بلاد الشام وهو ما يفضي إلى حقيقة مفادها أن إسرائيل تمثل ما نطلق عليه نقطة الالتقاء في نصف الكرة الشرقية الذي يجب أن يحظى بالاهتمام سواء من القوى الأوروبية أو الشرقية على حد سواء.

الجغرافيا السياسية الداخلية

تنقسم إسرائيل إلى ثلاثة مناطق جغرافية أنتجت أنماطاً مختلفة من المجتمعات والموروثات الثقافية فيما يتعلق بالديمقراطية السكانية، فهناك السهل الساحلي؛ حيث يقبع أصحاب التجارة والمصانع الذين وإن كانوا أغنياء على المستوى المادي إلا أنهم ليسوا أهل حرب، بخلاف رعاة الأغنام الذين يتركزون في الصحراء القاحلة في الجزء الجنوبي من القدس التي تعتبر حلقة الوصل ورمانة الميزان بين المناطق الثلاث إن جاز التعبير، وهناك المحاربون والفلاحون في إقليم الهضبة الشمالية بالقرب من نهر الليطاني.

وبالرغم من أن الاختلافات والانقسامات المجتمعية قد لا تتبع الخطوط والمسارات الجغرافية في إسرائيل، إلا أنها ومع الوقت تطفو على السطح، ولعل توتر العلاقات المتأصل بين سكان المنطقة الساحلية الذين يمارسون النشاط التجاري وينعمون في ظل حياة اقتصادية ومادية مرتفعة والجليليين الذين يحيون حياة صلبة يمكن أن يدل على مثل هذه الإشكالية.

يبقى أيضاً أن نشير إلى معيار الدبلوماسية، فحول الجوار التي تحيط بإسرائيل هي مصر وسوريا والأردن وتختلف تلك الدول فيما بينها فيما يتعلق باهتماماتها وتطلعاتها، فمن جانب تحظى الحدود الغربية والشمالية باهتمام مصري أكثر مما تحصل عليه سيناء، ومن جانب آخر تشعر سوريا بالتهديد من اتجاهات عدة مما يدفعها إلى التحالف مع مصر، ومع افتراض أسوأ الظروف تظل كل من مصر وسوريا عاجزتان عن دعم بعضهما البعض في حين تسعى إسرائيل إلى تسوية سياسية مع الجانب المصري في مسعى منها نحو تأمين حدودها الغربية والجنوبية.

إسرائيل والقوى العظمى

يكمن دائم السر وراء أي احتلال لإسرائيل خلف الأطماع الاستعمارية للإمبراطوريات التي لا تكون في الغالب متاخمة لإسرائيل جغرافياً، فنادراً ما تعرضت إسرائيل للتهديدات من دول الجوار التي لا تمثل مشكلة في مقاومتها من جانب إسرائيل بخلاف القوى البعيدة التي تحكمت سياسياً وعسكرياً في إسرائيل مثل البابليين والبريطانيين والأتراك والمقدونيين والفرس والروم أيضاً.

وعليه تواجه إسرائيل إشكالية فيما يتعلق بمصالحها التي تستطيع فقط الدفاع عنها فقط ضد أطماع دول الجوار غير أن موقعها الجغرافي كثيراً ما جذب انتباه وتطلعات القوى العظمى غير المتاخمة لإسرائيل جغرافياً، ومع الوقت الذي يجب أن تركز فيه إسرائيل على مصالحها العسكرية المباشرة يتوجب عليها دبلوماسياً أن تنظر إلى ما هو أبعد من ذلك، فإسرائيل تعيش في ظل ثلاثة ظروف مختلفة، يتمثل

الأول منها في إمكانية أن تظل دولة مستقلة وهو ما يمكن أن نطلق عليه نموذج داوود، ويتمثل الثاني في أن تحيا إسرائيل في ظل إمبراطورية وهو ما قد تتمتع من خلاله باستقلالية في السياسة الداخلية غير أنها تظل تابعة فيما يتعلق بسياساتها الخارجية وهو ما يمكن أن نطلق عليه النموذج الفارسي، ويأتي النموذج الثالث الذي نطلق عليه النموذج البابليوني الذي تفتقد فيه إسرائيل حتى إلى الحكم الذاتي مع الطرد القسري والتهجير.

ويمكننا القول أن كلاً من النموذج الفارسي والنموذج البابليوني قد سيطرا على معظم المراحل التي مرت بها إسرائيل وقد يُعزى ذلك إلى العامل الجغرافي إذ تظل إسرائيل مطمعا للقوى العظمى الخارجية نظراً لموقعها الإستراتيجي ومع عجز إمكانياتها العسكرية والاقتصادية تجاه التهديدات الخارجية يتكشف لنا بوضوح أن النموذج الذي يطلق عليه نموذج داوود لم يتكرر كثيراً على صعيد دولة إسرائيل.

الجغرافيا السياسية لإسرائيل المعاصرة

ظهرت إسرائيل على الساحة السياسية في العصر الحديث كنتاج للصراع المتبادل بين القوى الإقليمية العظمى المتمثلة في كل من الإمبراطورية العثمانية من جهة والإمبراطورية البريطانية من جهة أخرى، فمن جانب نجد أن الإمبراطورية العثمانية أرادت السيطرة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط في الوقت الذي كانت تسيطر فيه على الساحل الجنوبي والشمالي أيضاً بتوجيه ضربات نحو البلقان في أواسط أوروبا ونحو مصر في الشرق مما توجب معه حتمية تأمين بلاد الشام، ومن جانب آخر نجد سعي الإمبراطورية البريطانية هي الأخرى للسيطرة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط أيضاً باعتباره الممر البحري الرئيسي للهند - درة التاج البريطاني - غير أن بريطانيا وجدت نفسها عاجزة عن كسر شوكة الإمبراطورية العثمانية بالقوة العسكرية المباشرة مما جعلها تلجأ إلى عقد تحالفات مع القبائل البدوية في شبه الجزيرة العربية وتشجيع اليهود على إعادة إنشاء دولة إسرائيل.

نجحت إستراتيجية الإمبراطورية البريطانية شيئاً فشيئاً خاصة مع التعاون الفرنسي آنذاك ما أسفر عن تقسيم الشام إلى قسمين حصلت فرنسا على الجانب الشمالي المتمثل في سوريا ولبنان، بينما فرضت بريطانيا سيطرتها على الجزء الجنوبي المتمثل في فلسطين وهو ما تبعه توطين الهاشميين في الضفة الشرقية لنهر الأردن، وبقيت فلسطين وطناً ملائماً يتوافق مع رغبة اليهود في إنشاء دولتهم "إسرائيل".

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، تأثرت الإمبراطورية البريطانية على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، وظهرت عاجزة عن إعادة إحياء أمجادها كما كان في السابق وبالطبع كانت فلسطين جزءاً من تلك الإمبراطورية، ويضاف إلى ذلك

ظهور كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي كقوتين جديدتين على الساحة السياسية الدولية وتنامت لديهما أطماع نحو الشرق ورأي كل منهما في إعادة إنشاء الدولة الإسرائيلية مقدمة جيدة للحصول على مكاسب في الشرق.

وبالرغم من أن تصرفات حكومة بن جوريون في إسرائيل قد أثارت حفيظة الدول المجاورة عام 1948 إلا أن ثمة ما يقال من أن هذه التهديدات التي تزامنت في نفس التوقيت لم تفلح في إفشال قيام دولة إسرائيل فقد عجزت القوى العربية المتمثلة في لبنان وسوريا ومصر والأردن في هزيمة إسرائيل في حرب 1948، ويُعزى ذلك - في جانب كبير منه - إلى نجاح إسرائيل في نشر وإعادة نشر قواتها العسكرية على صعيد الخطوط الداخلية مما كان له أبلغ الأثر في إعطاء قبلة الحياة للدولة الناشئة.

غير أن إشكالية التسليح العسكري ظلت مشكلة تؤرق إسرائيل منذ تأسيسها وحتى اتفاقية كامب ديفيد مع مصر مما دفعها إلى محاولة إيجاد حليف من القوى العظمى يسد عنها رمق القوة العسكرية ويسد احتياجاتها في المجال العسكري، وقد مثل الاتحاد السوفييتي أول حليف عسكري لإسرائيل عبر تشيكوسلوفاكيا التي مدت إسرائيل بصفقات السلاح قبل وبعد حرب 1948 على أمل أن تكون إسرائيل بوابة الاتحاد السوفييتي للساحل الشرقي للبحر المتوسط، غير أن إسرائيل لم تكن حليفاً جدياً للولايات المتحدة على الصعيد العسكري حتى بعد حرب يونيو 1967 مع الرغبة الحثيثة للولايات المتحدة لكبح جماح الاتحاد السوفييتي في شرق المتوسط.

لم تكن إسرائيل يوماً ما عرضة للتهديدات من دول الجوار وهو ما تفرضه الجغرافيا الخاصة بها، غير أن احتمالية التهديد التي تواجهها تكمن في رغبة إحدى القوى العظمى في السيطرة على حوض البحر المتوسط أو احتلال المنطقة التي تمتد من أفغانستان وحتى البحر المتوسط وهو ما يندرج تحت حكم المستحيل منذ سقوط الاتحاد السوفييتي، غير أن خمسة عشر عاماً لا تكفي لطمأنة إسرائيل التي يتوجب عليها أن تقيس تاريخها بمعيار القرون وليس السنوات، بينما تكمن احتمالية الخطر الثانية التي تحيق بإسرائيل في التحالفات التي تعقدها القوى العظمى ضد الولايات المتحدة راعية إسرائيل وصاحبة السطوة عالمياً في الوقت الحالي والتي تسعى من جانبها إلى تهديد مصالح تلك القوى هي الأخرى.

غير أن حالة الشد والجذب التي تشهدها الساحة الدولية قد تدفع الولايات المتحدة إلى فرض مطالب تعجيزية على إسرائيل في الوقت الذي تظل فيه إمكانية أن تتحالف القوى العظمى الأخرى مع سوريا أو حتى مع إسرائيل نفسها، كما أن الخلفية التاريخية لمنطقة الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط وما تمثله من عامل جذب للقوى العظمى قد تفضي إلى محاولات حثيثة من قبل تلك القوى لخلق إمبراطورية شرق أوسطية وهو ما قد يفضي بإسرائيل إلى النموذج البابليوني الذي أسلفنا ذكره.

إن حقيقة إسرائيل تكمن وراء كونها دولة صغيرة يتوجب عليها دائماً أن تسعى لمنع التهديدات التي تحيق بها من قبل القوى العظمى عبر إنشاء نوع من التحالفات والمواءمات بنوع من المهارة والحرفية غير أن المهارة ليست معياراً جغرافياً وهو ما مثل أزمة دائمة لدولة إسرائيل.

ارتكز مشروع الدولة اليهودية، منذ نشأته كفكرة أولية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلى القومية اليهودية بوصفها خصوصية دينية توراتية وتاريخية. من هنا، كان الربط الجدلي لدعاة الصهيونية الأوائل، بين الدين والتاريخ من جهة، والجغرافيا، أي الأرض والمقصود بها "أرض الميعاد" أي فلسطين، من جهة أخرى. تحوّلت الأيديولوجيا القومية، خلال النصف الأول من القرن العشرين، إلى مشروع صهيوني استيطاني - إحلالي في فلسطين، قلب المجال الحيوي للمشرق العربي، وقد برز كاستجابة لزعم توراتي يقوم على مبدأ "الإسترجاعية"، أي العودة إلى أرض الميعاد (فلسطين) حيث تنشأ الدولة اليهودية على مدى جغرافي سياسي مفتوح يغطي مساحة فلسطين التاريخية، ويكون قادراً على التحول إلى مشروع جيوسياسي يضمن السيطرة والتفوق على كامل المجال الحيوي العربي الذي يربط بين أربع نقاط ارتكاز: بلاد ما بين النهرين (الفرات) شرقاً، ومصر (النيل) غرباً، وبلاد الشام (البحر المتوسط) شمالاً، وشبه الجزيرة العربية (البحر الأحمر) جنوباً.

جاء قيام إسرائيل العام 1948 ليشكّل الحلقة المركزية في بنیان صرح الدولة اليهودية المزعومة. وكانت حروب التفوق الإسرائيلي المتواصلة ضد العرب والفلسطينيين، ومخططات الاستيطان التي لم تتوقّف، والتي كانت تحصل بموازاة الطرد الإكراهي للفلسطينيين وتحويلهم إلى لاجئي شتات، منسجمة مع استراتيجية صهيونية هادفة إلى إنجاز تهويد الدولة كهدف أعلى للمشروع الصهيوني.

إلا أنّ هذا المشروع، وعلى الرغم من كل التعبئة الأيديولوجية التي منحت له، وتوافر وسائل الدعم المادي والعسكري والسياسي كلها من جانب رأسماليات المركز الغربي لمصلحته، فإنه، في الواقع، كان يتطوّر على قاعدة مازق استكمال الدولة الذي يقوم على ثلاث إشكاليات أساسية ما زالت، حتى اليوم، عصيّة على الحلّ الحاسمة، وهي إشكاليات الهوية، والجغرافيا السياسية والديمغرافيا.

بسبب هذه الإشكاليات، باتت مقولة "يهودية الدولة" تحتلّ في الآونة الأخيرة أولوية مطلقة في الخطاب السياسي الإسرائيلي إذ برزت بقوة على طاولة المفاوضات المباشرة التي دارت مؤخراً بين الوفدين الإسرائيلي والفلسطيني في واشنطن وشرم الشيخ والقدس. وإذا كانت هذه المفاوضات قد جرت بتحفيز سياسي ودبلوماسي من قبل الإدارة الحالية الحاكمة في البيت الأبيض، إذ رأى فيها الرئيس باراك أوباما عنصراً مساعداً لإدارته ولحزبه الديمقراطي في توظيفها إعلامياً لمصلحة حملته الانتخابية النصفية - انتخابات نصف الكونغرس في الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر

2010 و والتي انتهت بخسارة الديموقراطيين الأغلبية في مجلس النواب وتقليص أغليبتهم في مجلس الشيوخ، فإنّ المفاوض الإسرائيلي بالمقابل، يسعى إلى تحقيق جملة من المكاسب ما استطاع تحقيقها في السابق عبر سلسلة الحروب التي خاضتها إسرائيل وما تزال، مع غير جبهة عربية أو فلسطينية منذ قيامها ككيان سياسي منذ العام 1948 وحتى الآن.

إنّ سيطرة مقولة "يهودية الدولة" على الخطاب السياسي الإسرائيلي في الوقت الراهن، إنما تهدف إلى إعادة التركيز على العامل الأيديولوجي في شدّ عصبية اليهود داخل فلسطين المحتلة وخارجها من أجل مواجهة التحدّيات التي ما زالت تحول دون استكمال مشروع الدولة، لا بل أنها تضع مصير هذه الدولة ووجودها على مفترق طرق .

فكرة الدولة اليهودية

بدأت ملامح الظهور الأول لفكرة "الدولة اليهودية" مع مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي فكرة لم تكن معزولة عن التطوّرات النوعية التي شهدتها الرأسماليات الأوروبية سواء على مستوى صعودها التراكمي من جهة، أم على مستوى التحوّلات الفكرية والأيديولوجية والسياسية الناشئة عنها من جهة أخرى. ولم تلبث أن شهدت مزيداً من التبلور على أيدي عناصر نخوية يهودية أوروبية عاصرت التحوّلات الهامة التي عرفتها أوروبا في الاقتصاد والأيديولوجيا والعلاقات الدولية، وكان أبرزها قد تمثل بظاهرتين إثنيتين: الأولى، تحوّل رأسمالية المركز الأوروبي باتجاه الكولونيالية، وهي نزعة استعمارية قائمة على التوسّع والسيطرة على بلدان خارج أراضيها لا سيما في آسيا وإفريقيا بهدف تأمين التراكم في دوراتها الاقتصادية عبر فتح المزيد من الأسواق الخارجية والحصول على المواد الخام الضرورية لصناعاتها المتطورة، والثانية، ظاهرة الدولة – الأمة أو الدولة القومية، وهي مستجدة على الاجتماع السياسي الأوروبي الذي أرسيت دعائمه على أساس الربط العضوي بين ثلاثة مرتكزات أساسية هي الأرض كجغرافيا سياسية، والشعب كجماعة بشرية متفاعلة، والهيئة الحاكمة أي السلطة المركزية على رأس الهرم السياسي.

كانت الحركة الصهيونية (Le Sionisme) بمنزلة النواة الفكرية التي راحت تضع المنطلقات النظرية لقيام دولة تجمع شمل اليهود من الشتات العالمي. وقد ارتكزت في مشروعها إلى مرتكزين أساسيين: الأول، ديني أيديولوجي، من خلال العودة إلى مقولات توراتية تضمّنّها العهد القديم، وهي مقولات تعبوية ثقافية تدعو اليهود إلى العودة إلى أرض الميعاد (فلسطين) بوصفهم الجماعة البشرية المختارة إلهياً من أجل سلام العالم وخلصه من الشرور والآثام، والثاني، تاريخي انتسابي من

حيث استحضار "صهيون" في الذاكرة التاريخية اليهودية عبر الربط بين تسمية الحركة بالصهيونية وصهيون الذي ورد في العهد القديم، وهو يرمز إلى مدينة الملك الأعظم، أي مدينة الإله (ملك إسرائيل). فالمدينة كانت قد حملت إسم الجبل الذي بنيت عليه، وهو جبل عالٍ في فلسطين. كل ذلك من أجل إيجاد مرتكز جغرافي تبريري (أرض) لقيام الدولة اليهودية المزعومة.

دعاة الصهيونية والدولة اليهودية

كان موسى هيس (Moussa Hess) في طليعة العناصر النخبويين اليهود الذين أسهموا في إنطلاقة الحركة الصهيونية، وفي رسم هدفها المركزي بتقوية الروابط الدينية بين اليهود المنتشرين في غير بلدٍ في العالم. ففي كتابه "روما والقدس" الذي أصدره العام 1862، لم يتطرق هيس إلى قيام دولة يهودية ولكنه بحث السبل المثلى لتحقيق أحلام اليهود في إقامة نظام إجتماعي في فلسطين. فهو يرى أنَّ مثل هذا النظام ينسجم مع الوظيفة اليهودية في قيادة العالم، وهي الوظيفة التي خصَّ بها الله اليهود في التاريخ. وحسب زعمه "إنَّ أوامر الله لليهود هي تطبيقهم القانون الذي أرسلهم الله ليعلموه للشعوب الأخرى، وإنَّ أقسى عقوبة فرضت عليهم كانت لانحرافهم عن الطريق الذي وضعته العناية الإلهية. أما عجزهم عن عبادة الله كآمة متكاملة فكان بسبب قدهم لأرضهم."

ويتوقَّف هيس عند أرض فلسطين ليس فحسب بوصفها أرضًا تتسم بخصوصية تاريخية بالنسبة إلى اليهود، وإنما أيضًا بوصفها موقعًا جيو - استراتيجيًا من حيث أنها تمثل الطريق الرئيس والمركز الجغرافي المهم للمدينة الغربية على الطريق المتجهة إلى الهند، وحتى يتمكن اليهود من تحقيق مركز لهم على هذا الطريق لا ينقصهم المال والكفاءات أو العمال وغيرهم.

وأشار هيس إلى أنَّ قيام دولة يهودية في فلسطين "سوف يحقّق الرسالة الحضارية لليهود في نقل الحضارة إلى الشعوب المتخلفة في آسيا وإفريقيا، وأنَّ ذلك سيكون من خلال تأسيس المستوطنات اليهودية عبر رقعة ممتدة من السويس إلى القدس، ومن نهر الأردن حتى البحر المتوسط.

مع الكاتب اليهودي "نورمان بنتويتش" (Norman Bentwitch) "إرتدى مشروع الدولة اليهودية في فلسطين - قلب الشرق الأوسط - أهمية جيوبوليتيكية بحكم خصوصية الموقع الفلسطيني كنقطة ارتكاز لمجال حيوي يربط بين شبه الجزيرة العربية ومصر وبلاد الشام وبلاد ما بين النهرين. والمعروف أنَّ هذه المناطق تتميز بحضارات تاريخية شكّلت تقاطعات لحضارات عالمية. فقد أوضح بنتويتش هذه الخصوصية لفلسطين إلى القادة الإنكليز مظهرًا لهم الدور الذي يمكن أن تقوم به دولة يهودية في المستقبل.

مع مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان مشروع الدولة اليهودية قد عرف بعض الترجمة الميدانية عندما بدأ المليونير اليهودي "روتشيلد" يغذي اليهود بتأسيس مزارع في فلسطين، ثم تبعته مؤسسات مالية أخرى في عدة دول من العالم من أجل تشجيع الهجرة الزراعية تمهيداً للإستيلاء على الأراضي في فلسطين. كما عمل المفكرون اليهود على تكثيف الدعاية الإعلامية التي تحرّض على هجرة اليهود إلى فلسطين عبر حملات دعائية منظمة قامت بها جمعيات ومؤتمرات عديدة لتحقيق الحلم الذي كان يراود اليهودي، وبخاصة البائس والمضطهد والمنعزل داخل أسوار "الغيتو" في بلدان أوروبا، في المجيء إلى فلسطين ليعمل في الأراضي الزراعية تمهيداً للإستيلاء عليها بعد طرد سكانها الأصليين.

من بين الجمعيات التي راحت تُؤلب الرأي العام اليهودي للهجرة إلى فلسطين، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت "محيي صهيون"، التي أنشأها كُتّاب وطُلاب جامعيون في روسيا وعمّال يهود العام 1867، وكذلك جمعية أخرى ناشطة في أوكرانيا كانت قد أرسلت أول فوج من مهاجري يهود أوروبا الشرقية إلى فلسطين العام 1882.

هرتزل والدولة اليهودية

اعتُبر "تيودور هرتزل"، وهو صحفي نمسوي ذاع صيته في عالم الصحافة الأوروبية خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، بحق بمنزلة الأب الروحي للحركة الصهيونية، والمؤسس لمشروع الدولة اليهودية وفق مقولات فكرية أيديولوجية وسياسية.

العام 1896 نشر هرتزل كتابه "الدولة اليهودية" موضحاً فيه أنّ فكرة هذه الدولة ليست بالطارئة أو الجديدة، وإنما هي "فكرة موعلة في القدم، وهي فكرة استعادة الدولة اليهودية. وهنا يريد هرتزل أن يُضفي على مشروع الدولة بعداً تاريخياً من أجل تقديم مسوِّغ تبريري لكون استعادة هذه الدولة هي بمنزلة "حق تاريخي" لليهود. ولما كانت الدولة متماهية مع القومية فإنّ قومية اليهود "لا يمكن أن تفنى ولن تفنى ولا ينبغي لها أن تفنى. وقد تبلى فروع كثيرة من اليهودية وتسقط أما الجذوع فإنها تبقى ثابتة.

في الواقع، ربط هرتزل أيديولوجياً بين ثلاثة أبعاد لدولته اليهودية: الأول، البعد الاجتماعي من خلال التوجّه إلى يهود الطبقات الدنيا في السَلَم الاجتماعي الأوروبي، والثاني، البعد الديني التوراتي، في محاولة لاستحضار مقولتي "أرض الميعاد" و"شعب الله المختار"، وإظهار أنّ استعادة إحياء الدولة اليهودية هي مسألة تكليف إلهي، والثالث، البعد القومي على اعتبار أنّ اليهود، على الرغم من توزيعهم في الشتات، هم شعب واحد. فقد جاء في قوله: "أعتقد أنّ المسألة اليهودية لم تعد

مجرد مشكلة إجتماعية بقدر ما هي قضية دينية، ومع ذلك قد تتخذ أشكالاً أخرى، إنها قضية قومية يمكن حلها فحسب عندما تعالج كقضية سياسية عالمية تناقشها شعوب العالم المتحضّر في مجلس دولي. إننا شعب.. وشعب واحد".

أما مرتكزات قيام الدولة اليهودية فقد حدّدها هرتزل بثلاثة أساسية.

الأول: السيادة اليهودية على جزء من الأرض، يكون كافياً للاحتياجات الحقيقية للأمة. وبعد ذلك يعود الأمر إلى اليهود بتقدير الجغرافيا السياسية للدولة – الأمة على قاعدة أنّ الأرض هي الأساس الموضوعي للدولة في حين يمثل الشعب الأساس الذاتي.

الثاني: النخبة السياسية التي تتولّى التخطيط وإجراء المباحثات والتفاوض، وهي عبارة عن جمعية سوف تنال اعتراف الحكومات العالمية بوصفها سلطة لإقامة الدولة.

الثالث: الشركة اليهودية التي تمثّل الشرط الاقتصادي لإقامة الدولة، وعليها يتوقّف توفير رأس المال وتحقيق المصالح المالية لليهود الوافدين، وسوف تُنظم الاقتصاد والتجارة في الدولة الجديدة.

وبالنسبة إلى الأرض التي ستنشأ عليها الدولة أو بالأحرى الجغرافية السياسية للدولة اليهودية، فقد حسم هرتزل الجدل عندما أعطى الأولوية لفلسطين على الأرجنتين حيث جاء في قوله: "إنّ الأرجنتين من أكثر بلاد العالم خصوبة، وهي تمتد على مساحات شاسعة وفيها عدد قليل من السكان، ومناخها معتدل. وجمهورية الأرجنتين سوف تحصل على مكاسب كبيرة إذا تنازلت لنا عن قطعة من أراضيها.. أما فلسطين فإنها وطننا التاريخي الذي لا تُحصى ذكراه، إنّ اسم فلسطين بحدّ ذاته سيجتذب شعبنا بقوة ذات فعالية رائعة. فإذا منحنا جلالة السلطان فلسطين سنأخذ على عاتقنا بالمقابل، تنظيم مالية تركيا. ومن هناك سوف نشكّل جزءاً من استحكامات أوروبا في مواجهة آسيا كموقع أمامي للحضارة في مواجهة البربرية. وعلينا – كدولة طبيعية – أن نبقي على اتصال بكل أوروبا التي سيكون من واجبها أن تضمن وجودنا".

في خاتمة كتابه يطلق هرتزل نداءً إلى يهود العالم يخاطبهم بالقول: "فيا إخواننا اليهود هذه هي "أرض الميعاد"! لا أسطورة هي ولا خدعة، وكل إنسان يستطيع أن يختبر حقيقتها بنفسه، لأن كل إنسان سيحمل معه قطعة من أرض الميعاد: بعضها في رأسه، وبعضها بين ذراعيه، وبعضها في ملكيتها المكتسبة.

هكذا وضع هرتزل الأساس الأيديولوجي لدولته اليهودية، وهو أساس مزج بين التوراتي التاريخي من جهة، والقومي العلماني من جهة أخرى. فهو أعار أهمية بالغة للاعتبارات الدينية، إلا أنها اعتبارات لم تخرج عن كونها وسيلة ضرورية للتعبئة والشحن النفسي لليهود العالم من أجل دفعهم تحت توهج الحرارة الدينية إلى الهجرة

باتجاه فلسطين. وقد أوضح هرتزل هذه الوسيلة عندما أناط وظيفة الهجرة برجال دين أي حاخامات يهود يتولون قيادة المجموعات المهاجرة. إن "كلّ مجموعة سيكون لها حاخامها يسافر مع رعيته. وسوف تتشكّل المجموعات المحلية في ما بعد تشكيلاً تطوعياً حول حاخاماتها، وسوف يكون لكل مجموعة محلّة قائدها الروحي". وعن وظيفة هؤلاء الحاخامات أوضحها هرتزل بالقول: "إنّ حاخاماتنا الذين نوجّه إليهم دعوة خاصة سيكرّسون طاقتهم في خدمة فكرتنا، وسيحفزون رعاياهم بالوعظ من فوق منابرهم.. فدعوة كهذه جديدة بأن يتردّد صداها بين جدران المعابد.

هذه الوظيفة الوعظية لمدرسة المعابد هي وظيفة مكيفالية من حيث أنّها وسيلة في خدمة الغاية أو الهدف الأعلى الذي يتمثّل بإقامة الدولة اليهودية وغير الدينية حسب هرتزل نفسه. فالدولة الدينية باتت من الماضي في التاريخ الأوروبي، وباتت ظاهرة أخرى مسيطرة في أوروبا والعالم هي ظاهرة الدولة القومية العلمانية. لذلك يتساءل هرتزل: "هل سننتهي إلى حكومة ثيوقراطية؟"، ويجب على الفور: "لا بالتأكيد. إن العقيدة تجمعنا والمعرفة تمنحنا الحرية. ولذلك سنمنع أي اتجاهات ثيوقراطية تتصدّر قيادتنا من جانب الكهنوت. سوف نحصر كهنتنا داخل حدود المعابد، كما سنحصر بالمثل جيشنا داخل حدود معسكراته. وسوف يتلقّى جيشنا وكهنتنا منا كل احترام رفيع بقدر ما تستحقه وظيفتهما القيّمة، ولكنهما لا يجب أن يتدخلا في إدارة شؤون الدولة التي تُخلع عليها مكانة سامية، وإلا فسيجلبان علينا صعوبات في الداخل والخارج.

الدولة اليهودية في المؤتمرات الصهيونية

لم تمض سنة واحدة على المنطلقات النظرية التي أطلقها هرتزل في كتابه "الدولة اليهودية" حتى كرّس العقد الأخير من حياته (توفي العام 1904) لتطوير أفكاره ووضع الإطار التنظيمي لها تمهيداً لتحقيق إنجازات عملية تأخذ صيغة المراحل المتدرّجة وصولاً إلى إنجاز قيام الدولة الموعودة.

إعتمد هرتزل صيغة المؤتمرات الصهيونية المتتالية، فكان أولها في مدينة "بال" السويسرية بين 27 - 30 آب/أغسطس 1897 والذي حدّد هدف الصهيونية الاستراتيجي بقيام "وطن للشعب اليهودي في فلسطين"، كما عيّن الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الهدف وهي.

- 1- استعمال فلسطين زراعياً وصناعياً.
- 2- تنظيم اليهودية العالمية.
- 3- تقوية المشاعر اليهودية والوعي القومي اليهودي.
- 4- تتالى بعد ذلك عقد المؤتمرات الصهيونية التي ارتدت طابع الدورية شبه السنوية وبخاصة في السنوات الأولى من القرن العشرين التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الأولى. فقد عُقد بين العامين 1897 - 1913 أحد

عشر مؤتمراً. وحتى العام 1951، أي بعد ثلاث سنوات فقط من قيام "دولة إسرائيل"، بلغ العدد الإجمالي للمؤتمرات الصهيونية ثلاثة وعشرين مؤتمراً، الأمر الذي يشكّل سابقة في التاريخ الحديث والمعاصر على مستوى الحركات والمنظمات في العالم.

اعتمدت الحركة الصهيونية في مؤتمراتها المتواصلة مبدأ التراكمية في تحقيق الانجازات الآيلة إلى قيام دولتها على أرض فلسطين العام 1948:

- في مؤتمرها الثاني 1898 تمّ تحديد آليات اكتساب الجماعات اليهودية في العالم إلى

جانب المشروع الصهيوني في إقامته الدولة اليهودية.

- العام 1899 قرّر المؤتمر الثالث تأسيس المصرف اليهودي تحت اسم "صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار" بغية تمويل النشاط الاستيطاني في فلسطين.

العام 1900 عُقد المؤتمر الرابع تحت شعار أيديولوجي عرقي ديني (العمل اليهودي على الأرض اليهودية)، أي اعتبار فلسطين أرضاً لليهود.

العام 1901 أسّس المؤتمر الخامس "الصندوق القومي اليهودي".

- العام 1903 ناقش المؤتمر السادس عرضاً بريطانياً باستعمار أوغندا (إفريقيا) أو العريش المصرية، وخرج المؤتمر برفض الاقتراح.

العام 1905 حسم المؤتمر السابع مسألة إنشاء الوطن القومي لليهود على أرض فلسطين.

- العام 1907 أصدر المؤتمر الثامن قراراً بإنشاء "مكتب فلسطين" في مدينة يافا لمتابعة الأنشطة الاستيطانية بشكل واسع ومنظم. وقد عبّر الكاتب الصهيوني "أوتو داربورغ" عن هذه الخطوة بقوله: "إنّ الحق التاريخي الذي يستند إلى ملكيتنا لفلسطين قبل ألفي سنة لا مفعول له وحده لدى الدول الكبرى، بل يتوجّب علينا إيجاد صيغة عنصرية لذلك الحق كي تضاف إليه. إنّ فلسطين تخضع إقتصادياً لنفوذنا، وإنّ جميع ما أحرزه ذلك البلد من تقدم كبير وملحوس يرجع في الأصل إلى مبادرتنا نحن وقوة وسائلنا الاقتصادية وفعاليتها، ولم ينشأ إلا بفضلها."

من المفيد ذكره في هذا المجال أنّ الرأسمال الصهيوني كان قد بدأ يتغلغل بكثافة في فلسطين، وبخاصة في المناطق الساحلية في يافا وحيفا وعكا وغزة، وراح يُوظف كرأسمال زراعي في الزراعات الحمضية الساحلية (الليمون والبرتقال).

- العام 1909 عُقد المؤتمر التاسع وفيه طرح الاقتصادي اليهودي الألماني فرانز أوبنهايمر فكرة إنشاء مستوطنات ومستعمرات زراعية في فلسطين تقوم على المبادئ التعاونية.

العام 1910 انتخب المؤتمر العاشر واربورغ رئيساً للمنظمة الصهيونية، وقد برز في هذا المؤتمر إسم حاييم وايزمن الذي راح يتحوّل إلى مركز استقطاب

صهيوني، وإلى شخصية مؤثرة لدى الدول الكبرى، لا سيما بريطانيا القوة الاستعمارية الوازنة آنذاك.

العام 1913 عُقد المؤتمر الحادي عشر في ظل أجواء التأزم المسيطرة على العلاقات الدولية، والتي كانت تنذر بقرب انفجار الحرب العالمية الأولى. في هذا المؤتمر ترأس وايزمن "اللجنة الدائمة" للمنظمة الصهيونية وراح يسعى لدى الدول المتحاربة بهدف الحصول على براءة الاستيطان اليهودي في فلسطين تمهيداً لإعلان الدولة اليهودية على أراضيها. ومن أجل تحقيق هذا الهدف رسم وايزمن المخطط الآتي (18)

- 1- الوقوف إلى جانب الحلفاء لضمان انتصارهم في الحرب الدائرة.
 - 2- وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني كثمرة لانتصار الحلفاء.
 - 3- قيام الدولة المنتدبة بتسهيل دخول مليون يهودي أو أكثر إلى فلسطين.
 - 4- تزامن انتهاء الانتداب مع الإعلان عن دولة اليهود وتوفير الضمانات
 - 5- الدولية اللازمة لمثل هذا الأمر.
- ثمة ثلاثة عوامل مفصلية أسهمت في إخراج مشروع الحركة الصهيونية إلى

النور:

الأول: "وعد بلفور" بإقامة "وطن قومي لليهود في فلسطين في 2 تشرين الثاني/نوفمبر 1917، وقد اعتُبر بمنزلة الحدث التاريخي المصيري على طريق تحقيق الحلم الصهيوني في إقامة الدولة اليهودية.

الثاني: دور الانتداب البريطاني على فلسطين (1920-1948) في تهيئة الظروف الإدارية والأمنية والاقتصادية والسياسية من أجل مستلزمات قيام الدولة اليهودية. فقد ساهمت إدارة الانتداب بإعداد النخبة اليهودية بيروقراطياً وسياسياً وعسكرياً في وقت كانت النخبة الفلسطينية مهمشة ومقتصرة على مرجعيات دينية وسياسية تفتقر إلى المشروع السياسي الذي يبقى أحد أبرز الشروط لإدارة الدولة ومؤسساتها المختلفة.

الثالث: انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية (1939-1945)، ولجوء الصهاينة إلى نسج علاقات وطيدة مع رأسمالية المركز الأميركي التي شهدت صعوداً خطياً إلى قمة الهرم الرأسمالي العالمي في فترة ما بعد الحرب، الأمر الذي وُفر للمشروع الصهيوني سنداً دولياً هو الأقدّر على التحكم في العلاقات الدولية، وبالتالي على رسم خرائط الجغرافية السياسية لكيانات ودول عديدة كانت "دولة إسرائيل" في مقدّمها.

منذ قيامها العام 1948، واجهت "دولة إسرائيل" وما زالت تواجه حتى اليوم، ثلاث إشكاليات ضاغطة يتوقف على تجاوزها أو عدمه المستقبل الوجودي للدولة وهي:

- إشكالية هوية الدولة.
- إشكالية الجغرافية السياسية.
- إشكالية تهويد الديمغرافيا .

أولاً: إسرائيل وإشكالية هوية الدولة

في الخامس عشر من أيار/مايو 1948 شهدت الصهيونية ميلاد الدولة التي حلمت بقيامها لأكثر من قرن من الزمن، وأطلقت عليها إسم "إسرائيل"، وهي تسمية استعارتها من التوراة للتدليل على الإسم العبري لفلسطين وهو "إيرتس يسرائيل" أي "أرض إسرائيل". إلا أن هذه التسمية أثارت موجات احتجاجية ونقدية صاخبة، الأمر الذي دفع حكومة بن غوريون، وهي الحكومة الأولى في الدولة الناشئة، إلى تغيير الإسم إلى "دولة إسرائيل".

ثمة أسباب كامنة وراء تسمية الدولة "دولة إسرائيل" بدلاً من "الدولة اليهودية" التي اختارها هرتزل، منها نذكر:

- (1) المواءمة بين إسم "دولة إسرائيل" كمصطلح سياسي، والاسم العبري لفلسطين (أرض إسرائيل) كمصطلح جغرافي.
- (2) المواطنة داخل الدولة الجديدة لا تنطبق فحسب على العناصر اليهود على أساس الانتماء الديني، وإنما أيضاً على كل من يقيم داخل إسرائيل من العرب الفلسطينيين، مسلمين ومسيحيين، حيث اعتبر هؤلاء العرب في عداد المواطنين الذين يتمتعون بالجنسية الإسرائيلية.
- (3) إن مصطلح "الدولة اليهودية" يثير إشكالية على مستوى الجغرافية السياسية للدولة المعلنة. فالدولة – المملكة التي ظهرت قديماً باسم "مملكة يهودا"، لم تكن تشمل إلا القسم الجنوبي من فلسطين من دون ساحل البحر، الأمر الذي لا يفي بحاجات المشروع الصهيوني الاستيطاني – الإحلالي في السيطرة ليس فحسب على جغرافية فلسطين التاريخية، وإنما أيضاً يتجاوزها إلى المجال العربي المجاور بما يستجيب لحاجات الدولة في الأمن العسكري والسياسي والاقتصادي.
- (4) إطلاق الصفة "الإسرائيلية" على الدولة يفتح طريق الهجرة إليها أمام العديد من العناصر اليهود العلمانيين في الشتات اليهودي. فهؤلاء يفرقون بين اليهودية كهوية ثقافية حضارية واليهودية الدينية التي ترى في الدين اليهودي العامل المقرر في تكوين الجماعة اليهودية. من هنا، أصدرت الحكومة الإسرائيلية "قانون العودة" في الخامس من تموز/يوليو 1950، الذي أصبح بموجبيه اليهودي المقيم خارج إسرائيل، هو الآخر "إسرائيليًا" (21). وعليه، فقد ارتسمت وفق هذا القانون المعادلة الآتية: كل

يهودي هو إسرائيلي، ولكن ليس كل إسرائيلي يهوديًا. وبموجب هذه المعادلة بات كل يهودي مقيم داخل إسرائيل أو خارجها هو إسرائيلي بشرط إعلان ولائه لإسرائيل. من هنا اكتسبت تسمية الدولة بـ "دولة إسرائيل" كمصطلح سياسي معاصر، دلالة مختلفة تمامًا عن الدولة اليهودية التوراتية المحدودة، وكذلك عن الدولة اليهودية الدينية التي تضم كل يهود العالم على أساس الرابطة الدينية وحدها.

(5) وما يجدر بالإشارة إليه هو أن إعلان الدولة باسم "دولة إسرائيل" لم يكن يعني لدى النخبة السياسية والفكرية لقادة هذه الدولة ومفكرها من اليهود، الانقطاع أو الانفصال عن الماضي التاريخي اليهودي، وإنما على العكس من ذلك، فقد جهد أولئك القادة والمفكرون في إيجاد مبرر أيديولوجي لوجود تجربة تاريخية لدولة يهودية في الماضي. وأما الإعلان عن قيامها مجددًا فهو ليس أكثر من إعادة بناء أو ولادة جديدة. ففي 14 أيار/مايو 1948، أشار إعلان الاستقلال لدولة إسرائيل الحديثة إلى أن هذا الاستقلال

هو "إعادة بناء الدولة اليهودية" (Re-establishment of the Jewish State) عكست وثيقة إعلان الاستقلال الإسرائيلي نزعة فكرية استرجاعية، أي استرجاع الأرض (فلسطين أرض الميعاد)، والشعب (اليهود شعب الله المختار)، والدولة ذات التجربة التاريخية القديمة. جاء في افتتاحية إعلان الاستقلال ما يأتي: "لقد كانت أرض إسرائيل مسقط رأس الشعب اليهودي. هنا تكوّنت هويتهم الروحية والدينية والقومية، وهنا حقّق هذا الشعب الاستقلال وأنشأ ثقافة كان لها أثر قومي وعالمي. وهنا أيضًا كتبوا الكتاب المقدس ووهبوه للعالم. وبعد النفي من أرض إسرائيل، ظل الشعب اليهودي وفياً لهذه الأرض في جميع البلدان التي تشتّت فيها، ولم ينقطع قط عن الصلاة والأمل بالعودة إليها لاستعادة استقلاله القومي بدافع هذا الربط التاريخي.

وتشير الوثيقة إلى تعاظم حركة الإستيطان اليهودي داخل فلسطين، هذه الحركة التي بدأت بدعم الرأسماليات الأوروبية مع مطلع الثمانينيات من القرن التاسع عشر، ولم تلبث أن تسارعت وتائرّها في ظل الإنتداب البريطاني على فلسطين بعد العام 1920. لقد "جاهد اليهود طوال القرون الماضية للعودة إلى أرض آبائهم واستعادة دولتهم. وعادوا بأعداد كبيرة في العقود الأخيرة، واستصلحوا القفار، وأعادوا إحياء لغتهم، وبنوا المدن والقرى، وأسّسوا مجتمعاً قوياً دائم النمو، له حياته الاقتصادية والثقافية الخاصة. سعوا إلى السلام، لكنهم في الوقت نفسه استعدوا للدفاع عن أنفسهم. لقد جلبوا نعمة التقدم لجميع سكان البلد وتطلّعوا للتحرر والاستقلال. مهما يكن من أمر الطروحات السياسية والفكرية التي انصبت على توصيف طبيعة الدولة التي أعلنت في 15 أيار/مايو 1948، فإنّ هذا التاريخ كان بمنزلة محطة

مفصلية لتطور الهياكل البنيوية لكل من المجتمع والدولة الإسرائيليين، سواء على مستوى التركيب المجتمعي الاجتماعي والديني والقومي من ناحية، أم على مستوى أيديولوجيا الحكم والسلطة السياسية من ناحية أخرى.

لقد شرّعت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة أبواب الهجرة اليهودية الاستيطانية إلى فلسطين. أما التصنيف الطوائفي للمهاجرين وفق مناطقهم الطاردة الأساسية فكان على الوجه الآتي:

- طائفة اليهود الغربيين ومعظمها من يهود غرب أوروبا بشكل أساسي، وقد عرفت بيهود الاشكنازيم، وتدفّقت مجموعاتهم بشكل مكثّف خلال السنوات الأولى التي أعقبت قيام الدولة. الوزن النسبي لهذه الطائفة يصل إلى حوالي 45% من إجمالي يهود الدولة، ومنها خرجت الصفوة السياسية التي استأثرت بمواقع السلطة الحاكمة في الدولة ومؤسساتها. وعلى صعيد التقسيم الاجتماعي للعمل، اتجهت غالبية المهاجرين "الاشكناز" إلى المدن، حيث اشتغلوا بالصناعة والتجارة والخدمات حتى تميّزوا بصعودهم الاجتماعي وبناتوا في عداد الطبقتين الوسطى والعليا.
- طائفة اليهود الشرقيين أو "السفاراديم" ومنها يهود شرق أوروبا ويهود البلاد العربية والإسلامية. وفي السبعينيات من القرن المنصرم تكتّفت هجرة اليهود الأثيوبيين (الفالاشا)، وخلال النصف الأول من عقد التسعينيات شهدت الهجرة الاستيطانية التي ترافق دخولها إلى فلسطين مع السقوط الدرامي للاتحاد السوفياتي، قدوم ما يقارب مليون مهاجر يهودي روسي. انضوت هذه المجموعات على اختلاف بيئاتها الثقافية والفكرية والاجتماعية، في دائرة "السفاراديم" الذين شكّلوا الكتلة الأكثر وزناً على الصعيد السكاني بحيث سجّل حجمهم النسبي حوالي 55% من إجمالي خارطة التوزّع الديمغرافي اليهودي في فلسطين.
- على صعيد المتكوّن الطبقي احتل السفاراديم (يهود الشرق) المساحة الأوسع من طبقة البروليتاريا التي يعيش أفرادها في أكواخ على هوامش "مدن التنمية" التي أقامتها الدولة في حالة من الفقر الاقتصادي والاجتماعي. ففي مجالات العمل والمدارس والجيش، اعتبروا أنفسهم ضحايا التفرقة والتمييز العرقي والقومي. وقد أعربت صفوة الأشكناز الحاكمة عن استيائها وقلقها من اتساع فضاء الثقافة "الشرقية" أو "العربية" داخل المجتمع الإسرائيلي. ومن وجهة نظرها، فإن الفلسطينيين (عرب إسرائيل)، واليهود الشرقيين، هم جماعات ثقافية تعيش كل منها، بشكل أو بآخر، في حالة من الانفصال، وكذلك في حالة متدنّية في المجتمع الإسرائيلي من الناحية الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

- وإذا كان الاجتماع اليهودي داخل إسرائيل تحكمه خطوط الانقسام العمودي بين طائفتي الأشكناز والسفارديم، فإنّ تقسيمًا آخر يبرز أيضًا على مستوى الانتماء القومي إلى يهود وعرب (عرب 1948). أما التوزع النسبي وفق هذا الانتماء فهو 81% لليهود مقابل 19% للعرب. وإذا كان يهود إسرائيل يتحدّرون من إثنيات عرقية وقومية وبيئات ثقافية مختلفة، فإنّ عرب إسرائيل ينتمون إلى قومية واحدة هي القومية العربية مع تنوعهم الديني (14.2% مسلمون، 2.8% مسيحيون، 1.7% دروز وشركس)
- هذه التركيبة الانقسامية في المجتمع الإسرائيلي تجعله أقرب إلى مجتمع فسيفسائي صراعي تناحري، الأمر الذي يزيد في فجوة الاختلاف حول هوية الدولة، ويفتح بالتالي، مصير هذه الدولة على المجهول.
- يحتدم الجدل حاليًا حول ثلاثة طروحات رئيسة بشأن هوية الدولة:
 - دولة يهودية دينية.
 - دولة يهودية قومية.
 - دولة إسرائيلية.

1. دولة يهودية دينية

- الاتجاه الغالب على هذا الطرح تمثّله الجماعات اليهودية الاستيطانية التي جذبتها إلى فلسطين دوافع توراتية، ذلك أنّ أرض فلسطين تمثّل خصوصية في الاعتقاد الديني اليهودي بوصفها الأرض المقدّسة، وأنّ العودة إليها هي فرض ديني منسجم مع مشيئة الرب في إعادة اليهود إلى ما يسمى "أرض الميعاد" مع حلول الخلاص المسيحاني.
- حملت الموجات المهاجرة، من يهود غرب أوروبا وشرقها ووسطها، إلى فلسطين، ثقافتها وقيمها الروحية التي سادت طويلاً في أحيائها المنعزلة المسماة "الجيتو". وقد عمّق هذا الانعزال عند اليهودي النزعة الاعتقادية الدينية، الأمر الذي جعله أكثر محافظة وتمسكًا بتعاليم الشريعة اليهودية.
- وجدت الجماعات الدينية في قيام "دولة إسرائيل" البيئة الملائمة لممارسة معتقداتها وطقوسها الدينية في مناحات من الحرية. فقد ظل الدين اليهودي بمنزلة العامل الرئيس في توجيه حياة اليهود سواء على الصعيد الطقسي التعبدي (قدسية يوم السبت، الأعياد الدينية، الصوم اليهودي الخ...) من جهة، أم على الصعيد السياسي وخيارات السلطات الحاكمة في إدارة شؤون الدولة وتعاطيها مع ملفات ذات أهمية حاسمة تتعلّق بالحرب والسلام في المنطقة من جهة أخرى.

- بعد حرب 1967 شهد الوسط الاجتماعي والسياسي في إسرائيل مدًا دينيًا ملفتًا. فقد ظهرت مقولات دينية راحت تفسر انتصار إسرائيل على ثلاث جبهات عربية على أنه معجزة إلهية. لم يقتصر تصاعد هذا المدّ الديني على الجماعات اليهودية الدينية وحدها، وإنما جرف معه عناصر وقوى علمانية كثيرة انبهرت بالانتصار الحاسم، وراحت تتلاقى في طروحاتها مع المتدينين بشأن القضايا المصرية وخصوصًا حول هوية الدولة ومستقبلها.

- ومنذ مطلع الثمانينيات بدأت الجماعات الدينية تظهر على صورة جمعيات وأحزاب دينية - سياسية مثل: "جمعية أبناء الهيكل"، وحركة "غوش إيمونيم"، و"كاهانا حي"، و"آيل"، و"دولة يهودا"، و"أمانا"، و"قمع الخونة"، و"سيف داود"، و"السيكريكسين" و"كاخ" وسواها.

- ربطت الأحزاب المذكورة بين الديني والسياسي. وكانت أبرز طروحاتها قد تمحورت حول ثلاثة مواقف أساسية.

- الأول: تميّز الشعب اليهودي عن بقية شعوب العالم، فهو الشعب المختار وقد تمّ اختياره من بين سائر الشعوب، وعقيدته نقيّة.

- الثاني: المناداة بإسرائيل دولة يهودية دينية، ينبغي أن تقوم على الشريعة وعلى القانون العبري. فهذان المراكزان للدولة بإمكانهما حلّ جميع المشاكل المعاصرة، في حين اعتماد الدولة على القانون العلماني الغريب عن روح اليهودية يعتبر بمنزلة كارثة لا بدّ من إصلاحها.

- الثالث: المناداة بديمقراطية يهودية خالصة تتناسب مع هوية الدولة الدينية. لذلك، ينبغي على إسرائيل إعلان سيادتها على جميع الأراضي المحتلة لأسباب دينية، وحل مشكلة الشعب الفلسطيني عن طريق الترحيل الإكراهي إلى خارج البلاد.

2. دولة يهودية قومية:

بدأت طروحات القومية العلمانية بالظهور في أوساط الشتات اليهودي في أوروبا مع قيام حركة "التنوير اليهودية" (الهسكالاه)، التي تأثرت بزحمة الأفكار الجديدة بشأن الحرية والمساواة والديمقراطية، وبروز الظاهرة القومية العلمانية على مستوى الدولة، فكانت الدولة القومية أو الدولة - الأمة بمنزلة الحدث التاريخي الذي ساد في أوروبا ومنها انطلق إلى العالم.

سعت الحركة الصهيونية في إبان المرحلة الانتقالية، أي بين نشأة هذه الحركة في مطلع ثمانينيات القرن التاسع عشر، وحتى إعلان قيام "دولة إسرائيل" العام 1948، إلى جذب قطاعات عريضة من العلمانيين اليهود إلى جانب جذبها، بالمقابل،

قطاعات هامشية من الدينين، في وقت رفضها اليهود "الحريديم" المتشددون دينيًا، والذين يرفضون أي شكل من أشكال الخلاص قبل مجيء المسيح المخلص. نادى الصهيونية العلمانية بدولة يهودية متوّرة وألبرالية تفصل بين الدين والدولة، وتحصر الدين في إطار حرية الفرد، وتخلق "عبريًا جديدًا" بدلاً من "اليهودي الشتاتي".

لكن بعد العام 1948، أي بعد قيام الدولة، وفي ظل تعدّد الهويات الثقافية والقومية للجماعات اليهودية التي استوطنت فلسطين، بدأت تتبلور طروحات جديدة تتجاوز الصهيونية بشأن هوية الدولة ومستقبل وجودها، لا بل إنّ أكثر هذه الطروحات "راحت تعلن صراحة أنّ الصهيونية قد أنهت دورها"، وأن الضرورة تقضي بتبلور طروحات أكثر واقعية من شأنها أن تستجيب لمستقبل الوجود اليهودي في الدولة وللتحديات الصعبة التي تواجهها أمنياً وسياسياً وسكانياً" (29) جاء الطرح الجديد ليؤكد يهودية الدولة، وهو يربط ما بين القومي الديني والقومي العلماني في توليفة جديدة من شأنها إنتاج يهودية ذات خصوصية ثقافية واجتماعية وسياسية. أبرز الخطوط العريضة لهذا الطرح:

- 1) تأكيد أهمية العناصر التي تشكل التراث الديني اليهودي وفي مقدّمها الدين اليهودي، والأخلاق اليهودية، والقيم اليهودية، وتقاليد الحياة اليهودية عبر الأجيال.
- 2) التأكيد على أنّ الوطن القومي اليهودي هو أساس مشترك لجميع اليهود سواء أكانوا داخل "أرض إسرائيل" أم في الخارج.
- 3) السعي لتأكيد الطابع اليهودي للدولة، وأنه لا مكان فيها لأي قومية أو ديانة أخرى، أو بمعنى آخر أكثر وضوحاً الرفض بشدة للطرح الإسرائيلي للهوية الذي ينطلق من اعتبار أنّ "دولة إسرائيل هي دولة كل مواطنيها". والنظر إلى اليسار الإسرائيلي العلماني على أنه معادٍ للدين وللقومية، ويعمل على طمس القيم اليهودية في الدولة، ويتخلّى عن "حق" شعب إسرائيل التاريخي والديني في "أرض إسرائيل".
- 4) إن مسلسل الحروب العربية - الإسرائيلية (1948-2009) أضاف بعداً تكوينياً لمكوّنات الهوية اليهودية، هو البعد التوحيدي التضامني في مواجهة الأعداء التاريخيين العرب مهّددي الدولة والشعب اليهوديين في آن معاً.
- 5) على الصعيد الديمغرافي ينبغي تحقيق التلازم الكلي بين يهودية الاجتماع السياسي وتهويد الديمغرافيا، وأن مثل هذا الأمر لن يكون إلا بضمان أكثرية يهودية ساحقة تحقق التفوق العددي الدائم على سائر

المجموعات العربية سواء عرب 1948 أو عرب الضفة الغربية وقطاع غزة.

(6) بشأن احتمالات التسوية للصراع العربي - الإسرائيلي، يعتمد الطرح اليهودي للدولة نظرية "السلام اليهودي". وتفسير هذه النظرية أن أي تسوية سلمية في المنطقة ينبغي أن تستجيب لحاجات الدولة اليهودية في الأمن والأرض وتوفير مقومات السلام المستمر (30)

(7) يتبنى دعاة الطرح اليهودي للدولة حلاً مع الفلسطينيين على أساس إقامة دولتين: دولة يهودية للشعب اليهودي غرب نهر الأردن، ودولة عربية للفلسطينيين شرق الأردن، وأنه يجب على إسرائيل أن تجد طريقة لتخفيف عداة السكان العرب الذين سيقون تحت سيطرتها من دون التنازل عن المناطق التي تعتبرها حيوية لوجودها (31)

(8) يأتي حزب "الليكود" اليميني في طليعة القوى السياسية التي تطرح مقولات أدلجة الدولة اليهودية، إلى جانب اعتماد سياسة إسرائيلية تقضي بضمّ الأراضي الفلسطينية المحتلة إلى إسرائيل، ومنح الفلسطينيين حكماً ذاتياً محدوداً، في المسائل المتعلقة بالتعليم والأحوال الشخصية والقضاء والصحة وغيرها من المجالات، مع الإبقاء على السيطرة الأمنية وتوسيع المستوطنات.

3. دولة إسرائيلية

ظهرت مقولة "إسرائيلية الدولة" في أوساط اليهود الإسرائيليين الذين ولدوا على أرض فلسطين قبل قيام "دولة إسرائيل" وبعدها وعرفوا باسم "الصباريم"، وهم يتميزون بشخصية ثقافية تحتل الكثير من سمات التمايز عن الثقافات الاستيطانية الوافدة إلى فلسطين من بيئات خارجية مختلفة.

إنّ أهمّ ما يميّز هؤلاء "الصباريم" هو أن ارتباطهم بإسرائيل لم يكن لدوافع اعتقادية أيديولوجية، فهم لم يواجهوا اللامية وحملات الاضطهاد المعادية لليهود في أوروبا وسواها، وليس لديهم عقدة الدونية والأقلية المهمشة، كما أحسّ أبائهم وأجدادهم في أماكن عزلتهم الجيتوية قبل هجرتهم إلى فلسطين. من هنا، فإنّهم يضعون إسرائيليّتهم قبل يهوديتهم، ويشعرون بالمواطنة الإسرائيلية ليس لأنهم يهود، وإنما لأنّهم ولدوا وتربوا على هذه الأرض.

أفضت نتائج حرب حزيران/يونيو 1967، إلى تبلور الهوية الوطنية الإسرائيلية؛ ذلك أن التأثيرات السياسية والأيدولوجية التي تركها الانتصار العسكري الإسرائيلي في تلك الحرب، ربطت بقوة بين الانتماء السياسي والوطنية الإسرائيلية. وقد أسس هذا الترابط بدوره لمرحلة جديدة من التحوّل في التاريخ الإسرائيلي

المعاصر بالنسبة إلى تنمية الإحساس بالوطنية الإسرائيلية وتأكيد له لدى الشخصية اليهودية التي وُلدت ونشأت في إسرائيل.

الطرح الإسرائيلي للدولة يعكس ميلاً نحو الديمقراطية والليبرالية، الأمر الذي يجعله أكثر انفتاحاً على الحداثة بفضائها الكوني، وهو يرى في النموذج الديمقراطي الأميركي النموذج الأفضل.

على المستوى الثقافي - الأيديولوجي لا يعكس طرح الإسرائيلي للدولة هوية قومية - يهودية، بل هوية متعدّدة القومية على أساس مدني - سياسي يقوم على أساس الانتماء المدني للدولة. وهكذا، فإنّ هذا الطرح يمكن أن يكون هوية مشتركة لكل مواطني الدولة من دون تفرقة في الدين أو في الأصل القومي.

الخلاف بين إسرائيلية الدولة ويهودية الدولة لم يقتصر فحسب على التباينات الثقافية والأيديولوجية، وإنما يطال أيضاً التوجّهات السياسية بشأن احتمالات التسوية للصراع العربي- الإسرائيلي. فإذا كان منظور التيارين اليهودي الديني واليهودي القومي للتسوية يقوم على ترحيل الفلسطينيين أو إعطائهم حكماً ذاتياً محدوداً في أحسن الحالات، فإنّ منظور التيار الإسرائيلي يرتكز إلى مبدأ "الأرض مقابل السلام" مع بعض الترتيبات الأمنية التي تضمن أمن إسرائيل، وعدم تعرضها لهجوم عربي مباغت، وهو حل يحظى بتأييد الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي والرأي العام العالمي .

إسرائيل وإشكالية الجغرافيا السياسية

إذا كانت هوية الدولة في إسرائيل لم تنته بعد 62 سنة على قيامها، إلى صيغة ثابتة ومستقرة تعكس صورة المجتمع الإسرائيلي بكل تلويناته الدينية والقومية والسياسية والأيديولوجية، فإنّ إشكالية الجغرافيا السياسية لهذه الدولة ما زالت، من المنظور الجيوبوليتيكي، إشكالية عصيّة على التجاوز حتى الآن.

تبرز إشكالية الجغرافيا السياسية للدولة الإسرائيلية على مستويين إثنين: مستوى الجغرافية المساحية من جهة، ومستوى الجغرافية الجيوبوليتيكية من جهة أخرى .

1. الجغرافية المساحية

الجغرافية المساحية لدولة إسرائيل لم تتحدّد قبل قيام الدولة وبعدها وفق معطيات طبوغرافية محددة وثابتة، وإنما تحدّدت وفق معطيات أيديولوجية توراثية دينية وتاريخية. فهناك إشارات تتردد كثيراً في الأدبيات السياسية لقادة وزعماء إسرائيليين يشيرون فيها إلى "أرض إسرائيل التاريخية". وهذا ما عبّر عنه "حاييم وايزمن" في توصيفه إعلان الاستقلال العام 1948 بأنّه تعبير واضح عن "الحق" في إنشاء دولة يهودية لا مجرد وطن قومي، وذلك على أساس السابقة التاريخية. وعلى

هذا الأساس فإنّ "دولة إسرائيل" المعاصرة ما هي إلا "إعادة بناء" لما كان موجوداً في الماضي.

أما المقصود بأرض إسرائيل التاريخية، حسب الزعماء الصهاينة، فهو يدل على عدم الاكتفاء بأرض فلسطين وحدها وإنما يتعدّها إلى مناطق أخرى في الجوار العربي تتسع لقيام "إسرائيل الكبرى" وهي عبارة عن إمبراطورية تورانية تمتد حدودها من خليج العقبة إلى البحر المتوسط، ومن وادي العريش في الجنوب إلى لبنان وقاديش (Kadesh) حول نهر العاصي في الشمال وكان بن غوريون الذي تولّى رئاسة أول حكومة في الدولة الإسرائيلية المعلنه العام 1948، قد أوضح أنّ حدود إسرائيل يجب أن تتضمّن القسم الجنوبي من لبنان، والقسم الجنوبي من سوريا، والأردن وشرق الأردن بأكمله، بالإضافة إلى سيناء المصرية. ومما قاله: "لا يستطيع أحد أن يطلب من الآخرين أن يتخلّوا عن أحلامهم. سوف نقبل بحدود الدولة كما ستحدّد الآن، ولكن حدود الآمال الصهيونية هي شأن الشعب اليهودي وحده، ولن يستطيع أي عامل خارجي الحدّ منها"(39).

تُضح من هذا القول أنّ حدوداً غير معلنة سوف يتم الحصول عليها في المستقبل. لذلك، بعد العدوان الثلاثي البريطاني - الفرنسي - الإسرائيلي على مصر العام 1956، والاستيلاء على سيناء، صرّح بن غوريون بأن هذا الاستيلاء يمثّل استكمال المرحلة الثالثة من إنشاء "مملكة إسرائيل".

ومن جهته، أدلى مناحيم بيغن، الذي سيصبح زعيماً لحزب الليكود اليميني ورئيساً للوزراء في ما بعد، بتصريح عقب إعلان الإستقلال العام 1948، أكّد فيه أنّ "القدس كانت وستظل عاصمتنا إلى الأبد. وأرض إسرائيل سوف تعود إلى شعب إسرائيل، برمتها وإلى الأبد.

إنّ حدود إسرائيل ليست مرسومة مساحياً، ولكنها مرسومة أيديولوجياً في مشروع توسّعي إستعماري يعتمد المراحل المتدرّجة ويتخذ من الحرب وسيلة استراتيجية لإنجاز مشروع الدولة في ضوء الاستجابة لحاجاتها الأمنية والسياسية والاقتصادية، وقبل كل شيء لتأمين استمراريتها ووجودها.

2. الجغرافية الجيوبوليتيكية

التزم مهندسو الكيان الصهيوني تنفيذ مخط إنشاء الدولة اليهودية على ثلاث مراحل تتضمّن تحقيق ثلاثة إنجازات كبرى هي بمنزلة حلقات متكاملة في تظهير الجغرافية الساسية للدولة المزعومة.

- المرحلة الأولى، إنجاز قيام الدولة - النواة أو الدولة - القلب (Etat - Coeur) وهذا ما حصل فعلاً في إبان حرب 1948 عندما أعلنت "دولة

إسرائيل" على مساحة تزيد قليلاً عن 21000 كلم²، أي ما يقرب من حوالى 78% من جغرافية فلسطين التاريخية.

– المرحلة الثانية، إنجاز جغرافية الغلاف الضروري لدولة القلب، وهذا ما تحقق أيضاً في إبان حرب حزيران/يونيو 1967 باحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة (استكمال جغرافية فلسطين التاريخية)، إضافة إلى سيناء المصرية، والجولان السورية، وجزء من الأراضي اللبنانية المتاخمة لمرتفعات جبل حرمون (مزارع شبعا وتلال كفرشوبا)

– المرحلة الثالثة، وتقضي بإنشاء المناطق العازلة (الحزام) وهي مناطق منزوعة السلاح الهدف الأساسي منها صيانة أمن الدولة الإسرائيلية عبر اتفاقيات أمنية يجري إبرامها مع دول الجوار الفلسطيني لهذه الغاية. وبالفعل تمكنت إسرائيل من توقيع إتفاقيتين من هذا القبيل: الأولى، اتفاقية كامب ديفيد مع مصر العام 1979، والثانية، إتفاقية وادي عربة مع الأردن العام 1994، إلا أنها أخفقت في إخراج إتفاقية 17 أيار/مايو 1983 مع لبنان إلى حيّز التنفيذ، وكذلك لم تنجح في حمل سوريا على إبرام أي اتفاق يلتزم أمن إسرائيل وحمايتها.

إنّ إسرائيل اليوم، لا تعاني فحسب عدم إنجاز جغرافيتها السياسية الملائمة لدولتها الموعودة، وإنما تعاني أيضاً اللاستقرارية المهدّدة لهذه الجغرافية الساسية. هناك أربعة أسباب قوية ما زالت كامنة وراء عدم الاستقرار في جغرافية إسرائيل السياسية هي:

1. المسافات القصيرة بين الحدود وعاصمة الدولة (القدس)، الأمر الذي يعرّز النزعة التوسعية ويزيد من احتمال شنّ الحروب من قبل إسرائيل على الدول العربية المجاورة من أجل زيادة المسافة المترية الفاصلة بين الحدود والعاصمة.

2. نقصان العمق الإستراتيجي للدولة الإسرائيلية الحالية، الأمر الذي يجعلها محرومة من إقامة علاقات تفاعل إقليمي سياسي وإقتصادي وعسكري. العام 1998 أبرمت إسرائيل حلفاً مع تركيا إلا أن هذا الحلف لم يحقّق الفعالية المطلوبة بسبب عدم التواصل الجغرافي بين الطرفين.

3. انكشاف خطوط المواصلات الإسرائيلية، لا سيما البحرية منها، الأمر الذي يُبقي على هواجس الخوف من الهجمات المفاجئة.

4. مناطق الجوار الإسرائيلي في غزة ولبنان وسوريا ما زالت عصية على الأمن الإسرائيلي، الأمر الذي يهدّد الإستقرار الأمني والسياسي للدولة الإسرائيلية.

إذن، على ضوء الإشكالية التي تواجهها إسرائيل في جغرافيتها السياسية،

فإنَّ استكمال حلقات هذه الجغرافية ما زال يمثل حتى اليوم، أولوية في الأجندة السياسية الإسرائيلية. من هنا، فإن إسرائيل لا يمكن أن تتخبط أو تستجيب لأي تسوية مع الفلسطينيين والعرب إلا في ضوء الاستجابة لحاجات جغرافيتها السياسية، والتي هي جغرافية الدولة اليهودية التي تبقى الشرط الحاسم لوجود اليهود وبقائهم في المنطقة العربية .

إسرائيل وإشكالية تهويد الديمغرافيا

يُعتبر العامل الديمغرافي العامل الأكثر حسماً في تسجيل الغلبة لأحد طرفي الصراع على أرض فلسطين: اليهود والعرب. فبعد مضي 62 سنة على قيام الكيان الصهيوني في فلسطين لم يستطع قادة هذا الكيان، لا سيما أولئك الذين تولّوا مهمات السلطة الحاكمة في تسلسل الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، من إضفاء الطابع اليهودي الخالص على المجتمع والدولة وذلك على الرغم من تكثيف الدعاية الأيديولوجية والإعلامية وتوفير المستلزمات المادية والمعنوية لجذب المزيد من الهجرة الإستيطانية إلى فلسطين، مقابل تواصل السياسات الطردية والإكراهية للفلسطينيين وتحويلهم إلى لاجئي شتات خارج أراضيهم.

تبرز حالياً إشكالية التهويد الديمغرافي من خلال أربع مقاربات ديمغرافية بين اليهود والعرب تركز إلى معطيات إحصائية علمية ذات دلالات في غاية الأهمية ليس فحسب على مستوى المؤشرات الرقمية، وإنما على مستوى مستقبل الوزن الاجتماعي والسياسي للمجموعتين اليهودية والعربية، وكذلك، وهذا هو الأهم، على مستقبل توزعات السلطة وهوية الدولة وتركيب المجتمع بوجه عام .

المقاربة الأولى: معدلات التكاثر السكاني والخصوبة

سُجّلت إحصاءات العام 2006 المعدلات النسبية الآتية:

1. معدّل الزيادة السنوية الطبيعية: 1.8% لليهود مقابل 3.3% للفلسطينيين. وهنا يُلاحظ أن معدل الزيادة عند اليهود هي نصف معدل الزيادة عند الفلسطينيين.

2. معدل الخصوبة: عند اليهود 2.6 من الأطفال لكل امرأة أي 26 طفلاً لكل 10 نساء يهوديات. بالمقابل المرأة الفلسطينية تلد ما متوسطه 4.2 طفلاً أي 42 طفلاً لكل 10 نساء. إذن معدل الخصوبة عند المرأة الفلسطينية هو مرة ونصف المرة مثيله عند المرأة اليهودية داخل فلسطين.

المقاربة الثانية: المخزون البشري الاحتياطي لكل من اليهود والفلسطينيين

خارج فلسطين

1. اليهود في العالم:

العام 2007 كان التوزيع العالمي لليهود وفق الجدول الآتي(44):
يتضح من أرقام الجدول أنّ المجموع العالمي لليهود (ما عدا إسرائيل) بلغ حتى نهاية العام 2007 حوالي 7,762,000 يهودي بينهم 5,275,000 يهودي في الولايات المتحدة الأميركية أي ما نسبته قرابة 68% من إجمالي الانتشار العالمي لليهود باستثناء إسرائيل، وحوالي 40% من إجمالي اليهود في العالم بما فيهم يهود إسرائيل. وإذا ما عرفنا أنّ يهود إسرائيل بلغوا العام 2007 حوالي 5,393,000 يهودي أي ما يمثل 41% من إجمالي اليهود في العالم، لأدركنا أنّ ثمة تقارباً من حيث حجم الكتلتين السكائيتين اليهوديتين في كل من الولايات المتحدة وإسرائيل. ولهذا الأمر دلالة لجهة أنّ يهود أميركا يشكّلون حوالي 2% من إجمالي السكان إلا أنهم يستأثرون بمواقع متقدّمة على مستوى الجهاز البيروقراطي وكذلك على مستويات الإعلام والاقتصاد والمهن الحرة وبخاصة في مجالات الطب والمحاماة والصيرفة وغير ذلك. وهذا يعني أنّ يهود أميركا باتوا يحتلون مواقع اجتماعية مهمة داخل الهرم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الأميركي، الأمر الذي يجعلهم لا يحبّذون الهجرة إلى إسرائيل مع أنهم يشكّلون مجموعات ضاغطة (لوبي) داخل أميركا، وهي مجموعات تدعو إلى دعم إسرائيل بكل الإمكانيات الأميركية المتاحة. ومع إنتهاء موسم الهجرة المزدهرة لليهود السوفيات في مطلع التسعينيات من القرن الماضي، فإنّ ثمة عوائق أساسية تحول، اليوم، دون تدفق موجات كثيفة من اليهود المهاجرين إلى إسرائيل، وفي مقدّمها يأتي عدم توافر عوامل طاردة وجاذبة في الوقت نفسه لمثل تلك الهجرة. فأكثرية يهود الخارج هم في مستويات معيشية مرتفعة من حيث دخل الفرد والرفاه الاجتماعي، ومن حيث التأقلم مع بيئات دولية من الصعوبة التخلي عنها من أجل الدخول إلى بيئة إسرائيلية مختلفة، ولا سيما أنّ هناك تراجعاً في مؤشرات النمو والرفاه داخل المجتمع الإسرائيلي، ناهيك من التوتّرات الأمنية داخل إسرائيل (الانتفاضات الفلسطينية)، أم في دول الجوار (حماس والجihad الإسلامي في غزة، وحزب الله في لبنان)، كل ذلك أدّى إلى نمو سلبي لمعدلات الهجرة الوافدة إلى إسرائيل. فالعام 2003 لم يتعدّد عدد المهاجرين 25 ألفاً، وتراجع العام 2007 إلى 19700 مهاجر فقط بعد أن كان هذا العدد يقترب من هامش الـ 100 ألف سنوياً خلال العقد الأخير من القرن الماضي.

2. فلسطينيو اللجوء والشتات

حتى نهاية العام 2008 كان توزّع الفلسطينيين عالمياً وفق الجدول الآتي(46):
تظهر معطيات الجدول التي أعدّها جهاز الإحصاء المركزي الفلسطيني أنّ العدد الإجمالي للفلسطينيين بلغ العام 2008 حوالي 10,600,000 نسمة توزّعوا كالآتي:

- 100,000 فلسطيني داخل فلسطين المحتلة منهم حوالي 1,450,000 نسمة يطلق عليهم اسم عرب إسرائيل أي عرب 1948، والباقي حوالي 3,650,000 نسمة هم سكان الضفة الغربية وقطاع غزة.
 - فلسطينيو الشتات يقدرّون بحوالي 5,5 مليون نسمة أكثرهم الساحقة، وبنسبة تصل إلى أكثر من 75%، هم في عداد اللاجئين المقيمين في مخيمات أقامتها الدول العربية المجاورة في الأردن ولبنان وسوريا، إضافة إلى البلاد العربية الأخرى في العراق ودول الخليج العربية ومصر وليبيا وغيرها.
- إنَّ الأمر المهم الذي يميّز فلسطينيي اللجوء والشتات عن اليهود خارج إسرائيل، هو أنَّ الأغلبية الساحقة من الشعب الفلسطيني اللاجئ تكافح من أجل العودة إلى فلسطين، لا بل أنَّ هذه الأغلبية تضع مسألة العودة وفق القرار الأممي الرقم 194 كأولوية مطلقة على أجندة أي تسوية سياسية للقضية الفلسطينية.
- وبذلك فإنَّ فلسطينيي الداخل يعتمدون على مخزون بشري احتياطي خارج فلسطين؛ الأمر الذي يجعل الكتلة الفلسطينية هي الأكبر حجمًا على الصعيد الديمغرافي في ظل أي تسوية محتملة للصراع العربي - الإسرائيلي، بينما مثل هذا الأمر سوف لن يتوافر لصالح قيام كتلة سكانية إسرائيلية مقابلة بسبب إحجام الكثير من يهود العالم عن المجيء إلى الإستيطان داخل فلسطين للأسباب التي أشرنا إليها.

المقاربة الثالثة: الميزان الديمغرافي بين اليهود والفلسطينيين

لعلّ الجدول الآتي يظهر تطور الميزان الديمغرافي بين اليهود والعرب في فلسطين التاريخية أي من البحر إلى النهر، وذلك خلال الفترة الممتدة بين العامين 1997 و2007 أي خلال عقد واحد من الزمن :

العام	الفئة	العدد (نسبة)	النسبة إلى الإجمالي %
١٩٩٧	يهود	٤,٧٠١,٦٠٠	٥٥,٥
	عرب	٣,٧٦٥,٧٠٠	٤٤,٥
٢٠٠٧	يهود	٥,٤٧٨,٢٠٠	٥٢,٥
	عرب	٤,٩٤٧,٢٢٦	٤٧,٥

تبين الإحصاءات الواردة في الجدول أنه بين العامين 1997 و2007 يكون العرب فوق أرض فلسطين المحتلة قد حسّنوا نسبتهم مقابل اليهود بعشر درجات مئوية خلال عقد زمني واحد، إذ ارتفعت من 80 عربياً مقابل كل مئة يهودي العام 1997 إلى 90 عربياً مقابل كل مئة يهودي العام 2007. والحال هذه تتجه نحو التوازن والتعادل في وقت لا يتجاوز العقد الواحد من الزمن، بحيث يبدأ بعد ذلك إختلال هذا الميزان لصالح العرب الفلسطينيين(48)

المقاربة الرابعة: الهجرة العكسية أو المضادة من إسرائيل

أظهرت دراسة إحصائية إسرائيلية أعدّها المكتب المركزي للإحصاء في القدس أنّ صافي ميزان الهجرة التراكمية لليهود القادمين إلى فلسطين طوال الفترة من 15 أيار/مايو 1948 وحتى نهاية العام 2007، بلغ 2,448,000 يهودي من أصل هجرة إجمالية سجّلت 3,087,400 مهاجر. وهذا يدل على أنّ هناك هجرة مضادة تبلغ 639400 مهاجر وتمثل نسبة 20,7% من إجمالي الهجرة، وبالمقابل فإنّ صافي الهجرة يمثل 79,3% من كامل الهجرة إلى فلسطين طوال المدة المشار إليها(49)

وإذا كانت الهجرة اليهودية إلى فلسطين قد أخذت شكل الموجات المدّية الكثيفة خلال العقود الستة التي أعقبت قيام "دولة إسرائيل" العام 1948، فإنّ العقد الأخير (2000-2010) كان، على العكس، قد اتسم بتناقل الهجرة بعد استنفاد الخزانات

البشرية اليهودية المستعدة للهجرة الواسعة، واقتصار معظم يهود الخارج حالياً، على مراكز متقدمة في أميركا وأوروبا وغيرها من البلدان التي لا يجد يهودها حافزاً جدياً لمغادرتها على نحو واسع.

وإذا كانت العوامل الثلاثة: تراجع الهجرة الاستيطانية، واستمرار الهجرة المضادة، وتدني معدل النمو الطبيعي لليهود في العالم وإسرائيل (37,1%) (50)، قد أفضت إلى إشكالية في المسألة الديمغرافية الإسرائيلية، فإنَّ هناك عاملاً رابعاً، وهو الأخطر، يتمثل في أنَّ الكثير من يهود العالم باتوا في حالةٍ من هجران اليهودية (التخلي عن اليهودية). كل هذه العوامل بدأت تعمل سلباً على الواقع الديمغرافي في إسرائيل لجهة انقلاب المعادلة السكانية لصالح عرب فلسطين في المنظورين القريب والمتوسط، وهذا ما تخشاه الطبقة السياسية في إسرائيل من أن يتحوّل العامل الديمغرافي إلى سلاح مؤثر بيد الفلسطينيين. من هنا، راحت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة على السلطة، تعمل منذ فترة على تنفيذ برامج استيطانية مكثّفة بموازاة سياسات التدمير لمنازل الفلسطينيين وإجبار العديد منهم على الهجرة الإكراهية إلى الخارج. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ترفض إسرائيل بشدة أي طرح أو محاولة لتسوية أوضاع اللاجئين، لا سيما تنفيذ القرار الأممي الرقم 194 الذي ينصُّ على حق العودة للاجئين الشتات.

إنَّ مثل هذه العودة، من المنظور الإسرائيلي، لا تحدث انقلاباً هائلاً في المعادلة الديمغرافية لمصلحة العرب الفلسطينيين وحسب، وإنما تهدّد المشروع الصهيوني التهودي برمته.

إنَّ إختلال الميزان الديمغرافي داخل فلسطين سينتهي قريباً إلى فجوة رقمية لمصلحة الفلسطينيين في وقت يخشى معه اليهود أن يتحوّلوا إلى أقلّيّة حاکمة لأكثرية فلسطينية متزايدة باستمرار، الأمر الذي لا يستجيب لحاجات الاجتماع السياسي اليهودي من حيث تلازم التهود بين الجغرافيا (الأرض)، والديمغرافيا (الشعب)، والسلطة السياسية (الهيئة الحاكمة).

على الرغم من مصادفة المشروع الصهيوني الكثير من الفرص والعوامل المساعدة في تحقيقه العديد من الانجازات المعتبرة، إلا أنَّه ما زال يواجه مأزق الانتقال من الأسرلة كمرحلة ظرفية انتقالية إلى التهود كمرحلة استراتيجية. ثمة إشكاليات قاهرة تحول دون التقدم على طريق التهود، أبرزها ثلاث أساسية: هوية الدولة، الجغرافيا السياسية لهذه الدولة والتهود الديمغرافي للعنصر السكاني فيها.

أمام الاشكاليات – التحديات التي تواجه "دولة إسرائيل" في الزمن الحاضر، فإنَّ هذه الأخيرة تحرص على اعماد مخطط تهودي يرتكز إلى ثلاث خطوات متلازمة:

- الخطوة الأولى، وتقضي بتسريع وتائر الهجرة الإكراهية للفلسطينيين تلافياً لتحولهم إلى أكثرية سكانية داخل فلسطين التاريخية.
- الخطوة الثانية، استحالة القبول الإسرائيلي بعودة اللاجئين الفلسطينيين المسجلين
- نهم وغير المسجلين لدى "الأونروا" في أي تسوية محتملة في المستقبل.
- الخطوة الثالثة، توسيع نطاق الدعاية في الإعلام السياسي الإسرائيلي حول الإكثار من رفع شعار "يهودية الدولة" توكيلاً للأهداف الآتية:
- انتزاع إعراف سياسي فلسطيني وعربي بالهوية اليهودية للدولة في ظل أي تفاوض على إيجاد تسوية لإنهاء النزاع في المنطقة.
- تكثيف عمليات "الترانسفير" بين المناطق على أساس تغليب العنصر اليهودي في منطقة معينة، مقابل تغليب العنصر الفلسطيني في منطقة أخرى. وبذلك تحل مسألة مبادلة منطقة بمنطقة بدل شعار "الأرض مقابل السلام" الذي حظي بتأييد واسع عربياً ودولياً.
- شرعنة الإستهيطان اليهودي في أماكن يزعم الزعماء اليهود الدينيون والسياسيون بأنها يهودية. وهذا ما يجري حالياً في القدس من حفريات بالقرب من المسجد الأقصى بحجة أن هناك مقدّسات يهودية هي جزء من هيكل توراتي؛ الأمر الذي يعني أن هناك مخططاً لهدم المسجد الأقصى بحجة إعادة إكتشاف الهيكل اليهودي وبنائه من جديد.
- إنّ مقولة "يهودية الدولة" تعني سعي الجانب الإسرائيلي إلى إعراف تاريخي دولي وعربي وفلسطيني بيهودية الهوية للدولة، والجغرافيا السياسية، والديمغرافيا. وهذا يعني تشريع الاستيطان وتهويد الفضاء العمراني والأركيولوجي، مقابل تشريع طرد الفلسطينيين، وحرمان اللاجئين من حق العودة، وجعل قيام الدولة الفلسطينية على جزء من أرض فلسطين التاريخية ضرباً من الاستحالة.

الفصل السادس عشر

مصطلحات سياسية جغرافية

الفصل السادس عشر

مصطلحات سياسية جغرافية

جغرافيا سياسية : Geopolitique Geopolitics

تقوم الجغرافيا السياسية على تحليل العوامل الجغرافية التي تحدد السياسة الخارجية للدول. وقد ارتدت، على هذا الأساس، توجهاً إيجابياً ومعياريّاً على السواء، حيث رمت إلى تفسير توجه الدبلوماسية كما إلى تبرير هذه الممارسة الإمبريالية أو تلك. وعلى مستوى أكثر انتقادية وأقل طموحاً، تقدّم الجغرافيا السياسية (المشار إليها عندئذ باسم "جيوسراتيجية") تقدّم نفسها كتحليل دقيق ومنهجي للقيود الجغرافية (الطبيعية، الاقتصادية، والبشرية) التي تثقل على رسم الاستراتيجيات السياسية – العسكرية من قبل الدول. عندها تصبح أحد متغيرات تحليل أنماط وضع السياسات الخارجية.

متعلقات جغرافيا سياسية

الجغرافيا السياسية هو العلم الذي يبحث في تأثير الجغرافيا على السياسة أي الطريقة التي تؤثر بها المساحة، والتضاريس والمناخ على أحوال الدول والناس. فبسبب الجغرافيا كانت أثينا إمبراطورية بحرية، وبسببها أيضاً كانت إسبرطة أقرب في طبيعتها إلى القوة البرية. وبسبب الجغرافيا أيضاً، تمتعت الجزيرة البريطانية في القرن الثامن عشر بحرية الملاحة في البحار، في حين كانت بروسيا - وبسبب الجغرافيا أيضاً- محاطة بالأعداء من جميع الجهات. ويعد الألمان أكثر من كتب في الجغرافيا السياسية

الجغرافيا السياسية ليست فقط تأثير الجغرافيا على السياسة ولكن أيضاً تأثير السياسة على الجغرافيا فهناك الكثير من القرارات السياسية التي غيرت الوجه الجغرافي لمناطق كثيرة بالعالم كشق القنوات الكبرى كقناة السويس مثلاً. وتعرف الجغرافيا السياسية وهي دراسة الوحدات أو الأقاليم السياسية كظواهرات على سطح الأرض.

الجغرافيا السياسية

دراسة الإنسان وعلاقاته الداخلية والخارجية على رقعة محددة من الأراضي، المشاكل الدولية وعلاقات الدول ببعضها، مقومات الدول وحدودها السياسية، ومراحل تطور الدول، والعلاقات الدولية، والتوسع الاستعماري، النشاط الاستعماري

القديم لبعض الدول الاستعمارية الهامة مثل: الاستعمار الإنجليزي، والفرنسي، والإيطالي، والألماني، والأمريكي، وغيرها، توضيح بعض أساليب الاستعمار الحديث، بعض مشاكل الحدود الدولية المعاصرة التي أدت إلى وقوع الحروب.

الجيوپوليتيكا Geopolitics

مصطلح جيوپوليتيكا تعبير مركب من مقطعين Geo وتعني الأرض، Politic ومعناها سياسية، وعلى ذلك تعني الجيوپوليتيكا "علم سياسة الأرض". وهو ثمرة علمي الجغرافيا والسياسة ويعتمد عليهما اعتماداً كبيراً وبخاصة الجغرافيا السياسية. ويعد رودلف كلين أول من استخدم مصطلح الجيوپوليتيكا، وعرفها بأنها البيئة الطبيعية للدولة والسلوك السياسي، في حين عرّفها كارل هوسهوفر بأنها دراسة علاقات الأرض ذات المغزى السياسي، إذ ترسم المظاهر الطبيعية لسطح الأرض الإطار للجيوپوليتيكا الذي تتحرك فيه الأحداث السياسية.

وقد نما هذا العلم في ظروف عسكرية وارتبط بالحرب ارتباطاً وثيقاً، إذ أدّت الظروف الحربية والاستعدادات العسكرية، في فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، دوراً كبيراً في ميلاد هذا العلم، وقيام الحرب العالمية الثانية، صعدت الجيوپوليتيكا إلى مصاف العلوم الرفيعة، لأنها كانت ترسم الطريق لتحقيق المصالح القومية للدولة بطريقة ذاتية، وتساعد رجال السياسة وضباط الجيش في اتخاذ القرارات السياسية والإستراتيجية.

وتختص الجيوپوليتيكا بدراسة الدولة من الوجهة السياسية، وتدرس العلاقات الداخلية والخارجية بين الأرض وسكانها من وجهة نظر قومية وذاتية، وتبحث السياسة العالمية من وجهة نظر قومية وتعتنق فلسفة القوة، وأن الضرورة لا تعرف قانوناً، وتستخدم التاريخ القومي والعالمي لخدمة هذه الأغراض. أي أن الجيوپوليتيكا علم سياسي يستمد جذوره من علم الجغرافيا وحقائقه المتشعبة، ويعمل على الإفادة منها لخدمة خطط سياسية معينة يتبناها صانعو السياسة Policy Makers، وصانع القرار Decision Makers في الدولة.

وهناك فروق كثيرة بين الجغرافيا السياسية والجيوپوليتيكا أهمها:

- أ. أن الجيوپوليتيكا ترسم خطة لما يجب أن تكون عليه الدولة، بينما تدرس الجغرافيا السياسية كيان الدولة الجغرافي بعناصره المختلفة.
- ب. أن الجيوپوليتيكا تضع تصوراً لحالة الدولة في المستقبل، بينما تقنع الجغرافيا السياسية برسم صورة الحاضر في ضوء الماضي.
- ج. أن الجيوپوليتيكا تتسم بالتطور والحركة، بينما تميل الجغرافيا السياسية إلى الثبات.

د. أن الجيوبولتيكا تحاول وضع الجغرافيا وحقائقها في خدمة الدولة (أي لتحقيق أغراضها في مجالها الحيوي حتى لو كان ذلك على حساب جيرانها)، بينما الجغرافيا السياسية ليست سوى صورة للدولة (أي هي تحليل القوة في بناء الدولة السياسي).

وتختلف الجيوبولتيكا عن الجيوستراتيجية Geostrategy، فالأولى هي علم سياسة الأرض، أما الثانية التي يتكون مصطلحها من مقطعين Geo وتعني أرض، Strategy وتعني لغوياً فن استخدام القوة العسكرية لكسب أهداف الحرب، غير أن مفهومها تطور واكتسب قاعدة علمية شمولية وأصبحت تعني الاستخدام الأمثل للمعطيات السياسية والاقتصادية والعسكرية، ومن ثم يتضح أن مصطلح الجيوستراتيجية أكثر شمولاً من الجيوبولتيكا.

الديمقراطية والجغرافيا السياسية

في عالم حافل بالأفكار والطموحات المتعارضة، لا شيء تقريباً يبدو أكثر إثارة للحيرة من ذلك التوتر القائم بين الديمقراطية وبين السياسة كما هي مطبقة على أرض الواقع. فمحاولة جعل العالم مكاناً آمناً لتطبيق الديمقراطية، مع الضغط في الوقت نفسه من أجل نيل جميع النساء والرجال لحقهم في التصويت يجسد مثلاً نبيلة بلا شك... ولكن ماذا يحدث إذا لم تكن الشعوب تريد أن تقوم بحملات في الخارج، أو إذا ما كانت الشعوب الأجنبية لا تحبك... ولا تحب أساليبك التدخلية؟ بمعنى آخر، ماذا يحدث إذا ما تعارضت المحاولات الرامية لتحسين الشؤون العالمية مع حقائق الجغرافيا السياسية الصلبة... وماذا يحدث إذا ما كانت تلك المحاولات غير قابلة للتنفيذ أو غير قابلة للاستمرار؟

لقد كنت أفكر في هذا التناقض القائم بين الديمقراطية وبين السياسات الواقعية في الآونة الأخيرة لأن هذه السنة بالذات تصادف الذكرى المئوية للمقالة المشهورة التي كتبها مؤسس مدرسة الجغرافيا السياسية (الجيوبولتيكا) السير هالفورد ماكيندر. ويمكن تعريف الجغرافيا السياسية بشكل مبسط بأنها تعني تأثير الجغرافيا على السياسة؛ أي الطريقة التي تؤثر بها المساحة، والتضاريس والمناخ على أحوال الدول والناس. فبسبب الجغرافيا كانت أثينا إمبراطورية بحرية، وبسببها أيضاً كانت إسبرطة أقرب في طبيعتها إلى القوة البرية. وبسبب الجغرافيا أيضاً، تمتعت الجزيرة البريطانية في القرن الثامن عشر بحرية الملاحة في البحار، في حين كانت بروسيا - وبسبب الجغرافيا أيضاً - محاطة بالأعداء من جميع الجهات.

كان عنوان مقالة السير ماكيندر تلك هو "المحور الجغرافي للتاريخ" وقد نشرت في مجلة (جيوغرافيكال جورنال) في إبريل 1904. وفي هذه المقالة ذهب ماكيندر إلى القول إن ظهور قوة البخار، وبعدها الكهرباء ثم السكك الحديدية سمحت-

على الأقل لدول قارية معينة- بالتغلب على العوائق الطبيعية والمادية التي كانت تقف في سبيل توسعها وتقدمها في الماضي. فعلى سبيل المثال، ساهمت خطوط السكك الحديدية الطويلة في تمكين روسيا القيصرية من استغلال مصادرها الداخلية الهائلة، والقيام بغزوات استراتيجية في الشرق الأقصى. كانت القوة البرية (روسيا) بهذه الطريقة تقوم بإحداث نوع من التآكل في المزايا الجيوبولوتيكية التي كانت القوى البحرية الغربية (بريطانيا مثلا) تتمتع بها على مدار فترة تراوحت ما بين 400- 500 عام.

وجاء القرن العشرون ليقدم الدليل على صحة طرح ماكيندر. فالحربان العالميتان كانتا بشكل رئيسي تمثلان نوعا من الصراع على السيطرة على ما أطلق عليه المؤلف (الأراضي الطرفية) Rimland وهي تلك الأراضي التي تمتد من أوروبا الشرقية إلى جبال الهمالايا وما وراءها، وتقع خارج نطاق منطقة قلب الأرض Heatland الآسيوية. فهيمنة الاتحاد السوفييتي على تلك المناطق خلال سني الحرب الباردة هي التي جعلت الكثيرين من علماء الجغرافيا السياسية الأميركيين (نيكولاس سبيكمان على سبيل المثال) يتذكرون نظريات ماكيندر.

وهذا العام أيضا يوافق الذكرى الخامسة والثمانين لطبع كتاب آخر لماكيندر لا يقل أهمية عن مقاله الذي سبقت الإشارة إليه وهو كتاب: المثل الديمقراطية والواقع، الذي نشر عام 1919 أثناء الجدل الذي كان محتدما في ذلك الوقت حول معاهدة فرساي للسلام. فبحلول عام 1919 وجد ماكيندر، شأنه في ذلك شأن بقية أعضاء المؤسسة السياسية والفكرية البريطانية، نفسه مضطرا إلى التعامل وجها لوجه مع التغييرات الهائلة التي حدثت بسبب الحرب العالمية الأولى. وعلى رغم أن روسيا القيصرية كانت قد سقطت بسبب تلك الحرب، إلا أنه كانت هناك في ذلك الوقت حرب أهلية واسعة النطاق تدور رحاها بين البلاشفة من جانب وبين ما عرف بالقوات البيضاء الروسية من جانب آخر، للسيطرة على البلاد. وكانت فرنسا في ذلك الوقت مصممة على إذلال ألمانيا، كما كانت هناك أيضا أحداث صاخبة تدور في بولندا والمجر، والقوقاز. أما الولايات المتحدة فقد قامت بنشر قواتها عبر الأطلسي ثم تراجعت في الوقت الذي كان فيه الشرق الأقصى في حالة غليان، وكذلك الهند. وهذه التطورات جميعا دعت الدول إلى التفكير العميق من أجل البحث عن استراتيجيات رشيدة.

ولكن الشعب البريطاني كان يفكر بطريقة أخرى. فما حدث في تلك الحرب أدى إلى تفرغ السياسات الإمبريالية الحربية المتعصبة التي تبنتها بريطانيا في العصر الفيكتوري من مضمونها وجعل بريطانيا تفكر في التركيز على المشكلات التي تتصل بالتطوير الاجتماعي والاقتصادي والتعليمي داخل الوطن. وكانت النتيجة

التي دفعت ماكيندر إلى الأسى في ذلك الوقت هي أن الجغرافيا السياسية قد تراجعت إلى مؤخرة الصفوف، وأن الديمقراطية- حسب نص تعبيره "لم تكن تفكر بشكل استراتيجي لأنها لا تفعل ذلك إلا في زمن الحرب".

وجاءت الأحداث التي وقعت خلال معظم عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين لتثبت أن هموم ماكيندر وهواجسه كان لها ما يبررها. فالديمقراطيات الثلاث الكبرى في العالم وهي بريطانيا وفرنسا وأميركا اختلفت مع بعضها بعضاً ومضى كل منها في طريق منفصل. ولم تكن أي دولة من الدول الثلاث راغبة في مواجهة التحديات التي كانت ألمانيا وإيطاليا واليابان تمثلها لمنظومة عصبة الأمم، كما أنها لم تبدأ في التفكير بطريقة استراتيجية إلا في وقت متأخر، ومتأخر جدا بالنسبة لفرنسا بالذات. والتفكير فيما حدث في تلك الأوقات، يجعل من التفكير في استراتيجية بوش العالمية الحالية أمرا جديرا منا بالاهتمام. ففي الوقت الذي يشهد انتشار مئات الألوف من الجنود الأميركيين في (المناطق الطرفية) في أوراسيا، والذي نرى فيه إدارة تحاول على الدوام أن تشرح لنا السبب الذي يجعلها مضطرة إلى مواصلة ما تقوم به، فإن الشيء الظاهر أمامنا الآن هو أن واشنطن تقوم حاليا بتنفيذ أمر ماكيندر الذي يطالب بضممان السيطرة على المحور الجغرافي للتاريخي وهو الأمر الذي كان موجهها لبريطانيا في الأساس. ولعل هذا يفسر السبب الذي يجعل الكثيرين من المفكرين المنتمين إلى تيار المحافظين الجدد، يقومون بالإشارة بشكل متكرر إلى التجربة البريطانية السابقة في المنطقة، ويدعون إلى إنشاء ما يعرف بـ"المكتب الإمبراطوري" للولايات المتحدة.

ولكن ماذا يحدث إذا ما قامت الديمقراطية الأميركية بدورها بفرض التفكير بأسلوب استراتيجي؟ على رغم أنه لا يزال هناك دعم شعبي قوي لوجود القوات الأميركية في العراق، إلا أن هناك شكوكا تتصاعد بسرعة حول الحكمة من نوايا إدارة بوش في الشرق الأوسط وما وراءه.. وحول الحكمة وراء انتشار القوات الأميركية على امتداد مساحة أطول مما يجب، ووراء الفضائح المتعلقة بوقائع التعذيب في السجون، والعواقب التي يمكن أن تنتج عن تحدي - أو على الأقل إغضاب- العالم العربي برمته. وفي الحقيقة أن المحافظين الجدد يتخبطون يميناً ويسرة حالياً من أجل البحث عن غطاء للخروج من مأزق العراق. وعلى رغم أن الإدارة ستنكر ذلك الأمر إنكارا شديدا بالطبع، فإن ما يتعين علينا قوله هو أن وزارة الخارجية الأميركية، والبنّاجون، ومجلس الأمن القومي يجب أن يقوموا الآن بالبحث عن "استراتيجية خروج" من العراق.

ولكن هؤلاء الذين قد يبتهجون لهذه المحصلة، عليهم أن يضعوا في أذهانهم الهم الثاني الذي كان يؤرق ماكيندر. فالديمقراطية الأميركية التي ترفض التمدد

الإمبراطوري الرامسفيلدي المبالغ فيه، هي في الوقت نفسه الديمقراطية التي قد تفكر في التراجع عن الانخراط في مناطق ومجالات أخرى، وهي الديمقراطية التي يمكن أن تقوم بعرقلة صدور قرارات جديدة من مجلس الأمن للتفويض بمهام وقوات جديدة لحفظ السلام على رغم الحاجة الماسة إلى تلك القوات، وهي أيضا الديمقراطية التي يمكن أن ترفض التعامل مع المذابح التي تحدث في أفريقيا. إن مؤشر البندول يمكن أن يتأرجح أكثر من اللازم، وهو ما يمكن أن يؤدي بالتالي إلى عواقب وخيمة بالنسبة لنا وبالنسبة للمجتمعات الفقيرة التي مزقتها الحرب بشكل خاص.

منذ عام 1945 دأب الزعماء الأميركيون على البحث عن الوسط الذهبي بين طريقين: الطريق الأول هو الانغماس أكثر مما يجب في الشؤون العالمية، والطريق الثاني هو الانغماس أقل مما يلزم في هذه الشؤون. فالانحراف نحو هذا الاتجاه أو ذاك وخيم العاقبة، كما أن العثور على الوسط الذهبي ليس بالشيء السهل على الإطلاق.

وما أريد قوله في نهاية هذا المقال هو أننا لا نريد أميركا التي تقوم بتكرار سياسات 1919، وإنما نريد أميركا التي تستطيع على نحو ما إعادة تبني المواقف والسياسات التي تبنتها عام 1945، ونريد أميركا التي تستطيع أن تقوم بالمزج بين المثل الديمقراطية وبين الحكمة الجيوبوليتيكية في آن واحد.. فهل هذا الأمر المستحيل؟

الجغرافية السياسية للحرب

القسم الأول

هناك عدة طرق لبحث الصراع بين أمريكا وشبكة اسامة بن لادن الارهابية منها الصراع بين التحررية الغربية والتطرف الشرقي، كما يتصور ذلك الأمريكان أو صراع بين المدافعين عن الإسلام واعداء الإسلام الحقيقي كما يتصور ذلك عدد كبير من المسلمين في العالم الاسلامي، أو كرد فعل سلبي متوقع ضد شر ودناءة الأمريكان في العالم كما يتصور ذلك اليساريون. ولكن هذه التحليلات السياسية والتقليدية تخفي الحقيقة الاساسية للصراع وهي ان هذه الحرب - وهي كالحروب التي سبقتها - قد تجذرت وترسخت بقوة في المنافسة السياسية - الطبيعية على السعودية. ان ابعاد السياسة الطبيعية لهذه الحرب صعبة الادراك إلى حد ما لأن بداية القتال كانت في افغانستان - ذو الاهمية الطبيعية القليلة لأمريكا - وكذلك لأن عدونا الاساسي - ابن لادن - ليست لديه مصلحة ظاهرية في القضايا الاساسية. ولكن ذلك عبارة عن عملية خداع لأن المركز الرئيسي للصراع هو (السعودية) وليس افغانستان أو فلسطين ولأن اهداف ابن لادن النهائية هو ارساء حكومة سعودية جديدة وهذا يعني الاستيلاء على مخزونات النفط السعودي التي تمثل ربع احتياطي النفط العالمي. ان

من الضروري الرجوع إلى الخلف لادراك ومعرفة جذور الصراع الحالي ادراكاً كاملاً وبالاخص إلى السنين الاخيرة للحرب العالمية الثانية عندما بدأت الحكومة الأمريكية بصياغة الخطط للعالم الذي ستسيطر عليه بعد الحرب العالمية الثانية - ومع نهاية الحرب العالمية الثانية كلف الرئيس روزفلت وزارة الخارجية الأمريكية لابتكار السياسات والمؤسسات التي ستضمن الامن والازدهار الامريكي في الفترة القادمة.

وهذا يستلزم انشاء وتصميم منظمة الأمم المتحدة ومؤسسات (ابريتون وودز) المالية العالمية والحصول على النفط بكميات كافية ووافية وهذا هو الشيء المهم والاساسي في السياسة الأمريكية الخارجية.

اعتقد الاستراتيجيون الأمريكيان ان الوصول إلى آبار النفط له اهمية استراتيجية خاصة لانه العنصر الاساسي في انتصار الحلفاء على دول المحور، فعلى الرغم من أن القاء القنابل النووية على مدينتي هيروشيما وناغازاكي قد انهى الحرب إلا أن النفط هو الوقود الذي استخدمته الجيوش التي ركعت المانيا واليابان. فهو القوة المحركة لعدد هائل من السفن والدبابات والطائرات التي استطاعت حسم معركة الحلفاء مع اعدائهم الذين كانوا يفتقرون إلى مصادر النفط، لذلك فان عملية الوصول إلى آبار النفط سوف تكون حاسمة ومهمة جداً إلى التفوق الامريكي في اية صراعات مستقبلية.

ولكن من اين يأتي هذا النفط؟ كانت أمريكا تحصل على الكميات الكافية من النفط لها ولحلفائها من حقولها النفطية الواقعة في الجنوب الغربي من أمريكا ومن المكسيك وفنزويلا، ولكن معظم المحللين الأمريكيين يعتقدون بأن هذه المصادر النفطية سوف لن تكون كافية لسد الاحتياجات والطلبات الأمريكية والاوربية في فترة ما بعد الحرب وكنتيجة لذلك بدأت وزارة الخارجية بدراسة مكثفة لتحديد مصادر اخرى من النفط. وقد انتهت هذه الدراسة التي كانت برئاسة المستشار الاقتصادي في الوزارة (هربرت فيز) إلى ان هناك منطقة واحدة فقط تستطيع ان تزودنا بالبترول وهي المملكة العربية السعودية. ولكن كيف نحصل على ذلك النفط؟ في البداية اقترحت وزارة الخارجية تشكيل شركة النفط الحكومية لكي تحصل على امتيازات من السعودية لاستخراج النفط. كانت هذه المهمة صعبة جداً لذا حول المسؤولون الأمريكيان هذه المهمة إلى شركة (ارامكو) وهي عبارة عن اتحاد مجموعة شركات امريكية نفطية رئيسية. ولكن هؤلاء المسؤولين كانوا قلقين أيضاً حول مسألة الاستقرار السعودي الطويل الأمد لذلك استنتجوا إلى ان على أمريكا ان تتبنى مسؤولية الدفاع عن السعودية.. وفي حادثة استثنائية وفريدة في التاريخ الامريكي الحديث التقى الرئيس روزفلت مع الملك عبد العزيز مؤسس النظام السعودي الحديث على متن سفينة حربية امريكية في قناة السويس بعد مؤتمر يالطا في شهر شباط عام

1945م. وعلى الرغم من عدم اعلان تفاصيل اللقاء إلا أنه يُعتقد بأن الرئيس روزفلت قد وعد الملك بالدفاع عن المملكة وحمايتها مقابل اعطاء امتيازات لامريكا بالبحث عن النفط وهذه الاتفاقية قد بقيت ذات تأثير كامل إلى اليوم وكونت النواة الجوهرية والاساسية للعلاقات الأمريكية - السعودية التي زودت كلا البلدين بفوائد جمة فقد حصلت أمريكا على سدس نفطها الخام المستورد من السعودية كما حصلت شركة ارامكو والشركات الأمريكية الاخرى على ارباح هائلة من عملياتها في السعودية ومن توزيع النفط السعودي في الاسواق العالمية (على الرغم من تأمين شركة ارامكو عام 1976م إلا أنها استمرت في ادارة انتاج النفط السعودي وتسويق المنتجات النفطية السعودية في الخارج). كما تشتري السعودية أيضاً البضائع الأمريكية بمقدار (6 - 10) مليار دولار في السنة وبالنسبة للسعودية فقد أصبحت دولة غنية وذات ثروة عظيمة وبسبب الحماية الأمريكية بقيت دولة آمنة من الهجمات الخارجية والداخلية.

القسم الثاني

ولكن هذه الشراكة الاستثنائية قد سببت في عدد من النتائج غير المتوقعة والتي اقلقتنا تأثيراتها. لقد وسعت أمريكا من تواجد قواتها العسكرية في المنطقة تدريجياً وذلك من اجل حماية السعودية من التهديدات الخارجية وقامت أخيراً بنشر الآلاف من قواتها العسكرية في المملكة، ولحماية العائلة المالكة من اعدائها في الداخل تولى الأمريكان المشاركة العميقة في اجهزة الامن الداخلي للنظام. وفي نفس الوقت فان الثروة الواسعة والكبيرة والملفتة للنظر والمتكدسة اخذت تصرف على اجهزة الفساد وليس على الشعب السعودي. كما لم يسمح النظام بممارسة الانشطة السياسية في المملكة (لا يوجد برلمان ولا حرية الكلام ولا احزاب سياسية ولا حق تكوين الجمعيات) كما يقول النظام باستخدام قوات الامن الأمريكية المدربة لقمع المعارضين له. كل هذه التأثيرات والممارسات قد ولدت المعارضة السرية للنظام وأعمال العنف، ومن هذه الارضية رسم اسامة بن لادن احياءاته واثاراته لاتباعه والمؤيدين له. اخذ التواجد الامريكي العسكري يزداد تدريجياً على مر السنين وابتداءً من سنة 1945م إلى سنة 1972م. لقد فوضت واشنطن مسؤولية الحماية الاساسية إلى بريطانيا التي كانت تسيطر على المنطقة ولمدة طويلة، وعندما انسحبت القوات البريطانية من شرق السويس عام 1971م قامت أمريكا بممارسة دوراً مباشراً في المنطقة حيث ارسلت المستشارين العسكريين الأمريكان إلى المملكة وجهزت السعودية بالاسلحة الأمريكية وبكميات كبيرة جداً.

كانت بعض البرامج التسلحية والاستشارية تهدف إلى الدفاع الخارجي كما لعبت وزارة الدفاع دوراً رئيسياً في تنظيم وتجهيز وتدريب والاشراف على الحرس الوطني السعودي (SANG) وهو (ال جهاز الامني الداخلي للنظام). لقد بلغت

المشاركة العسكرية الأمريكية في المملكة إلى مستوى جديد عام 1979م عندما حدثت ثلاثة أمور وهي الاحتلال السوفيتي إلى أفغانستان وسقوط الشاه في إيران واحتلال المسجد الحرام في مكة واستجابة لذلك اصدر الرئيس كارتر صيغة جديدة من السياسة الأمريكية وهي (ان اية حركة من القوات المعادية للسيطرة على منطقة الخليج الفارسي تعتبر اعتداء على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية وسوف تواجه بكافة الوسائل الممكنة والضرورية بما فيها القوات المسلحة). وهذا التصريح الذي يعرف الآن بمبدأ كارتر هو الذي حدد الاستراتيجية الأمريكية في الخليج منذ ذلك الوقت. ولتنفيذ هذا المبدأ اسس كارتر قوات الانتشار السريع وهي مجموع من القوات الأمريكية المقاتلة المتدربة والمستعدة للانتشار في الخليج الفارسي. وقد انضمت هذه القوات أخيراً تحت القيادة المركزية الأمريكية التي تدير الآن جميع العمليات العسكرية الأمريكية في المنطقة. كما قام كارتر بنشر السفن الحربية في الخليج واتخذ الترتيبات اللازمة للاستفادة من القواعد العسكرية في البحرين وديكوغارسيا (جزيرة تسيطر عليها بريطانيا في المحيط الهندي) وعمان والسعودية حيث تم استخدام هذه القواعد خلال حرب الخليج عام 1991م وهي حاضرة للاستخدام مرة أخرى في الوقت الحاضر. ولاعتقاده بأن التواجد الروسي في أفغانستان يمثل تهديداً للسيطرة الأمريكية على الخليج وافق كارتر على بداية العمليات السرية لاضعاف النظام الافغاني. (من الضروري القول بأن النظام السعودي قد ساهم بشكل كبير في هذه المحاولة بتقديم الدعم المالي الكبير للمقاتلين ضد القوات الروسية وسمحت لمواطنيها بما فيهم اسامة بن لادن للمشاركة في الحرب كمقاتلين وممولين. ولحماية العائلة المالكة وسع كارتر المشاركة الأمريكية في عمليات وفعاليات حماية الأمن الداخلي للمملكة.

وبعد كارتر قام الرئيس ريغان بتسريع وتعجيل وتوسيع الدعم الامريكي السري إلى المجاهدين الافغان حيث وصلت قيمة الاسلحة التي اعطتها أمريكا إلى المقاتلين الافغان حوالي ثلاثة مليارات دولار. كما اصدر ريغان ملحقاً مهماً لمبدأ كارتر وهو (ان الولايات المتحدة لا تسمح بالاطاحة بالنظام السعودي بواسطة المعارضة الداخلية كما حدث في إيران وسوف لن نسمح بأن تكون (السعودية) إيران الثانية) حيث ابلغ الصحفيين بذلك عام 1981م. ثم جاءت حرب الخليج عندما احتل صدام الكويت في الثاني من شهر آب عام 1990م. كان الرئيس بوش (الاب) قلقاً على السعودية وليس على الكويت. فقد ذكر في لقاء له في كامب ديفيد في اليوم الرابع من شهر آب ان على الولايات المتحدة ان تقوم بعمل عسكري فوري لحماية السعودية من هجوم عراقي محتمل ضدها لذا ارسل وزير دفاعه (دك چيني) إلى السعودية لاقناع العائلة المالكة بالسماح بانتشار القوات البرية الأمريكية على اراضيها واستخدام القواعد الأمريكية المشاركة في عملية عاصفة الصحراء ولكن

الجدير بالملاحظة هو ان القوات المسلحة الأمريكية لم تنسحب بالكامل من الاراضي السعودية بعد انتهاء حرب الخليج وانسحاب العراق من الكويت. فقد استمرت الطائرات الحربية الأمريكية بالتحليق من القواعد العسكرية السعودية لتطبيق عملية فرض حظر الطيران العراقي في الجنوب حتى لا يستطيع النظام العراقي ضرب الثوار الشيعة في البصرة أو اسناد اجتياح جديد للكويت، كما شاركت الطائرات الأمريكية أيضاً في الجهود الدولية لاستمرار فرض العقوبات الاقتصادية على العراق. كما قام الرئيس كلنتون بتقوية التواجد الامريكي في الخليج حيث وسع المنشآت العسكرية هناك وعزز من قابلية القوات الأمريكية في التحرك السريع في المنطقة. كما وسع النفوذ الامريكي في بحر قزوين - المنطقة الغنية بالطاقة والتي تقع إلى الشمال من الخليج الفارسي.

القسم الثالث

لقد ظهرت عدة نتائج من كل ذلك. فلقد سبب فرض العقوبات على العراق معاناة كبيرة للشعب العراقي، في حين حصدت القنابل ارواح المدنيين العراقيين، بينما فشلت أمريكا في ردع العنف الاسرائيلي ضد الفلسطينيين. ان هذه الامور قد حفزت الشباب المسلم للانضمام إلى ابن لادن، من ناحية ثانية فان ابن لادن نفسه يهتم كثيراً بشأن السعودية. فقد ركز جهوده بعد حرب الخليج لتحقيق هدفين وهما طرد الكفار الأمريكان من السعودية والاطاحة بالنظام السعودي الحالي واستبداله بنظام يتناغم اكثر مع معتقداته وأرائه المتطرفة. لقد وضع هذين الهدفين ابن لادن في صراع مباشر مع أمريكا وهذه الحقيقة تفسر الهجمات الارهابية ضد المنشآت والموظفين العسكريين الأمريكان في الشرق الأوسط والرموز الرئيسية للقدرة الأمريكية في نيويورك وواشنطن. لم تبدأ الحرب الحالية في أيلول بل بدأت عام 1993م مع أول هجوم على مركز التجارة العالمي، ثم تبعه الهجوم على منشآت الحرس الوطني في الرياض عام 1995م، وتفجير ابراج الخبر عام 1996م ثم تفجير سفارتي أمريكا في كينيا وتنزانيا عام 1998م ثم الهجوم الاخير على الباخرة الأمريكية (كول).

كل هذه الاحداث قد توافقت مع الاستراتيجية الطويلة الامد لاضعاف التحالف الامريكي السعودي وبالتالي تدمير التحالف المتين الذين اسسه الرئيس روزفلت مع الملك عبد العزيز بن سعود. لقد عملت أمريكا في صراعها مع هذه المحاولات. على حماية نفسها ومواطنيها وقواتها العسكرية من الاعمال الارهابية، وفي نفس الوقت قوت واسندت موقعها الاستراتيجي في الخليج الفارسي. ومع عدم وجود ابن لادن في المعادلة ومعاناة ايران من الاضطرابات السياسية الداخلية وامكان شل حركة صدام حسين بواسطة الضربات الجوية الأمريكية يمكن ضمان الهيمنة الأمريكية على الخليج. ان احد مخاوف واشنطن هو ان النظام الملكي السعودي سيواجه المعارضة

الداخلية المتزايدة بسبب علاقته القوية مع أمريكا ولهذا السبب لم تضغط ادارة بوش كثيراً على النظام للسماح باستخدام القواعد الجوية السعودية لضرب افغانستان وتجميد المؤسسات السعودية المالية المرتبطة بـابن لادن. لذا فان لهذا الصراع ابعاد جغرافية سياسية مهمة لكلا الجانبين. فقد يقوم النظام السعودي الجديد الذي يديره ابن لادن بقطع جميع الروابط مع شركات النفط الأمريكية ويتبنى سياسات جديدة فيما يتعلق بانتاج النفط وتوزيع الثروة النفطية للبلد وهذه السياسات تسبب نتائج سيئة ومدمرة للاقتصاد الأمريكي والعالمي، وبالطبع فان أمريكا تقاتل من اجل منع حدوث ذلك. لم يعترف الرئيس بوش بدور الجغرافية السياسية التقليدية للحرب في السياسة الأمريكية التي اطلقها ضد الارهاب. كما امتنع ابن لادن من التحدث في هذه المواضيع. ولكن تبقى الحقيقة قائمة بأن هذه الحرب - مثل حرب الخليج التي سبقتها - تستمد جذورها من المنافسة الجغرافية السياسية القوية - وفي ظل المحيط السياسي الحالي يكون من الصعب الغور بعمق في هذه القضايا - لقد سبب ابن لادن ومجموعته جرحاً عميقاً لأمريكا في الوقت الذي تعطي فيه أمريكا الاولوية لمنع حدوث هجمات ارهابية اخرى. لذا فان من بين الاسئلة التي ربما تطرح عند هذه المسألة هو هل ان تشجيع الديمقراطية في السعودية يساعد بشكل افضل على خدمة المصالح الأمريكية الطويلة الامد في السعودية؟ بالتأكيد إذا سُمح للمواطنين السعوديين بالمشاركة في الحوار السياسي المفتوح، فان قليل منهم سوف يتجه إلى مبدأ ابن لادن في العنف ومعاداة أمريكا.

قوى دولية جديدة ومصادر تهديد قادمة التهديد الأول الذي أراه، على صعيد العلاقات الدولية، هو اننا لم نعان يوماً التردد والاضطراب اللذين نعانيهما اليوم. فمن وجه، تذهب التقارير والدراسات الى أن عدد الحروب، بين الدول والأهلية على حد سواء، يتناقص، والحال الاقتصادية العامة، في 2005، تتحسن، والدولار لم يصبه الانهيار، على خلاف توقع عام تقريباً. ولكننا، من وجه آخر، أسرى القلق والخوف من أن يؤدي عمل إرهابي كبير الى تدهور الأوضاع جملة وعموماً. فالإرهاب والانتشار النووي خطران قائمان ووشيكان .

وعلى رغم هذا، فالسياسة الأميركية تعود الى نهج جغرافي - سياسي تقليدي، بعد نهج «الحرب على الإرهاب» الذي ولدته هجمات 11 أيلول (سبتمبر). ففي منطق الحرب العامة هذه، أشاحت الولايات المتحدة بنظرها عن المنازعات بين القوى الكبيرة، وافترضت أن جبهة مرصوفة حلت محل المنازعات الجانبية. واليوم، يولي الأميركيون الصين، وعلاقاتهم بها، العناية والاهتمام، شأنهم في علاقاتهم بروسيا. وهم يناقشون مسائل معروفة وقديمة مثل مسألة الموارد الطبيعية أو الطاقة. والترجح بين النهجين، نهج صدارة الحرب على الإرهاب المعمل الأول، ونهج صدارة العلاقة بالصين، يقسم الإدارة الأميركية والمحليين.

وعلى هذا، فمصادر التهديد الجديدة لا تحجب صور التهديد التقليدية، الجغرافية السياسية. وبعض هذه تزييا بزي حرب باردة مع بوتتين، وفي صدد أوكرانيا. ولعل 2005 هي سنة إدراك المخاطر غير السياسية مثل تغير المناخ، والأوبئة، وانفلونزا الطيور، أو مثل الهجرات واضطرابات الضواحي الناجمة عنها. ولا تبدو صيغ الرد على التحديات هذه، جديدها وقديمها، مستوفية شروط الإلمام بها والاقناع. فلا الامبراطورية الأميركية الرؤوفة، ولا تعدد الأقطاب الأوروبي، ولا سلطة القانون الدولي، أجوبة شافية، فالولايات المتحدة في وضع دفاعي، وتعدد الأقطاب الدوليين قد يكون قائماً وسارياً وإنما مع الصين والهند وليس مع أوروبا واليابان على ما كان مأمولاً. ومثالات الدمج (الإدماج) الداخلي تعاني أزمة في الولايات المتحدة (أنظر نيو أورليانز) وفرنسا (الضواحي) وأوروبا عموماً.

ولا شك في أن كوريا الشمالية تملك السلاح النووي. وفي 1945، قدرت التوقعات تسليح نحو 100 دولة بالسلاح النووي في 1980. واحتسب المحللون انفجار قنبلة، مصادفة، في غضون عشرة الى عشرين عاماً. ولم يحدث شيء من هذا. ولكن الخوف من المستقبل يتعاضد. وفي شأن انفلونزا الطيور أو في شأن الإرهاب، يعظم الرعب إمكان أو احتمال الكوارث الآتية. ولا يلجم الرعب أو يكبحه ضالة المفاعيل الحقيقية والمشهودة (وهي ضالة نسبية، طبعاً). وقد يجوز الشك في تشخيص طور جديد، أو نوعي، من الإرهاب. والكلام على إخفاق الإرهاب (في إسقاط أنظمة شرق أوسطية) لا يطعن في حقيقة تهديد ينجم عن حلف التعصب والتكنولوجيا القذرة. ولا يبعد أن يعتمد إرهابيون الى استعمال سلاح غير تقليدي.

فما السبيل الى ترتيب مصادر التهديد وأشكاله؟ فربما تقدمت انفلونزا الطيور، وآثارها، القنبلة الإيرانية. وإذا الفيروس لم يقلب من إصابة الدواجن الى عدوى البشر، فهو، على ما يقدر أهل الاختصاص، قد ينجز انقلابه، ويقضي، تالياً، على عدد كبير من الضحايا. والقنبلة النووية تنتطوي، من غير شك، على خطر انتشار التسليح النووي في الشرق الأوسط، وعلى استعمال عدواني قد يلجأ اليه أحمد بن نجاد ويستهدف به إسرائيل.

ولكن امتلاك إيران القنبلة، على مدى طويل، أكيد على ما أرى. وثمة حظوظ غالبية في انضواء غيران، في ظل حكومة أخرى، تحت منطق الردع المتبادل. والحق أن القنبلة أفضت الى التوازن الهندي - الباكستاني. وتكاد بلدان الجنوب تجمع على ان الولايات المتحدة وأوروبا، وهما تملكان القنبلة الذرية وتريدان حظر امتلاكها على الدول الأخرى، لا تتمتعان بالسلطة ولا بالحق المشروع والقانوني في حظر امتلاكه. والأرجح ان تؤدي العقوبات الاقتصادية، ويؤدي قصف المرافق الإيرانية، الى توحيد السكان على مطلب امتلاك القنبلة. ويشفع بالمطلب هذا ويقويه جوار إيران (روسيا وباكستان وإسرائيل وأميركا في العراق) النووي. وليس تهديد الصين -

تاويان أقل شأنًا. ففي غضون عشرة أعوام يسع الصين اجتياح الجزيرة، فماذا تفعل الولايات المتحدة إذ ذاك؟ هل ترد بحرب أميركية - صينية أم لا؟ فالفحص احتمالي محض في مثل هذه المسائل.

وكلامي على عودة الجغرافية السياسية ينبغي ألا يفهم منه إغفال التغير العميق الذي طرأ على علاقات الدول بعضها ببعض جراء الاتصالات والتهاب الأهواء والخوف والضغينة. والسبب في عجز الولايات المتحدة عن الاضطلاع بدور إمبراطوري هو تملل المجتمع الأميركي، ومبادرته إلى المحاسبة والمراقبة في أعقاب تزايد الخسائر البشرية، وبث صور أبو غريب.

وانتهاج الصين توسعاً اقتصادياً مسالماً إلى اليوم، قد لا يتعدى التزام رأي ينسب إلى دينغ شياو بينغ (صاحب سياسة الإصلاح في 1978) ذهب إلى أن على الصين، في الخمسين سنة الآتية، التحول إلى قوة كبيرة تحترم، وبعدها لكل حادث حديث. وبيت القصد هو «بعدها». ولا ريب في أن قادة الصين يمزجون الرأسمالية والتسلط والقومية معاً. وهذه حال روسيا. فسلطة بوتين تجمع الشدة والفظاظة إلى نهج المافيا، وتداعب الحنين إلى الامبراطورية، وتلوح بالحصار. ويرمي بوتين إلى السيطرة على بلدان الاتحاد السوفياتي سابقاً، والتوسل إلى غايته هذه بسلحي الطاقة والقوة العسكرية.

الجغرافيا السياسية في بحر الخزر

إيران وتطورات الجغرافيا السياسية في بحر الخزر من الأهمية بمكان إدراك حقيقة أن السياسات غير الفاعلة التي اتخذتها بعض الدول مثل الولايات المتحدة الأمريكية في بحر الخزر قد أضرت ضرراً بالغاً بالمصالح القومية الإيرانية. وعلى الرغم من تغير الجغرافيا السياسية للمنطقة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وظهور الجمهوريات المستقلة، فإن انتهاك حقوق إيران في بحر الخزر مازال مستمرًا.

وعلى الرغم من أن الاتحاد السوفيتي السابق قد اعترف رسمياً بمقتضى اتفاقيتي 1921 و1940 بأن بحر الخزر هو بحيرة مشتركة بينه وبين إيران، إلا أنه لم يكن يحترم حقوق إيران في هذا البحر مطلقاً. على سبيل المثال، لم يكن مسموحاً لإيران بالوجود العسكري في بحر الخزر، بل إنها لم تتمكن من القيام بعمليات التنقيب عن النفط واستخراجه من منطقة مازندران. وفي سنة 1921 وقّع الاتحاد السوفيتي مع إيران اتفاقية عرفت بـ "معاهدة الصداقة" وقد ألغت هذه المعاهد مواد معاهدة تركمنشاي التي وقّعت عام 1828 والتي انتهكت فيها أيضاً حقوق إيران، كما تناولت أيضاً حق الملاحة بالنسبة لإيران والاتحاد السوفيتي. وتم أيضاً توقيع معاهدة 1940 بين طهران وموسكو خلال العام الثاني من الحرب العالمية الثانية، وفي هذه المعاهدة تم التأكيد ثانية على حق البلدين في الملاحة في هذا البحر بشكل مشترك.

ومع هذا لم يكن لإيران في تلك الفترة أي نوع من الملاحة في هذا البحر. وتمكن الاتحاد السوفيتي بهذه المعاهدة من وقف المد الإيراني في بحر الخزر كما سيطر على كل المياه الإيرانية عن طريق قواعده البحرية في هذا البحر.

وبعد ذلك بعام أي سنة 1941 احتل الاتحاد السوفيتي إيران وذلك بالتنسيق مع بريطانيا، وقام بنفي رضا شاه، وأعلن الاتحاد السوفيتي رسميًا احتلال أذربيجان الإيرانية، وكانت محافظتي جيلان ومازندران محتلة بالفعل، وبعد الحرب لم يكن الاتحاد السوفيتي مستعدًا لسحب قواته فاتخذت إيران عدة إجراءات خاصة في الأمم المتحدة، وبمساندة الولايات المتحدة أجبرت الاتحاد السوفيتي على الخروج من الأراضي الإيرانية، وأجلت موسكو خروج قواتها من أذربيجان الإيرانية لحين الحصول على امتيازات التنقيب عن نفط الشمال الإيراني. وتوجه قوام السلطنة رئيس الوزراء في ذلك الوقت إلى موسكو، ووعد الاتحاد السوفيتي بالحصول على امتياز التنقيب عن نفط الشمال بشرط موافقة المجلس الوطني الإيراني. وعلى هذا سحب الاتحاد السوفيتي قواته من الأراضي الإيرانية، لكن المجلس الوطني الإيراني لم يوافق على منح امتياز نفط الشمال للاتحاد السوفيتي، بل منحت الحكومة الإيرانية امتياز استخراج النفط الشمالي لشركة أكسيدنتال الأمريكية وذلك في بداية عقد الخمسينيات. واكتشفت هذه الشركة خلال هذه الفترة النفط في نورمازندران، وبدأت عملية الاستخراج، لكن الاتحاد السوفيتي مارس ضغطًا حادًا دون استمرار هذا العمل.

وفي تلك الفترة استزرع الاتحاد السوفيتي في بحر الخزر نوعًا من السمك يدعى "كفال" وهذا النوع ذو قيمة غذائية منخفضة لكنه سريع التناسل. كان هذا النوع يلتهم بيض السمك الأبيض والسلمون الذي كان يشتهر به بحر الخزر، مما أدى إلى اندثار هذين النوعين اللذين كانا يتمتعان بقيمة غذائية عالية جدًا، وضرب الاتحاد السوفيتي عرض الحائط بكل القواعد القانونية، بل لم يستشر إيران في أية إجراءات كان يتخذها بشأن بحر الخزر، كذلك أيضًا عندما تلف خط أنابيب الخزر - باكو وتسربت كميات كبيرة من النفط الخام إلى مياه البحر، لم يلتفت زعماء الاتحاد السوفيتي إلى هذا التلوث الخطير إلا بعد عدة أشهر، ولم يلقوا بالأذى لأي اعتراض إيراني.

وبهذا الشكل بات واضحًا أنه مع انهيار الاتحاد السوفيتي لم تتحرر الدول الأربع روسيا وقزاقستان وتركمانستان وأذربيجان فقط، بل كان هذا الانهيار سببًا في تخلص إيران من اعتداءات تلك الدولة.

ومع تطور النظام الدولي عقب انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، بدأت الولايات المتحدة مساعدتها الواسعة النطاق لبلورة نظام دولي أحادي القطبية.

وفي هذا الصدد اعتبرت الولايات المتحدة أن بحر الخزر يعد أحد أهم منطقتين للطاقة في العالم في القرن الـ 21 وأعطت له أهمية قصوى.

وكانت هذه النظرية الجغرافية السياسية سبباً في إعلاء قيمة موقع بحر الخزر وتنازع الدول المشاطئة له على تقسيم ثرواته. وفي ظل تحول بنية النظام الدولي أحادي القطبية إلى نظام متعدد الأقطاب أكثر توازناً سيصبح من الأهمية بمكان استقرار منطقة بحر الخزر الجديدة كنطاق جغرافي يحظى بمكانة عالمية. ومع انتشار عولمة اقتصاد السوق الحرة، التي صاحبت انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، وظهور دول جديدة في منطقة بحر الخزر، سارعت شركات النفط والغاز الغربية في سباق محموم إلى هذه المنطقة لاستغلال ما فيها من ذهب أسود، وقد عقدت هذه الشركات في حقبة التسعينيات، متجاهلة أنه لا زالت هناك صعوبات قائمة أمام ترسيم الحدود البحرية بين الدول المشاطئة لبحر الخزر، اتفاقيات مع الجمهوريات الناشئة في المنطقة مثل قزاقستان وتركمانستان وأذربيجان، وبدأت عملية التنقيب بمجرد حصولها على الامتياز. على أية حالة، وبالنظر إلى ما قيل، فإن الهدف من هذه الدراسة هو رسم إطار عام لمحددات الجغرافيا السياسية التي لها تأثير على العلاقات الدولية داخل منطقة بحر الخزر وعلى أطرافها، بل وعلى قضية النظام القانوني لهذا البحر، والتي ما زالت تعتبر المحرك الأساسي للعلاقات السياسية في هذه المنطقة.

البعد الجغرافي السياسي:

من زاوية الجغرافيا السياسية تعد منطقة بحر الخزر منطقة شاسعة تمتد من القوقاز في الغرب حتى آسيا الوسطى في الشرق ويقسم بحر الخزر هذه المساحة الشاسعة إلى شطرين، وفي الوقت نفسه يربطهما ببعض.

بعبارة أخرى من الممكن اعتبار القوقاز والخزر وآسيا الوسطى منطقة جغرافيا سياسية خاصة، يطلق عليها اسم "الخزر - آسيا الوسطى". ومن وجهة نظر الولايات المتحدة الأمريكية يعد بحر الخزر أحد منطقتين هامتين بإمكانهما تلبية الطلب العالمي المتزايد بالنسبة للطاقة، ولهذا يجب أن تكون لها سيطرة مؤثرة في تلك المنطقة، والمنطقة الأخرى هي الخليج (الفارسي). وقد دارت أحاديث وتقديرات كثيرة حول الاحتياطي الموجود في بحر الخزر فهناك رأي يقول أن حجم هذا الاحتياطي يبلغ 200 مليار برميل، وهناك رأي آخر يقول أن هذا الاحتياطي يبلغ ما بين 30 إلى 40 مليار برميل، أما الرأي الذي قالت به كثير من الشركات فهو أن هذا الاحتياطي يبلغ 90 مليار برميل، ومع الأخذ في الاعتبار أن الدولتين الإقليميتين في منطقة بحر الخزر - أي روسيا وإيران - تمتلكان أكثر من 70% من احتياطي الغاز الطبيعي على مستوى العالم ادعى البعض أن بحر الخزر يمكن أن يخلق أهمية خاصة لهما في مجال تصدير الغاز، لكن الحقيقة غير ذلك لأن احتياطيات الغاز في كلا البلدين تقع في مناطق بعيدة عن منطقة بحر الخزر. وقد وصف بعض المفكرين الأمريكيين المنطقتين المنتجتين للطاقة، الخليج (الفارسي) وبحر الخزر، بأنهما "مخزن الطاقة الاستراتيجي" وأن إيران تقع في وسطه. ويعتبر البعض الآخر أن هذه المنطقة هي منطقة قلب الأرض "الهارتلاند" الجديدة وأنه سيكون لها تأثير كبير على الجغرافيا السياسية في القرن الـ21. وقد وضع هذا التشخيص الجغرافي السياسي الأمريكي إيران في قلب الهارتلاند الجديدة، وخلق لإيران أهمية جغرافية سياسية عظمى. وكان هذا الموقع الاستثنائي الذي رسمته الولايات المتحدة الأمريكية حساساً وخطيراً لدرجة أنها تسعى للهروب منه. وهناك عامل مهم كان سبباً في تأخر إدراك الولايات المتحدة لمكانة إيران الجغرافية التي لا نظير لها في منطقة بحر الخزر، وهو محاولات تركيا لإقحام نفسها في شئون منطقة الخزر - آسيا الوسطى عن طريق عزل خصم جغرافي عنيد مثل إيران، وذلك من خلال دعم علاقاتها مع الولايات المتحدة وإسرائيل، وتكوين تحالف معادٍ يضم كل من جمهوريات آسيا الوسطى، وعلى مدى ما يقرب من عقد من الزمان ألقت التهديدات الاستراتيجية الإقليمية من جانب الولايات المتحدة بظلالها على المنطقة، وهذه التهديدات من شأنها أن تزيد الإحساس بالاضطراب في المنطقة، ومع هذا حالت فطنة طهران دون وقوع هذه التهديدات، وعلاوة على عمليات التنقيب المحدودة، حيث كونت إيران مع روسيا

وأذربيجان شركتين للتنقيب عن البترول في بحر الخزر سنة 1995، فإن قيام تعاون قوي بين إيران وأذربيجان في بحر الخزر هو نتيجة طبيعية للعلاقات التاريخية والثقافية بين البلدين وهو نتيجة حتمية للجوار الجغرافي بين البلدين. إلى جانب ذلك، فإن الاشتراك في مشروعات مائية على نهر أرس الذي يقع على الحدود بين البلدين يمكن أن يدعم من هذا التعاون. على أية حال، من وجهة نظر الجغرافيا السياسية، لابد من قيام تعاون بين إيران وأذربيجان والاستفادة من العلاقات التاريخية والثقافية والدينية والجغرافية والثروات والأنشطة الاقتصادية المشتركة بينهما. فمصلحة البلدين تتطلب التعاون والتقارب بينهما.

من روسيا إلى العراق.. جغرافيا سياسية جديدة بعد طول سنين، توقف الجغرافيون أخيرا عن مناقشة تلك النظرية التي سادت أروقة البحث منذ العام 1943 والمعروفة باسم نظرية قلب الأرض Heartland. وفي هذه النظرية يفترض الجغرافي البريطاني ماكيندر بعد وزنه للقوى الإستراتيجية عبر التاريخ أن الصراع بين القوى البرية والبحرية لا بد أن ينتهي بالسيطرة على روسيا التي تجسد قلب العالم، ومن يمسك بهذا القلب فقد تحكم في نبضات الأرض وتدفق دماءها.

صحيح أن انهيار الاتحاد السوفياتي في العام 1991 كتب نصف النهاية لنظرية قلب الأرض وما شابها من تحليلات جيواستراتيجية، إلا أن توسع حلف الناتو في السنوات الخمس الفائتة وخططه للسنوات الخمس المقبلة لم يكتب بقية النهاية فحسب، بل نقل الشرق الأوسط وجنوب آسيا من منطقة ارتطام بين القوى البرية والبحرية إلى منطقة قلب جديدة يقول واقعها إن من يسيطر على الشرق الأوسط "الكبير" يتحكم في قلب العالم ومن ثم في نبضاته الأيديولوجية وتدفق نفطه وثرواته.

ولأن غياب العدو أشد خطرا على طموحات الإمبريالية من وجوده، فإن العثور على العدو -أو حتى اختراعه- كان حتميا ليخرج الناتو من ارتباك الأهداف التي حددها لنفسها وأدهشت المراقبين لتاريخ الحلف، كتوفير الأمن للأولمبياد الرياضية وحماية مراسم وفعاليات كأس العالم لكرة القدم، بالإضافة إلى أهداف أخرى كدعم الديمقراطية في الدول الصديقة من كوسوفو إلى كابل.

بل إن الحلف شغل نفسه -مع اختفاء العدو- بقضايا كان ينشغل بها البوليس الدولي، كمحاربة عصابات تهريب المخدرات والجريمة المنظمة، غير أن الناتو سرعان ما استفاد من تداعيات أحداث سبتمبر/ أيلول 2001 وألبس جلباب إمبراطورية الشر السوفياتية لكائن هلامي يمتد من الفلبين في الشرق إلى سواحل الأطلسي في الغرب.

ورغم اختلاف الملابسات تعيش روسيا والعالم العربي في مأزق تاريخي أمام التوسع المتوالي لحلف الناتو بدرجة لا تهدد الأمن القومي لكلا الإقليمين فحسب، بل وتنبئ بنذر تخشى عقباها كالانكماش والحصار والتفكك.

روسيا لن تشتبك مع الناتو

في مطلع أبريل/ نيسان الجاري احتفلت سبع دول بدخول معسكر الناتو، أربع منها في جنوب وجنوب شرق أوروبا هي سلوفينيا وسلوفاكيا وبلغاريا ورومانيا، وثلاث منها على الحدود الروسية على بحر البلطيق هي أستونيا وليتوانيا ولاتفيا.

وبعد مسلسل من اتهام أستونيا وليتوانيا موسكو بالتجسس طردت الدولتان اثنين من الدبلوماسيين الروس. وقبل أن تنسى القضية كانت طائرات أو اكس التجسس التابعة للناتو تحط في العاصمة الليتوانية في مارس/ آذار الماضي قبل أن ترد مقاتلات السوخوي الروسية ذات القدرة الاستطلاعية بالتحليق في المنطقة الحدودية لتلاحم الناتو مع روسيا. ولم يمض الأمر دون توعده من موسكو بدعم قدراتها العسكرية في قاعدة كاليينغراد الواقعة وراء خطوط الناتو.

واكتملت الأجواء سخونة بمناقشة أعضاء في مجلس الدوما احتمال قيام روسيا بخطوتين رئيسيتين ردا على توسع الحلف على الحدود الروسية:

1. عدم الالتزام بمعاهدة الحد من الأسلحة التقليدية وتكديس قدر مناسب من الأسلحة على خط التماس مع حدود حلف الناتو الجديدة (أستونيا ولاتفيا وليتوانيا).

2. زيادة القدرات النووية الروسية دون الالتزام بمعاهدات سابقة لتدمير هذه الأسلحة، أو تطوير قدرات نووية تعوض توسيع الناتو.

ورغم ذلك لا يتوقع الباحثون أن تتطور الأزمة إلى اشتباك بين روسيا والناتو على جبهة بحر البلطيق، رغم خطورة اختراق طائرات الناتو التجسس لمساحات واسعة في قلب روسيا الغربية مدعومة بمحطات رادار تتجسس لمئات الكيلومترات في العمق.

ورغم هذا لا يمكن إنكار قدر من القناعة الروسية بأن وجود الناتو في أفغانستان خلص موسكو من نظام شكل لها قلقا في أواخر التسعينيات وخاصة علاقته بالحركة الأصولية في الشيشان وتهديده بتصدير فكرة الحكم الإسلامي إلى دول آسيا الوسطى ومنها إلى قلاقل في الجمهوريات الإسلامية بروسيا. ولعل هذا ما يضطر موسكو لأن توافق على طلب الناتو السماح له بتمرير إمداداته العسكرية إلى أفغانستان عبر الأراضي الروسية.

ومن زاوية أخرى تستعد الصين لتدابير أكثر حسما من الموقف الروسي باقتراب خطى الناتو من آسيا الوسطى ومنها إلى الأقلية الإسلامية في التركستان الشرقية بغرب الصين ذات المطالب الانفصالية وشكوى حقوق الإنسان.

أما توسع الناتو على سواحل البحر الأسود (بضم رومانيا وبلغاريا والتحضير لضم أوكرانيا) والتمهيد لضم جورجيا وأذربيجان في القوقاز فيحقق -دون ضجة-

تبيدا لأحلام استعادة دور إيراني في القوقاز وآسيا الوسطى، بل مزيدا من دعم النموذج التركي لدى حكومات الإقليمين.

ورغم أن الناتو قد حقق بحصار روسيا من الغرب والشمال الغربي والجنوب ما لم يكن يحلم به، إلا أن منظري الناتو لم يتوقعوا ليستمتعوا بالنصر، بل سرعان ما نادوا "الخطر الأكبر لن يأتي من الشرق (روسيا)، الخطر آت من الجنوب، الشرق الأوسط وأفغانستان".

وكان الشرق الأوسط و جنوب آسيا يعرفان في أدبيات الجغرافيا السياسية كإقليم جيوسياسي تنكسر عليه مطامع القوى الجيوإستراتيجية البرية (الاتحاد السوفياتي) والبحرية (أوروبا والولايات المتحدة). أما الآن فقد تغير المفهوم والمصطلح وأصبح الإقليم -الذي يصنف الآن ضمن الشرق الأوسط الكبير- الوجهة الأولى لتوسيع ثياب الناتو نحو الجنوب والشرق.

العراق.. البوابة العربية

لم يعد الناتو -المتفهم جيدا لمشاغل انكفاء موسكو على قضاياها الداخلية- مهتما بمماحكة روسيا. بل يمضي الانشغال الآن لتدعيم الجسر الأرضي إلى تركيا ومنها إلى العراق، بعد أن شكلت هذا الجسر سلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا المنضمة حديثا إلى الناتو.

وسيصبح من السهل مد جسور برية وجوية وبحرية من العراق إلى القواعد الأميركية في الخليج، دون حاجة لتذكير سوريا وإيران والسعودية بالمسافات الجغرافية القريبة والتقنية البعيدة بين الحلف وبينها. وليس من الضروري أن يزحف الحلف على بقية دول المشرق العربي كالأردن ولبنان وفلسطين، فلهذه المواقع مشاغل ومشاكل تزيد تكلفتها عن العائد من ورائها، وتتكفل بجزء معتبر منها دولة الاحتلال الإسرائيلي.

وتسهم الدول المنضمة حديثا للناتو في تفرقة الدم على القبائل، فهناك بالفعل قوات بولندية مدعومة من الناتو في العراق، كما ستسهم قوات رمزية من كل من أستونيا ولاتفيا وليتوانيا وسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا في مناطق مختلفة من العراق. ومع زيادة الأعضاء في الناتو تزداد قناعة قيادة الناتو بأن اعتراض دول مثل فرنسا أو ألمانيا أو حتى انسحاب إسبانيا لن ينظر إليه كأكثر من اعتراض "أقلية" أمام أغلبية مضمون صوتها من الدول حديثة الانضمام التي ستزيد عددا من 26 إلى 31 قريبا.

كما أعفى هذا التوسع الحلف من الاستمرار في عقد صفقات لضمان تحليق طائراته فوق دول شرق أوروبا وانتظار موافقة مؤسساتها السياسية الداخلية، الآن

يمكن للناتو التحليق دون انقطاع من المحيط الأطلسي في الغرب وحتى بحر قزوين في الشرق، ومن بحر البلطيق في الشمال وحتى البحر العربي في الجنوب. وفي مثل هذا الشهر من العام الماضي (20 أبريل/ نيسان 2003) سربت وسائل الإعلام الأميركية خطة للبتاغون بزرع أربع قواعد عسكرية في العراق في كل من باشور في الشمال الكردي وبغداد والناصرية، وفي غرب العراق محل قواعد عراقية قديمة.

ولأن موقف واشنطن في أبريل/ نيسان 2003 غير ما هو عليه في أبريل/ نيسان 2004 فقد تم البحث عن قناع قانوني بإقامة قواعد للناتو في العراق هدفها المعلن:

- 1- تدريب القوات المسلحة العراقية للحفاظ على الأمن الداخلي وحسن الجوار، إضافة إلى مراقبة مناطق التوتر وحفظ حقوق الأقليات، ولكن مع تخطي إشكالية خلق جيش عراقي ضعيف لا يهدد إسرائيل ودول الخليج، وفي الوقت نفسه لا يؤدي ضعفه إلى اختلال في موازين القوى مع إيران.
- 2- تدعيم الديمقراطية وحقوق الإنسان وأداء الواجبات "الأخلاقية"، وفي ذلك يبشر وزير خارجية رومانيا العراقيين في حفل انضمام بلاده للناتو بالقول "يمكنني أن أتحدث باسم بلادي وباسم كل زملائي الذين نراهم هنا من دول عانت من دكتاتورية مشتركة، ليس فقط عن الضرورة الإستراتيجية لإرساء الاستقرار في العراق، بل أيضا عن الواجب الأخلاقي في مساعدة دولة عانت من دكتاتورية مشابهة أو ربما أسوأ".

ولم يتردد بعض الصحفيين ذوي النفوذ -كتوماس فريدمان- باقتراح استغلال المخزون العددي لدول عربية كبرى مثل مصر في إمداد الناتو بقوات تعوض العجز في أعدادها والاستفادة من المرجعية الإسلامية والعربية للقوات المصرية للتدخل في مناطق النزاع الشرق أوسطية في العراق والسودان والجزائر والصحراء الغربية والخليج. والنتيجة في هذه الحالة مزدوجة، امتصاص كراهية سكان مناطق الشرق الأوسط للوجوه الحمراء والبيضاء الأوروبية والأميركية، وفي الوقت نفسه تغذية كراهية مقابلة لجنود عرب ومسلمين.

بين الموقضين

بين الموقضين الروسي والعربي لا تخطئ العين أن حصار روسيا بدول الناتو يخنق كل إمكانيات تمددها الجيوسياسي ويغلق الباب أمام أي توسع خارجي إستراتيجيا كان أم اقتصاديا، وهو ما قد تكون له نتائج إيجابية غير مباشرة بتدشين مشاريع الإصلاح الداخلي تحينا لفرصة أفضل ولو بعد عقود.

أما الدول العربية المرشحة لوجود قواعد الناتو بها رغما عنها (كالعراق والسودان) أو بارادتها (كليبيا) فيكرس الأمر قضاء على أحلام الحراك السياسي المفترض أن يفضي إلى ولوج توجهات قومية أو دينية إلى السلطة، والنتيجة عقود جديدة من معاهدات "القواعد" العسكرية الشكل المعدل للإمبريالية من دون احتلال. وليس من المأمول حدوث شيء ذي قيمة من قبل المتعاطفين مع القضايا العربية كفرنسا وألمانيا. وفي ذلك يعترف المحلل السياسي أندريس رينكى فى صحيفة "هاندلسبلات" الألمانية مطلع أبريل/ نيسان الجارى بأن بلاده وفرنسا لا تظهران عدم رضاها عن سياسة الولايات المتحدة باحتكار التغيير فى العراق نقداً لأنانية الولايات المتحدة بقدر ما يعكس أنانية مشابهة لهذه الدول التي تشاكس بسبب انكماش مصالحها.

وقبل البحث عن مخططات بديلة لمواجهة الناتو فى العالم العربي لا بد من حل شفرة موقف دول الخليج العربية التى يصعب تخيل تفكيك القواعد الأميركية بها فى ظل المعطيات الحالية، توتر المنطقة، همة الإدارة الأميركية وعزمها، مفاهيم مائعة تشرع لوجود القواعد العسكرية خطأ بين كبائر المحظورات ورخص الضرورات وفضائل التجديد.

كما أن الدول العربية المتوسطة المتطلعة للتعاون مع الناتو عليها أن تتخطى الشعارات الخادعة التى يروج لها الناتو من تعاونه معها، التى يؤكد فيها أن هدفه دعم حرية الإعلام والتعاون المعلوماتي والإنقاذ البحري، وحماية البيئة، ودعم الاكتشافات العلمية.

وإذا كان الأمين العام الأسبق لحلف الناتو اللورد روبرتسون قد صرح حين خروجه من منصبه "لو لم نذهب إلى أفغانستان لأتت أفغانستان حاملة مشاكلها إلى بيوتنا" علينا أن نسأل إذن هل من الحتمي أن يرحب العالم العربي بالناتو؟ واضح أن للعراق كلمة أخرى يقولها الآن.. بدماء أبنائه.

قضايا فى الجغرافيا السياسية للشرق الأوسط هل هناك ثمة إمكانية للتوصل لتسوية سياسية للصراع بين إسرائيل والعالم العربي؟

صدر مؤخراً عن وزارة الدفاع الإسرائيلية كتاب جديد للإجابة على هذا السؤال، وقد أثار هذا الكتاب اهتماماً كبيراً فى الأوساط السياسية والأمنية ولدى النخب بشكل عام فى تل أبيب. وعلى الرغم من أن كتاب "قضايا فى الجغرافيا السياسية للشرق الأوسط"، لمؤلفه خبير الديموغرافيا الإسرائيلي البرفسور أرنون سوفير حاول إضفاء مسحة من المعالجة المهنية الأكاديمية فى إجابته على هذا السؤال، فإن الإطار العام والجوهري لهذه المعالجة عنصري بامتياز، ولا يمت للحقائق بصلة تذكر. وعلى الرغم من أن عنوان الكتاب يوحي لأول وهلة أنه يتناول الجغرافيا السياسية للمنطقة من خلال عرض أكاديمي خالص ومحيد، إلا أنه يحاول

من مقدمته إلى آخر صفحة فيه أن يقدم مسوغات لدعم أيدلوجيا اليمين الصهيوني المتطرف التي تؤكد أن البون الحضاري الشاسع بين العالم العربي الذي يمثل "التخلف والدونية"، وإسرائيل التي تمثل "الحضارة" الغربية، لا يسمح ابتداء بالتوصل لمثل هذه التسوية. وأهمية الكتاب على الرغم من حججه الواهية والمتداعية، تتمثل ليس فقط في تبني وزارة الدفاع الإسرائيلية إصداره، بل إن هذا الكتاب أعد بعد الاتفاق بين سوفيرو وزارة الدفاع ليكون مرشداً لقيادة الأجهزة الأمنية والاستخبارية والمراكز المسؤولة عن تقديم التقديرات الإستراتيجية في المؤسسة العسكرية الإسرائيلية حول العالم العربي.

في البداية حرص المؤلف على التأكيد على أن السمات العامة لمنطقة " الشرق الأوسط " تتمثل في أنه " منطقة صحراوية، موطن للقومية العربية، والإسلام، والنفط، وأنه يقع على مفترق طرق "، وهذه السمات كما يرى سوفيرو مقومات أساسية للتخلف، دون أن يستفيض كثيراً في تقديم المسوغات لتبرير هذا الحكم. في نفس الوقت، فإن الكتاب يقوم على افتراض أن الإسلام "مصدر خطر لسلامة العالم"، دون أن يقدم تعريفاً للإسلام، يتم من خلاله تفكيك هذا التعريف لمناقشة هذا الحكم الذي يدل على جهل صاحبه وعدائه المطلق للإسلام.

ويفطن سوفيرو فجأة إلى المشكلة التي وقع فيها من خلال ربط سمات " الشرق الأوسط " بالتخلف، لأنه يدرك أن ثمة مناطق كثيرة تتقاطع مع هذه المنطقة في كثير من السمات التي أشار إليها، فحاول أن يوجد فروقا بين المسلمين العرب في العالم العربي، الذي يطلق عليه " الشرق الأوسط "، والمسلمين في مناطق أخرى تتشابه في ظروفها الجغرافية والمناخية مع العالم العربي مثل إيران وأفغانستان وباكستان. وحسب منطق سوفيرو، فإنه نظراً لأن الإسلام تعرض لتأثير ديانا أخرى في هذه البلدان، فإن المسلمين هناك هم أقل خطورة من المسلمين في " الشرق الأوسط "، مع العلم أنه حسب المنطق الغربي، فإن هذه المناطق انطلقت منها الجماعات الإسلامية التي تمثل مصدراً كبيراً للخطر على العالم الغربي. ويشير سوفيرو إلى أن النفط الذي كان من المفترض أن يكون مصدراً للتقدم والازدهار أصبح " لعنة " لأنه دفع العرب للاتكال والعجز عن مجارة الشعوب في مجال الإبداع والتقدم، في حين تستثمر عوائد النفط في الإنفاق على شراء الأسلحة التي لا تستخدم، وتصدأ في مخازنها. ويجزم سوفيرو في كتابه أن الشرق الأوسط "الإسلامي والعربي " يرفض الاندماج في تيارات العولمة لأنه ليس لديه ما يضيفه بالنسبة لها، فهذا الشرق بالنسبة للمؤلف هو مركز للتطرف والإرهاب، وتخلو أجندته من الجدل حول قضايا المجتمع المدني وقضايا المرأة وغيرها.

وفي لهجة استعلائية يقول المؤلف: " إن اتفاق القوى الاستعمارية والذي قاد إلى نشوء الدول العربية لا يساوي المداد الذي كتب به ". وفي المقابل يصور سوفيرو

إسرائيل بأنها جزيرة من الاستقرار والتقدم الصناعي والتقني في هذا البحر المتلاطم من التخلف والانغلاق.

المؤلف استند في بعض أحكامه إلى سلوك النظام العربي الرسمي، والتي لا خلاف على دورها في تراجع أوضاع العالم العربي على مختلف الأصعدة، والتي من الصعب دحضها، لكن في المقابل، فإن المؤلف المدفوع بآرائه اليمينية المتطرفة تجاهل الكثير من الحقائق لإضفاء صدقية على آرائه، فهو تجاهل الفروق والاختلافات بين أقاليم العالم العربي، فلا يمكن النظر للتطور الثقافي في المغرب العربي مثلاً، كما ينظر لهذا التطور في مناطق أخرى.

كل ذلك ليصل المؤلف في النتيجة إلى استنتاج هام وأساسي وهو أنه في ظل أوضاع الشرق الأوسط (العالم العربي)، وسماته العامة، فإنه لا يوجد لإسرائيل شريك ممكن في عملية التسوية السياسية للصراع مع العالم العربي، وبالتالي فهو يرى أنه يتوجب على إسرائيل مواصلة امتشاق سيفها للذود عن بقائها.

ومن الأمور ذات الدلالة أن يعد هذا الكتاب ليكون مرشداً لقيادات الأجهزة الأمنية والاستخبارية في إسرائيل لمساعدتهم في بلورة تصورات حول العالم العربي!!

الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر / الاقتصاد العالمي، الدولة القومية الكتاب:
الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر / الاقتصاد العالمي، الدولة القومية
الكاتب: بيتر تيلو - كولن فاننت

الناشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون - الكويت / سلسلة عالم المعرفة / رقم 282
بدأت الدراسات في حقل الجغرافيا السياسية في العام 1897 على يد الباحث الألماني دانزل، ولكنها أهملت تماماً بعد أن ساء صيتها نتيجة للتوظيف النازي لها، ولم تعد إلى دائرة الضوء إلا منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين، لتصبح واحدة من الحقول الواعدة في محاولة فهم عمليات وآليات التحول السياسي على المستوى الدولي، من خلال بحث العلاقات القائمة بين الحقائق المكانية والعمليات السياسية، أو بعبارة أخرى: دراسة الخصائص المكانية للعمليات السياسية.

لقد حملت السنوات القليلة الماضية عدداً من التغيرات الدرامية على صعيد المعترك السياسي، فلقد ظهرت دول جديدة على الساحة الدولية كما استمر التقسيم الجغرافي لعقد التسعينيات من القرن العشرين في التحول.

ويحاول هذا الكتاب الربط بين هذه العمليات الكونية والخبرة اليومية، كما يحاول تحقيق التكامل بين السياسات المتباينة المنتشرة عبر الدور الجغرافية لكي يزودنا من خلال هذه المحاولة بمقدمة ضرورية لفهم تنامي ظاهرة العولمة ومدى تأثيرها.

ومن خلال وضع التغيرات العالمية في سياق نظري يستند إلى منظور نهج تحليل النظم العالمية، يحاول هذا الكتاب جعل هذه التغيرات أكثر قابلية للفهم ضمن الإطار العام للتاريخ وللنمط الجغرافي للتطور السياسي للعالم. هذا الإصدار هو الجزء الأول وقد ضم أربعة فصول عناوينها على التوالي: منهج (النظم العالمية) في تحليل الجغرافيا السياسية - الجيوبولوتيكازدهر من جديد - جغرافيا الإمبريالية - الدول الإقليمية.

المراجع

- Proctor, Pat, “war without violence: leveraging the arab spring to win the war on terrorism” ، Journal of Strategic Security, Volume 5 Issue 2 2012, pp. 47-64.
- 2- Alexander, Yonah, Special Update Report, “Terrorism in North, West & Central Africa: From 119 to The Arab Spring”, the International Center for Terrorism Studies (ICTS), January, 2012.
- 3- Shields, Nathan E, “Unrest in The ME: Potential Implications for International Terrorism and Counterterrorism Policy”, Global Security Studies, Spring 2012, Volume 3, Issue 2.
- 4- Anaraki, Nahid Kalbasi, “Corruption and Terrorism: Will they Undermine the Arab Spring ”, in 2012 Index of Economic Freedom.
- Birrer Frans ، Hybridisation in R&D and Its Consequences For Quality Control: What are the Real Challenges ?paper present at the

ESA Conference(will Europe Work) Amsterdam,18-21 August ‘ 1999,email -birrer@rulwinw.leidenuniv.nl

- Brown Eric, Interdisciplinary Research:A student Perspective, Journal of Chemical Education ‘ Vol. 79, No.1, January, 2002.
- Cairns John, Ethics in Science and Environmental Politics: Issues For interdisciplinary teams, ESEP, Published November 12, 2001 E-mail: jcairns@vt.edu
- Choo C. & Bontis N., Strategic Management of Intellectual Capital Organizational Knowledge.<http://choo.fi.utoonto.ca/oup/>
- CIRET,A New Vision of the Word: Transdisciplinarity, <<http://perso.club-internet.fr/nicol/ciret/>
- Costa Delanise ‘A Return to Philosophical Principles Society for Information Technology & Teacher Education,11th international conference:dccosta@sun.com.br
- Encyclopedia of World Problems and Human Potential <http://www.uia.org/uiapubs/pubency.htm>
- Encyclopedia of World Problems and Human Potential,Comments to union of international associations at: transdis@uia.b
- Fuller S., Social Epistemology. Bloomington: Indiana University Press. [Explicitly treats disciplinary boundaries as an obstacle to scientific communication, 1988.
- Fuller Steven ‘Strategies of Knowledge Integration ‘in M. K, Tolba (ed)our fragile world:Challenges Opportunities for Sustainable Development(EOLSS publishers for UNESCO)Oxford,2001,
- Gibbons M.; Limoges, C.; Nowotny, H; Schwartzman, S.; Scott, P.; Trow, M) The New Production of Knowledge. London: Sage. [Highly influential in European science policy circles, especially in making universities more permeable by extramural interests,1994.
- Gibbons Michael ‘Innovation and the Developing System of Knowledge Production ‘paper derives from research carried out in mode2 by Gibbons, Nowotny ‘Limoges ‘Schwartzman ‘Scott & Trrow: published as The New Production of Knowledge:The Dynamics of Science and Research in Contemporary Societies ‘sage london,1994.

- Havel Iavan ' Longing For Unified Knowledge ' CTS Prague
<http://WWW.Cts.cuni/egi-bin/toKEYB.52.En/reports/1947/cts.97.04.html>
- Huff Anne, Changes In Organizational Knowledge Production, Academy of Management Review, Vol.25 'No.22000 '.
- International Symposium on Transdisciplinarity: TRANSDISCIPLINARITY: Towards Integrative Process and Integrated Knowledge, 1998.
- International Center for Transdisciplinary Research
<http://perso.club-internet.fr/nicol/ciret/> - last modified August 25, 1999
- Jantsch, Erich. "Towards Interdisciplinarity and Transdisciplinarity in Education and Innovation." In Interdisciplinarity: Problems of Teaching and Research in Universities, pp. 97-121. Paris: Organization for Economic Cooperation and Development, 1972.
- Judge Anthony, Development of Transdisciplinary Conceptual Aids Simple Techniques for Education 'Research, Pre-ris Management and Program Administration, UIA study paper, Union of International Associations, May 1970, (<http://www.uia.org/>).
- Judge Anthony, Reflection on Organization of Transdisciplinary Conference: Challenges for the Future, union of international association(<http://www.uia.org/>)
- Kessker Daniel, Transdisciplinary Approach to Pediatric undernutrition ' The American Academy of Pediatrics 1999 '.
- Klein Julie 'Notes Toward A Social Epistemology of Transdisciplinary Center International de Recherches et Etudes Transdisciplinaires. <http://perso.club-internet.fr/nicol/ciret/> - mis à jour le 10 février 1998.
- Klein Julie 'Unity of Knowledge and Transdisciplinarity: Contexts of Definition ' Theory and The New Discourse of Problem Solving Interdisciplinary Studies Program 'Wayne University, Detroit, Michigan. / New Directions Initiative. Unity of Knowledge and Transdisciplinarity. Htm
- Klein Julie, Interdisciplinary :History Theory and Practice, Wayne state University Press ' Detroit 1990.
- Klein, J., Grossenbacher-Mansuy, W., Hüberli, R., Bill, A., Scholz, R.W. en Welti, M. (eds.)) Transdisciplinarity: Joint Problem-Solving

among science, technology and society. An effective way of managing complexity. Basel: Birkhauser Verlag(2001,.

- Lauria Rita, in book review:Utopian Entrepreneur ‘by Laurel B.,Cambridge,MA and London:MIT press,2001
- Migliore Marg, Post-Seminar Report, October Seminar Highlights, The 11SGP Canon, Vol. 1, Number 2, October 1998.
- Nicolescu Basarab, The Transdisciplinary Evolution of the University Condition For Sustainable Development, Talk at the International Congress(Universities Responsibilities to Society) International Association of Universities ‘ Chulalongkorn to university ‘ Bangkok, Thailand ‘ November,1997.
- Nordheim Stig ‘ Information Systems as Interdisciplinarity: A useful perspective on IS competence ? Stig.Nordheim@hia.no [http:// home.hia.no/stign/](http://home.hia.no/stign/)
- Nowotny H., Scott P. ‘ and Gibbons M., Re-Thinking Science. Cambridge ‘UK. 2001.
- Perrig Chiello, P., Höpflinger, F. & Perren, S., Transdisciplinary research on ageing: Theory and practice. In: R. Hberli et al., Transdisciplinarity 2000 Conference.
- Seipl Michael ‘ Interdisciplinarity: An Introduction, <http://www2.Truman-edu/Jins343/interdisciplinarity.pdf>,
- The International Transdisciplinary Conference in Zurich February 27-March1,2000
- Tolson Mika, 2002 Symposium: Past Present & Future of Toxic Substances in the Environment,4C System wide Toxic Substances Research and Teaching Program ‘ TSR&TP Webmaster, <http://www.Tsrtip.ucdavis-edu/newsletters/winter-spring-2002/symp2002-html>
- Wear David, Challenges to Interdisciplinary Discourse, USDA Forest Service Southern Research station, Ecosystems, U.S.A., 1999.
- Wplfenden Johan,A Transdisciplinary Approach to Integrated Resource Management:A Pragmatic Application of Ecological Economics ‘Center For Economics & Water Policy Research: jwolfend@metz.une.edu.au
- umwelt-spp@psychologie.uni-freiburg.de<umwelt-spp@psychologie.uni-freiburg.de>

- (WWW.rgs.org)
- (http://WWW.metanexus.net)
- www.uia-:org/homeknow.htm

- ناهض حتر، سوريا كنموذج قيد الاختبار، الامبريالية وحرب ما بعد الحداثة:
http://www.al-akhbar.com/node/166852
- كمال حبيب، مصادر الإرهاب في مصر، دراسة غير منشورة.
- معجم علم السياسة والمؤسسات السياسية/ بيار بيرنبوم
- رودلف كيلن R. Kiellen، سويدي الجنسية (1864 - 1946).
- كارل هوسهوفر (1869 - 1946) مؤسس الجيوبولتيكا الألمانية، وأسهم في تأسيس معهد ميونخ للجيوبولتيكا، ومجلة السياسة عام 1924.
- يعود إستراتيجية في الأصل في الأصل إلى الكلمة اليونانية Strategos، ومعناها فن قيادة الجيوش، غير أن اللفظ تطور مع تطور الزمن فعرّفها ليدل هارت بأنها فن توزيع واستخدام مختلف الوسائل العسكرية لتحقيق أهداف سياسية. وعرّفها كل من لويس بلتير Louis Peltier، وايتزل بيرسي Etzel Percy، بأنها الاستخدام العلمي لطاقة القوى المتاحة للقائد في تحقيق أهداف عسكرية أو أهداف سياسية بالطرق العسكرية.
- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة
- الجامعة الاردنية
- الموسوعة الجغرافية المصغرة..
- بول كينيدي / الاتحاد
- مايكل كلار/ موقع الحرمين
- بيبير هاسنير / SyriaNobles
- د. بيروز مجتهد زاده / صحيفة إطلاعات
- عاطف معتمد عبد الحميد / الجزيرة الفضائية
- أرنون سوفير/ موقع الاسلام اليوم
- شبكة النبا المعلوماتية